



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة - 01-

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار



العلاقات بين الخلافة العثمانية وبلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني 1876-1909

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف:

أ. د. علي أجقو

إعداد الطالبة:

شرفة فريدة

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
صالح لميش	أستاذ	جامعة محمد بوضياف المسيلة	رئيسا
علي أجقو	أستاذ	جامعة محمد خيضر بسكرة	مشرفا ومقررا
حماميد حسينة	أستاذ	جامعة الحاج لخضر باتنة - 1-	عضوا مناقشا
قريبي سليمان	أستاذ محاضر أ	جامعة الحاج لخضر باتنة - 1-	عضوا مناقشا
غيلاني السبتي	أستاذ محاضر أ	جامعة الحاج لخضر باتنة - 1-	عضوا مناقشا
ثامر عبد الرؤوف	أستاذ محاضر أ	جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2015/2016

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح والدي و والدي

إلى إخوتي وأخواتي

إلى زوجي و أبنائي

إلى كل أفراد عائلتي كبيرا و صغيرا

إلى كل من مد لي يد العون في إنجاز هذا البحث و لو بكلمة طيبة

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر و عرفان

أحمد المولى العلي القدير على توفيقه و عونه لي في إنجاز هذه المذكرة.
أتقدم بخالص الشكر و التقدير لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور آجقو علي الذي
تفضل بالإشراف على هذا البحث و قدم لي يد العون و المساندة، و على جهده
و نصائحه القيمة طيلة فترة البحث.
كما أتقدم بالشكر الخالص و الخاص لأعضاء لجنة المناقشة الموقرة الذين تحملوا متاعب
قراءة هذه الرسالة و تقييمها ثم مناقشتها.

مقدمة

ضمت الخلافة العثمانية بلاد الشام خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، فوحدت كيانها السياسي المتفرد، و وضعت حاميات للدفاع عنها ولنشر الأمن فيها، ثم تركت الأمور للقوى المحلية القادرة على تحمل أعباء الحكم و الإدارة.

تعرضت بلاد الشام أثناء فترة حكم السلطان محمود الثاني للغزو المصري بقيادة محمد علي باشا و ابنه ابراهيم باشا إلى أن أصبح يهدد حتى عاصمة الخلافة، و لما فشلت هذه الأخيرة في مواجهة أطماع محمد علي التوسعية تدخلت الدول الأوروبية و على رأسها بريطانيا حفاظا على مصالحها في المنطقة.

مع مطلع الثلاثينات من القرن التاسع عشر ظهر تيار جديد في الدولة العثمانية يدعو إلى ضرورة اصلاح أجهزة الدولة وولاياتها فأصدرت في عهد عبد الحميد الأول سلسلة من التنظيمات بداية بخط شريف كلخانة عام 1839 و انتهت بدستور مدحت باشا 1876. و لقد أقرت هذه التنظيمات حقوق الطوائف غير الاسلامية و مصالحها و أكدت على مبدأ المساواة القانونية و المدنية لكافة رعايا الدولة و حقهم في خدماتها و السماح للأجانب بحق التملك في الدولة العثمانية، و لذلك ساندت الدول الأوروبية هذه التنظيمات لأنها ستفتح لها مجالا واسعا لتحقيق أهدافها السياسية و الإقتصادية و التبشيرية فأصبحت هذه الأقليات لا تبدي ولائها للدولة العثمانية و صارت تتطلع للدول الأجنبية.

أدى ضعف الخلافة العثمانية إلى تسلل القوى الاستعمارية الأوروبية المتنافسة و التي كانت قد تحصلت على امتيازات دينية و ثقافية و اقتصادية و سياسة إلى بلاد الشام تحت غطاء حماية رعاياه المسيحيين خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي وجد نفسه أمام موجة إستعمارية شرسة استهدفت الولايات العربية في المشرق العربي من جهة و من جهة أخرى أمام أطماع الحركة الصهيونية العالمية التي أرادت تكوين الدولة اليهودية في فلسطين.

و نظرا لمدى أهمية دراسة مسألة العلاقات العثمانية-العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني فقد ارتأينا أن نتناوله كموضوع لهذا البحث الموسوم ب **العلاقات بين الخلافة العثمانية وبلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني 1876-1909.**

دوافع إختيار الموضوع:

يعود سبب إختيارنا لموضوع العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني كموضوع لهذا البحث إلى عدة اعتبارات يمكن حصرها في مايلي :

- ميلنا لدراسة العلاقات بين الدولة العثمانية و بلاد الشام خاصة فترة السلطان عبد الحميد الثاني دون غيره عن بقية سلاطين الدولة العثمانية.

- قلة الدراسات التي تناولت تاريخ المشرق العربي في أواخر العهد العثماني عامة و بلاد الشام على وجه التحديد على حد علمنا في الجامعات الجزائرية.

- تعتبر فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني فترة دقيقة و خطيرة في التاريخ الإسلامي في العصر الحديث، حيث مازالت تشوبها الشوائب، و الأخطر من ذلك أن الصورة التي رسمتها الصهيونية و الاستعمار للسلطان عبد الحميد الثاني هي الصورة القائمة في بعض الكتب سواء العربية أو الأجنبية.

- يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان في زمانه و لا يزال محط أنظار و أحاديث المؤرخين والمفكرين و الساسة، خاصة أنه تعرض لحملة إعلامية شرسة من خصومه السياسيين الذين تناولوا فيها حياته العامة و الخاصة.

- شكل تاريخ بلاد الشام ركنا أساسيا في تاريخ العالم العربي لذلك قمنا بدراسته متتبعا المحاولات التي قام بها السلطان عبد الحميد الثاني و الحكومة العثمانية في إصلاح أمور بلاد الشام، خاصة أن الفترة التي نحن بصدد دراستها زاخرة بالأحداث التاريخية و لإبراز دور السلطان في حماية الأراضي المقدسة والأراضي العربية من الإستعمار الغربي و الصهيونية العالمية .

- يعتبر هذا الموضوع في رأينا من المواضيع الحساسة و الشائكة التي لا زالت إلى يومنا هذا يعترها كثير من الغموض، و من ثمة سنقوم بمحاولة إجلاء هذا الغموض بتركيز دراستنا على العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في كونها تتناول بعض حقائق تاريخنا العربي الحديث و المعاصر و إن بدت جلها معروفة إلا أن ما نحتاج إليه هو أن نضعها في إطارها الصحيح، و بالتالي لا بد لنا أن نفرق بين عهدين، عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي إنتهى سنة 1908 تقريبا و عهد الإتحاديين الذي بدأ بعد 1908 و ظل مستمرا إلى بعد الحرب العالمية الأولى و هذه المقارنة هي ضرورية، ففترة السلطان عبد الحميد الثاني كانت فيها العلاقات بين الدولة العثمانية و بلاد الشام ودية رغم ظهور بوادر الوعي القومي العربي، أما الفترة التي حكم فيها الذين أسقطوا السلطان فإنها ضربا للوحدة الإسلامية و العربية.

إن هذه الدراسة ستفتح المجال أمام باحثين جزائريين آخرين للإهتمام بتاريخ بلاد الشام لأن هذه المنطقة عرفت تحولات سياسية عميقة قلبت موازين القوى و كانت لها آثار بعيدة المدى في تشكيل مستقبل الأمة العربية.

طرح الإشكالية:

إن الإشكالية المطروحة تتمحور حول رغبتنا في معرفة واقع العلاقات بين دولة الخلافة و بلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، هل كانت علاقة توافق و تعاون أم علاقة اختلاف و تصادم؟. ولدراسة أبعاد طبيعة هذه العلاقات لاسيما في فترة السلطان عبد الحميد الثاني قمنا بطرح مجموعة من التساؤلات الفرعية و لعل أهمها:

- كيف كانت أوضاع بلاد الشام قبل حكم السلطان عبد الحميد الثاني؟.
- ما هي الظروف الداخلية و الخارجية السائدة أثناء تولي السلطان عبد الحميد الثاني العرش؟.
- ما العوامل الداخلية و الخارجية التي اثرت في طبيعة العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني؟.
- ألا يعتبر توجيه بريطانيا للحركة القومية العربية خلال الحرب العلمية الأولى كي لا تظهر قوة إسلامية كبرى -خلافة- التي تحل محل الخلافة العثمانية و تهدد من جديد مصالح الغرب و مطامحه؟.
- إلى أي مدى أثرت إتفاقية سايكس بيكو و الثورة العربية على المشرق العربي ككل؟.

حدود البحث:

ينحصر موضوع البحث بين سنوات 1876-1909 و هي فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني: ففي هذه الفترة كانت الخلافة العثمانية مثقلة بالمتاعب و تواجه أشد الأزمات نظرا للضغوطات الداخلية و الخارجية و التي أثر على طبيعة العلاقات العثمانية و بلاد الشام.

المنهج المتبع:

- فيما يتعلق بالمنهج المتبع فقد اعتمدنا على مناهج متعددة من بينها:
- المنهج الوصفي الذي يعتبر ضروريا في كل دراسة تاريخية يساعدنا على وصف الأحداث التاريخية وعرضها عرضا كرونولوجيا، استخدمناه في الفصل الأول "أوضاع بلاد الشام قبل حكم السلطان عبد الحميد الثاني" استعرضنا فيه الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية من الغزو المصري لبلاد الشام إلى جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على كرسي العرش.
- المنهج التحليلي استخدمناه في تحديد طبيعة العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام في كل من الفصل الثاني و الثالث و في الفصل الخامس.

-المنهج المقارن فقد استعنا به في الفصل الرابع حيث أجرينا مقارنة بين طبيعة العلاقة بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني و الفترة التي حكم فيها الذين عزلوه عن الحكم أي فترة حكم الاتحادي.

-المنهج الاحصائي فقد استخدمناه نظرا لتوفر بعض الأرقام الاحصائية من جداول و إحصائيات خاصة فيما يتعلق بالتعليم في فترة السلطان عبد الحميد الثاني و الهدف من استعمال هذا المنهج هو إبراز التطورات التي عرفها التعليم من حيث عدد المؤسسات التعليمية سواء كانت مؤسسات حكومية أو خاصة أو أجنبية.

الدراسات العلمية الأكاديمية السابقة:

إن الدراسات المتعلقة بالعلاقات بين الدولة العثمانية و بلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني في الجامعات العربية عامة و الجزائرية خاصة قليلة و الشيء المدروس منها يوجد على شكل عناصر و مباحث في موضوع عام ومن بين أهم هذه الدراسات العلمية الأكاديمية التي اعتمدناها و استفدنا منها ما يلي:

-أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم للباحث يوسف بن يزة، الدولة و الطائفية في عصر العولمة دراسة في بنية الدولة العربية الحديثة "لبنان أنموذجا".

- أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر للباحثة هيلة بنت سعد بن محمد السليمي، دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية.

-مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث للباحثة غانية بعيو، التنظيمات العثمانية و آثارها على الولايات العربية الشام و العراق نموذجا 1839-1876.

-بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر للباحث لعبد العزيز لعيميد، الشيخ الطاهر الجزائري و دوره الإصلاحية في المشرق العربي (بلاد الشام نموذجا) 1268-1338هـ/1852-1920.

أهم مصادر ومراجع البحث:

قصد إعطاء الموضوع حقه من البحث اعتمدنا على مجموعة من المصادر و المراجع المتوفرة في دور المكتبات ولعل أهمها :

- الوثائق الأرشيفية الموجودة بمركز أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس حيث تمكننا من الحصول على بعض الوثائق الموجودة في العلب التالية ضمن سلسلة 1AFFPOL العلبة رقم 14¹¹ و العلبة رقم 27 29 تتعلق بتقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية في المشرق العربي 1916-1917.
- المصادر و من بينها كتاب خطط الشام لمحمد كرد الذي أعطانا دراسة شاملة لأوضاع بلاد الشام من الناحية السياسية و الإدارية و الإقتصادية و الاجتماعية لبلاد الشام قبل و أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني .
- كتاب خواطر نيازي تأليف القول آغاسي الذي تناول الانقلاب العثماني الكبير و ظروف عودة المشروطية الثانية .
- محاضرات في نشوء الفكرة القومية للمؤلف ساطع الحصري الذي أفادنا لأنه تناول فترة حكم الاتحاديين وظهور الفكر القومي العربي .
- كما اعتمدنا على مجموعة من المراجع بالعربية و الفرنسية أهمها :
- كتاب الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864 - 1914 لعبد العزيز عوض أفادنا هذا المرجع في المبحث الخاص بالأوضاع السياسية و الإدارية في كل من الفصل الأول و الثاني حيث أعطانا صورة مفصلة للإدارة العثمانية لبلاد الشام و أهم التعديلات التي أدخلت عليها .
- كتاب المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني دراسة تاريخية إحصائية في ضوء الوثائق العثمانية للأستاذ الدكتور فاضل بيات و هو عبارة عن دراسة شاملة لأوضاع التعليم سواء كان وطني أو خاص في بلاد الشام و لقد وظف المؤرخ مجموعة كبيرة من الوثائق الأرشيفية العثمانية .
- كتاب النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877-1881، بلاد الشام، الحجاز، كوردستان، ألبانيا، أبرز فيه المؤرخ الحركات المناوئة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني في بلاد الشام أثناء الحرب العثمانية الروسية.
- كما اعتمدنا على مجموعة من المذكرات الشخصية و الرسائل الجامعية و الدوريات و المواقع الالكترونية التي ساهمت في إثراء البحث..:

صعوبات البحث :

أثناء إعداد البحث واجهتنا مجموعة من الصعوبات أهمها:

- قلة المصادر و الوثائق العثمانية التي تناولت الموضوع على مستوى مكتبات وطننا و رغم سفرنا إلى تركيا لكن تعذر علينا الوصول إلى الوثائق الأرشيفية نظرا للإجراءات الإدارية المعمول بها هناك و لضيق الوقت، و ما تحصلنا عليه عبارة عن بعض الكتب أهمها كتاب المؤسسات التعليمية في المشرق العربي دراسة تاريخية إحصائية في ضوء الوثائق العثمانية للأستاذ الدكتور فاضل بيات قدمه لي في قصر يلدز.

- التعامل مع الفترة بموضوعية لأنها تحتاج إلى دراسة عميقة بعيدة عن النظرة الذاتية حيث يعتبر بعض المؤرخين حكم السلطان عبد الحميد الثاني حكما مطلقا و استبداديا بينما يرى بعض الآخر أن الدولة العثمانية في فترة السلطان عبد الحميد الثاني دولة مفترى عليها.

- حاولنا قدر المستطاع أن نواجه تلك الصعاب و أن نتجنب مواطن الزلل و أن نطلع باحتراس ما تحويه بعض المصادر و المراجع و المذكرات الشخصية.

خطة البحث :

للإجابة على الإشكالية و التساؤلات الفرعية قمنا بمعالجة هذا الموضوع وفق خطة تتألف من مقدمة

وخمسة فصول و أنهينا الدراسة بإستنتاج عام و ملاحق و قائمة المصادر و المراجع.

تضمن الفصل الأول: أوضاع بلاد الشام قبل حكم السلطان عبد الحميد الثاني، تطرقت فيه إلى غزو محمد علي باشا لبلاد الشام و أهم الإصلاحات التي قام بها ابنه إبراهيم باشا، ثم تطرقت إلى الأوضاع السياسية و العسكرية و الإقتصادية و الإجتماعية بعد خروج محمد علي منها إلى غاية تولي السلطان عبد الحميد الثاني .

تحدثت في الفصل الثاني: عن أوضاع بلاد الشام من كل النواحي في الفترة الممتدة من 1876 إلى 1909 و خلال الدراسة تطرقت إلى تعريف السلطان عبد الحميد الثاني من حيث نشأته و توليه العرش، وخصصنا جزءا معتبرا لدراسة الوضع السياسي و الإداري في سوريا و لبنان و فلسطين، نظرا لأهميته في تحديد طبيعة العلاقات بين السلطنة و بلاد الشام. ثم استعرضنا الوضع الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي.

ناقشنا في الفصل الثالث العوامل المؤثرة في إستمرارية العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، و لقد قسمنا هذه العوامل إلى عوامل داخلية تمثلت في تأسيس الجامعة الإسلامية، و ظهور الوعي السياسي القومي التركي العربي و إلى عوامل خارجية منها التدخل الأجنبي

الذي فتح بابا واسعا للحركة الاستعمارية و التي تنافست من خلال ماتمتع به من امتيازات لاحتلال المنطقة، وكذا دور الصهيونية العالمية في تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، و خلصنا إلى إبراز أثر هذه العوامل مجتمعة في تعكير العلاقات بين السلطنة و بلاد الشام.

تطرقنا في الفصل الرابع: إلى مستقبل العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني و بينا فيه أنه رغم أن الحركة العربية بعد إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني كانت متمسكة بالسلطنة في إطار تعاون سياسي واقتصادي واجتماعي عربي- تركي إلا أن سياسة الاتحاديين العنصرية الطورانية خاصة في فترة تعيين جمال باشا على بلاد الشام دفعت زعماء العرب إلى المطالبة بالانفصال بعد أن كانوا من دعاة اللامركزية الإدارية، و هذا ما جعل موقفهم غير واضح أثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى أي الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية أو إلى جانب الحلفاء، هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ العلاقات العربية العثمانية و بتدخل أيدي أجنبية كانت نتيحت لها القطيعة بين القوميتين.

تناولنا في الفصل الخامس: أثر تصادم العلاقات بين الدولة العثمانية أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني و بلاد الشام، و أول أثر تطرقنا إليه هو عزل السلطان عبد الحميد الثاني لأن عزله جاء كنتيجة لتعاون قوى خارجية تتمثل في الاستعمار و الحركة الصهيونية، وقوى داخلية تمثلت في جمعية الاتحاد والترقي وبعض رجال الحركة القومية العربية و بعض الضباط العرب في الجيش العثماني.

و ثاني نتيجة هي الثورة العربية الكبرى التي أعلنها حسين شريف مكة (مبطلا الجهاد الديني الذي أعلنه السلطان محمد رشاد) و عرب الشام بتحريض من بريطانيا على الخلافة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية، من أجل تكوين دولة عربية مستقلة يكون الحسين شريف مكة ملكا لها هذا من جهة، و من جهة أخرى كانت بريطانيا و فرنسا المتحالفة مع العرب ضد الخلافة العثمانية تضع المخططات والاتفاقيات لتقسيم بلاد الشام بينهما، تمثلت هذه الاتفاقيات باتفاقية سايكس بيكو و وعد بلفور التي لا زال أثرها السياسي على المنطقة إلى يومنا هذا، هذه الاتفاقيات هي التي قضت على الحلم العربي في الاستقلال و وضعه تحت الانتداب البريطاني و الفرنسي و الاستعمار الصهيوني.

انھينا الأطروحة باستنتاج عام حوصلنا فيه مختلف النتائج التي توصلنا إليها أثناء اعداد البحث.

و ختاماً أرجو أن نكون قد أسهمنا مساهمة متواضعة في كتابة تاريخ بلاد الشام في أواخر العهد العثماني، و في إبراز دور السلطان عبد الحميد الثاني في مواجهة و مقاومة الصهيونية العالمية و الاستعمار الغربي الذي استهدف المنطقة عامة و فلسطين خاصة.

كما لا يفوتنا أن نقدم أخلص الشكر إلى أستاذنا المحترم الأستاذ الدكتور علي أجقو الذي تابع هذه الدراسة بملاحظاته و توجيهاته فإليه نكرر خالص شكرنا و تقديرنا.

الفصل الأول : أوضاع بلاد الشام قبل حكم السلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأول : الأوضاع السياسية و العسكرية

المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية

المبحث الثالث : الأوضاع الاجتماعية و الثقافية

يعتبر الفتح العثماني للبلاد العربية ضرورة تاريخية، خاصة للعرب المسلمين حيث استمر هذا الفتح حوالي أربعين سنة أي من 1516-1556: ففي عام 1516 دخل السلطان سليم الأول سوريا وفلسطين اثر معركة فاصلة مع المماليك في مرج دابق، و في 29 سبتمبر 1516 وصل إلى ظاهر دمشق فخرج القضاة الأربعة و نائب القائد المملوكي للقاء السلطان و تسليم المدينة و ما تبقى من بلاد الشام إلى الجنوب من دمشق خاصة القدس و غزة. أدخل السلطان سليم الأول عدة إصلاحات أهمها فرض ضرائب مناسبة لتوطيد الأمن و الاستقرار و تعداد السكان و غيرها من الإصلاحات.

أرسلت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني جيشا كبيرا إلى بلاد الشام: ففي سنة 1521 قضى على جون برد الغزالي و قواته خارج دمشق، كما نجحت القوات العثمانية في القضاء على آخر نفوذ للمماليك في سوريا ثم وضعت القوانين العثمانية الخاصة بسوريا و لبنان و فلسطين و التي عرفت بقانون نامة نظمت مؤسسات الدولة العثمانية و انعكست ايجابيتها على الولايات العربية. تمتعت سوريا في هذه الفترة بقدر كبير من الحكم الذاتي الداخلي¹، حيث أنشأت فيها ثلاث ولايات

وهي:

-ولاية حلب في الشمال.

- ولاية طرابلس على الساحل.

- ولاية دمشق و هي الأكبر مساحة حيث تتبعها ثمان و أربعون ناحية، كما تكون في ما تبقى من بلاد الشام سناجق يحكم كل سناجق بك له صلة بوالي دمشق و ليس تابعا له².

تعتبر فترة حكم السلطان سليمان القانوني من أقوى الفترات لما تميز به هذا الأخير من قوة و ذكاء وعدل.

اعتمد الحكم العثماني في الولايات العربية -الشام- على ترك الأمور كما هي عليه، على أن يكون ذلك في إطار التبعية للسلطان العثماني الذي يكتفي بوضع حاميات للدفاع عن البلاد و نشر الأمن فيها، ويقوم الوالي و الأعيان و الأمراء الذين يعينهم السلطان بمعالجة مشاكل بلادهم و أهاليها³.

1-نقولايفانوف، "الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574"، ترجمة يوسف عطا الله، مجلة الاجتهاد، ع 44، دار الاجتهاد، بيروت، 1999، ص-ص 207-208.

2- نقولا زيادة، "الفتح العثماني لبلاد الشام و آثاره المباشرة"، مجلة الاجتهاد، ع 44، المرجع السابق، ص 19.

3- عبد العزيز سلمان نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، د ط، دار الفكر العربي، القاهرة، (د ت)، ص 227.

اهتمت السلطنة ببناء القلاع و الحصون كقلعة دمشق و حلب و قلعة طرابلس، و ترميم الأماكن المقدسة؛ ففي سنة 1543 تم ترميم سور القدس الذي يعتبر من أهم آثار السلطان سليمان في بلاد الشام و كما أمن طرق قوافل الحج و التجارة....¹.

يختلف ارتباط السكان بالدولة العثمانية باختلاف ديانتهم فالمسلمون يؤدون الخدمة العسكرية و يشاركون في حروب الدولة، يدعون للسلطان في الجوامع و لا يعتبرون الدولة العثمانية أجنبية، أما العرب المسيحيون فيتمتعون بتشكيلات و حقوق طائفية و لا يشاركون في حروب السلطنة و لذلك فهم يتمتعون بكيان اجتماعي خاص بهم، عموماً هم يعيشون على هامش حياة السلطنة و على أكثر اتصالات بالدول الأوروبية الغربية².

يتميز المجتمع العربي في بلاد الشام بالتقسيم الطائفي يشكل فيه المسلمون الغالبية العظمى أما أهل الذمة فيمثلون أقلية صغيرة.

إستفادت طبقة التجار من انفتاح البلاد العربية على الغرب و أصبحت تلعب دوراً هاماً في المجتمع، وإليها ينتمي علماء الدين الذين يعتبرون أنفسهم حماة الدين و المدافعين عن الدولة العثمانية و يتمتعون بامتيازات اقتصادية واسعة و من ريع الأوقاف الإسلامية.

إن نظام الامتيازات الأجنبية وقف كعائق أمام تطور أي حرفة أو صناعة خاصة بعد ظهور الثورة الصناعية في أوروبا، و ما إن كاد القرن التاسع عشر أن ينتهي حتى تراجعت القيم الاجتماعية القديمة وحلت محلها قيماً جديدة مستوردة من الخارج و هكذا نشأ صراع عنيف بين تيارين، تيار متأثر بالغرب الفرنج و تيار محافظ، كما ظهرت نخبة واعية نادت بالحرية و المساواة و العدالة الاجتماعية³.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية والعسكرية

1- بلاد الشام تحت حكم محمد علي باشا.

تعرضت سورية في عهد السلطان محمود الثاني للغزو المصري بقيادة محمد علي باشا⁴ متخذاً من عدة أسباب مبررات للاحتلال و لعل أهمها:

1- انقولا زيادة، المرجع السابق، ص 20 ما بعدها

2- ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ط 5، دار الملايين، بيروت، 1964، ص-ص 193-194.

3- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ط 2، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، 1978، ص 159 وما بعدها

4- شارك محمد علي باشا في الحملة البحرية التي أرسلها السلطان سليم الثالث لمحاربة الفرنسيين في مصر فأصبح الرجل الثالث في الجيش العثماني الموجود في مصر، عندما عين الباب العالي خورشيد باشا والياً على مصر بدلاً لخسروا باشا، إستغل محمد =

- إن حدود مصر الطبيعية من الشمال هي جبال طوروس.
- استغلال بعض المواد الأولية كالفحم و النحاس و الأخشاب و كذا الطاقة البشرية، لأن مصر خسرت الكثير أثناء حربها مع اليونان.
- رفض والي عكا رد الفارين المصريين من العدالة المصرية¹ إلى بلاد الشام على أساس أن الولايتين تابعتين إلى سلطان واحد.
- امتناع عبد الله باشا تسديد دينه الذي دفعه محمد علي باشا عنه للسلطان العثماني كشرط لعودته لولاية صيدا.
- توقيف تصدير جزر دود الحرير من لبنان إلى مصر.
- تشجيع عبد الله باشا للتهريب في مصر ما أدى إلى تراجع اقتصادها².
- أرسل محمد علي ابنه ابراهيم باشا³ على رأس الجيش لتأديب والي عكا⁴، فسارت الحملة في 29 أكتوبر 1831 إلى فلسطين فاحتلت غزة و يافا و القدس و حيفا و الجليل من دون مقاومة و في ماي

=علي توتر الأوضاع فتقرب من الشعب و اكتسب ثقتهم، مما دفع زعماء الشعب إلى عزل الوالي خورشيد و اختيار محمد علي واليا عليهم و تم الموافقة على تعيينه بموجب فرمان سلطاني صدر سنة 1805، خاض محمد علي عدة حروب منها مذبحة المماليك، الحملة على الجزيرة العربية و حرب على السودان سنة 1820، حرب اليونان ثم حرب الشام و الأناضول سنة 1831. أنظر: محمد عبد الله عودة، ابراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر و التوزيع، عمان، 1989، ص46- وما بعدها

1- نفس المرجع ص 52

2 مؤلف مجهول مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، تحقيق و تقديم احمد غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة و النشر، دمشق، ص 14.

3- ولد ابراهيم باشا عام 1789 في (نصر تلي) قرب (قوله) بالروملي (مقدونيا)، تعلم في مصر فعينه والده دفتر دار (مفتشا عاما للحسابات) ثم قائدا للحملة التي وجهت لقتال المماليك، و في عام 1809 عين حاكما على الصعيد، ثم قائدا للحملة المصرية على الحجاز كما شارك في حرب اليونان، أشرف على بناء أسطول قوي تأهب للغزو سوريا و في 22 سبتمبر 1848 صدر فرمان رسمي بتولية ابراهيم باشا ولاية مصر بدلا عن ابيه، توفي في 10 نوفمبر 1848. أنظر : مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، المرجع السابق، ص، ص11، 12، 21.

4- مصطفى كامل، المسألة الشرقية، ط1، مطبعة الآداب، مصر 1998، ص87.

1832 سقطت عكا بعد حصار دام ستة أشهر¹ بمساعدة العرب و الدروز والموارنة ، ثم سيطر الأسطول المصري على سواحل الشام كاللاذقية طرابلس ، بيروت ، صيدا و صور².

كما بعث ابراهيم باشا إلى وكيله أحمد بك قاروط يوسف باشا الموجود في الشامي أمره بإعطاء تقارير إلى أعيان البلد يعلنهم بانه سيدخل الشام، فرفض أغوات الشام ذلك و قاموا بتسليح الأهالي، و لما وصل الجيش المصري خرج الناس لمحاربهه إلا أن الجيش المصري كان قويا من حيث العدة و العدد فترك الوزير والقاضي و المفتي و النقيب وجميع الأغوات البلاد و أخبر أحمد بيك ابراهيم باشا باستسلام البلاد³، ثم اتجهت الحملة إلى حمص و إلى حماه و حلب و تم الاستيلاء على حصن الاسكندرونة و على حصن بيلان. و هكذا يكون جيش ابراهيم باشا قد حقق انتصارا على الجيش العثماني و اجتاز جبال طوروس حيث التقى بالقوات التركية في قونية ثم تقدم الجيش المصري حتى وصل الى كوتاهية، هناك بعض الشخصيات الاوربية حثت ابراهيم باشا بمواصلة السير حتى العاصمة استانبول⁴.

و في نهاية 1832 استطاع جيش ابراهيم باشا أن يصل إلى قلب آسيا الصغرى في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام تعاني من سوء الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية و استفحال الاحتكارات الأجنبية وتدخل الدول الأجنبية⁵، و في 2 جوان 1833 دخل الامير بشير الشهابي و معه حوالي عشرة آلاف (العدد مبالغ فيه) من أهالي جبل الدروز و النصارى و قوات ابراهيم باشا إلى بلاد الشام⁶.

اضطر السلطان محمود الثاني إلى الإستنجاد بالدول الأوروبية و التي رحبت بذلك وعلى رأسها روسيا التي أبلغت الباب العالي على أنها على استعداد لتقديم أسطولا قويا وجيشا كبيرا لنصرته ضد مصر، أما مصر فلم تقف إلى جانبها سوى فرنسا نظرا للمودة و الصداقة التي كانت بين محمد علي و ملك فرنسا لويس فليب ، غير أن سفيرها في استانبول عرض على الباب العالي التوسط بينها و بين محمد علي باشا و في هذا الصدد كتب إلى محمد علي " يسأله أن يقبل الشروط التي أرسلها إليه السلطان محمود الثاني مع خليل باشا أهمها:

¹-الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1996، ص261.

2-محمد كرد، خطط الشام، ج 1، دمشق، 1925، ص 52.

3-مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، المرجع السابق، ص48.

4-محمد كرد، المرجع السابق، ص- ص 52- 56.

5-الياس شوفاني، المرجع السابق، ص262 .

6-مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، المرجع السابق، ص49.

- تتنازل الدولة العثمانية لعزير مصر عن ولايات عكا و نابلس و صيدا وبيت المقدس"، لكن طموحات محمد علي باشا تهدف الى الاستيلاء على الشام كلها وخاصة أن قنصل فرنسا بمصر شجعه على ذلك¹.
و في 8 افريل 1833 تم عقد صلح كوتاهية² بين السلطان محمود الثاني و محمد علي³، و بموجب هذه المعاهدة تحصل محمد علي على منصب ولاية على الايالات التالية: مصر - السودان - جدة - صيدا - طرابلس - شام - حلب - و أضنه، لم يسبق في تاريخ الدولة العثمانية أن أعطيت ولاية سبعة ايالات إلى والي واحد دفعة واحدة⁴.

و في 8 جوان 1833 أبرمت روسيا معاهدة مع الباب العالي و هي معاهدة خونكاراسكله سي⁵ تعهدت فيها روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية في حال هاجمها المصريون مرة اخرى مقابل :
- وقوف الدولة العثمانية الى جانب روسيا في أية حرب محتملة.
- تمنح لروسيا امتيازات في مناطقها⁶.

1- مصطفى كامل، المرجع السابق، ص ص 88-90..

2- تنص معاهدة كوتاهية على تبقى الشام وأضنه و جزيرة كريت لمحمد علي و يرحل عن الاناضول و يدفع مبلغا ماليا كل سنة يقال انه يقدر بستون الف كيس لمدة خمس سنوات و تلقى الخطبة في المساجد باسم السلطان. أنظر: محمد كرد، المرجع السابق ص 56.

3-Michel Mourre, Dictionnaire encyclopédique d'histoire, édit universitaires , Paris 1978, p5612.

4-أوزتونايماز، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة، عدنان محمد سليمان ، المجلد الثاني ، شركة الهلال للطباعة ، اسطنبول، 1990، ص 17.

5- لم تجد الدولة العثمانية سوى قيصر روسيا للتحالف معه ، حيث اثمرت الجهود التي قام بها اورلوف في استانبول إلى توقيع معاهدة خونكاراسكله 8 جويلية 1833 التي تنص على : - تقديم المساعدة في حالة تعرض إحدى الدولتين لخطر داخلي أو خارجي - يتعهد الباب العالي بالسماح للأسطول الروسي بالمرور عبر المضائق و غلقها في وجه جميع الدول الأوروبية التي هي في حالة حرب مع روسيا، مدة المعاهدة 8 سنوات، لو نفذت هذه المعاهدة فعلا لأصبحت الدولة العثمانية تابعة لروسيا فعلا . أنظر: محمد سهيل طقوش ، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ، ط1 ، دار النفائس، بيروت، 1995 ص- ص 359-360.

6-محمود سليمان ، السمات العامة للقرن التاسع عشر في طرابلس ، ص 3 متوفر على الموقع الالكتروني.

إن حملة محمد علي على السلطات العثمانية 1833-1837 و سيطرته في الحملة الثانية على سوريا جعل بريطانيا تدرك مدى تعرض مواصلاتها البرية إلى الهند إلى الخطر الفرنسي¹، و أن مشروع محمد علي في بلاد الشام يتعارض و يتناقض مع مشاريع الدول الكبرى الأوروبية في المنطقة، فعملت على إثارة المشاكل في بلاد الشام على حكم محمد علي باشا و خصوصا في فلسطين حيث حرضت الزعماء المحليين في الساحل السوري و حوران و نابلس و الخليل على التمرد ضد حكم ابراهيم باشا و هكذا بدأت الاضطرابات على النظام الجديد، و في ماي 1834 اندلعت الثورة في القدس و انتشر لهيبتها الى مناطق عديدة من فلسطين، لكن الجيش المصري نجح في اخمادها في فلسطين و سوريا (حوران - جبل الدروز العرب) و(جبل العلويين النصرية)²، غير أن انجلترا قطعت المواصلات بين مصر و سوريا في البحر الأبيض المتوسط³ بواسطة أسطولها البحري.

حاولت الدبلوماسية الأوروبية مفاوضة محمد علي على حكم مصر فقط عن طريق حكم وراثي، لكن محمد علي رفض ذلك و عمل على فصل سوريا عن الدولة العثمانية وهذا ما فتح الباب للتدخل الأجنبي الأوروبي في المنطقة و بقيت سوريا منفصلة عن الدولة العثمانية من 1832 الى 1840⁴.

في بداية الأمر وجدت الحملة المصرية الترحاب من قبل بعض المسؤولين، لأن ابراهيم باشا دعا إلى اقامة دولة عربية مستقلة عن الحكم العثماني غير أن البلاد في عهده أصبحت مفتوحة أمام الإرساليات التبشيرية⁵.

رغم محاولة محمد علي باشا أن يحصل من علماء الشام على فتوى تفيد بعدم صلاحية وقدرة السلطان محمود الثاني على حكم المنطقة إلا أنه فشل على الرغم من ان ابراهيم باشا لم يهمل تمثيل العلماء في الادارة الجديدة التي اقامها إلا أن هذا التمثيل كان يعكس في الواقع المكانة الجديدة للعلماء في نظام الحكم الغير مألوف⁶.

قام ابراهيم باشا بعدة إصلاحات في بلاد الشام منها:

- 1- بديعة امين ، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، ط 1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1974 ، ص 148.
- 2- محمد عبد الله عودة، المرجع السابق، ص 53.
- 3- حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، ط 2، مطبعة حجازي، القاهرة، 1938، ص 274 وما بعدها
- 4-Soudrel Dominique, Histoire des Arabes, 5^{ème} édit Fayard, France, 1994, p110.
- 5- محمد عبد الله عودة، المرجع السابق، ص 53.
- 6- محمد الارناؤوط، "علماء دمشق و الحكومة الفيصلية (الدولة العربية 1918-1920)"، مجلة دراسات تاريخية، العددان 81-82، جامعة دمشق، جوان 2003، ص 230.

- توطيد الأمن و هدم القلاع التي يقيم فيها الثائرين.
- إصلاح الجهاز الإداري و نظام الحكم كترتيب المجالس الملكية و العسكرية و إقامة مجلس الشورى و ترتيب المالية.
- إحياء الزراعة و تطوير المرافق الصناعة و التعدين و التجارة.
- قرب العلماء و الشعراء.
- رخص للأجانب إرسال معلميهم إلى دمشق التي كانت محرومة عنهم من قبل و لذلك استعادت حوران و عجلون نشاطها¹.

هذه الإصلاحات أثرت على القوة المحلية - الزعماء المحليون - التي وجدت نفسها تفقد سلطتها بعد أن حل موظفو الدولة محل أبناء العائلات الكبيرة و القوية في ممارسة السلطة، و بالتالي عجزت على إدارة شؤون البلاد و فقدت الامتيازات التي كانت تتمتع بها و لذلك عملت على عرقلة عملية الإصلاح واستغلت العائلات الكبيرة الفرصة للتمرد و إعادة الوضع إلى سابق عهده².

و في عام 1838 فصلت الحكومة المصرية حلب عن ولاية دمشق و عينت اسماعيل بيك واليا عليها و هو بن عم ابراهيم باشا³، كما سمح هذا الأخير لبريطانيا بفتح قنصليتها الدائمة في القدس و للإرساليات التبشيرية فتح المؤسسات التعليمية و الثقافية⁴.

أصدر محمد علي باشا في عام 1833 فرامانا يتضمن تجهيز العساكر اللازمة للحفاظ على حجاج بر الشام و ابعاد اعتداء العربان عليها فاهتم ابنه ابراهيم باشا بشؤون قافلة الحج و ذلك بإصلاح القلاع وأحواض المياه و الآبار الموجودة في طريق الحج منها قلعة الرمثة في منطقة شرق الاردن و عين الزرقاء و البلقاء، والقطرانة، والحسا، و ظهرت عنيزة و معان و العقبة والمدورة كلها في شرقي الاردن و بالتالي تكون السلطات المصرية قد سيطرت على القافلة سيطر كلية، و بهذه الطريقة فإن ابراهيم باشا قد حرم على بعض القبائل و العشائر البدوية من الصرة⁵ كبنى صخرة، و عنزة و اولاد علي، و الحسنة و في المقابل

¹- محمد كرد، المرجع السابق، ص 58.

²- عبدالكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر 1840-1876 معهد الدراسات العربية العالية، 1961، ص 58.

³- محمد كرد، المرجع السابق، ص 57.

⁴- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 265.

⁵- عبارة عن المال المدفوع من جوار الخلافة لاعانة الحرمين الشريفين و سكانهما و تزويدهما بما يحتاجون إليه من شموع و زيت وقناديل.

قدم لها فيما بعد اعانات مالية لتقدم بعض الخدمات للحجاج، إذ خصص لكل شيخ قبيلة مالا مقداره 94000 قرش، و بعد خروج محمد علي من بلاد الشام عادت الاعتداءات بسبب رفض السلطات العثمانية دفع الإعانات المالية منها كتمرد الشيخ بن الرومي أحد شيوخ قبيلة حرب على أمير مكة الشريف محمد بن عون عام 1844، تميزت العلاقة بين قبائل الشام كبني صخرة و الحكومة العثمانية فيما بعد بالحسنة و هذا ما يذكره الرحال جورج أوغست فالين G.Au.Vallin أن القبائل كانت تتجمع للبيع و الشراء و المقايضة مع الحجاج¹.

رغم نجاح ابراهيم باشا في اصلاحات أوضاع الناس الاقتصادية و الاجتماعية، إلا أن العلاقة توترت بين الحكام و الشعب على كل المستويات فانتشر التذمر بين كلطبقات المجتمع و ذلك راجع إلى:

- فرض ضريبة الرأس (الفردة) على الذكور من سن 14 فما فوق.

- فرض التجنيد الإلزامي و أعمال السخرة في مشاريع الحكومة.

- سحب الأسلحة من أيدي الأهالي² و هنا أدرك الأهالي في بلاد الشام أن الحكومة المصرية تسلبهم خيراتهم و أن حكم محمد علي و ابراهيم باشا غير شرعي، لأنه منح امتيازات واسعة للمسيحيين وللإفرنج على حساب المسلمين³، هذا ما جعل كل من حلب و بيروت و أنطاكية تعرف هيجانا شعبيا خاصة على قانون الجندي الذي قلل من أنصار الحكومة المصرية في بلاد الشام وصلت الإضطرابات إلى أهالي الدوروز واد التيم مع دروز حوران عندما أمر محمد علي ابنه ابراهيم باشا باحتكار اصناف الحرير لحكومته و فرض ضريبة جديدة على الأهالي⁴ و منح الأقليات الدينية المساواة أمام القانون و هذا ما سهل للدول الأوروبية التدخل في إدارة شؤون البلاد⁵.

و في 7 جوان 1839 اعلنت الدولة العثمانية الحرب على الجيوش المصرية فأرسلت جيشا كبيرا تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة محمد علي، و في نفس الوقت عملت بريطانيا على استمالة فرنسا لمساعدة الدولة العثمانية من أجل إضعاف نفوذ روسيا و أن لا تتجدد معاهدة خنكارااسكلهسي إلا أن فرنسا رفضت ذلك. كان محمد علي على أتم الاستعداد للحرب و لذلك حقق ابراهيم باشا انتصارا كبيرا في واقعة نزيب

¹ - ابراهيم فاعور الشرعة، "موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي و الخط الحديدي الحجازي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"، مجلة الدارة، ع 4، تصدر عن إدارة الملك عبد العزيز، شوال 1436هـ، ص-ص 40-42.

² - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 266.

³ - عبد الكريم غرايبي، المرجع السابق، ص 58.

⁴ - محمد كرد، المرجع السابق، ص 59 وما بعدها

⁵ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 266.

يوم 23 جوان 1839 و وصل خبر الهزيمة بعد ثمانية أيام من وفاة السلطان محمود الثاني و جلوس ابنه عبد المجيد¹.

وصل السلطان عبد المجيد الأول إلى الحكم عام 1839 في الوقت الذي اشتدت فيه الأزمة المصرية العثمانية² حيث اعتقد محمد علي باشا أن صغر سن السلطان الجديد - ثمانية عشر سنة- أنه سيسهل على الجيوش المصرية تحقيق انتصارات أخرى، و لما رأى مشايخ جبل لبنان و الشيخ أحمد بك شيخ العربان غيروا رأيهم لأن الدول العظمى تحالفت لمساعدة الدولة العثمانية فتوقفوا عن مساعدة ابراهيم باشا وانضموا إلى الدولة العثمانية³ التي عملت على تقوية النزاعات الاستقلالية لدى الزعماء المحليين وقدمت لهم وعود ومونتهم بالسلاح و المال⁴.

إعتبرت الدول الأوروبية خاصة بريطانيا أن انتصار محمد علي يعد خطرا على مصالحها ليس في آسيا الصغرى فقط بل حتى في سوريا، و من أجل الضغط عليه مونت العناصر الناقمة بالسلاح و الامدادات في لبنان و لذلك قامت ثورة على الحكم المصري تعاونت فيها مختلف الطوائف الدينية⁵، و في عام 1840 اتفق زعمائها في كنيسة مار إلياس في أنطلياس قرب بيروت و أقسموا اليمين على التصدي لسياسة الأمير بشير و المصريون الذين فرضوا التجنيد الاجباري و نزع السلاح فأعدوا وثيقة و وقعوا عليها، تتضمن هذه الوثيقة على " أنه في يوم تاريخه حضرنا إلى مار إلياس أنطلياس ، نحن المذكورة أسماؤنا به بوجه العموم من دروز و نصارى و اسلام المعروضين بجبل لبنان من كافة القرى و قسمنا اليمين على مذبح القديس المرقوم بأننا لا نخون ولا نطابق بضر أحد منا كائنا من يكون القول واحد و الرأي واحد"⁶.

لقد تخوف بالمرستون وزير خارجية بريطانيا من الوحدة العربية بين مصر و سوريا أثناء حكم محمد علي باشا كمفتاح للنهضة العربية و بين مشروع إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين كدعوة دعت إليه

¹ - مصطفى كامل، المرجع السابق، ص-93 - 95.

² - Michel Mourre, op.cit , p5614.

³ - ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط1 مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، 1988، ص- 213-216.

⁴ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 272.

⁵ - و حتى الدروز و النصرانية و الموارنة حرضتهم كل من الدولة العثمانية و بريطانيا على الثورة على الحكم المصري. أنظر: محمد كرد، المرجع السابق ، ص 64.

⁶ - البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798 - 1939 ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، 1968، ص 82.

الصهيونية¹، و في هذا السياق عرض بالمرستون على الدول الأوروبية إرسال انذار لمحمد علي باشا بموجبه ينسحب من بلاد الشام و يكتفي بإمارته على مصر و في حالة رفضه تستعمل معه هذه الدول القوة، إلا أن فرنسا رفضت عرض بالمرستونو عمل سفيرها المسيو جيزو على عرقلة الدول الأوروبية من الوصول إلى اتفاق نهائي لأن حكومته توسطت سرىا بين الدولة العثمانية و مصر للوصول إلى حل مرض دون تدخل دول أوروبية أخرى.

دعت إنجلترا الدول الأوروبية لإرسال مندوبين من قبلها لحضور مؤتمر يعقد بلندن لحل المشكلة المصرية²، فانعقد مؤتمر في 15 جويلية 1840 ضم كل من إنجلترا و روسيا و النمسا و بروسيا ، وقع مندوبو الدول الأربعة في لندن على اتفاقية خاصة بالمسألة المصرية تنص على:

- يرد محمد علي باشا إلى الدولة العثمانية جزيرة كريت وبيت المقدس و أضنة و بلاد الشام الشمالية.
- يحتفظ له و لأبنائه من بعده بمصر و يتولى ولاية عكا مدى حياته، و في حالة عدم تنفيذ أوامر الدول خلال عشرة أيام من تاريخ إرسال الإنذار الدولي تنزع منه عكا و إن لم يخضع في مدة عشرة أيام أخرى تنزع منه مصر³، كما تم الاتفاق على تقديم مساعدة لكل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين و الرجوع إلى الدولة العثمانية⁴.

و بعد نهاية الفترة المحددة تقدمت قوات الدول المشتركة في 3 سبتمبر 1840 عمودها الفقري الأسطول البريطاني بقيادة السير شارل سميث بضرب جيش محمد علي و حصاره⁵، و التقى مع الجيش العثماني و في 15 سبتمبر 1840 نزلوا في بيروت فانهزم ابراهيم باشا قرب بيروت، كما ثار الأهالي في كل من سوريا ولبنان و فلسطين عليهم ما سهل للجيش العثماني دخول طرابلس 16 أكتوبر 1840 وإلى عكا 4 نوفمبر 1840 حلب 13 نوفمبر 1840 و إلى الشام 29 ديسمبر 1840⁶، عادت جميع السواحل للسلطان العثماني ما بقي سوى عكا التي توجهت إليها مراكب الإنجليز بعد أن رفضت الاستسلام و اندلعت الحرب فهرب مدير و محافظ بيروت و حاكم دار حلب و أخذوا معهم الخزينة التي

¹ - هيثم محي طالب الجبوري ، زينب حسن عبد الجبوري ، "أثر حركة الإصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر" ، مجلة جامعة بابل للعلوم الانسانية ، المجلد 23 ، العدد 3 ، 2015 ، ص 1449.

² - مصطفى كامل، المرجع السابق، ص 97.

³ - بديعة أمين، المرجع السابق، ص 97.

⁴ - سليمان بن محمد الغنام، قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية 1811- 1840 في الجزيرة العربية و السودان واليونان ط 1 ، دار البلاد ، جدة ، 1980، ص 117. أنظر كذلك: حسناخلاق، "العلاقات التاريخية بين مصر و لبنان"، مجلة

العلوم الانسانية، ع1، جامعة بيروت، أوت 1999، ص 213

⁶ - يلماز أوزنونا، المرجع السابق، ص - ص 36-38.

تحتوي على حوالي ستة آلاف كيس و بقي قبطان تابع لإبراهيم باشا فنزل إلى الأنجليز و أخبرهم بأن جميع الحكام هربوا، و طلب الأمان فأعطوه فغادرت القوات المصرية ونادوا باسم السلطان العثماني.

عندما رأى محمد علي أن الأمر جاد و أن الدول المتحالفة متجهة إلى الأسكندرية طلب من ابنه إبراهيم باشا أن يجمع الجيش و ينسحب من بلاد الشام¹.

لقد تمت هذه التسوية بشكل سريع حتى لا تترك بريطانيا لمحمد علي فرصة البقاء في سوريا و أن لا تبقى هذه المنطقة مرتبطة بمصر و حتى لو للفترة المتبقية من عمر محمد علي²، و حسب المعاهدة تكون روسيا قد ضيعت امتيازات التي تحصلت عليها حسب اتفاقية خنكاراسكلهسي³.

وافق محمد علي بحكم مصر وراثيا و خضوعه للسلطان العثماني، و في 27 نوفمبر 1840 وقع يوغض بك وزير خارجية محمد علي مع القائد البريطاني الأميرال نابير اتفاقية انسحاب قوات المصرية من سوريا⁴، و بالتالي فإن معاهدة لندن بالنسبة للعثمانيين نصرا دبلوماسيا كبيرا⁵.

ترجع أسباب رضوخ محمد علي لأوامر الدول الأوروبية إلى:

- فشل محمد علي في التصدي لدسائس انجلترا ضده في بلاد الشام و أدرك أن فرنسا عاجزة على مقاومة أوروبا⁶.

- لم يستطع محمد علي مقاومة الدول الأوروبية لأنها أرسلت قوة بحرية و حرّضت الموارد على طرده من الشام.

- قضى المصريون معظم فترة حكمهم في الشام في حروب و قلاقل نظرا للدسائس التي تدسها الدولة العثمانية لشق عصا الطاعة حيث بادرت النصرانية بالعصيان و تبعهم الدروز في حوران و واد التيم⁷.

¹-مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، المرجع السابق، ص-ص 128-130.

²- سليمان بن محمد الغنام، المرجع السابق، ص116.

³-Michel Mourre, ,op.cit, p5614

⁴- سليمان بن محمد الغنام، المرجع السابق، ص117، انظر كذلك: حسان حلاق، العلاقات التاريخية بين مصر و لبنان، المرجع السابق، ص213.

⁵- يلماز أوزنونا، المرجع السابق، ص36.

⁶- مصطفى كامل، المرجع السابق، ص99.

⁷-محمد كرد، المرجع السابق، ص 7 6.

- واجه محمد علي تحالف مندبو مؤتمر لندن و السلطنة العثمانية، و أمام تحرك أساطيل بريطانيا و الجيش العثماني قبل محمد علي شروط المعاهدة¹.

حكم المصريون الشام مدة تسع سنوات و تعتبر خير سنوات الشام: ففي هذه الفترة الصعبة قضى ابراهيم باشا على كل مقاومة ، إلا أن إعلانه للمساواة بين جميع الطوائف الدينية في المعاملات و المحاكم² لم يقبله مسلمو الشام مثل ركوب الذميين الخيل، كما عاد الأمن إلى الشام و عاد الناس إلى زراعتهم و تجارتهم. يصف أحد قناصل الدول الأوروبية حكومة محمد علي في الشام بما يلي: " و على الجملة هيأت لهم أسباب الحرية التي يستطيع الناس أن ينعموا بها في ظل حكومة حرة قدر المستطاع"³، و في نفس السياق يذكر المؤرخ الفرنسي لويس بلان: " إذا أردنا أن نعرف ما أفادته سوريا من انتقالها من الحكم التركي إلى حكم المصريين، فما علينا إلا أن نلقي نظرة على سهول أنطاكية التي اكتست بأشجار الزيتون و ضواحي بيروت التي كثرت فيها الكروم، و النشاط الذي انبعث في حلب و دمشق، صحيح أن محمد علي أظهر قسوة في حكم سوريا و لكن في ظل هذا الاستبداد الذي كان ضرورة و لازما حيث سادت الفوضى في تلك البلاد نالت سوريا النظام و العمران"⁴.

تميزت الفترة التي سيطر عليها محمد علي باشا بالتواصل السياسي و العسكري، والاقتصادي والاجتماعي و الثقافي بين مصر و بلاد الشام⁵ حيث نتج عنه تغيرات جذرية جعلت من المنطقة أول منطقة تشهد بداية الحركة العربية في عصرها الحديث، رغم أن الحكم المصري كان أقصر من حيث المدة الزمنية بالمقارنة مع الحكم العثماني⁶.

¹-الياس شوفاني ، المرجع السابق ، ص 264 .

²- عملت الإدارة المصرية في بلاد الشام على استمالة النصارى و اليهود، فألغت كافة العوائد و المرتبات التي كانت مفروضة على الأديرة و المعابد و قدم ابراهيم باشا تسهيلات من أجل بناء الكنائس و المعابد و هكذا عرفت بلاد الشام المساواة بين كافة الطوائف الدينية، و هذا ما أغضب المسلمين لأنهم رفضوا هذا الوضع الذي سمح للأجانب ممارسة النشاط التبشيري الأمريكي الفعلي، رغم انسحاب محمد علي من الشام إلا أن التدخل الأوروبي ازداد متخذا ذريعة حماية الطوائف الدينية الموالية له، أنظر: عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى، التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834-1914، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005، ص-ص 13-14.

³- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 274 ، و أنظر كذلك: محمد عبد الرحمن بروج، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، مكتبة الانجلو المصرية، 1974، ص-ص 44-45.

⁴ - محمد عبد الرحمن بروج، نفسه ، ص 47.

⁵-حسان حلاق،"العلاقات التاريخية بين مصر و لبنان"، المرجع السابق، ص 212.

⁶-محمد عبد الرحمن بروج ، المرجع السابق ، ص 44.

بعد أن غادرت القوات المصرية بلاد الشام عادت المركزية إلى السلطة العثمانية و أصبحت للموظفين الذين يعينهم الباب العالي صلاحيات مباشرة بوزارة المالية و بقي نظام الالتزام القديم و النظام الإقطاعي وتحولت سوريا إلى قاعدة للجيش العثماني الخامس¹، و بالتالي يكون العثمانيون قد ورثوا حكما قويا وأصبحت الدولة تسيطر على جميع شؤون الإدارة التي تخص الولاية فعادت المنطقة إلى الحضيرة العثمانية وهي تتمتع بالنظام و الطاعة و هذا ما لم تكن تعرفه قبل خضوعها للإدارة المصرية².

عاد المسيحيون في المدن إلى حالتهم القديمة و عادت الفوضى إلى المنطقة وبدأ القناصل يرسلون شكاوي إلى دولهم، يصفون الحالة التي وصلت إليها المنطقة بعد عودة الأتراك إليها، حيث استغلت بريطانيا هذا الوضع فتحصلت على امتيازات و تسهيلات متعددة ، أما فرنسا فقد حمت رعاياها المسيحيين (الموارنة) ولقد وجدت منافسة شديدة من طرف روسيا³.

أما المسلمون فقد رحبوا بزوال حكم ابراهيم باشا و بعودة العثمانيين⁴، لقد مهدت الفترة القصيرة التي قضاها الحكم المصري في بلاد الشام الطريق أمام التنظيمات التي أجبرت السلطة العثمانية إلى إدخالها في نظام الحكم و تكرست الامتيازات التي تحصلت عليها الدول الأوروبية بعد عودة الحكم العثماني وعجزت الزعامات المحلية في بلاد الشام من استعادة مكانتها التي فقدتها، حيث ظهرت شريحة جديدة من الزعامة السياسية⁵.

لقد أقلق الثورات الانفصالية التي عرفتها بلاد الشام مثل ثورة فخر الدين المعني في لبنان، وثورة محمد علي وحمله ابنه ابراهيم باشا، أيقظت الرأي العام السوري لأنها تهدف إلى تكوين دولة عربية واسعة ووطيدة الاركان⁶ السلطات العثمانية التي إلتجأت إلى تطبيق سياسة الشدة و السيطرة على البلاد

¹ - سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث ، دار الشروق ، الأردن ، 1997، ص429.

² - عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864 - 1914، دار المعارف ، مصر ، 1969 ، ص55.

³ - حسين مؤنس، المرجع السابق.ص،ص274، 281.

⁴ - عبد الكريم غرايبي ، المرجع السابق ، ص58.

⁵ - الياس شوفاني، المرجع السابق ، ص267.

⁶ - لقد فشل محمد علي في إقامة دولة عربية موحدة، لأن العرب لم ينضج لديهم الوعي القومي الكافي و الاستعداد التام لإقامة هذه الدولة من جهة و من جهة أخرى موقف بريطانيا المعادي لمشروع محمد علي، أنظر: محمد عبد الله عودة ، المرجع السابق ، ص55.

العربية و وضع نهاية للحكم الذاتي الذي تمتع به البعض¹.

عندما شعر محمد علي أن إستيلائه على سوريا الطبيعية لم يعجب الدول الأوروبية الكبرى عامة وبريطانيا خاصة، و من أجل ارضاءها منح الطوائف الدينية الغير إسلامية الحقوق و المساواة مع سائر رعايا الحكم الجديد كما سهل للأوروبيين التغلغل الديني و السياسي و الثقافي و اعترف بمؤسساتهم خاصة في فلسطين، و بعد مؤتمر لندن عام 1840 اتبع العثمانيون نفس السياسة و بالتالي دخلت القدس خاصة و فلسطين عامة في دوامة تضارب مصالح الدول الأوروبية الكبرى في إطار المسألة الشرقية نظرا للمساعدة التي قدمتها الدول الاوروبية للسلطان العثماني لمواجهة محمد علي، و قد ساعد هذا الوضع بقاء الدولة العثمانية على حالها ردحا من الزمن لأن الدول المتنافسة لم تتفق بعد حول تقسيم أملاكها و اكتفت بفتح قنصليات لها في القدس²، و في هذا الصدد كتب بالمرستون إلى السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية بونسني Ponsonby سنة 1840 يطلب منه الضغط على السلطان عبد الحميد خان من أجل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين حيث يذكر: "... و يكون من مصلحة السلطان الواضحة أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين و الإقامة فيها لأن ما سيحملونه إلى البلاد من ثروة سيزيد من موارد دولته و لأن الشعب اليهودي بعودته إلى البلاد - بإذن من السلطان - و في حمايته يكون حجرة عثرة في سبيل أي أهداف تخطر في المستقبل ببال محمد علي أو من يخلفه، و أرجو أن تضع هذه الاعتبارات أمام أعين الحكومة العثمانية بصفة سرية و أبدل و سعك في اقناعه بأن تقدم كل تشجيع عادل لليهود أوروبا كي يعودوا إلى فلسطين"³.

نظرا لأهمية موقع فلسطين الجغرافي و الإستراتيجية و الدور الذي ستلعبه في الحفاظ على المصالح البريطانية⁴ خاصة أمام الدول الأوروبية المتنافسة معها، عملت على إخراج فلسطين من نطاق مملكة محمد علي، حيث يذكر الكاتب الإسرائيلي يوري أفيري: "أن فكرة إنشاء وطن يهودي في فلسطين بوصفه مخفرا

¹- ناجي علوش ، الحركة العربية القومية في مئة عام ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن، 1997، ص 202.

²- الكزنדר شولش، تحولات جذرية في فلسطين 1856 - 1882 دراسات حول التطور الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي، ترجمة كامل جميل العسلي، ط2، الاردن، 1993، ص-ص 59- 61.

³- هيلة بنت سعد بن محمد السليمي، دور اليهود في اسقاط الدولة العثمانية، اطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ، كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى، 2001، ص 119.

⁴- لم تكن لبريطانيا مصالح في الاماكن المقدسة في فلسطين عكس روسيا و فرنسا ، فروسيا تتدعي حق حماية النصارى الارثوذكس و فرنسا تتدعي حماية النصارى الكاثوليك و لذلك كانت الاماكن المقدسة في فلسطين يسيطر عليها المذهب الارثوذكسي والكاثوليكي دون البروتستانت. أنظر: مذكرات محمد عزة دروزة، 1305-1404هـ / 1887-1984م، المجلد الأول (د ت ط) ص 31.

أماميا للإمبراطورية البريطانية، لم تكن بأي حال فكرة جديدة، ففي عام 1840 حث على هذه الفكرة اللورد بالمرستون رئيس الوزراء الذي كان يعتقد أن مستوطنة يهودية في الأرض المقدسة ستساعد الإمبراطورية العثمانية التي كانت تحضي بمساعدة البريطانيين ضد المصريين الذين كانوا يحظون بمساعدة الفرنسيين¹.

و لذلك وعد بالمرستون بحماية اليهود و أمواهم: ففي 1842 احتضن الأيرل أوف شافيتري الانجليزي فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين فوضع مشروع سماه "أرض بغير شعب، للشعب بغير أرض" قدم المشروع لوزير خارجية إنجلترا فأصدر بالمرستون تعليمات إلى القنصل الإنجليزي من أجل حماية اليهود، تعتبر هذه الحماية الأساس لوعده بلفور، وعندما استرجعت الدولة العثمانية الشام من محمد علي أصدرت فرمانا بمنح اليهود المساواة في الحقوق المدنية¹.

تعتبر بلاد الشام التي غزاها محمد علي باشا كانت و لا تزال إلى يومنا هذا منطقة استيراثية و محالا حيويا و خطيرا، لأنها تتحكم في الطرق التجارية و غنية بالموارد الطبيعية السطحية و الباطنية، و مهد للحضارات القديمة و بها توجد المقدسات اليهودية والمسيحية والإسلامية و لذلك تنافست عليها الدول الأوروبية الكبرى خاصة فرنسا و بريطانيا و روسيا ثم ألمانيا التي دخلت كمنافس عنيد بعد مؤتمر برلين ولهذا السبب أجهضت طموحات محمد علي خلال مؤتمر لندن عام 1840 و قضي على الدولة العربية التي أراد تأسيسها ، رغم أن فرنسا كانت من المؤيدين له لكن مبدأ المصلحة دفعها للعب على جبهتين الجبهة المصرية من جهة و عدم إثارة الدولة العثمانية ضدها من جهة أخرى ، فغزو محمد علي لبلاد الشام في هذه الفترة بالذات التي ظهرت فيه فكرة استيطان اليهود في فلسطين و التنافس الاستعماري الأوروبي على المناطق الاستراتيجية معتمدا على إضعاف المنطقة سياسيا و إداريا، و خلق هوة بين الشعب و الحكام كانت مجازفة رغم قوة جيشه وضعف الدولة العثمانية، ولذلك تعتبر هذه الأحداث التي عرفتها المنطقة في تلك الفترة الزمنية بالذات مرحلة من مراحل المسألة الشرقية، و هي لا تختلف من حيث خطورتها عما يعرف الآن بأزمة الشرق الأوسط لأن الأزمة التي تمر بها هذه المنطقة في الوقت الحاضر هي استمرار للأزمة التي عرفتها المنطقة مع بداية منتصف القرن التاسع عشر.

¹ - علي حسين الخربوطلي، التاريخ الموحد للامة العربية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف ، 1961 ، ص 262.

2-التنظيمات والاصلاحات العثمانية بعد خروج محمد علي من الشام

أصدر سلاطين الدولة العثمانية في الفترة الممتدة ما بين 1839-1876 عدة فرمانات من أجل تنظيم و اصلاح مؤسسات الدولة العثمانية و ولاياتها و لقد عرفت بالتنظيمات¹.

تزامن الإعلان عن التنظيمات² مع فترة الحكم المصري لسوريا، حيث صدر أول فرمان التنظيمات باسم خط شريف كيلخان³ سنة 1839 أي بعد انهزام الجيش العثماني أمام قوات ابراهيم باشا رغم معارضة الأوساط التقليدية و المحافظة في السلطنة التنظيمات معارضة شديدة لأنها ذات طابع غربي، و لذلك وجدت عراقيل و صعوبات في تنفيذها خاصة في بلاد الشام⁴.

بعد عودة الدولة العثمانية إلى الشام كافأت كل من ساعدها على حكم محمد علي من أرباب النفوذ والاقطاعات و في نفس الوقت عملت على أن لا تسود الألفة بين الطوائف الدينية، حيث كان رجالها يساعدون الدروز على نصارى لبنان حتى تستطيع الدولة أن تنتزع الحكم من بعض أرباب الاقطاعات؛ ففي فتنة 1841 عزلت الامير قاسم الشهابي و عينت مكانه واليا عثمانيا و هو عمر باشا النمساوي ثم عزلته⁵. صرح عبد المجيد خانأن الدولة لم تعد تكتفي بتوفير الأمن في الداخل و الخارج ولم تعد العلاقة بين الحاكم و المحكوم مجرد علاقة خوف و رهبة، بل غدت علاقة مصلحة متبادلة و أنها ستتدخل في كافة أنواع النشاط الثقافي و الاقتصادي⁶.

¹ - أصدرت الدولة العثمانية مجموعة من التنظيمات بدءا من عام 1839 و أول خطوط التنظيمات عرف بخط كلخانة و في 1856 أصدرت الدولة العثمانية خط همايوني آخر و الذي ركز على المساواة بين جميع الطوائف و الطبقات، ثم تلاه في عام 1864 صدور قانون الولايات الذي نص على تكوين مجالس إدارية منتخبة من مستوى القضاء إلى مستوى الولاية، و استتبع هذا النظام بسلسلة من القوانين و التنظيمات، و في 1876 أعلن السلطان عبد الحميد الثاني عن الدستور أو ما يسمى بالقانون الأساسي. أنظر: وجيه كوثراني، "التنظيمات العثمانية و الدستور: بواكير الفكر الدستور نصا و تطبيقا و مفهوما"، مجلة تبين، ع 3، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، قطر، مارس 2013، ص 1.

² - عبد العزيز عوض، "الادارة العثمانية في ولاية سوريا"، مجلة الاجتهاد، ع 44، المرجع السابق ص 239.

³ - خط كلخانة البراءة السلطانية اصدده السلطان عبد المجيد و هو أول قانون اصلاحي في السلطنة ينص على:

- اعطاء العناصر العثمانية حرية و حقوق- تنظيم الضرائب و توحيدها- تطبيق قانون التجنيد العسكري- اصلاح الادارة، يطلق عليه الأوروبيون خط شريف خط همايون، تمت تلاوة فرمان التنظيمات في كلخانة في سراي طوب كابي، و لذلك يطلق عليه اسم كلخانة. أنظر : يلماز أوزتونا ، المرجع السابق، ص 32.

⁴ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 269.

⁵ - محمد كرد، المرجع السابق، ص 74.

⁶ - عبد الكريم غرايبي، المرجع السابق، ص 58.

لقد حققت التنظيمات نجاحاً في المدن عن الأرياف لأن في المدن يتمركز الجهاز الإداري و القوات العسكرية النظامية حيث استطاعت السلطة المركزية أن تنهي الصراع بينها و بين الزعامات المحلية لصالحها، فالتنظيمات حددت صلاحيات الوالي و أعوانه من الموظفين الأتراك و فتحت الباب أمام الزعماء المحليين لإثبات وجودهم السلطوي في المقابل، إلا أنسيطرت الجهاز العسكري التركي النظامي في المدن كبح هؤلاء الزعماء عن اللجوء إلى الصدام مع ممثلي الحكومة المركزية، و قد اتخذت المواجهة بين الطرفين منحى آخر جرى التعبير عنها في " المجالس " التي أنشأتها السلطة في المدن إلى جانب الحاكم التركي- هذه المجالس كانت قائمة قبل الحكم المصري لبلاد الشام- لها سلطات واسعة نسبياً ، حيث اهتمت بالقضايا الإدارية في الولاية أو السنجق أو الناحية باستثناء الأحوال الشخصية.

أما في الأرياف فكانت السلطة العثمانية ضعيفة و غائبة خاصة في المناطق النائية و الجبلية والصحراوية، فشيخ القرية هو الذي يتولى المهمات الإدارية و لذلك تميزت العلاقة بين الدولة و زعماء الأرياف بالتوتر أحياناً من أجل ضبط الأوضاع فيها و كثيراً ما تمرد الزعماء المحليون على السلطة واستعملوا العنف لكي لا يدفعوا الضرائب المستحقة¹ و لذلك سارت التنظيمات و الإصلاحات ببطء كبير خاصة أن الزعماء المحليون التجأوا إلى استعادة مواقعهم السابقة فشكل هؤلاء الزعماء شريحة اجتماعية وسيطة بين السلطة و السكان، وعندما عجزت السلطنة ردع الزعماء المحليين توصل الطرفان- السلطة المركزية و الزعماء- إلى حل وسط في أغلب الأحيان، أدى ذلك إلى توقف عمليات الإصلاح عند خط الوسط أيضاً²، ولهذا فشلت الدولة في فرض الأمن و التحكم في الوضع حيث عادت المنطقة إلى ما كانت عليه من قبل ورجعت النزاعات العشائرية و الصراعات القبلية من القبسية و اليمنية، كما عاد الشيخ أبو غوش زعيم العصية اليمنية إلى فرض سلطته على طريق يافا- القدس، هذه الإضطرابات دفعت الحكومة إلى الاعتراف ببعض زعماء العشائر حكاماً في مناطقهم من جهة ومن جهة أخرى استغلت السلطنة الصراعات القبلية لإضعاف الجميع و اتخاذ عدة إجراءات منها :

- إلحاق بلاد الشام بالمركز مباشرة .

- عينت موظفين أتراك في المناصب الهامة.

- نقل الموظفين سنة بعد أخرى و إخضاعهم للرقابة و المحاسبة³.

¹- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص- ص 273-275.

²- نفس المرجع ، ص 73

³- نفس المرجع ، ص 70.

و من المشاكل التي واجهتها الحكومة العثمانية في هذه الفترة مشكلة القبائل البدوية و سلوكها المعادي للحكم المركزي أو حياة الاستقرار و الزراعة و سطوها على طرق التجار، و اقتتالها الدائم بين بعضها البعض¹، على العكس من الحكم المصري² الذي فرض الأمن في البلاد كافة، فالحكومة العثمانية اعتمدت على أسلوب الترغيب و التهيب مع القبائل البدوية فمن جهة تدفع الرشاوي و من جهة أخرى تهددها باستعمال القوة و لذلك عجزت عن تحقيق أغراضها عبر تحريض قبائل على قبائل أخرى و استعمال بعض القبائل كشرطة حدودية، إذ سرعان ما عاد التوتر بينها و بين القبائل و فشلت في ضبط سلوك القبائل البدوية بما في ذلك محاولة توطينهم و استقرارهم و ظلت هذه القبائل مصدر إزعاج للحكومة³.

أصبحت القدس سنة 1854 ولاية مستقلة تابعة لإستانبول مباشرة، و أصبح سنح نابلس و غزة تابع لهذه الولاية و الهدف من هذا التعديل هو الحفاظ على الأمن و مراقبة نشاط القنصليات الأجنبية⁴، إلا أن اليهودي البريطاني السير Moses Montefiore تحصل في سنة 1855 على تصريح من السلطان يسمح له بشراء أراضي خارج القدس أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين قدر عام 1845 ب 7100 يهودي من مجموع 15000 ساكن في فلسطين ، و في 1860 أسس اليهودي Moshe Yemin أول حي سكني يهودي خارج أسوار القدس⁵.

عينت الدولة العثمانية باشا حاكما على القدس يتلقى أوامره من الباب العالي و في سنة 1856 ضمت القدس لولاية صيدا، يذكر القنصل البريطاني في القدس أن العلاقة بين الأتراك و بعض العرب في فلسطين كانت سيئة حيث أرسل في 3 أوت 1854 مذكرة للسفير البريطاني بإستانبول يذكر فيها أن العرب يعتبرون الأتراك مغتصبون للخلافة الإسلامية، و في رسالة ثانية أرسلها بتاريخ 13 سبتمبر 1858 كتب فيها إن فكرة الإستقلال عرفت انتشارا و راجا و يقصد به الإستقلال عن الدولة العثمانية و يمكن

¹- الياس شوفاني ، المرجع السابق ، ص 277.

²- كتب قنصل بريطانيا في دمشق المستر براند الى سفير دولته في الأستانه سنة 1858: "لما كانت الأيالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير إلى سكان المدن و القرى المهجورة إلى مساكنهم و إلى حراثة الأراضي المهملة، و هذا ما حدث خاصة في حوران، و في الأرجاء الواقعة حوالي حمص و في كل الجهات الواقعة على حدود البادية... كما أن نشاط ابراهيم باشا و حزمه و طد الامن و مد رواق الثقة و قد عدت الحكومة ظالمة لكنها في الحقيقة لم تستطع غير ذلك، إذ كان عليها أن تصلح عدة أمور مختلفة و أن تبدل الفوضى و التعصب والقلق التي كانت سائدة بالعدل". أنظر: محمد كرد، المرجع السابق، ص- ص 68-70.

³- الياس شوفاني ، المرجع السابق ، ص 278.

⁴- نفس المرجع ، ص 270.

⁵- Maurice Konopnicki, Eliézer Benrafael, Jérusalem, 1ère édit, PUF, 1987, p18.

أن يكون ذلك نتيجة للآراء و الشعارات التي خلفها محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا و نظرا لسياسة الولاية¹.

بعد حرب القرم² عام 1856 أصدرت الدولة العثمانية خط التنظيمات الخيرية الخط همايوني³، ويرجع سبب صدوره إلى: كسب الرأي العام الأوروبي⁴ الذي حث الدولة على إجراء إصلاحات بما يخدم مصالحها كتشجيع القروض الاستهلاكية دون الإنتاجية، المطالبة بالمساواة بين مختلف الرعية و في الوقت نفسه تثير النعرات الطائفية خاصة في لبنان⁵، و بموجب هذه الاصلاحات- التنظيمات الخيرية- حصلت الأقليات الغير اسلامية على حق اقامة المؤسسات التعليمية و تلقت دعما ماديا و معنويا من الدول والمؤسسات الغربية في مجال التعليم بمختلف أنواعه، و فتح المستشفيات و الجمعيات و غيرها من الاعمال الخيرية⁶.

رغم معارضة المسلمين و المسيحيين لهذه الإصلاحات بقيت أحكامه سارية المفعول حتى سقوط الإمبراطورية العثمانية⁷ و لذلك خلفت تلك التنظيمات أعمال عنف في المناطق ذات الأقليات الدينية كدمشق و لبنان⁸، وعدم اندماج العرب اندماج كلي في الإمبراطورية العثمانية⁹، وكان الولاية يرسلون تقارير مفصلة إلى الباب العالي عن تصرفات كبار موظفي الولاية و دسائس القناصل الأجانب في دمشق ويقترح الوالي أحيانا في بعض التقارير إجراء بعض الإصلاحات التي تخدم مصالح في الولاية، لكن الباب

¹ - علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين في عصرا لنهضة 1850-1925، أعمال المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج 2، جامعة دمشق، 1979، ص 293.

² - اندلعت حرب القرم في شبه جزيرة القرم على البحر الأسود سنة 1854-1856، وقفت فيها فرنسا و بريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا، انتهت الحرب بانحزام روسيا و استسلامها، نصت اتفاقية باريس 30 مارس 1856 على انسحاب روسيا من الاراضي العثمانية. Michel Mourre, op.cit, p5614 أنظر :

³ - الخط همايوني: اسم يطلق على ما يخطه السلطان بيده من أمر و يحرر الصدر الأعظم و يسمى تلخيص و لقد أكثر السلطان مراد الثالث من إصدار خط همايوني و يسمى كذلك بخط شريف. أنظر: حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004، ص 55.

⁴ - يلماز أورتونا، المرجع السابق، ص 55.

⁵ - عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 239.

⁶ - فاضل بيات، ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني- الأجنبي، بحوث المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني، دمشق، جوان 2009، ص 151.

⁷ - يلماز، المرجع السابق، ص 56.

⁸ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 269.

⁹ - Dominique Sourdel, op.cit, p 111.

العالي أحيانا لا يستجيب بل يعتمد إلى إرسال تعليمات مخالفة تماما و تجبر والي سورية تنفيذها حرفيا وهذا ما يبين لنا مدى تبعية ولاية سوريا و انصياعهم لأوامر الدولة¹.

و في فترة حكم السلطان عبد العزيز تقدم هوفمان (Hoffman) اليهودي الألماني مؤسس جمعية محبي القدس الشريف بمشروع إلى السلطان يطلب منه السماح لليهود بتأسيس مستعمرة يهودية ألمانية في فلسطين و بالفعل تحصل على الإذن بذلك، و في هذا الصدد يذكر المؤرخ التركي إسماعيل سرهنك في كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار مايلي : "جاء قوم من مملكة ورتنبرغ الألمانية و أنشأوا في الجهة الغربية على مقربة من موقع حيفا القديمة مستعمرة متقنة البناء كثر فيها الصناعة و الزراعة فأحيوا كثيرا من الأرض

وأوجدوا مركبات مخصوصة تسير بين حيفا و عكا و الناصرة و قد تساهلت الدولة العثمانية لرغبتها في إصلاح تلك الجهات " .

يمكن أن نرجع قبول السلطان لهذا العرض إلى سببين هما :

- أنه لم يدرك أبعاد هذه المطالب و خطرهما على الدولة.

- تأثير يهود الدونمة عليه خاصة أن عددا منهم تمكن من الوصول إلى مناصب عليا في الدولة.

و في عام 1870 أنشأ البارون آدموند ديروتشيلد اليهودي الألماني أول معهد للزراعة قرب يافا على نفقته لقد كان لهذا النشاط الصهيوني أهمية بالغة في تهيئة المناخ المناسب لمولد الحركة الصهيونية السياسية الدولية الحديثة².

أما جبل لبنان فقد أصبحت تحت نظام المتصرفية منذ سنة 1861 و استمر هذا النظام إلى غاية 1915، و تعود أسبابه إلى:

- فشل صيغة القائم مقامتين فقد كان للبنان وضع خاص ثنائي المقامات التي تكونت على أساس: في الشمال بين بيروت و دمشق خاضع للموارنة و الجنوب للدروز، وبالتالي فإن الولاية تنقسم إلى قسمين إداريا إلى قائم مقام ماروني في الشمال و قائم مقام دروزي في الجنوب، ولقد استفادت الحكومة العثمانية من هذا الوضع و ذلك بربط قائم مقام الشمال بالبasha في بيروت و ربط قائم مقام الجنوب بالبasha في صيدا و دمج بقية مناطق بيروت بسوريا، و رغم ذلك تجددت الفتنة بين الموارنة و الدروز سنة 1860³.

¹- ناجي علوش، المرجع السابق، ص، ص 74، 129.

²- هيلة بنت سعد بن محمد سليمي ، المرجع السابق ص-ص 47 وما بعدها.

³ - Jean-Pierre Alem et Patric Bourrat, le Liban, que sais-je ?, presse universitaire, France, 1991, p 35.

و على إثر ذلك تكون النظام العضوي لجبل لبنان reglement organique الذي وضعته اللجنة الخماسية في 9 جوان 1861 حيث تم التوقيع على المستندات من طرف الصدر الاعظم علي باشا و توقيع كل من سفراء الدول الخمسة: النمسا، إنجلترا، فرنسا، بروسيا و روسيا سمي هذا النظام بنظام متصرفية جبل لبنان¹.

3- قانون الولايات 1864

صدر قانون الولايات سنة 1864 عرف بالقانون الأساسي و بموجبه أصبح جبل لبنان ولاية منقطعة عن ولايات الدولة العثمانية أي متصرفية² يحكمها رجل مسيحي عثماني يعينه الباب العالي بموافقة الدول الأوربية الموقعة على الميثاق و يساعد الحاكم مجلس إداري يتكون من ممثلي الطوائف اللبنانية³، للمتصرف عدة صلاحيات من أجل نشر الأمن و جبي الضرائب منها:

- تعيين قائم مقام من كل قضاء من الطائفة الأكبر عددا و لها ممتلكات كثيرة.
 - تعيين اداري النواحي.
 - كل قرية تختار شيخا يمثلها في انتخاب أعضاء المجلس الإداري.
 - على الصعيد القضائي تم تأسيس ثلاثة محاكم.
 - و جاء في النظام بندهام ينص على مساواة الجميع أمام القانون و إلغاء كل الامتيازات الإقطاعية و لا سيما امتيازات المقاطعية⁴.
- هذا النظام الجديد لا يختلف عن القديم، إذ منح متصرفية جبل لبنان نظاما خاصا بها دفع الحكومة العثمانية إلى وضع نظام حكم في المناطق المجاورة لجبل لبنان و السبب في ذلك :
- إشعار الدول الأوربية أنها قادرة على تطبيق التنظيمات التي أعلنتها .
 - إقناع الجماعات والطوائف التي تعيش في سورية بضرورة الإصلاح و أن نظام جبل لبنان مثل يقتدى به.

¹- عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، ط3، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1995، ج8، ص 24.

²- نتج عن قيام المتصرفية في جبل لبنان عام 1864 إلى ظهور اتجاه بين النصارى للانفصال عن الحكم العثماني و الارتباط بالغرب اما بعض المفكرين اتجهوا الى دعوة الحكومة لتضمن المساواة ، ظهرت هذه الانتلجنسيا المتنورة نتيجة الانفتاح على التعليم الحديث الذي تولته الارشاليات التبشيرية، و بالتالي وقع شرخ عميق بين السلطة المركزية التي تتجه نحو التترك و قوى اعيانية عربية لها طموحات سياسية رافضة لهذا الوضع. أنظر: علي شكيب. حركة الوعي القومي في بلاد الشام في اواخر الحكم

عثماني. متوفر على الموقع الإلكتروني www.attarikh-alarabi.ma/hun/

³- زهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت 1975، ص، ص 301، 299، 298.

⁴- عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، المرجع السابق، ص 25.

- إن هذا النظام سيقف كحاجز أمام تدخل الدول الأجنبية و حتى لا تتكرر حوادث 1860 في باقي الولايات¹.

سمح الوضع الجديد في جبل لبنان بتوفر الأمن و الاستقرار، حيث عرفت التجارة رواجاً خاصة تجارة الحرير و ارتفع عدد العاملين في القطاع الزراعي حتى أصبح يصدر الفائض من الانتاج الى المناطق المجاورة. و نظراً لخضوع المتصرفية للحكم الذاتي تراجع تدخل الدول الأوروبية الكبرى في شؤون المتصرفية، إلا أن فساد و ضعف الإدارة العثمانية المحلية في لبنان² أدى إلى ظهور جماعات بشرية طائفية منعزلة تتلقى أوامرها من قياداتها فقط، ارتطبت اقتصادياً و ثقافياً مع ثقافات و سياسات أجنبية منها الأوروبية وأمريكا الشمالية ضف إلى ذلك الدولة العثمانية³.

لم يكن ولاية سوريا مستقرين في مناصبهم نظراً لدسائس قناصل الدول الأجنبية لا سيما إنجلترا، وأحياناً كانت تلفق إليهم التهم من قبل جواسيس السلطان فلم يكن مدحت باشا⁴ آخر من اتهم بمحاولة الاستقلال بولاية سوريا بل نجد الإتهام نفسه وجه الى الوالي حسين ناظم باشا أيضاً. ففي أحد التقارير رفعه أحد الجواسيس - " بأنه يرأس جمعية سرية تهدف إلى تحويل ولاية سوريا و جبل الدروز إلى إدارة ممتازة ويتهم التقرير مفتي الشام و عدداً آخر من أركان الولاية مثل محاسب الأوقاف و مدير المطبعة وقائد الدرك

¹- عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق، ص 56.

²- إن المتصرفون الذين خلفوا داوود باشا مالوا إلى الفساد و أهملوا شؤون البلاد باستثناء المتصرف الثالث رستم باشا، فبعد استقالة داود باشا خلفه نصري فرنكو باشا 1868-1873 الذي أهمل مطالب أهالي صيدا بالالتحاق بلبنان نظراً للتعليمات التي صدرت إليه من الدوائر التركية العليا في أن يهمل مطالب أهل صيدا، كما أصدر السلطان قانوناً صارماً يقضي بمراقبة كل ما ينشر هذا ما أدى الى ظهور مطابع و جرائد عديدة في جبل لبنان. أنظر: فليب حتي، تاريخ لبنان ، ترجمة: أنيس فريحة دار الثقافة للطباعة و النشر، بيروت نيويورك ، 1959، ص 544.

³- يوسف بن يزة، الدولة و الطائفية في عصر العولمة دراسة في بنية الدولة العربية الحديثة- لبنان نموذجاً -، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم، قسم العلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012-2013، ص 160.

⁴- ولد مدحت باشا في اسطنبول عام 1822 ابن الحاج حافظ محمد أشرف كان عالماً دينياً، اسمه الحقيقي الحافظ أحمد شفيق أما مدحت الذي غلب عليه فهو اسم ديواني، أنشأ أبوه تنشأة دينية، التحق بالديوان الهامبوني ليتعلم الخط الديواني كما التحق في استانبول بأحد أقلام الحكومة ليساعد الكتبة و ليتعلم، سافر إلى أوروبا و تأثر بالنظم السياسية و الاجتماعية هناك، تربي في مدرسة كبرلي باشا ورشيد باشا و عالي باشا تعلم منهم القوة و القدرة على التنفيذ، أثناء ولايته في صربيا و بلغاريا لفت الأنظار إلى حسن إدارته، آمن بالنظام الديمقراطي والدستور كنظام صالح للدولة العثمانية و لذلك توترت العلاقات بينه و بين السلطان عبد العزيز وحاشيته، تولى الصدارة وأعد القانون الأساسي للدولة، و أعلن الدستور في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، أنظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (د ت ط) ص ص 31 وما بعدها .

وبعض وجوه دمشق بالانتماء إلى هذه الجمعية¹.

و بموجب قانون الولايات أعيد التنظيم الإداري لبلاد الشام و أصبحت ولاية سوريا تضم كل من دمشق وبيروت و لكن الدولة أعادت التقسيم الإداري فأنشأت ولاية بيروت وأصبح لكل ولاية مجلس إدارة²، إن الجديد الذي نلاحظه في قانون تشكيل الولايات هو إعادة النظر في التقسيمات الإدارية للولاية حيث ضمت ولاية لأخرى وظهرت ولاية جديدة: ففي الشام مثلاً اختفت أيلة صيدا و قسمت بلاد الشام إلى ولايتين هما:

- ولاية سوريا ضمت أيلتي طرابلس و صيدا القديمتين.

-ولاية حلب ضمت أجزاء من الأناضول و الجزيرة، و ظهر اسم ولاية سوريا في " سالنامه" الدولة العثمانية ابتداء من سنة 1865 و استقر هذا الاسم حتى نهاية العهد العثماني، رغم ذلك لم تتمتع سوريا بحدود إدارية ثابتة حيث انفصلت إدارياً عنها لواء القدس عام 1874 الذي أصبح متصرفية مستقلة تابعة للباب العالي مباشرة وتلا هذا الانفصال انفصال آخر نتج عنه انفصال أربعة ألوية و نصف³. ضمت ولاية سوريا الألوية التالية: لواء دمشق أو الشام، لواء حوران، لواء حماه، لواء الكرك أو معان، لواء عكا، لواء طرابلس، لواء بيروت، لواء اللاذقية و لواء نابلس، لواء البلقاء، أما ولاية حلب فقد ضمت لواء حلب، لواء أورفة، لواء مرعش.

للإشارة فإن الدولة العثمانية نظمت جهاز الولاية الإداري حيث حددت مهام و صلاحيات كل موظف فأنشأت المجالس الإدارية المحلية التي أصبح فيها الشعب عنصراً فعالاً.

تشكل الجهاز الإداري من والي ولاية سوريا يحمل لقب باشا أما أركان الولاية يتكونون هم:

-الدفتري دار و النائب المكتوبجي.

-مجلس إدارة الولاية برئاسة والي و أعضاء أكان الولاية .

- كبار موظفي الولاية و هم: مدير المعارف - و آلاي بيك (مهامه تنظيم عساكر الأمن و الضابطة).

-مفتش العدلية، مدير الدفتري الخاقاني، و مدير المصالح الأجنبية و مدير تحرير الويكو، محاسب الأوقاف،

¹-عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق، ص- 87-88.

²-سيار الجميل، المرجع السابق، ص435.

³-عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق، ص. 69.

وباش مدير التيليغراف و البوستة، و رئيس الولاية، و ناظر النفوس، و مدير أوراق الولاية، و بيطري الولاية يقيمون هؤلاء الموظفين في دمشق.

يتكون الجهاز المدني في مركز اللواء من المتصرف (يحمل لقب بيك).

أما أركان اللواء يتكون من مجلس ادارة اللواء، نظارة الأمور المالية، نظارة أمور المعارف، أمور التجارة والزراعة، نظارة في أمور الأمن، نظارة في إجراء الأمور الجنائية و المدنية.

أما الأقضية فكان على رأس كل قضاء من أقضية سوريا موظف برتبة قائم مقام تعينه الدولة و مرجعه الأول متصرف اللواء يقوم بتنفيذ جميع قرارات الدولة، و في النواحي تم تعيين مدير على كل ناحية يقوم بتطبيق قوانين الدولة و إعلان أوامرها في القرى التابعة لناحيته.

لقد ورد في نص قانون الولايات على إشراك الأهالي في تسيير أمور البلاد و لذلك أنشأت ولاية سوريا في تلك الفترة مجالس محلية اشترك فيها الأهالي¹.

يبدو لنا أن بلاد الشام قد تأثرت بالاصلاح القضائي في الدولة العثمانية خاصة المناطق التي تكثر فيها الأقليات المسيحية و رغم حرص و نزاهة جهاز القضاء، إلا أن الفساد و الرشوة تسربت إليه، ضف إلى ذلك التدخل الأجنبي الاوروي في مجال التشريع².

و بموجب نظام الولايات و نظام إدارة الولايات العمومية الذي صدر عام 1871 قسمت ولاية سوريا إلى ألوية و الألوية قسمت إلى أقضية و الأقضية إلى نواح و قرى و محلات و مزارع، هذا التقسيم الإداري غير ثابت جغرافيا لأن أياالة الشام التي كانت قبل عام 1864 و استمر وجودها ضمت ولاية سوريا إلى عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 و التي تتكون من : لواء دمشق "الشام" و لواء حوران و لواء حماه ثم لواء الكرك أو معان، أما الألوية التي ضمت إلى سوريا بعد سنة 1864 ثم انفصلت عنها فهي لواء القدس الذي أصبح يعرف باسم " قدس شريف سنجاعي" و ألوية طرابلس وبيروت وعكا واللاذقية و نابلس³.

¹- غانية بعيو، التنظيمات العثمانية و آثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجا 1839-1876، مذكرة لنيل شهادة

الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص- ص 174 ومابعدا

²- نفس المرجع، ص189.

³-عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864- 1914، المرجع السابق، ص71.

و في 1873 فصلت متصرفية القدس عن ولاية سوريا و أصبحت تابعة مباشرة لاستانبول و السبب في ذلك كثرة مشاكل هذه المتصرفية نظرا لتنافس قناصل الدول الأوروبية و تضارب مصالحهم و عجز الوالي في حل هذه المشاكل لحساسيتها بالنسبة للباب العالي¹.

عرف قانون الولايات 1864 عدة تعديلات عام 1870 و عام 1880 و هو تنظيم وضعته الدولة للسيطرة على الولايات حيث أصبحت الإدارات المحلية تابعة للسلطة المركزية و صار الباب العالي يسيطر عليها سيطرة تامة و قد أصبح الموظفون مكان الولاة الملتزمين يتقاضون رواتبهم من الحكومة مرتبطون بقوانينها وينفذون أوامرها².

من خلال ذلك يتضح لنا أن التنظيمات العثمانية طبقت في ولايات بلاد الشام (سوريا و بيروت و حلب و متصرفية القدس) بسرعة و شمول قبل غيرها من الولايات العربية الأخرى³.

في آخر عهد السلطان عبد العزيز صدر خط الاصلاحات و التنظيمات الجديدة بتاريخ 13 ديسمبر 1874 جاء فيه:

- المساواة بين جميع أصناف رعايا الدولة مع استمرار الإمتيازات للطوائف الغير اسلامية .

- السماح لغير المسلمين العمل في أجهزة الدولة⁴.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح الوالي يقوم بدورات تفتيشية في أرجاء الولاية يتفقد الأحوال فيها، وكان أثناء هذه الجولة يرفع تقارير إلى الباب العالي أينما كان فإذا كان في لواء حوران مثلا كتب في نهاية تقريره "عن حوران"، وكان الوالي يستشير الحكومة قبل قبول الأوسمة من ملوك الدول الأجنبية، كما يقترح على الدولة منح بعض القناصل الأجانب الأوسمة الحكومية لقاء ما قدموا من خدمات للولاية⁵. كما حددت الحكومة العثمانية مدة حكم الولاة بالولاية، ولذلك أهمل هؤلاء الولاة الشؤون العامة و الاصلاحات الداخلية واهتموا بجمع الأموال التي ستقدم للسلطان والوزارة و الحاشية من أجل تمديد مدة الولاية وهكذا أرهق العرب بالضرائب الباهظة التي تجمع عن طريق العنف والإرهاب والقليل منها ما يستغل في إصلاح شؤون الولاية، ومن أجل استمرار الحكم العثماني على الأقطار العربية

¹- المرجع السابق، ص 271.

²-توفيق برو، "نظرات في نشوء وتطور فكرة القومية العربية"، مجلة سيرتا، ع4، المرجع السابق، ص، 70، 105.

³- علي شكيب، المرجع السابق.

⁴- عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق، ص- ص31 - 34.

⁵- نفس المرجع السابق، ص88.

عملت السلطنة على أن تبقى كل فئات المجتمع في صراع دائم، فسخرت السلطنة هذه الفئات في كسب رضا السلطان و خدمة السلطنة¹.

لقد واجهت التنظيمات و الاصلاحات التي اصدرتها الدولة العثمانية صعوبات داخلية و خارجية تتمثل بالصعوبات الداخلية في تمسك العناصر المحافظة في الدولة العثمانية بالأنظمة السابقة و المضاعف المالية وعدم رغبة بعض السلاطين في اشتراك الشعب في المناصب الإدارية الهامة و الحساسة²، أما الصعوبات الخارجية فتكمن في عدم استقرار الاوضاع في البلقان، و التدخل الاجنبي في شؤون الدولة العثمانية و ولاياتها و هذا ما جعل الدولة تصرف نظرها عن التفكير ببعض الإصلاحات³.

4-تنظيم الشؤون الطائفية:

أدى نظام الامتيازات و الانفتاح على الغرب إلى عدم التوازن في العلاقات ما بين الطوائف داخل المجتمع العثماني ثقافيا و سياسيا و اقتصاديا⁴، لأن الحرية التي تمتعت بها كل ملة و طائفة استغلتها الدول الأوربية في تحقيق مكاسب اقتصادية و حتى سياسية⁵، حيث كثفت نشاطها التنصيري و أرسلت المبشرين

¹-علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق ، ص 191

²- يرى الياس شوفاني أن الدولة العثمانية فرضت قبضتها على فلسطين و بلاد الشام اداريا و ماليا و أمنيا، و ذلك راجع لعدة أسباب "منها اشراك السكان المحليين في إدارة شؤون مناطقهم إلى جانب الحاكم التركي فاستقرت إلى حد معين الإدارة في الولايات إذ جرى تحديثها و تطوير أسلوب عملها و استوعبت الإدارة الزعماء المحليين في جهازها كموظفين خاضعين لقانون الدولة و ليس كمتعاقدين معها، و قد تم ذلك بعد إضعاف هؤلاء الزعماء و خلخله موقعهم الاجتماعي دون انخائهم فتعاونوا مع السلطة للحفاظ على ما تبقى لهم من تأثير، و نلاحظ أسماء هؤلاء في الوظائف الحكومية و المجالس الشعبية في الألوية والأفضية و المدن." أنظر: الياس شوفاني ، المرجع السابق ، ص283.

³-عبد العوز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق ، ص-ص36-37.

⁴- لعبت الامتيازات الاجنبية دورا فعالا في اكتساب شريحة واسعة من أصحاب النفوذ، و للسلطة العثمانية في المنطقة مسؤولية هذا الوضع لأن الغرب حصر علاقاته التجارية مع الأقليات في السلطنة و حولها إلى قوة اقتصادية هامة و أشركها في امتيازاته، و بالتالي انقسم المجتمع الشامي إلى غالبية عديدة من طائفة معينة تحتكر القرار السياسي و أقلية من طوائف أخرى يمسك بمفاصل اقتصاد المنطقة و مع مرور الزمن أصبحت الركيزة التي تعتمد عليها الدول الاجنبية في بلاد الشام، حاولت الدولة العثمانية عن طريق بعض الاصلاحات في بلاد الشام إعادة تماسك النسيج المجتمعي العثماني، إلا أن الأقليات استندت على الحكم الغربي الذي ضغط على السلطة بإجراء اصلاحات خاصة لصالح الذميين فنصت فرمانات على مبدأ المساواة في الحقوق بين المسلمين والنصارى، و لذلك استطاع أبناء الفئة الثانية أن يؤثروا و يصلوا إلى مختلف المناصب الإدارية و القضائية و غيرها وأصبحت تطالب بالمزيد من الحقوق و م تر في العثمنا ما يحقق طموحاتها و هذا ما أدى إلى تفجير الفتن الطائفية خاصة في جبل لبنان. أنظر:علي شكيب، المرجع السابق.

⁵- شفيق محسن ، "المسألة الشرقية الامتيازات الاجنبية و تأثيرها في الامبراطورية العثمانية"، الاجتهاد ع44، المرجع السابق،

على شكل تجار و علماء و رحالة فأسسوا المدارس في بلاد الشام أدى ذلك إلتعميق النعرات المذهبية والعنصرية والطائفية وإثارت الفتن للتدخل تحت ذريعة حماية أقلياتها¹. ففرنسا مثلاً عملت على بعث العصبية المارونية² لأن سياسة فرنسا الإستعمارية المعلنة في الشرق قائمة على حماية الأقليات الدينية و في هذا السياق يذكر الوزير غسان سلامة: "كانت فرنسا حريصة على إعطاء العصبية المارونية المتحالفة معها منذ قرون مجالاً للتعبير السياسي المستقل عن ذاتها في القرن العشرين"³. و لذلك إقترح القنصل الفرنسي في بيروت (بوريه) إقامة إمارة كاثوليكية في جبل لبنان⁴.

عرفت لبنان في الفترة الممتدة ما بين 1840 – 1860 ثلاث فتن أهلية و تعتبر الأخيرة أخطرهما .

ترجع أسباب هذه الفتن إلى:

- اعتماد ابراهيم باشا على المسيحيين في تسيير الأمور الإدارية كما اعتاد في مصر و لأنهم أيدوه في دخول سوريا فإستعانهم في تكوين جيشه، إلا أن اصحاب النفوذ من أغوات و متفذين الذين ساءهم حكم ابراهيم باشا و لم تعجبهم إصلاحاته استغلوا ذلك لمعارضة حكمه⁴.

-أدى التدخل الأجنبي في لبنان خاصة من فرنسا و بريطانيا إلى مشكلات عرقية وطبقية ودينية، فجميع المذابح التي وقعت في المنطقة صنعتها أصابع أجنبية⁵ وأحياناً بواسطة المبشرين لأنهم يتجسسون لدولهم سياسياً وعسكرياً وعملوا على نشر الفتنة بين السكان: ففي لبنان مثلاً نجد الدرّوز يعتمدون على الحماية الانجليزية ويفضلون المدارس الأمريكية، أما الموارنة فيعتمدون على فرنسا و يفضلون المدارس التابعة لها⁶.

¹ - هيلة بنت سعد بن محمد السليمي، المرجع السابق ، ص 122.

² - و في الحقيقة بدأت المخططات الفرنسية لتحويل المناطق المسيحية- المارونية بالتحديد - في الإمارة الشهابية إلى مركز إنطلاق لنفوذها في المناطق السورية كانت سنة 1840 و لذا سعت فرنسا على إنشاء قائممقامية مسيحية تكون نواة للنفوذ الفرنسي، وهي التي مهدت الطريق فيما بعد لولادة لبنان الكبير عام 1920. أنظر: علي محمد الآغا ، الاتجاهات السياسية في لبنان (1920-1982)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991، ص 53.

³ - علي شكيب ، المرجع السابق.

⁴ -مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا ، المرجع السابق، ص 18.

⁵ - يرى نقيب أشراف دمشق الشيخ أبو السعود الحسيبي أن الفتنة التي حدثت في لبنان و دمشق و غيرها من المدن السورية سنة 1860 تعود أسبابها إلى سيطرة و نفوذ القناصل و تشجيعهم للمسيحيين على التمرد، أنظر: عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص 102.

⁶ - مصطفى خالدي، عمر فروخ، التبشير و الاستعمار في البلاد العربية، ط5، المكتبة العصرية، بيروت، 1973، ص - ص 135-137.

- أحدث الأتراك عن طريق تعسف ولائهم عدة مشاكل كالإبادة الجماعية في حق الأقليات والطوائف¹، و في هذا الصدد كتب قنصل إنجلترا في دمشق سنة 1841 إلى نجيب باشا كتابا يذكر فيه: "إذا كانت الحكومة ترغب حقيقة في استتباب الأمن ففي وسعها أن تبدأ بإظهار حسن نيتها فتمنع تخريب القرى وتدمير أماكن العبادة الكائنة على بضع خطوات من دمشق، أن نزع السلاح من يد الشاميين عامة أمر مرغوب فيه... بيد أن رأينا هذه الوسيلة محظورة على نصاري لبنان الغربي و لبنان الشرقي، على حين يسمح لسائر أتباع السلطنة لحفظ أسلحتهم..."²، غير أن بعض المؤرخين يرون أن الدولة العثمانية صدرت التنظيمات من أجل إلغاء التناقض الموجود بين الطوائف الدينية و جعل المسيحيين متساويين أمام القانون مع المسلمين، لكنها عجزت على تطبيق مبدأ المساواة بين كافة رعايا الدولة العثمانية حيث إستمرت الخدمة العسكرية مقصورة على المسلمين فقط و بقيت الوظائف العامة و لا سيما الإدارية منها و القضائية مقصورة على المسلمين وحدهم، أثر هذا الوضع على الولايات العربية خاصة بلاد الشام نظرا لكثرة الأقليات المسيحية، فالمسيحيون ينظرون إلى التنظيمات على أنها تعطيهم نفس الحقوق التي يتمتع بها المسلمون بينما إعتبرها المسلمون هي السبب في تمتع المسيحيين بوضع اجتماعي جيد عما كانوا عليه من قبل³.

إن الفتنة الأولى التي إندلعت سنة 1841 أدت إلى تقسيم جبل لبنان إلى قائم قامتين الشمالية مسيحية و الجنوبية درزية، هذا التقسيم زاد في إحتكاك الطائفتين لأن سكان القائم قامتين عبارة عن مزيج من الدروز و النصارى⁴، بالإضافة إلى ذلك سلمت الحكومة العثمانية لبنان إلى قائمقامين اقطاعيين محليين أحدهما درزي و الآخر ماروني و ألغت الحكم المباشر، نتج عن هذه التغيرات السطحية حرب أهلية أخرى سنة 1845، و يبدو أن النظام الجديد -القائمقامتين- أدى إلى انقسامات حادة في بنية الطائفة الواحدة⁵.

وبالتالي أرسل الباب العالي وزير الخارجية شكيب أفندي لتثبيت نظام القائمقامية الذي ظل سائر المفعول إلى غاية سنة 1860 فعمل على نشر الأمن و الحد من سلطة الأمراء و الوجهاء⁶.

¹- سيار الجميل، المرجع السابق، ص 429

²- محمد كرد، المرجع السابق، ص 75.

³- محمد عبد الرحمن، بروج المرجع السابق، ص 63.

⁴- زهية قدورة، المرجع السابق، ص 294.

⁵- سيار الجميل، المرجع السابق، ص - ص 430 - 432.

⁶- فليب حتى، المرجع السابق، ص 529.

إلا أن الصراع تجدد في 26 ماي 1860 عندما عقد دروز جبل التيم و حوران إتفاقية سرية بداية السنة لمواجهة الموارنة، إلا أن مسؤولية المذبحة اشترك فيها الموارنة و الدروز و الأتراك، خلفت المجازر حوالي مقتل 6000 مسيحي في لبنان و 5000 في دمشق.

و أمام تطور وخطورة الوضع رست باخرة فرنسية في سبتمبر 1860 على سواحل بيروت كما أرسلت الحكومة العثمانية فؤاد باشا وزير خارجيتها للوقوف على أسباب المجزرة و معاقبة المتسببين فيها، فاقترح هذا الأخير على القوات الفرنسية السيطرة على دير القمر أما القوات التركية فتقطع طريق حوران لكي تبقى القوات الدرزية، لكن القوات التركية لم تصل في الوقت المناسب لإلقاء القبض على المتسببين في الحرب.

وما كان على فؤاد باشا إلا استعمال القوة للسيطرة على الوضع مخالفا للقوانين فتم إعدام باشا دمشق وعزل باشا بيروت و إعدام 150 مواطن و نفي حوالي 100 آخرين إلى طرابلس¹.

حسب الوثائق المعاصرة للفتنة فإن لليهود يد فيها و لذلك ألقى فؤاد باشا على عدد كبير من اليهود، ما دفع أعيانهم في الشام إلى إرسال مذكرة إلى اليهودي البريطاني السير مونتيفوري Montefiore يطلبون منه التدخل لحمايتهم و التوسط لهم لدى ملكة بريطانيا " الملكة فيكتوريا" لتحرير المعتقلين اليهود و لقد تدخلت الملكة عن طريق قنصلها في استانبول من أجل إطلاق سراح أسرى اليهود المعتقلين².

لقد لعب الأمير عبد القادر الجزائري دورا فعالا في تهدئة النفوس و حماية المسيحيين في دمشق³. وفي هذا الصدد كتب وزير خارجية فرنسا للأمير عبد القادر ما يلي: "أيها الأمير السامي إن خبر الحوادث الشامية وقد طرق مسامع الدولة الفرنسية و أجابه لطاعة مولاي الإمبراطور و إرادته بادرت الآن بإعلان إعتباره السامي و التشكر الوافر من طرف جلالته على السعي الذي تكرمت به على الأهالي المسيحيين و الرهابات و المبعوثين الفرنسيين و جمهور القناصل بتلك الواقعة المحزنة و المزية العظيمة في ذلك هي مشاهدة ذمتكم العلية التي جعلتكم وقاية لحياة ألوف من المساكين ... في وقت كان الأشقياء الخارجون عن الطاعة يرتكبون القبائح ..."⁴.

¹- Jean-Pierre Alem et Patric Bourrat, op.cit , pp 36-37.

²- هيلة بنت سعد بن محمد السليمي، المرجع السابق، ص 124.

³- زهية قدورة ، المرجع السابق، ص، ص 298 ، 301 .

⁴- تحفة الزائر في مآثر الامير عيد القادر و أخبار الجزائر، ج2، المطبعة التجارية عزروزي و جاويش، الاسكندرية، 1903، ص

نتائجها:

1- كان من الصعب ترك الجبل على ذلك الحال فالحكم المباشر يثير ثائرة الموارد و البعد عنه يثير ثائرة الدروز¹، ولذلك عقد مؤتمر دولي في بيروت في 5 أكتوبر 1861 حضره ممثلون عن الدولة العثمانية وبريطانيا و فرنسا و النمسا و روسيا و بروسيا ، اتفق المؤتمر على مايلي:

-بتعويض المسيحيين و تشكيل الإدارة في لبنان .

- جعل لبنان متصرفية ممتازة يحكمها متصرف مسيحي عثماني يعينه السلطان لمدة خمس سنوات² ويكون تابعا للباب العالي مباشرة³.

-تخضع لبنان لنظام إداري خاص عرف باسم النظام الأساسي.

-تتكون متصرفية جبل لبنان من سبعة أفضية و هي: جزين، الشوف، المتن ، كسروان، البترون، الكورة، و زحلة.

2-أنشأت الحكومة اللبنانية ضابطة من أبناء البلاد من أجل حفظ الأمن في الجبل و عند الضرورة بإمكان المتصرف " أن يطلب من القيادة العسكرية العثمانية في سوريا إمداده بالجنود، كما كان يتصرفه في بيت الدين مفرزة من الجيش ترابط بصورة دائمة في هذا المركز " يتميز أفرادها بحسن الخلق و لا يتدخلون في شؤون اللبنانيين، أما من الناحية المالية فكانت خزينة الدولة تسد ميزانية الجبل في حالة العجز، كما منحت الدولة العثمانية باقي الولايات نظاما إداريا جديدا لا يختلف عن نظام جبل لبنان⁴.

3-تعامل قناصل فرنسا في الشام مع الموارد على أساس العلاقة الخاصة بينهم و بين فرنسا، فتجرأ الموارد باتخاذ خطوات تتصف بالتعصب للمسيحية، و نظرا لعجز السلطات الحاكمة (العثمانية أو القائد مقامية) و انتشار السلاح بين الأهالي و النشاط التنصيري و التدخل الأجنبي لصالح المسيحيين وقعت صدمات بين الموارد و الدروز امتدت المعارك من لبنان إلى دمشق.

¹-أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية، ط8، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1990 ص653.

²-عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص106.

³-رغم نظام جبل لبنان الإداري الذي فرضته الدول المتآمرة على سلامة و وحدة لبنان فانه لم يطبق على الوجه الصحيح حيث رجع الحكم المركزي من جديد، و تعتبر هذه الفترة الصعبة التي تمر بها لبنان فترة نضال حكام الأمراء اللبنانيين و بداية عهد المتصرفية أي حكم المتصرف العثماني تحت اشراف خمسة دول أوربية. أنظر: فليب حتي ، المرجع السابق، ص525.

⁴- علي معطي : تاريخ لبنان السياسي و الاجتماعي (دراسة في العلاقات العربية التركية 1908 - 1918) ، ط 1، مؤسسة عز الدين للطباعة ، بيروت، 1992، ص- ص11- 13.

4- رغم الخلافات التي كانت بين الدول الأوروبية إلا أنها اتفقت إلى عدم عودة سيطرة الدولة العثمانية على الجبل و تكوين قوة أوروبية نصفها فرنسي¹ تعمل على إعادة الهدوء و السكنينة إلى الشام و لكن الحقيقة كانت الحملة فرنسية²، و بقي نظام الجبل هو نظام المتصرفية يرأسه مسيحي من غير أهل البلاد ويساعده مجلس إداري يتألف من اثني عشر عضوا (مارونيان-ودرزبان- واثنان من كل من الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس و الشيعة- المتأولة- و المسلمون السنة) و استمرت هذه الوضعية حوالي نصف قرن أي إلى الحرب العالمية الأولى تمتعت فيها لبنان بمؤسسة ديمقراطية وضعت أسس الطائفية وأصبح للبنان وضع خاص.

5- و في عام 1864 قرر مؤتمر سفراء الدول الكبرى في استانبول على إعادة تشكيل مجلس الإدارة بحيث أصبح يتكون من أربع موارد -دعم الطائفة المارونية- و ثلاثة من الدروز و اثنين من الروم الأرثوذكس وواحد من كل من الروم الكاثوليك و السنة الشيعية³.

6- تعتبر فتنه 1860 السبب المباشر في استقلال لبنان⁴ بضمان الدول الأوروبية⁵، و في نفس الوقت نقمة عليه لأنه حقق للدول الأوروبية أهدافها الاستعمارية حيث تقرر في المؤتمر الدولي الذي انعقد في بيروت أن يتولى إدارة الجبل متصرف مسيحي يعين من طرف الدولة العلية برضا الدول الأوربية الكبرى. هذا المتصرف (الحاكم) يجب أن يكون نصرانيا أوروبيا من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لا وطنيا

¹ - استعانت جماعة الذميين بالقوى الخارجية في صراعها المحلي و هكذا تنافست الدول الأوروبية لاستغلال المناسبة: ففرنسا مثلا أرسلت قطعاً من أسطولها و حتى إيطاليا دخلت إلى سجل التنافس فقد أرسل الكونت كافور في 19 أكتوبر 1860 رسالة إلى وزير خارجية بريطانيا يؤكد حق بلاده في المشاركة في حل المسألة في جبل لبنان و ألح على ضرورة الإطلاع الكامل على المفاوضات السرية المتعلقة بهذه المسألة و بالذات بين الدول الكبرى و السلطنة العثمانية، أنظر: علي شكيب ، المرجع السابق.

² - التجأت فرنسا إلى حجج ذات صبغة تاريخية و ثقافية واقتصادية من أجل تغطية أطماعها الاستعمارية في المنطقة فتظاهرت بحماية السكان الوطنيين تجاه ظلم السلطنة العثمانية، و هي التياحت بعد الفتنه على القوى الأوربية الخمس الكبرى إيقاف القمع و التدخل عسكريا لصالح السكان المسيحيين في لبنان، و في المؤتمر الديبلوماسي الذي عقد في السنة التالية في استانبول لمناقشة مشروع تقسيم المنطقة إلى عدة قائم مقاميات و استطاعت ان تعهد بالسلطة الوحيدة إلى مسيحي بالجبل، أنظر: مصطفى كريم ، المنافسة الامبريالية الفرنسية الانجليزية و الاحتلال الفرنسي لسوريا و لبنان، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، المرجع السابق، ص 324.

³ - محمود صالح منسي: الشرق العربي المعاصر، مكتبة الأسكندرية، 1990، ص-ص 222- 224.

⁴ - في خضم مذابح 1860 ، وضعت اركان الحرب الفرنسية خارطة لبنان الكبير الذي سيولد عام 1920. أنظر : علي شكيب المرجع السابق.

⁵ - فليب حتي، المرجع السابق، ص 544

سوريا مسلما أو مسيحياً¹، فتح ذلك المجال لتغلغل و نفوذ الإرساليات التبشيرية التي كانت لها أهداف سياسية التي إستغلها الاستعمار فيما بعد لضرب وحدة البلاد فأيقظت الشعور القومي العربي².

7- أجبرت فتنة 1860 الدولة العثمانية على منح لبنان إدارة ذاتية و جعلت بيروت متصرفية لواء مربوطا بدمشق، و نظرا لأهمية بيروت و المدن الساحلية التجأت الدولة إلى إعادة تشكيل ولاية ساحلية في سوريا سميتها باسم مركزها بيروت و ربطت بها ألوية طرابلس و اللاذقية و عكا و نابلس فأصبحت ولاية كبيرة تضم أكثر الساحل السوري و جميع الموانئ الرئيسية في سوريا يقطنها حوالي ثلث مليون نسمة و تضم نصف قرى بلاد الشام كله فكثرت طوائف هذه الولاية و ازداد سكانها قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى أدى هذا التزايد إلى ضياع الأكثرية الإسلامية السنية³.

8- خراب قسم كبير من مدينة دمشق و مئات من القرى في لبنان و زحلة و حاصبيا و راشيا و دير القمر و كذلك هجرة النصارى إلى مصر و قبرص و اليونان و إستانبول، لو قام الأعيان و المشايخ بواجبهم لما كانت هذه المذابح و الخسائر و لولا انحصار الفتنة في وسط لبنان لكانت الخسائر فادحة خاصة أن يوسف كرم حال دون وصول الدروز إلى الشمال⁴.

9- ظهور شعور قومي بين سكان سوريا و لبنان مسيحيين أو مسلمين خاصة عند بعض المثقفين العرب كناصف اليازجي و بطرس البستاني اللذان دافعا عن اللغة العربية⁵.

10- بالرغم من مأساة 1860 إلا أنها تعتبر حدثا هاما في تاريخ الحركة الفكرية في الشام، حيث تميزت الحركة التعليمية بالنشاط و السرعة نظرا لعدد البعثات التبشيرية التي وصلت إلى هذه المنطقة كما أن وضع لبنان الجديد ساعد البعثات التبشيرية التي كانت موجودة قبل هذه الأحداث في مضاعفة نشاطها و لذلك فإن أول دعاة الحركة العربية كان من المسيحيين العرب⁶. و التي تعتبر بمثابة البذور الأولى لفكرة القومية العربية الخالصة المتجردة من الاعتبارات الدينية⁷.

¹- مصطفى خالدي، عمرفوخ، المرجع السابق، ص 143.

²- زهية قدورة، المرجع السابق، ص 301.

³- عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص - ص 86 - 87.

⁴- محمد كرد، المرجع السابق، ص - ص 91 - 92.

⁵- Dominique Soudrel, op.cit, p 111.

⁶- تأسست أول جمعية عربية في بيروت 1847 وهي "جمعية الآداب والعلوم" على يد المرسلون الأمريكيون بالتعاون مع بطرس البستاني وناصف ليازجي، وفي عام 1852 أسس الأمير محمد أرسلان "الجمعية العلمية السورية" ضمت حوالي 150 عضوا من مختلف الطوائف انظر: علي شكيب، المرجع السابق.

⁷- محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق ص 79.

5- الناحية العسكرية:

إن الاقطاع العسكري أساس تشكيلات البنية الإدارية و السياسية و الاقتصادية و الإجتماعية للمجتمع العربي أي عسكرة الإدارة و السلطة و المجتمع، فالولاية تتكون من عدة سناجق يدير شؤونها " بكليكي " أي " رئيس البكوات " و هو رئيس الجهاز الحاكم في الولاية .

غير أن نظام الإقطاع العسكري بوجهيه التيماري و الزعامت إنهار وحل محله نظام الإنكشارية، فأحلت الدولة نظام الإلتزام، استمر هذا الوضع إلى أواسط القرن التاسع عشر، فالإنكشارية هي التي تقوم بتحصيل الضرائب و الخراج و قمع الثورات: ففي دمشق مثلاً انقسمت الإنكشارية إلى فرقتين: فرقة القابي قول الموالية للإدارة المركزية، و فرقة الإنكشارية المحلية ضمت في صفوفها عناصر من أهالي المدينة تضم هذه الفرقة أبناء عائلات أعيانية محلية اعتمدت في صعودها الاجتماعي و الاقتصادي على حماية قوافل الحج، و تحصيل الضرائب في الأراضي الزراعية في أرياف حمص - حماة و على منحدرات جبال لبنان الشرقية و في البقاع و السهول الواقعة جنوب و جنوب شرق دمشق و حوران، و من هذه العائلات عائلة التركماني و الشملي و الباروني... الخ و عائلات أخرى حملت ألقاباً عسكرية مثل عائلة آل الجندي في سوريا، تمكن أبناء هذه العائلات أن يملئوا الفراغ السياسي بعد رحيل الأتراك من المقاطعات العربية¹.

أثناء عهد إبراهيم باشا وقعت عداوة بين الدروز و النصارى، فطلب إبراهيم باشا من الدروز جنوداً إلا أنهم رفضوا و أعلنوا عليه الحرب في وادي التيم و جبل حوران فاستعان عليهم بالنصاري و جردهم من أسلحتهم و قوى بها النصاري، و عند عودة الدولة العثمانية وقع بين الدروز و النصاري خلاف و شقاق من جديد فعينت الدولة العثمانية عمر باشا المجري على الجبل إلا أن الدروز قويت شوكتهم و تغلبوا على عمر باشا لكن هذا الأخير و بأمر من الدولة العثمانية قبض على أمرائهم و اعتقلهم في بيروت منهم الأمير أحمد أرسلان².

أنشأت الدولة العثمانية في عهد التنظيمات الجيش الخامس في بلاد الشام مقره دمشق شمل جميع ولايات الشام عرف هذا الجيش أيضاً بإسم عربستان و فرضت على الأهالي التجنيد الإجباري، و من أجل هذا الغرض أنشأت الدولة المدارس العسكرية و اتبعت في تحصيله أسلوب القرعة التي يبعثها السلطان عن طريق فرمان في كل سنة، حيث تشرف الدولة على تطبيق نظام القرعة في العديد من الولايات و ألوية بلاد الشام، رغم إجراء عملية القرعة إلا أن أهالي الشام يتذمرون من الانخراط في

¹ - محمد مراد، المرجع السابق، ص - ص 47-48.

² - تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر، المرجع السابق، ص - ص 91-92.

الجندية،¹ لأن أبناء سوريا في العهد العثماني الأول كانوا لا يؤدون الخدمة العسكرية و لما عادت الدولة العثمانية إلى بلاد الشام طبقت نظام التجنيد الإجباري حيث جاء في خط كلخانة: "إن الجندية فريضة على الأهالي و أن إعطاء العساكر لأجل محافظة الوطن هو فرائض ذمة الأهالي". و تعتبر حوادث 1860 فرصة مواتية للتجنيد حيث جند فؤاد باشا حوالي ألفي شخص من أبناء الشام إلى العسكرية، إلا أن والي سوريا فشل في تطبيق نظام التجنيد على العريان لأنهم امتنعوا عن الحضور من أجل إجراء القرعة الشرعية²، عموماً لم تحقق محاولات تنظيم التجنيد الإلزامي نجاحاً كبيراً في بلاد الشام كلها حيث قاومه الزعماء المحليون و كذلك السكان كل لأسبابه الخاصة³.

رغم أن القانون العثماني الخاص بالخدمة العسكرية عمل على توسيع نطاق اجراء المعاينة للقرعة الشرعية إلا أن التطبيق الفعلي في ولايات الشام ظل مقتصرًا على المسلمين فقط، أما المسيحيون فكانوا يدفعون ضريبة (البديل العسكرية) و كان رؤساء الطوائف المكلفون بجمعها يتباطؤون في دفعها للدولة بانتظام.

فيما يخص جهاز الأمن فقد اهتمت الدولة بتنظيمه و أصبح بموجب نظام الولايات 1864 تحت إمارة الوالي و له الحق في نقل هذه القوات من مكان إلى آخر، كما عينت الدولة ضابطاً (آلاي بيك) قائداً لقوات الأمن مرتبطاً بالوالي مباشرة و حددت نظام مدة الخدمة في سلك الضابطة بستين كاملتين أما سن القبول فيتراوح من 20 إلى 50 سنة، تقوم الضابطة بالمحافظة على الأمن و النظام .

تنقسم قوات الأمن في ولاية سوريا في عهد التنظيمات إلى ثلاث أنواع:

- قوة الدرك الجندارمة تشرف على حفظ الأمن.
- قوة الشرطة تقوم بتبليغ المذكرات الإدارية و العدلية في مراكز الاقضية و تساعد مشايخ القرى على جباية أموال الاميرية.
- قوة المفتشين (البوليس) تحقق في المخالفات و مراقبة الأجانب.

رغم التنظيمات التي قامت بها الدولة لتنظيم جهاز الأمن إلا أنه فشل في أداء وظيفته الأمنية الاجتماعية كما ينبغي حيث يذكر أحد المراقبين الدمشقيين المعاصري لفترة التنظيمات ما يلي: " لم يكن للإدارة الحكومية تأثيراً يذكر في ضبط الأمن فكان أكثر المخافر يصدون مخافهم بعد الغروب و تبقى كذلك إلى الصباح، و كانت قوى الأمن تعرف باسم الضابطية و كان هؤلاء مضرب الأمثال بقلّة المروءة

¹- غانية بعيو، المرجع السابق، ص 190.

²-عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق ، ص147.

³-الياس شوفاني ، المرجع السابق، ص 273.

و الجبن" يبدوا أن الضابطية يحافظون على مركز مخافهم و أنفسهم و اعتمدوا على الرشوة في حل القضايا و النزاعات¹.

نظرا لتمرّد بعض القبائل في عام 1867 جهز والي دمشق رشيد باشا حملة ضد قبائل شرقي الأردن في الشمال و الوسط للحد من خطورتهم تجاه قافلة الحج، و من أجل حمايتها فصلت الحكومة العثمانية بين منصب ولاية دمشق و منصب إمارة القافلة كما ضغطت على القبائل البدوية و وضع حد لقواتها: ففي سنة 1873 جهز متصرف نابلس حملة عسكرية ضد القبائل البدوية في البلقاء و الكرك و معان وأخضعت قبيلة بني صخر التي تعود زعمائها على حماية قافلة الحج .

تميزت العلاقة بين الحكومة العثمانية و القبائل البدوية بالمد و الجزر أثر ذلك على سلامة قافلة الحجاج و خير مثال على ذلك هجوم بني صخر على القافلة سنة 1876، رغم ذلك فإن وضع الحجاج قد تحسن عن الفترات السابقة و هذا ما يصفه سلاه مرل (Selah-Merrill) أثناء رحلته إلى شرق الأردن حين ذكر أن نفقات القافلة قد إنخفضت عن الفترات السابقة و كما أن الحكومة عقدت إتفاقيات مع القبائل البدوية أن تقدم الجمال لقافلة الحج².

إن الإمتيازات الدينية التي تمتعت بها الدول الأوروبية في الولايات التابعة للدولة العثمانية خاصة في بلاد الشام فتحت الباب على مصرعيه أمام تدخل هذه الدول في شؤون الدولة العثمانية تحت غطاء حق حماية رعاياها المسيحيين من أرثوذكس و كاثوليك و حتى اليهود، و كذا حماية ترميم الأماكن المقدسة و بالتالي ظهرت هناك مسألة حماية الأقليات، لكن الحقيقة كانت أبعد من ذلك فقد استطاعت هذه الدول أن تحصل على امتيازات اقتصادية وسياسية أدخل المنطقة في صراع دموي و خير دليل على ذلك الفتن التي عرفت لبنان و مناطق أخرى من الشام، و في الوقت الحاضر و في نفس المنطقة عموما تثير هذه الدول الغريبة

وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية الفتن الدينية بين السنة و الشيعة و بين المسلمين و المسيحيين، ولم تسلم المنطقة من الحروب العرقية و هذا ما يحدث الآن في سوريا و في العراق و في مناطق أخرى من البلاد العربية، تحت شعار الربيع العربي هدفه إقامة أنظمة ديمقراطية و ما هو إلا إرهاب لتفتيت المنطقة إلى حكومات ضعيفة تعتمد على العنف دون مراعاة القانون الدولي و لاحقوق الإنسان.

¹-غانية بعيو، المرجع السابق، ص-ص 191 وما بعدها.

²-إبراهيم فاعور الشرعة، المرجع السابق، ص- ص 42 وما بعدها.

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية

فتحت حرب القرم ومؤتمر باريس سنة 1856 بابا جديداً أمام التغلغل والتدخل الأجنبي حيث تعهدت تركيا في الخط الهمايوني بمنح إمتيازات للرأسماليين الأجانب في المنطقة و استطاعت فرنسا أن تحتكر في سوريا و لبنان إنتاج التبغ و الحرير¹.

1-الضرائب:

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نظمت الدولة العثمانية طريقة جباية الضرائب و تحصيلها حيث أصدرت عدة قوانين و أنظمة ضرائبية للتقليل من مساوئ نظام الالتزام الذي كان شائعاً في بلاد الشام: ففي سنة 1839 أصبحت تستوفي رسوم الأعشار عن طريق الأمانة²، و لكنها عادت في سنة 1842 إلى أسلوب الالتزام و بقي نظام الالتزام و الأمانة بالتداول حسب ظروف الدولة التي حرصت عندما لجأت التطبيق هذا النظام أن تحصل على أعلى نسبة من الأموال الأميرية المفروضة على الأهالي بأقل التكاليف و النفقات و بدون اللجوء إلى استعمال جهاز كبير من المحصلين³.

و في عام 1846 عهدت الدولة العثمانية تحصيل الأعشار لموظفيها لمدة 5 سنوات، و في سنة 1858 أصدرت نظام استيفاء الواردات العشرية و الرسومية من الملتزمين تهدف الدولة من وراء ذلك تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين مراعاة مصلحة الخزينة، و استثنى هذا النظام بعض الحالات التي لا يمكن للملتزم أن يقوموا بالتزاماته المالية، ثم أصدرت نظاماً يتعلق باستفاء الواردات العشرية عن الحبوب و القطن دون أن يأخذ الملتزمين و اتباعهم أي شئ من الأهالي مجاناً، و كان الجباة أحياناً يجدون صعوبات كبيرة في استفاء الضرائب و تحصيل البقايا.

نظراً لعدم كفاءة جهاز الضرائب و التقصير في جمعها كانت الأموال تتراكم على الأهالي الذين يشكون من تعسف الملتزمين و من إعفاء اصحاب النفوذ من الأعشار و الرسوم التي يتحمل أعبائها الفلاحون، ومن عدم جباية الضرائب من الطوائف الغير إسلامية نظراً لدسائس القناصل الذين يحرضونهم بعدم دفع الإعانة العسكرية⁴.

¹-صلاح الدين القاسمي ، والمفهوم الحديث للقومية، تحريز ناجي علوش، الحركة القومية العربية في مائة عام ،المرجع السابق، ص130.

²-غانية بعيو، المرجع السابق، ص 196.

³-عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق، ص، ص 184، 187.

⁴- غانية بعيو، المرجع السابق، ص 197 وما بعدها.

و على الرغم من كل محاولات السلطة تنظيم جباية الضرائب مباشرة من السكان عبر موظفي الدولة فقد ظل الالتزام سائدا في بلاد الشام و بقي اساسا لاستمرار تولي الزعماء المحليين مهمة الجباية من أجل الحفاظ على نفوذهم في مناطقهم و أصبحوا عقبة في طريق السياسة العثمانية التي ترمي إلى مركزة السلطة في أيدي جهاز الدولة الخاضع إلى إشرافها المباشر¹.

و بعد صدور نظام الولايات 1864 قامت الدولة بتوزيع تعليمات مطبوعة باللغة العربية تنص على الأسس التي ستبناها في تحصيل الأموال الأميرية و وزعت على مختاري القرى سندات (سركي) تحتوي على بيان مجموعة المال الأميري المطلوبة من كل قرية، حيث تجمع الأموال على تسع أقساط أولها يكون في شهر جوان و آخرها في فيفري، لكن الدولة أصلحت من هذا النظام لأن بعض المختارين يفرضون على الأهالي ضرائب و كلفت محصلين للقيام بعملية جباية الضرائب ثم عينت الدولة موظفا في مركز كل قضاء و باسم رئيس محصلي القضاء "تحصيلدار القضاء" وفي كل مركز كل لواء "باش تحصيلدار اللواء" و في مركز الولاية "باش تحصيلدار عام".

استخدمت الدولة جنود الدرك "زندمة" في جباية الضرائب، و نظرا لشكاوي الأهالي استعانت في سنة 1873 بموظفين مدانيين بدلا منهم².

2- الزراعة:

عرفت الزراعة في بلاد الشام في عهد الإدارة المصرية 1831 - 1940 تحسنا ملحوظا نظرا لسياسة محمد علي الزراعية، حيث وضع حدا للفوضى العقارية و أنهى الاقطاع و الالتزام كنظام للأرض، و لقد تم له ذلك عندما جرد السكان دون تمييز بين طبقاته من السلاح و أدخل نظام التجنيد الإجباري و حرر الفلاحين فاستصلح الأراضي في القرى و أدخل محاصيل جديدة من مصر، لكن فرض الضرائب واحتكار بعض المحاصيل الزراعية و التجنيد و أعمال السخرة أثر سلبا على الزراعة³.

استفادت الحكومة العثمانية بعد عودتها إلى سوريا سنة 1840 من التنظيمات المصرية فسارت على نفس الدرب و قد تحسن القطاع الزراعي أكثر بفضل تطبيق قانون الولايات و إنشاء المحاكم النظامية في عام 1871، و بالتالي تكون الدولة قد حققت النظام و الأمن للفلاح السوري بعد أن حاربت غارات

¹ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 273.

² - عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864 - 1914، ص 188.

³ - عبد العزيز عوض، "نظام الارض في ولاية سوريا (1839 - 1914)" بلاد الشام في العهد العثماني بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق 26-30 سبتمبر 2005، ص - ص 55 - 61.

البدو و قللت من خطر عصابات الأشقياء في الولاية فانصرف الفلاحون إلى عملهم¹، نظرا لارتباط الدولة بالرأسمالية الغربية و كثرة الحروب عليها التجأت إلى سلسلة من الإصلاحات هدفت من خلالها إلى تحديث الإدارة و جباية الضرائب بصورة جدية لمواجهة التحديات الخارجية و أعباء الخزينة، و على إثر ذلك صدرت مجموعة من القوانين و الإصلاحات سنة 1858 تميزت هذه الأخيرة بتنظيم العلاقة بين المزارع و الدولة² و لعل أهمها:

-أصدرت الدولة العثمانية في 21 أبريل 1858 قانون الأراضي للفصل بين أصحاب الأراضي والحكومة من حيث الحيازات و الحقوق، إعتد على الشريعة الإسلامية و الأعراف و التقاليد و حتى على القوانين المدنية الأوروبية³ حيث قسمت الأراضي إلى خمسة أقسام : أراضي المملوكة، الأراضي الأميرية⁴، الأراضي الموقوفة، الأراضي المتروكة، أراضي الأموات و الهدف من هذا التقسيم منع الغش في السجلات والتلاعب بالأموال، كما اهتمت الدول بزراعة عدة محاصيل زراعية كالزيتون و القطن⁵.

-و في سنة 1861 أصدرت الدولة قانون تسجيل أراضي الطابو على مستوى دوائر يطلق عليها اسم الدفتر خاقاني.

إن عدم الضبط في مسح الأراضي و الخلل في تسجيلها دفع بعض الفلاحين إلى البحث عن حماة لهم فالتجأوا إلى منتفذي المدن و أصبحت بينهم و بين الفلاحين علاقات يمثلها في القرى الوكلاء و المخاتير و بعض الوسطاء الريفيين المنتفذين و أصبحت العائلات المنتفذة في دمشق تمتلك عددا كبيرا من القرى في سوريا كعائلة آل العظم و العابد و غيرهم، أما البعض الآخر من الفلاحين تخلوا عن أراضيهم هروبا من دفع الضرائب لذلك بقيت مساحات واسعة من بلاد الشام بدون تسجيل⁶.

¹-عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، المرجع السابق، ص241.

²- مجموعة من الباحثين، وليد قزيها، فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين، دراسات في القومية العربية والوحدة، ط1، مركز دراسات الوحدة القومية، بيروت، 1984، ص220.

³- مفيد الزبيدي، موسوعة التاريخ الاسلامي العصر العثماني 1516-1916، دار أسامة للنشر و التوزيع، الاردن، عمان، 2009، ص255.

⁴- هي الأرض التي كانت تعطى لأمرء المقاطعات ثم تحولت هذه الارض فيما بعد لتصبح للدولة العثمانية و لمن يعمل بها حق الانتفاع.

⁵-عبد العزيز محمد عوض، نظام الأراضي في ولاية سورية 1839-1914، المرجع السابق، ص55

⁶- غانية بعيو، المرجع السابق، ص196 وما بعدها

اعتباراً من عام 1860 إلى 1862 صدرت الدولة قوانين و تعليمات خاصة بتسجيل الأراضي وتشجع زراعة القطن و اعفاء غراس الزيتون غراس التوت، كما انشأت مدارس زراعية في لواء حماة وقضاء البقاع

ولواء دمشق. و من أجل إصلاح إدارة الأوقاف أصدرت الدولة نظام إدارة الأوقاف في الولايات عام 1863 و كذا نظام توجيه الأوقاف في عام 1870، و نظام معاملات أوقاف المستغلات و المسقفات، و نظراً لعدم كفاءة و نزاهة جهاز الأوقاف و انتشار الفساد تحولت الأوقاف في ولاية سوريا إلى أملاك خاصة (حوانيت ودور للسكن وغيرها)، و بفضل كفاءة وزير الأوقاف خليل حمادة باشا نظمت الدولة أوقاف الشام بعد عام 1908¹.

منذ 1871 تحسنت وضعية الفلاح و هذا راجع إلى عدة عوامل:

- إنشاء المحاكم النظامية و كذا مد شبكة من المواصلات التي خففت من غارات البدو و عصابات الأشيقياء
- سهل المصرف الزراعي للفلاح شراء الأراضي الأميرية و مون البدو برأس مال زراعي.
- حثت الدولة رؤساء الدروز على الاستقرار و وضعت لهم مشاريع لإصلاح مناطقهم و حمت الأرياف بواسطة عساكر نظامية².
- وكلت الدولة عملية جبي الضرائب مباشرة إلى موظفي الطابو³ بدلاً من متعهدي الضرائب وأصحاب الإقطاعات⁴.
- أقيمت جاليات زراعية عازلة بين مناطق ترحال البدو و السهول.
- إستقدمت الدولة جالية شركسية و زعتها على قرى تقع على تخوم البادية.

¹ - عبد العزيز محمد عوض، نظام الأراضي في ولاية سورية (1839-1914)، المرجع السابق، ص-ص 55-61.

² - غانية بعيو، المرجع السابق، ص، ص 196، 209.

³ - الطابو : أصلها طابوق بمعنى التبعية، وتطلق على السند المقدمة من الدولة لمن تفوضه في التصرف في الأرض لها عقد تمليك، اعتراف بالتبعية لعظيم أو حاكم أو دولة، و ذلك بتملك أرض موهوبة. أنظر: حسين مجيب المصري، المرجع السابق، ص 84.

⁴ - وليد قزيها : فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين، المرجع السابق، ص 220

رغم هذه الإصلاحات استمر المجتمع البدوي في سوريا يقدم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قوة بشرية فاعلة و قائمة بذاتها تمتلك سلطة الضغط على الحياة السياسية والاقتصادية في المدن والأرياف الزراعية¹.

أما في فلسطين فقد أثرت التنظيمات في القواعد الاقتصادية و الاجتماعية للحكم العثماني و حتى على مكانة الأقليات المسيحية و اليهودية و أصبحت لهم حقوق العضوية في مجالس الإدارة و في البرلمان العثماني و هذا ما سمح لهم ممارسة مهنة القضاء و المحاماة و الحكم في القضايا الجنائية و التجارية و في مهن أخرى، و في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر رافقت المراسيم التنظيمية سلسلة من الاجراءات تهدف إلى تشجيع المهاجرين على الاستيطان في الأرض و استثمارها² فقدم إلى فلسطين مهاجرون غير مسلمين منهم الألمان، و البروتستان الأمريكيان و أعلى نسبة من المهاجرين كانت من الجاليات اليهودية جاءت من روسيا و أوروبا الشرقية، هذه الاجراءات الجديدة على فلسطين أدت إلى إرتفاع أسعار الأراضي و ظهور موجة من المضاربة استمر هذا الوضع إلى غاية فرض الإنتداب البريطاني على فلسطين³. أما في بقية في الولايات التابعة للدولة العثمانية تكونت طبقة من كبار الملاك عرفوا بالأعيان، هذه الطبقة -الأعيان- أصبحت لها مركزا اقتصاديا مستقرا و من خلاله عملت على تحقيق مكاسب سياسية على حساب السلطة المركزية⁴.

و في عام 1870 أسست المنظمة الصهيونية العالمية Alliance Israelite-universelle أول مدرسة زراعية قرب يافا و تعتبر الخطوة الأولى نحو السيطرة على الأراضي الزراعية في فلسطين⁵.

¹ - وجيه كوثراني : السلطة و المجتمع والعمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 1988، ص117.

² - بدأ الاستيطان الصهيوني سنة 1855 بشكل منظم عن طريق اليهودي البريطاني "موسي مونتفيوري" الذي اشترى بيارة برتقال قرب يافا أو قرية زراعية فردية، و في سنة 1870 أسس أول معهد زراعي صهيوني قرب يافا بتمويل من روتشيلد، و في 1901 تم تأسيس الصندوق القومي اليهودي و خاصة أن بروتوكولات حكماء صهيون ألحت على شراء أراضي في فلسطين من أجل توطين الشعب اليهودي. أنظر: موفق بني المرحة: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني و الخلافة الاسلامية، دار الكويت للصحافة ، الكويت ، 1984 ، ص200.

³ -باميلا آنسميث: فلسطين و الفلسطينيين 1876-1983، ترجمة، الهام بشارة الخوري ، ط1، دارالحصاد، دمشق، 1991 ص-ص 17-23.

⁴ - وليد قزيها ، فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين، المرجع السابق ، ص221.

⁵ -Gerard De George, Damas des ottomans à nos jour, édit l'Harmattan, Paris,1994, p 131.

3- التجارة و الصناعة:

عرفت فترة حكم محمد علي باشا لبلاد الشام تدفق البضائع الأجنبية إلى بلاد الشام و يذكر تقرير حكومي بريطاني بتاريخ 17 جويلية 1839 تضمن احصاءات اقتصادية من جون بارينغ John bowring إلى وزير الخارجية البريطاني بالمرستون" إن مجموع الدكاكين التي تباع البضائع الإنجليزية في دمشق بلغ عددها مائة و سبعة دكان و يتراوح مجموع رؤوس الأموال التي وظفها أصحابها في أعمالهم ما بين 1600000 و 2100000 قرشا" ، و يرجع سبب إقبال التجار الدمشقيين على التعامل بالبضائع الأجنبية إلى التسهيلات التي يمنحها الأجانب للتجار في الدفع. تصل البضائع من أوروبا إلى ميناء بيروت ثم توجه إلى دمشق عبر الطريق البري بين بيروت و دمشق .

إن تدفق البضائع الأجنبية إلى اسواق الشام أدى إلى نتائج :

- منافسة شديدة بين البضائع الأوروبية.

- كساد البضائع المحلية.

-أحدث هذا الوضع شرخا في المجتمع الدمشقي بين تجار البضائع الأجنبية و الحرفيين فشهدت المنطقة اضطرابات اجتماعية و اقتصادية بين الفريقين .

-ازدادت قضايا الإفلاس بين الفريقين خاصة في مجال تصنيع الأقمشة المحلية و أصبحت هذه القضايا تكتسح سجلات المحكمة الشرعية في دمشق¹.

و في الستينات عرفت سوريا إنفيارا في القطاع التجاري و الصناعي أدى ذلك إلى ربط اقتصاد سوريا واحتياجه باقتصاد أوروبا و هذا مايؤكداه الدكتور Lortet لورتات الذي يذكر أن الصناعة النسيجية في دمشق شهدت تراجعاً و انهياراً كبيراً خاصة أنها تعرضت إلى منافسة داخلية (بيروت)، ضف إلى ذلك منافسة الواردات الخارجية خاصة الفرنسية حتى أصبحت جميع الأقمشة النسيجية تستورد من أمريكا أو إنجلترا و حتى صباغة الأقمشة².

¹ - عبد الكريم رافق ، "الاقتصاد الدمشقي و الرأسمالية الأوروبية في القرن التاسع عشر بلاد الشام العهد العثماني" ، بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق، المرجع السابق، ص-30-36.

² Gerard De George, op.cit, p130.

4-الموصلات

في أواخر القرن التاسع عشر التجأت الدولة العثمانية إلى ربط المدن الهامة في ولاية سوريا بشبكة من المواصلات من طرق معبدة أو الخطوط الحديدية و الهدف منها تقوية الحكم المركزي و القضاء على الثورات و توطيد الأمن و الاستقرار بالإضافة إلى تحقيق الاستقلال الاقتصادي، و إذا كانت بعض الخطوط الحديدية قد أقيمت من أجل خدمة أغراض عسكرية بحتة، إلا أن ذلك لم يمنع الأهالي من الاستفادة منها في نقل محاصيلهم: ففي سنة 1863 أقرت الدولة برنامجاً من أجل تنظيم و إصلاح الطرق و إعمارها في الولايات، كما عملت الدولة على تنظيم الشوارع و توسيعها، و في عام 1867 أصدرت الدولة نظاماً يتعلق بصيانة خطوط المواصلات الحديدية و المحافظة عليها و في سنة 1869 صدر نظام الطرق و المعابر، حيث صنف الطرق إلى أربع أصناف و هي:

- الطرق التي تصل استانبول بمركز الولايات أو المرافئ و الخطوط الحديدية.
- الطرق التي تصل مراكز الولايات بمراكز الأولوية.
- الطرق التي تصل مراكز الأقضية في الولاية والتي تصل بين مراكز الأقضية و المرافئ و الخطوط الحديدية.
- الطرق التي لا تستعملها العربات بصورة دائمة .

لقد شارك الأهالي الدولة مجانياً في انجاز الطرق لأن الخزينة كانت عاجزة في تسديد المستحقات¹. كانت لفرنسا مصالح ثقافية و اقتصادية ، حيث أنها تمتلك عدة مؤسسات في بيروت كالرياضة - الغاز - الكهرباء و لذلك فإن شبكة الخطوط الحديدية السورية كلها فرنسية كما أنشأت مرفأ بيروت الخ².

المبحث الثالث: الاوضاع الاجتماعية و الثقافية

1-السكان:

حسب تقرير 1832 تبين أن أغلب زعماء بيروت وقفوا إلى جانب الدولة العثمانية ضد ابراهيم باشا وفي الوقت نفسه أيده معظم المسيحيين لأنه سمح لهم بحمل السلاح و التجارة و حرية التعليم و توفير الأمن³، و في سنة 1836 غادرت الطوائف المسيحية بيروت أثناء الهجوم اليوناني البحري خوفاً من انتقام المسلمين المحليين منهم، فأصدر الوالي قراره بحماية المسيحيين و اتهم الدول الأوروبية بتحريض المسيحيين إلى الهجرة إلى المناطق الجبلية.

¹-عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص 271 - 272.

²-مصطفى كريم، المرجع السابق، ص 326.

³- مسعود ظاهر، الحركة السكانية في المشرق العربي أواخر العهد العثماني نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر، منشورات مركز الدراسات و البحوث العثمانية و الموريسيكية و التوثيق، تونس 1988، ص 464.

2- نظام الملل:

اعتمدت الدولة العثمانية في البلدان العربية عامة و في لبنان خاصة على فلسفة نظام الملل "أي إعطاء الدور الديني و الاجتماعي لأصحاب المذاهب و الطوائف و الرقعة المكانية التي تقطن فيها هذه الطائفة" أما الدور السياسي و العسكري يتولاه مسؤولين ممثلين من القيادة العثمانية¹، فقد ورد في خط كلخانة "... و لكي يكون أهل الاسلام و باقي الملل الذين هم من تبعة سلطتنا السنية سائلين مساعدتنا هذه الشاهانية بدون استثناء أعطيت من طرفنا الشاهاني الأمنية الكاملة بمقتضى الحكم الشرعي لجميع أهالي ممالكنا المحروسة على نفوسهم و أعراضهم و ناموسهم ...".

أثرت التنظيمات على بلاد الشام التي تكثر فيها الأقليات المسيحية، فالوظائف العامة العسكرية والإدارية و القضائية اقتصرت على المسلمين وحدهم، أدى ذلك إلى اختلال التوازن بين الطائفتين وعمق الهوة بينهما² ويرجع المؤرخ الفرنسي ثومال³ Thomin في كتابه تاريخ بلاد الشام أن من بين الأسباب الغير مباشرة للفتنة سنة 1860 ترجع إلى التنظيمات العثمانية التي قوت من شوكة المسيحيين الذين أصبحوا يطلبون الحماية من الدول الأوروبية، فجاءت الفتنة كرد فعل من المسلمين ضد طمع بعض المسيحيين و طموحاتهم إلى المزيد من النفوذ من النظام الجديد، و إذا كانت حوادث 1860 بين الموارنة و الدروز في جبل لبنان تعود في جذورها إلى النزاعات الإقطاعية في سبيل حكم جبل لبنان فإن انتقالاتها إلى دمشق يعود بالدرجة الأولى إلى رفض مسلمي سوريا مبدأ المساواة التي أقرتها التنظيمات للمسيحيين³.

و في عام 1864 صدر قانون ينص على إعفاء جميع أصناف الرهبان من التبعية للدولة العثمانية وإعفاء أديرتهم من الرسوم الجمركية، كما تمتعت هذه الطوائف بحق التمثيل في مجالس دعاوي الأفضية بعضو أو أكثر، و بما أن هذه الطوائف اتجهت نحو المدن ومارست التجارة و الحرف و احتكت بالأجانب أصبح لها كذلك نفوذًا تجاريًا، و مع انفتاحها على المدارس الفرنسية الحديثة تزعمت حركات استقلالية عن السلطنة و نزعات قومية خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر⁴.

إن التنظيمات العثمانية أدت إلى تصدع اجتماعي وخلفت نتيجتين هامتين و هما :

- ظهور تيار فكري مسيحي تأثر بالغرب يسعى إلى إبراز الشخصية العربية الوطن السوري.

¹ - يوسف بن يزة، المرجع السابق، ص 159.

² - غانية بعيو، المرجع السابق، ص 217.

³ - نفس المرجع، ص 219.

⁴ - محمد مراد، المرجع السابق، ص - ص 63 - 65.

- اتجاه مضاد يعتمد على الإسلام كأساس (الرابطة العثمانية).

إن التيار الأول ظهر نتيجة النشاط الذي قامت به الإرساليات التبشيرية في ميدان التعليم فأنشأت حركة أدبية فكرية بين مسيحيي بيروت و جبل لبنان ، تحولت هذه الحركة فيما بعد إلى حركة سياسية لها دور كبير في اليقضة و القومية، و قد ساهم قانون الولايات 1864 - 1867 الذي منح الولايات نوعاً من الاستقلالية الإدارية و المساواة بين أهل الذمة و المسلمين إلى تكوين شخصية عربية سورية لدى النخب المسيحية و التي تأثرت بالثقافة الغربية و بالتالي أخذ بعض المسيحيين يضعون تصوراً لسوريا كوحدة و وطن يسكنه شعب واحد و في هذا الصدد يقول بطرس البستاني : " إن السوريين سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين هم أبناء وطن واحد " ¹.

3- التعليم:

عرفت ولاية سوريا في عهد الإدارة المصرية 1831-1840 تطوراً فكرياً و ثقافياً و ذلك بفضل تشجيع إبراهيم باشا لحركة التعليم، حيث أنشأ المدارس الابتدائية و أرسل بعض الشباب السوري لتلقي العلم في المدارس العليا التي أنشأها محمد علي في مصر والمدارس العليا في استانبول، و في نفس الوقت اهتمت الدول الأوروبية بفتح المدارس حتى تكاثر عددها كما أسهم كل من اللبنانيين و السوريين في حركة التعليم و أسسوا عدة مدارس ².

تنقسم المؤسسات التعليمية إلى عدة أنواع :

1-الكتاتيب:

استمر هذا النظام من التعليم حتى خروج العثمانيين من سوريا سنة 1918 حيث تركت الدولة التعليم القديم على حاله و أضافت نظاماً تعليمياً جديداً قائماً بذاته، و كانت الدراسة في كتاتيب المدن تبدأ في سن مبكرة تتولى التدريس في بعض الأحيان معلمة تسمى خجاً و يلتحق بالكتاتيب الإناث و الذكور، أما كتاتيب القرى فيلتحق بها الأطفال في سن متأخرة و تتم الدراسة فيها في فصل الشتاء أي الفترة التي لا يتعارض مع أعمال الفلاحة ³.

2-المدارس :

قبل عام 1869 لم تراقب الحكومة العثمانية المدارس والمؤسسات الأجنبية وحسب نظام المعارف الذي أصدرته في عام 1869 اشترطت على المؤسسات الأجنبية الحصول على ترخيص رسمي وإجراء التفتيش قبل حصولها على هذا الترخيص، و أعطيت الصلاحيات لمدرء المعارف لمراقبة النشاطات المعادية التي

¹-عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية ، المرجع السابق، ص 34.

²-توفيق بر، نظريات في تاريخ نشوء فكرة القومية العربية، المرجع السابق، ص 17.

³-عبد العزيز محمد عوض، المرجع السابق، ص 253.

تقوم بها المدارس الأجنبية ضد الدولة، غير أن هذه المدارس كانت تعمل بحرية دون مراعاة الاجراءات التي اتخذتها الحكومة، وتعتبر القدس من المناطق التي عرفت نشاطا تعليميا معاديا أجنبيا ضد الدولة، رغم تحذيرات الدولة إلا أن المدارس الأجنبية انتشرت وشجعت أبناء المسلمين الدخول فيها ولذلك إلتجأت الدولة إلى إقامة مؤسسات تعليمية و إجبار الأهالي بإرسال أبنائهم إلى هذه المدارس¹.

تنقسم هذه المدارس إلى عدة أنواع:

1- **المدارس الحكومية:** أنشأت الحكومة العثمانية سنة 1861 عدة مدارس رشيدية في مدينة حلب، وفي "عبية" وفي لبنان و في مدينة القدس سنة 1867 والهدف من ذلك تكوين طلبة يمكنهم الحصول على وظائف في الدوائر الحكومية في الولاية، وفي عهد المتصرف فرونكو باش 1868-1873 أنشأت إحدى عشر مدرسة حكومية في مدن و قرى متصرفية جبل لبنان². نظمت هذه المدارس بموجب نظام المعارف الصادر في 24 جمادي الأول 1869م قسمت الدراسة إلى قسمين و هي:

-**المرحلة الابتدائية:** تأسست في كل قرية مدرسة، ويعود نفقات إنشاء هذه المدارس وتعميرها ومخصصات المعلمين على حساب أهل القرية، يكون التعليم فيها إجباريا وتحدد مدة الدراسة بأربع سنوات.

-**المدارس الراشدية:** نص نظام المعارف على إنشاء مكتب رشيدي واحد في كل بلد يتجاوز سكانه 500 بيت شريطة أن يكونوا مسيحيين أو مسلمين، أما إذا كانوا أهل البلدة مختلطين فيجب أن يقدر عدد السكان ب 1000 بيت وتكون نفقات إنشاء المدارس الراشدية على حساب إدارة معارف الولاية ومدة الدراسة في هذه المرحلة أربع سنوات.

-**المدارس الإعدادية:** تأسست هذه المدارس في مراكز الأقضية والألوية التي يتجاوز عدد سكانها 1000 بيت ويقوم صندوق إدارة معارف الولاية بدفع جميع نفقات إنشاء هذه المدارس ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يتعلم فيها التلاميذ اللغة الفرنسية ومواد علمية وأدبية أخرى ولا تدرس فيها اللغة العربية .

-**المدارس العالية:** و تشمل دار المعلمين و المعلمات و دار الفنون في إستانبول ومكاتب الفنون والصنائع المختلفة³.

¹ - فاضل بيات، ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني - الأجنبي، المرجع السابق، ص-156 - 158.

² - هيثم جبوري و زينب جبوري، المرجع السابق، ص 1453.

³ - عبد العزيز محمد عوض، المرجع السابق، ص- 254 - 256.

2- المدارس الخاصة:

المدارس الخاصة حسب نظام إدارة المعارف العمومية لسنة 1869 بأنها "المكاتب التي تحدث في بعض المحلات و تأسست من قبل جمعيات أو أفراد سواء كان هؤلاء من رعايا الدولة أو الأجانب" واشترط النظام على هذه المدارس ما يلي:

- الحصول على رخصة رسمية من إدارة المعارف للولاية قبل فتح المدرسة.
- تكون هيئة التدريس شهادات مصادقة من إدارة المعارف المحلية.
- تراقب إدارة المعارف جداول الدروس و كتب التعليم¹.

و تنقسم المدارس الخاصة إلى قسمين :

- **المدارس الوطنية:** عرفت دمشق في عصر التنظيمات تطورا فكريا و ثقافيا ولم يكتمل التعليم فيها إلا بعد صدور قانون المعارف العمومية، حيث فرض مدحت باشا على كل والي طفل بلغ السادسة لم يرسل ابنه إلى المدرسة عقوبة، و من أشهر المدارس الاعدادية في دمشق المكتب الاعدادي²، و في سنة 1872 بنى الثري الدمشقي يوسف غبر أول مدرسة ثانوية تنتهي بالصف التاسع³ تخرج منها شكري القوتلي و غيره، كما أنشأت الدولة العثمانية مدرسة الطب و مدرسة الزراعة للأثرياء في دمشق يرسلون أبناءهم إلى المدارس في استانبول من أجل الحصول على رتب عسكرية أو إدارية ولقد أسهم علماء دمشق في النشاط الديني والتعليمي و تمتعوا بمنزلة اجتماعية عالية و أصبح لهم نفوذ لدى السلطات المحلية وفي عاصمة السلطنة⁴، أما في مجال التعليم الفني و الصناعي فتحت الحكومة أول مكتب للصنائع في حلب سنة 1868 وهو إصلاح خانة يتم فيه تعليم الأطفال الذين لا رغبة لهم في طلب العلم بعض الصنائع اليدوية، عرضت منتوجات الطلبة من الحرف اليدوية بعد الإمتحان الأول لسنة 1869 بحضور والي وكبار المسؤولين في الولاية⁵.

¹- عبد العزيز محمد عوض، نفس المرجع، ص 265.

²- محمد احمد، المرجع السابق، ص 316.

³- نفس المرجع، ص 315.

⁴- نفس المرجع، ص 316.

⁵- زمهندست نجوى عثمان ، "مشاريع البنية التحتية في حلب اواخر العصر العثماني"، بلاد الشام في العهد العثماني، بحوث الندوة العالمية ، المنعقدة في دمشق، 2005 ، المرجع السابق، ص 126

-المدارس التبشيرية: إن المدارس التبشيرية سبقت المدارس الرسمية العثمانية و لقد اهتمت الإرساليات في إنشاء المدارس حيث بلغ عدد المؤسسات التربوية التي فتحتها البعثة الأنجليكية الأمريكية في لبنان ما بين 1820- 1860 عن ما لا يقل على ثلاثة و ثلاثين مؤسسات تربوية، و مدارس أنشأها اليسوعيون في بيروت و صيدا و دير القمر و غزير و بكفيا و تعنايل و زحلة و دمشق و حلب، و مدارس راهبات المحبة والراهبات الأخرى التي تأسست في مختلف أنحاء البلاد¹، و بالتالي يعود تاريخ تأسيس المدارس التبشيرية في ولاية سوريا إلى منتصف القرن الثامن عشر و كان نصيبها من هذه المدارس أقل من نصيب ولاية بيروت

وجبل لبنان، لقد تمتعت المدارس الأجنبية بحرية التعليم لم تتمتع بها المدارس الوطنية، رغم تفتن الحكومة العثمانية لخطرهما لكنها عجزت عن التصدي لها و ما كان عليها إلا فرض رقابة شديدة على هذه المدارس خاصة في بلاد الشام كما فتحت مدارس حكومية في لواء الكرك مثلا و استخدمت عددا من الوعاظ للتصدي للمبشرين² و رغم ذلك فتحت الجمعية التبشيرية بضع مدارس في لبنان لأطفال الدروز عام 1875 ثم تخلت عنها أمام صرامة الحكومة العثمانية³.

تأسست الكلية السورية الأنجليكية في بيروت سنة 1866 (الجامعة الأمريكية اليوم)، و جامعة القديس يوسف التي أسسها اليسوعيون في بيروت سنة 1875 و هما أكبر مؤسستين في تلك الفترة.

أدخلت المدارس التبشيرية اللغة العربية و أدابها في برامجها التعليمية إذ كانت النواة الأولى للجمعيات والأحزاب السياسية التي أنشأت في العهد الحميدي و العهد الاتحادي⁴، إذ تعلم أعضاؤها في المدارس التي أنشأتها الدول الأجنبية في الولايات العربية و التي تمارس نشاطات معادية للدولة العثمانية و تحرض الطلاب عليها و أغلب المدارس التبشيرية ترغم الطلاب و حتى المسلمين المشاركة في الطقوس الدينية الغير إسلامية و من يعترض على ذلك يفصل من المدرسة، لذلك ذكر مراسل جريدة طنين في تقرير أرسله من سوريا عن المدرسة الكلية الانجيلية الأمريكية للبروتستانت في بيروت: " إن هذه المؤسسة تأسست في سنة 1867 تحت اسم المدرسة الكلية السورية الانجيلية من قبل المبشر الأمريكي دانيال بلس الذي قدم إلى بيروت ضمن وفد استقر فيها، و قد تم ترخيص المدرسة من قبل الحكومة السنية العثمانية تحت اسم " المدرسة الطبية"

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص19.

²-عبد العزيز محمد عوض، المرجع السابق، ص 266.

³-مصطفى خالدي عمر فروخ، المرجع السابق، ص 116.

⁴-علي معطي، المرجع السابق، ص، ص20، 24.

والغاية الأساسية من تأسيس المدرسة هي نشر المذهب البروتستنتي بين الأهالي في سوريا بشكل عام، وعلى الرغم من أن معلمي المدرسة وموظفيها يبدون وكأنهم بعيدون عن السياسة، إلا أن ما يقومون به في هذا الصدد يفند ما يذهبون إليه، و توجد للمؤسسة فروع في مستوى الدراسة الإعدادية في الأماكن التي تعد من وجهة نظر التبشير في غاية الأهمية كحمّاه و حمص و صيدا و سوق الغرب و طرابلس الشام حيث يبذلون مساعيهم من أجل تحقيق الغاية الأساسية لهم¹.

أنشأت مدرسة الطب و الصيدلة جزءا من الكلية السورية الانجيلية و كان عدد الطلبة فيها في تزايد مستمر حيث بلغ عدد المتخرجين من هذه المدرسة بين 1871-1907 ب 154 خريج من بلاد الشام².

لقد استفاد التعليم من المناهج الأوروبية والأمريكية مما أدى إلى تطوير التعليم المدرسي والتعليم العالي ولذلك أصدر بطرس البستاني الماروني في بيروت الموسوعة العربية، نتج عن ذلك الفكر القومي و الذي ازداد نضجا بعد ظهور جمعية الاتحاد و الترقى³.

و في عهد المتصرفية عرفت لبنان نهضة ثقافية و فكرية و أدبية نشيطة شاركت فيها جميع الفئات وحتى البعثات التبشيرية التي كانت على فئتين:

- البعثات التبشيرية الكاثوليكية و جل أفرادها من الفرنسيين⁴.

- البعثات التبشيرية الأنجليكية البروتستنتية و جل أفرادها من الأمريكان⁵.

كما فتحت في بيروت عدة مطابع، و صدر عدد من الصحف و المجلات، و لذلك سميت بيروت بمدينة العلم⁶.

¹- فاضل بيات ، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني (دراسة تاريخية احصائية في ضوء الوثائق العثمانية) مركز الابحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الاسلامية (ارسيكا) اسطنبول، 2013 ، ص 42.

²-علي المحافضة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص211.

³-Dominique Chevallier et André Miquel, les ARABES du message à l'histoire, édit Fayard, Paris, 1995, p 403.

⁴- أنشأت فرنسا في قرى لبنان مدارس ابتدائية و كثير من المدارس الثانوية و تشرف في بيروت على بعض مؤسسات التعليم العالي : كلية الطب، مدرسة الحقوق، مدرسة للمهندسين، و شيدت عدة مستشفيات في كل من أضنة، حلب، دمشق، طرابلس، بيروت، و عدة مستوصفات و ميّاتم. أنظر:مصطفى كريم ، المرجع السابق ، ص325.

⁵-علي معطي، المرجع السابق، ص19.

⁶-عبد الكريم غرابية، المرجع السابق، ص 87.

بالرغم من سوء الأوضاع السياسية و فساد الجهاز الإداري و اقتطاع أجزاء كبيرة من لبنان إلا أن السكان عملوا على تطوير و ازدهار الثقافة و الاقتصاد وتعتبر لبنان من بين أهم الولايات العثمانية ازدهارا و أمنا¹.

كان للعرب دور في وضع نظام القضاء و في الإدارة الداخلية للدولة العثمانية، فمدارس دمشق و القاهرة و حلب و طرابلس الدينية السنية هي مركز لتخريج علماء الدين والقضاة²، اعتمدت عليهم الدولة العثمانية في مسائل القضاء³.

4- الصحافة:

أثرت الصحافة في الحياة الثقافية في دمشق: ففي عهد ابراهيم باشا ظهرت عدة صحف مثل "تقويم وقائع"، و صحف عربية في استانبول منها "مرآة الاحوال"⁴، و "السلطنة"، و لقد أعجب الشوام بجريدة الوقائع المصرية التي يصدرها محمد علي باشا في مصر، أما القساوسة المبشرون الأمريكان فقد أصدروا في سوريا صحيفة "مجموع الفوائد" التي استمرت إلى عام 1855⁵.

و في منتصف القرن التاسع عشر عرفت بلاد الشام و مصر نشاطا اعلاميا حيث ظهرت عدة صحف دورية و يومية يصدرها الكثير من المثقفين الوطنيين: ففي سنة 1858 صدرت أول صحيفة في بلاد الشام و هي " حديقة الأخبار " يحررها خليل الخوري⁶، و خوفا من الاضطرابات في البلاد العربية عامة و الشام خاصة أصدر السلطان عبد المجيد عام 1857 لائحة لتنظيم المطابع⁷، و في عام 1864 وضع السلطان عبد العزيز أول قانون للصحافة صدر في العهد العثماني باسم نظام المطابع و المطبوعات و بدأ العمل به في كافة الولايات العثمانية سنة 1865 أي في الوقت الذي تكون فيه جيل من الصحفيين في كل من

¹- فليب حتي، المرجع السابق، ص 544

²- ناجي علوش ، المرجع السابق، ص 43.

³- فليب حتي، المرجع السابق، ص 439 .

⁴- صحيفة عربية ظهرت في استانبول 1855 نشرت الكثير عن أوضاع بلاد الشام ونددت بسياسة الدولة في المنطقة. أما صحيفة "الجوائب" التي أصدرت في استانبول 1860 نقلت أخبار المشرق العربي وكانت واسعة الانتشار في سورية. أنظر: ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص-ص 314-315.

⁵- محمد أحمد، المرجع السابق ، ص 317.

⁶- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 288.

⁷- محمد أحمد، المرجع السابق ، ص 319.

حلب وبيروت ودمشق، حيث أصدرت صحيفة "سورية" وهي أول صحيفة رسمية في دمشق تصدر في أربع صفحات نصفها تركي و نصفها الآخر عربي، تنشر فيها أوامر الحكومة والإعلانات الرسمية التي ليس لها علاقة بالسياسة، و من بين محرريها محمد كرد علي، استمرت إلى غاية سنة 1918، لقد لعب قانون الصحافة دورا فعالا في إحياء الحياة الثقافية في دمشق¹.

أصدر الباب العالي عام 1875 منشور التنظيمات الصحافية لتنظيم الصحف و المطبوعات و لقد ساهم العرب في الحركة الصحافية أغلبهم من المسيحيين السوريين، و منذ الستينات كانت هناك اتصالات بين صحافيي بيروت و رجال الدولة المصلحين في استانبول و يمكن أن نرجع ذلك إلى وجود فارس الشدياق في العاصمة أو إقامة فؤاد باشا في سوريا، و لذلك تميزت فترة الستينات و السبعينات بحرية التعبير التي نلتمسها في الصحف العربية التي تصدر في بيروت².

استفاد المثقفون العرب خاصة الصحافيين المسيحيين السوريين المهاجرين إلى مصر و الحميين من القناصل الأوروبية في بلاد الشام من حرية الصحافة التي تمتعت بها مصر و من المحافل الماسونية التي تضم قناصل الدول الأوروبية و موظفين عثمانيين و بعض الزعامات³.

جلب ابراهيم باشا إلى دمشق مطبعة خصصها لطباعة المنشورات و الأوامر العسكرية وفي سنة 1855 أحضر الروماني حنا إلى دمشق و طبع كراس "عشية الأحد" سنة 1856 و كتاب "المزامير" سنة 1865، وأسست الدولة مطبعة رسمية عام 1864 و في عام 1870 أسس بطرس البستاني صحيفة الجنان في بيروت شعارها " حب الوطن من الايمان "، أنشأ فارس النمر و يعقوب صروف سنة 1876 مجلة " المقتطف "، و اضطر بسبب مطاردة نظام السلطان عبد الحميد لهما إلى الإنتقال إلى القاهرة عام 1883⁴.

في عام 1847 أسس بطرس البستاني و ناصف اليازجي في بيروت "جمعية الفنون و العلوم"⁵، و تضم المسيحيين و في عام 1850 أسس الجيزويت "جمعية الشرقية"، هاتان الجمعيتان فتحتا المجال لتأسيس

¹ - محمد أحمد، المرجع السابق، ص 319.

² - ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص-ص 314-315.

³ - Dominique Chevallier et André Miquel, op.cit, p 401.

⁴ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 288.

⁵ - انتشرت فروعها في مناطق عديدة و أصبحت النواة الأولى للنشاط السياسي ثم الثوري، و في 1868 صرح ابراهيم اليازجي بن ناصف اليازجي النداء القومي الأول، يعتبر الطلبة المسيحيين العرب الخرجين من المدرسة السورية البروساتنية هم الذين أعلنوا سنة 1875 التمرد على الأتراك. أنظر: Jean Pierre Alem et Patrice Bourrat, op.cit, p 38

جمعية "العلوم السورية" عام 1857 و التي ضمت كذلك المسلمين و ترأسها الأمير الدورزي محمد أرسلان توقف نشاطها في عام 1860 ثم رجعت إلى العمل في عام 1868، و في عهد السلطان عبد الحميد الثاني عرقل هذا النشاط مستغلا الحرب الروسية العثمانية¹.

اهتم السلطان عبد الحميد بترميم الأماكن المقدسة و صيانة القلاع و آبار المياه على طرق الحج بين الشام و المدينة المنورة: ففي عام 1842 تم ترميم ستة عشر قلعة على طريق الشام بالمدينة المنورة. قامت خزانة الشام بتغطية مصاريف ترميم ثلاث قلاع و الباى غطى مصاريفها من الخزانة المركزية. و في عام 1847 أمر السلطان عبد الحميد بصرف مبلغ 362696 قرشا لإعادة ترميم قلعة معان².

استنتاج جزئي:

عمل محمد علي بعد غزوه لبلاد الشام على اصلاح اوضاع المنطقة من الناحية السياسية والإقتصادية والاجتماعية، و كانت له طوحات في تكوين دولة عربية و هذا ما أصبح يهدد مصالح الدول الأوروبية الاستعمارية و على رأسها بريطانيا التي أجهضت مشروع محمد علي في مؤتمر لندن 1840.

رغم ايجابيات التنظيمات التي أصدرتها الدولة العثمانية تبقى سلبياتها واضحة خاصة في بلاد الشام لأنها فتحت الباب على مصرعيه للدول الأوروبية خاصة عندما تتضارب مصالحها في التدخل في شؤون المنطقة لصالح أقليتها التي تدعي حمايتها، و لكي تحقق التنظيمات و الامتيازات النتائج المرجوة منها فلا بد أن لا تكون أسسها مستوردة من الخارج و لا بد أن تتوفر إمكانيات مادية و بشرية كإدارة حازمة مثلاً.

إن تحويل جبل لبنان إلى متصرفية تقرر مصيره الدول الأوروبية الكبرى الدول التي مهدت عن طريق نشاط إرسالياتها التبشيرية خاصة في ميدان التعليم إلى تكوين جيل من المثقفين يختلفون من حيث أفكارهم عن المثقفين في بقية البلدان العربية وبالتالي فإن هذه المتصرفية هي التي ستتحول في المستقبل إلى دولة لبنان الكبير التي أنشأها الجنرال غورو بعد الحرب العالمية الأولى وستصبح الطائفية إحدى ركائز لبنان من الناحية السياسية و كانت نتائجها وخيمة على مستقبل لبنان، و ما عرفته لبنان من اضطرابات و فتن منها أحداث 1975 أحد الأدلة على ذلك.

¹- Dominique Sourdel, op.cit, p 111.

²- زكريا قورشون، "الدعم اللوجستي و تأمين طرق الحج": الترميم و الحفاظ على الابار و القلاع الموجودة على طريق الحج بين الشام و المدينة المنورة في القرن التاسع عشر بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق 2005، المرجع السابق، ص- ص49 - 50.

الفصل الثاني: بلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأول : نشأته و توليه العرش.

المبحث الثاني : الوضع الاداري و السياسي و العسكري.

المبحث الثالث: الوضع الاقتصادي.

المبحث الرابع : الاجتماعية والثقافية.

تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش سنة 1876 في فترة كانت تعاني فيها الدولة العثمانية من أزمات و مشاكل داخلية و خارجية، حكم حوالي ثلاثة و ثلاثين سنة تعرض فيها للدسائس و المؤمرات التي شارك فيه المعارضين لحكمه كتركيا الفتاة و بعض الدول الأوروبية على رأسها إنجلترا و يهود الدونمة.

عمل السلطان على تطوير أجهزة الدولة و إدخال إصلاحات سياسية و اقتصادية و اجتماعية و لقد إستفادت كل الولايات التابعة للدولة العثمانية من هذه الإصلاحات خاصة بلاد الشام.

المبحث الأول: السلطان عبد الحميد الثاني مولده ونشأته وتوليهِ العرش

مولده ونشأته:

ولد السلطان عبد الحميد الثاني بن السلطان عبد المجيد خان الأول يوم الأربعاء 16 شعبان 1258هـ الموافق 21 سبتمبر 1842¹ في سراي الهمايوني جراغان القديم أمه تير مشكان الزوجة الرابعة للسلطان جركسية الأصل، في حين تذكر بعض المراجع ان اسم والدته تيرمز كان قادين أفندي² و هي الزوجة التي كانت غير مرغوب فيها في الحرملك لأنها منحت للسلطان أميرا أصيبت بمرض لمدة سبع سنوات مكثت فيهما في جناحها حتى وفاتها و هذا ما أثر على شخصيته³، فقد والدته وسنه لا يتعدى عشر سنوات فاهتمت به و بالسلطانة جميلة بيرتسون قادين⁴، منح لها عبد الحميد الثاني عند توليه العرش رتبة السلطانة-الوالدة- و هي لم تلد و آخر سلطنة - والدة- في التاريخ العثماني⁵.

¹ - محمد مصطفى الهاللي: السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف و الجحود، ط1 ، دار الفكر، دمشق، 2004، ص 21
² - وهي من قبيلة شابضة جركسية و يقول السلطان أحيانا بنات شابضة من قوم والدتي أصيبت بمرض السل و هي شابة وتوفيت في قصر بكلر بكي ، و تذكر الاميرة عائشة أن جميع زوجات جدها كن جركسيات و لم تدخل سيدة رومية أو ارمينية السرايا، و هناك من خصوم السلطان عبد الحميد الثاني من يقول أن أمه كانت الرمنية تدعى جاندر، و أول من ادعى هو احمد صائب الجركسي كان ضابطا في الجيش الروسي. أنظر : مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي ، والدي السلطان عبد الحميد الثاني، ترجمة، صالح سعداوي صالح ، ط1 دار النشر ، الاردن ، 1991 ، ص 67.

³ Edmond Taylor, La chute des empires 1914-1918, traduit Albert Vulliez, édit fayard, France, 1964, p 39.

⁴ - كانت من المفضلات لدى السلطان، تمتاز بذكاء خارق و لقد أثر ذلك في شخصية السلطان عبد الحميد الثاني ، كما كانت له علاقات مع أم عمه السلطانة دورية Douairière و هي سلطانه قوية تعرف كل ما يجري في الحرملك، هاتان الشخصيتان أثرتا على شخصية السلطان عبد الحميد الثاني. أنظر: IBID. p 140

⁵ - يلماز، أوزتونا، المرجع السابق ، ص96.

لازمته صفة الانطواء منذ صغره و لذلك لقبه والده بالطفل المنطوي¹. حفظ القرآن و الأحاديث والشعر القديم و تعلم اللغة العربية و الأدب العثماني و العلوم الاسلامية، و الاقتصاد و الأدب الفرنسي وآداب الطريقة القادرية، تعلم الموسيقى العربية و البيان و العزف على الكمان و أيضا الرسم و الخط².

يجيد عدة لغات و نظرا لكرهه للغرب كان يرفض أن يتكلم إلا بلغته يكتب الشعر و قد نشرت ابنته عائشة بعضا من شعره في كتابها أبي عبد الحميد³.

تدرب على استخدام الأسلحة خاصة السيف، ويستطيع أن يصيب الهدف بالمسدس وتعلم الفروسية⁴. يمتلك متحفا صغيرا في قصره يحتوي على مجموعة من الأسلحة القديمة، يحب مناقشة العلماء ومناظرة المشايخ خاصة في شهر رمضان وكذلك جمع الكتب والمخطوطات خاصة النادرة وقد بلغ عددها 64162 كلها إسلامية، ومن هواياته الهندسة المعمارية والتحليل الكيميائي، و تصليح الساعات وصناعة الخزف و الرسم والتصوير الشمسي حيث خصص بعض أقسام قصره للفنون الجميلة⁵، كانت له قدرة على تعلم الحساب وهذا ما كان يجهله السلاطين الذين تولوا العرش من قبله رغم أن محيطه كان يرفض و لا يشجعه على تعلم الحساب لكنه درس بإرادته كتب الحساب والمحاسبة عن محاسبي الحرم وهذا ما جعله يعرف خبايا البنوك و المصارف و يجمع ثروة قبل توليه العرش⁶، يذكر السلطان عبد الحميد الثاني عن نفسه أنه كان محاسبا comptable لا يحب تبذير الأموال "منذ صغري كنت أعرف تصريف الأموال نظرا لما شاهدته من تبذير في عهد عمي السلطان عبد العزيز"⁷.

لم يكن يثق أيام ولايته للعرش العثماني في أحد من رجال الدولة ربما لإطلاعه و هو صغير على الأساليب التي يستعملها رجال الدولة في ضرب بعضهم بعضا ونفاق المقربين من السلطان، وقد حكى رشيد باشا -أمين عاصمة استانبول الأسبق- لشريف باشا قائلا: " ذات يوم قال لي السلطان عبد الحميد: " ليس لي أدنى ثقة في أحد فقد كان هناك رجل يدعى ضيا بك تخصص في لعب الداما، وكان

¹ - عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية، ط 1، دار بن حازم، لبنان، 2004، ص 483.

² - أوزتونا يلماز، المرجع السابق، ص 97.

³ - محمد مصطفى الهاللي، المرجع السابق، ص 22.

⁴ - علي محمد صلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض و أسباب السقوط، ط 2، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، 2004، ص 399.

⁵ - محمد مصطفى الهاللي، المرجع السابق، ص 23-25.

⁶ - Edmond Taylor, op.cit, p 140.

⁷ - Ali Marad, l'empire ottoman et l'europe d'après les pensées et souvenirs -sultan du Abdul-Hamid 2 (1876-1909), edit publisud, Paris, 2007, p 216.

يلعبها مع عمي السلطان عبد العزيز وينال عطفه و إحسانه، و فور الانتهاء من اللعب يخرج من هناك ويأتي إلى اخي مراد أفندي السلطان فيما بعد و يقلد له عمي في حركاته¹.

كان يشبه عمه السلطان عبد العزيز في الحفاظ على التقاليد الشرقية الإسلامية العثمانية ولا يجذب تقليد الغرب في معيشته، لم ينس فاجعة خلع وقتل عمه ولم تكن له علاقة مع أخيه محمد رشاد أفندي الذي خلفه على كرسي العرش². وفي هذا الصدد يصفه أرمنوس وامبري رئيس جامعة بودابست: "إرادة حديدية، عقل سليم، عيون معبرة ومؤثرة شخصية وخلق وأدب رفيع جدا يعكس التربية العثمانية الأصيلة ... هذا هو السلطان عبد الحميد"³.

لقد أحاط السلطان حياته الخاصة بإطار من التقوى والتقشف، فاستعان بمجموعة من الفقهاء والعلماء، يقوم بالفرائض الدينية على أكمل وجه، و عندما أصبح سلطانا أنشأ معهدا دينيا تخرج منه الوعاظ بعث بهم إلى جميع أنحاء العالم⁴ الإسلامي ينادون بعبد الحميد خليفة للمسلمين، وفي هذا الصدد استمال شريف مكة من أجل نشر دعوته بين حجاج بيت الحرام⁵، كان محتجبا عن الناس إلا عن خاصته لا يخرج من قصره إلا في المناسبات، ويعتبر آخر سلاطين المسلمين علوا ورفعة⁶.

سافر إلى أوروبا و التقى بشخصيات بارزة رفيقة وفد عثمانى رفيع المستوى: ففي فرنسا مثلاً التقى بنابليون الثالث و في إنجلترا بالملكة فيكتوريا وفي بلجيكا بليو بولد الثاني و في ألمانيا بغيوم الأول وفي النمسا بفرنسوا جوزيف⁷ ، ولقد اكتسب في هذه الرحلة الأوروبية رغم أن سنه لم يتعد خمسا وعشرين سنة الكثير ولذلك اتخذ أثناء حكمه موقفا اتجاه الدول الأوروبية⁸. له قدرات ممتازة في السياسة الخارجية.

استطاع عبد الحميد الثاني أن يصل الى العرش بعدما أقنع المترجم رشدي باشا بأنه سيقبلي مدحت باشا في الصدارة مدى الحياة وأنه من مؤيدي المشروطية، كما قدم الهدايا رغم أن المحيطين لم يقتنعوا به لكنهم لم يجدوا حلا آخر حيث صوت كل الوزراء لصالح عبد الحميد الثاني باستثناء رأي واحد أيد بقاء

¹-مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص، ص 11-12.

²-يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص99.

³-محمد مصطفى الهاللي، المرجع السابق، ص156.

⁴-علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص218.

⁵-سيار الجميل، المرجع السابق، ص511.

⁶-عبد الله ابن الحسين، مذكراتي، ط1، الاهلية للنشر والتوزيع، الاردن، 1989، ص28.

⁷-عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص485.

⁸-علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض واسباب السقوط، المرجع السابق، ص401.

مراد خان¹ على كرسي العرش² الذي تولى الخلافة في السادسة والثلاثين من عمره وكان صديقا لولي عهد إنجلترا آنذاك هذا الأخير ضمه إلى الماسونية وعزز صلاته بأعضاء تركيا الفتاة³ إلا أنه مكث في الحكم ثلاثة وتسعين يوما ولم يخرج للشعب فيها يوما ونظرا للمرض الذي أصابه عزلته جماعة تركيا الفتاة وولت أخاه عبد الحميد الثاني⁴، وعلى وعد منه لمدحت باشا بمنح الأمة دستورا و نشر الحرية وتعيين بعض أعوان مدحت باشا⁵ كنامق كمال بيك وضياء باشا في بعض مناصب الدولة إلا أن السلطان تراجع فيما بعد وأحاط نفسه بالعناصر المخلصة التي يثق فيها¹.

¹ - لقد عمل مدحت باشا على خلع السلطان عبد العزيز وإحلال محله ولي عهده الامير مراد خاصة إن هذا الأخير كان ميالا إلى إعلان الدستور وهذا ما تم فعلا، و ولي الثائرون السلطان مراد الخامس، تم استدعاء نامق كمال من منفاه (قبرص) وكلفه هو وضيا بتولي سكرتاريته الخاصة خاصة أن مراد يهتم بالادب و الشؤون الأوروبية، إلا أن السلطان مراد الخامس اضطرب عقله عندما علم نبأ انتحار السلطان عبد العزيز و مقتل عدد من الوزراء على يد اتباع الامير يوسف عز الدين ابن عبد العزيز، و بالتالي كان من الضروري خلع هذا السلطان و تولية أخيه عبد الحميد. أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني ، ط2 ، دار الشروق، 1993 ، ص - ص 232-233.

² - علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض و أسباب السقوط، المرجع السابق، ص401.

³ - في عام 1865 شكل بعض الشباب العثماني جمعية سرية على شكل "إيطاليا الفتاة" واخذت هذه الجمعية اسم " العثمانيين الشباب " أطلق الاوربيون عليها اسم "تركيا الفتاة" من بين اعضائها نامق كمال و آية الله بك الأمير مصطفى فاضل وهي حركة قومية علمانية اعتمدت على طبقة من المثقفين تهدف الى-الحرية الفردية -قيام النظام الدستوري- القضاء على الاقطاع- التحرر من السيطرة الاجنبية. وفي سنة 1889 شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية السلطانية في استانبول منظمة سرية باسم " الاتحاد و الترقى " تهدف الى عزل السلطان عبد الحميد الثاني و إعادة الحياة الدستورية و كان وراء هذا التشكيل الماسوني الالماني " ابراهيم تيمو" نشرت أفكاره عن طريق الجيش، كما أصدرت في جنيف مجلة "عثمانلي" ثم انتشرت افكارها بين طلاب المدارس العليا في العاصمة، وحتى في صفوف الأتراك في أوروبا خاصة بعد معارضة الدول الأوروبية لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني اتجاه الأرمن، ولذلك انقضت الدول الأوروبية والمنظمات اليهودية الماسونية عليها لتستعملها فيما بعد ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وعبر الغارات الأجنبية تسللت المنشورات المعادية للسلطان ووزعت على عناصر التشكيلات الداخلية بسرية تامة. دعت الجمعية إلى عقد مؤتمر في فينا 1896 عام شارك فيه كل المعارضين لحكم السلطان من جنسيات مختلفة وقرر المؤتمر خلع السلطان عبد الحميد الثاني، انتشرت الجمعية في بعض ولايات الدولة الخاضعة للنفوذ الاستعماري مثل مصر ومدينة سالونيك في مقدونيا لأنها تضم اليهود خاصة من الدوئمة، عمل أعضاء الجمعية على استمالة الجيش. تعتبر المحافل الماسونية هي المحافل التي روجت أفكار الاتحاديين وتبقى مقدونيا ضمن سلطة الدولة لأنها مركز نشاط اليهود الاقتصادي. أنظر : محمد سهيل طقوش، المرجع السابق ، ص 527 مابعداها. أنظر كذلك : عبد الكريم مشهدي، "تركيا الفتاة وارتباطاتها المشبوهة باليهودية العالمية"، مجلة المنعطف، العدد 3/4 ، المغرب، 1992، ص - ص 21 - 27.

⁴ - موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص 55.

⁵ - يعتبر مدحت باشا أول ضحايا الدستور و لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يأمن بجانبه خاصة علاقة مدحت باشا الشديدة بأعضاء تركيا الفتاة و في هذا الصدد يذكر : " لقد وجدت مدحت باشا ينصب نفسه آمرا و واصيا علي و كان في =

- ولاية العرش:

تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش بعدما أخذت له البيعة في أول سبتمبر 1876 فصار من قصره في موصولو اوخلو إلى قصر طوب كاي ثم إلى قصر بشكطاش ثم استقر في قصر يلدز - النجمة².

يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني من بين أطول سلاطين الدولة العثمانية حكماً، حيث حكم قرابة الثلاثة والثلاثين عاماً و تولى عرش السلطنة في ظروف جد سيئة حيث واجهته صعوبات و مخاطر لم يتعرض لها سلطان عثماني غيره، فمن الناحية الخارجية عاصر السلطان الزحف الاستعماري في أشد مراحلها و الحركة الصهيونية و أطماعها في فلسطين، و من الناحية الداخلية الهزيمة العسكرية التي مني بها الجيش العثماني³ والمشكلة القومية و الدستورية و المشاكل الاقتصادية و المالية⁴.

وتعتبر الفترة الطويلة التي تولى فيها الحكم من أصعب الفترات: ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت النزعات القومية و الموجة الاستعمارية التي عملت على حماية الأقليات المسيحية خاصة في الدولة العثمانية التي كانت في تلك الفترة الزمانية القوة الإسلامية الوحيدة التي تسيطر على شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام⁵.

=معاملته بعيداً عن المشروطة و أقرب إلى الاستبداد"، أنظر: علي محمد صلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض و أسباب السقوط، المرجع السابق، ص 401

يصف أولفرد بلنت مدحت باشا الذي التقاه عندما كان والياً على دمشق: "لم يكن ممتازاً بأي شيء في مظهره سوى أنه كان فخوراً مختالاً و لم أجده أثناء محادثتي معه في موضوع تحديد تركيا و إصلاحها أي عمق في أفكاره". أنظر: محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 64.

¹ - جمال عبد الهادي، محمد مسعود، وفاء محمد رفعت جمعة، علي أحمد لبن، أخطاء يجب أن تصحح في تاريخ الدولة العثمانية، ج 2، دار الوفاء للنشر و التوزيع، مصر، 1995، ص 35.

² - محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 27.

³ - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 436 وأنظر كذلك: عبد العزيز لعميد، الشيخ الطاهر الجزائري ودوره الاصلاحى في المشرق العربي، بلاد الشام نموذجا، 2001، ص 136.

⁴ - عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 240

⁵ - Ali Merad, op.cit, p40.

لقد اعتمد السلطان على جهاز من الجواسيس الذي أرهق خزينة الدولة للإنفاق عليه ، حيث شهدت الدولة فترة حكمه أزمة مضاربة للأوراق المالية¹ لأن الإنفاق على الجواسيس و القصر استنزف جزءا كبيرا من إيرادات السلطنة التي كانت الدولة تعيش بالقروض في آخر أيامها لكن الاتحاديون استولوا على أملاكه و على خزائن يلدز²، يذكر السلطان: أنا أعرف أن الجوسسة و تقرير التجسس شئ غير مرغوب فيه، لكنني أعرف جيدا بين التقرير المبالغ فيه و التي تعطي للحدث حجما أكبر و لقد حدث لي مرتين محاولة اغتيال و قد نجوت في اللحظة الأخيرة بالفطنة و المثوقين و المقربين لي³.

أظهر السلطان عبد الحميد الثاني عندما اعتلى العرش نيته في الإصلاح فقد وعد في الخطاب الذي ثبت فيه الصدر الأعظم محمد رشدي باشا في منصبه في 10 سبتمبر 1876 بتأسيس مجلس عمومي وبذلك يكون السلطان قد وعد بإعلان القانون الأساسي⁴، و قد جاء في كتاب التكليف عندما عين مدحت باشا في منصب الصدر الأعظم في 16 ديسمبر 1876 ما يلي: ".... و لما كنتم جامعين للصفات المطلوبة والمستقيمة وجهنا منصب الصدارة لعهدة حمايتكم"، و في 19 ديسمبر 1876 أصدر السلطان خطا همايونيا بشأن إعلان القانون الأساسي⁵، ثم طلب من مدحت باشا في اليوم نفسه إعلان

¹ - و في أكتوبر عام 1875 صدر قرار ينص على تأجيل سداد الديون الخارجية، جعل الدول الأوروبية تفكر في اقتسام أملاك الدولة بشكل جدي لأنها عاجزة على تسديد ديونها و هذا ما سهل على مدحت باشا و زملائه خلع السلطان عبد العزيز الذي أجلسوا بدله مراد الخامس ، غير أن الظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالدولة جعلته في حالة عصبية صعبة و لم تعد له القدرة على إدارة شؤون الدولة و في هذه الظروف الصعبة اعتلى عبد الحميد الثاني العرش. أنظر: مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص 14.

² - محمد كرد ، المرجع السابق ، ص 120.

³ - Ali Merad, op.cit, p 220.

⁴ - إن اعلان الدستور كان بمثابة تحول سياسي في كيان الدولة العثمانية حيث يعتبر أول دستور للدولة العثمانية ينص على اطلاق لفظ (العثمانيين) على جميع رعايا الدولة و يتكون من مجلس النواب هو مجلس المبعوثان و مجلس الشيوخ هو مجلس الأعيان، جاء إعلان الدستور في مؤتمر القسطنطينية الذي انعقد في ديسمبر عام 1876 لمناقشة السبل الكفيلة لتحقيق السلام في البلقان ، و يهدف إلى وضع حد للتدخلات الخارجية في شؤون الدولة العثمانية و للحفاظ على هيئة الدولة المهددة بالانحيار، علق السلطان عبد الحميد الثاني الدستور، و في سنة 1889 طلبت المعارضة عزل السلطان عبد الحميد الثاني لكنه وجه لهم ضربة قاضية لإن الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية تسير في الاتجاه غير الاتجاه الذي يسير فيه السلطان عبد الحميد الثاني، إن عودة الدستور من جديد يدل على أن الدولة العثمانية دخلت عهدا جديدا تميز بتحويل الخلافة العثمانية إلى دولة علمانية. أنظر : د عبد الواحد مشعل، "الاذكار الدستورية وأثرها في العلاقة بين الدولة والمجتمع في العهد العثماني: رؤية اجتماعية تحليلية". بحوث المؤتمر الدولي حول المشروطية الثانية في الذكرى المئوية، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية (ارسيكا)، استانبول، ماي 2008، ص - ص 73-76.

⁵ - عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص - ص 40 - 41.

القانون الأساسي¹ و أعلن بصورة رسمية في 23 ديسمبر 1876 وبقي ساري المفعول إلى غاية عام 1960².

يذكر إنفلهارت أن الدستور اقتبس من الدساتير الأوروبية منها دستور فرنسا، بلجيكا، إنجلترا، و لقد تضمنت مواده حقوق السلطان و اعتبرته مقدسا و غير مسؤول حيث يتمتع بعدة حقوق منها:

— عزل الوكلاء و توجيه الرتب و المناصب.

— يذكر اسم السلطان في خطبة الجمعة.

— تصك النقود باسمه.

— له الحق في عقد المعاهدات و إعلان الحرب و تخفيف العقوبات و غيرها من الحقوق³.

يعتبر مدحت باشا من رجال الثورة و الموالين للإنجليز و معه رجل التنظيمات مصطفى رزيت باشا، ثم انظم إليهم نامق كمال الذي يحتاط من الغرب و يختلف في الوقت نفسه ايدولوجيا مع مدحت باشا و مما يجدر ذكره أن السلطان عبد الحميد الثاني كان أكثر ميلا إلى أفكار نامق⁴.

بدأ السلطان حكمه بإعلان خط همايوني جاء فيه: "...و قصارى آمالي و مقاصدي معطوفة بالحصص لتأييد أساس شوكة دولتنا و مكائنها، بحيث تنال صفوف رعيتنا — بلا استثناء — الحرية، و ينعمون جميعا بنعمة العدالة و الرفاهية، و قد عرف كل الناس أن حال الاغتشاش الملم بدولتنا له جهات و أسباب متنوعة يمكن أن تجمع في نقطة واحدة هي عدم جريان القوانين و النظامات المؤسسة على الأحكام الجلييلة والشرعية، و اتباع كل فرد أهواء نفسه في إدارة الأمور و اتساع ميدان عدم الانتظام الطارئ على إدارة دولتنا ملكا ومالا ، و تعذر وصول المحاكم إلى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس، و تأخر استفادة دولتنا من وسائل العمران و التقدم في الزراعة و الصناعة و التجارة".

¹ — ويطلق عليها نظام المشروطية الاولى والتي تسمى كذلك بالديمقراطية المتوجة وهي الفترة الزمنية التي واكبت الدستور ، سميت بهذا الاسم بفعل تقييد صلاحيات السلطة المطلقة بحدود. أنظر: مذكرات عائشة ، المرجع السابق ، ص 19.

² — يلماز، أوزتونا، المرجع السابق ، ص 102.

³ — وجهه كوثوراني، "التنظيمات العثمانية و الدستور: بواكير الفكر الدستوري نصا و تطبيقا و مقهوما"، المرجع السابق، ص 4.

⁴ — Dimitri Kitsikis , L'empire Ottoman , presse universitaire , paris , 1994 , p 119 .

أمر السلطان أن يكون العمل بالدستور في جميع الولايات العثمانية¹ وكان الدستور من الناحية الشكلية أقرب إلى أسلوب الدساتير الأوروبية منها إلى جوهرها، لكن السلطان أصدره لإحباط المخططات الأوروبية التي تتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية بحجة تحسين أوضاع المسيحيين الخاضعين لها خاصة أن الدستور أبقى على نظام الملل العثماني²، ولذلك يعتبر سلطان عبد الحميد الثاني أول سلطان دستوري في الدولة العثمانية³ ورغم أنه لم يعلن الدستور وهو راض عنه وإنما ضاق ذرعا بالحياة النيابية والنواب⁴، ولقد استاء من المعارضة لأن انتقاداتها هاجمت السلطان نفسه⁵، وحتى دول أوروبا ضاقت من الدستور لأن وجوده معناه انتظام الحياة ووجود مراقبة وهذا ما سيعرقل طموحها وسيقلل من نشاطها الذي يهدف إلى إفساد الحياة في الدولة العثمانية، وعندما شعر السلطان بأن أوروبا لا تريد الدستور استغل ذلك فأوقف العمل به⁶: ففي 14 فيفري عام 1878 التجأ السلطان إلى تأجيل اجتماعات المجلس بقرار من الحكومة المرشح بالإرادة السنوية إلى أجل غير مسمى نظرا للظروف التي تمر بها الدولة، ثم حل مجلس المبعوثان وعلق الدستور⁷، وفي الفترة المعطلة سادت فيه الإدارة الشخصية للسلطان عبد الحميد أطلق

¹ -أحمد شلبي، المرجع السابق، ص، ص902، 899.

² -محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 519.

³ -نفسه المرجع، ص516.

⁴ _ارتبط حكم السلطان عبد الحميد الثاني باعلان الدستور و كانت مسودته قد وضعت على يد لجنة من العلماء و الموظفين المدنيين على رأسهم مدحت باشا، ولم يرق للسلطان الدستور و وقع عليه بدون رغبة، بعد أن أضاف اليه فقرة تعطيه حق نفي كل من يهدد أمن الدولة، و يعتبر نسخة طبق الاصل للدساتير الأوروبية و لعل ما ضمه الدستور : - شخص السلطان ماصون لا يمس - لا يسأل امام احد عن اعماله - حق تعيين و اقالة الوزراء الذين اصبحوا مسؤولين امامه، و بالتالي ظل السلطان عبد الحميد الثاني يتمتع بالسلطة التي سبق لاسلافه ان تمتعوا بها. أنظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق، ص - ص 233 - 238.

⁵ _توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، دار الهنا للطباعة، 1960، ص30.

⁶ -أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 904.

⁷ - نفس المرجع ، ص 903.

عليها المعارضون بالنظام الحميدي¹ لأن الفترة السابقة لتعليق الدستور - فترة سنة ونصف - لا تدخل ضمن إدارته الشخصية لأنه لم يتدخل في الحكومة².

أثناء فترة تعطيل الحياة الدستورية نشطت الجمعيات السرية والصحف الأجنبية التي طالبت بضرورة الإصلاح³، إلا أن السلطان فرض على شعبه الحكم المطلق الفردي⁴ وعلى جميع الطوائف⁵ وفي هذا الصدد يذكر احسان حقي: "إن السلطان عبد الحميد الثاني لم يكن ملكا ديمقراطيا مثل ملك إنجلترا أو السويد مثلا بل كان ملكا أوتوقراطيا يملك و يحكم و إذا كان قد ظهر منه شيء من الاستبداد فتلك كانت شيمة الملوك في ذلك الزمان وتلك كانت مقتضيات الحكم في دولة تنهشها من كل جانب، بيد أننا لو قسنا استبداد عبد الحميد باستبداد بعض حكام اليوم الذين لا يزيدون عن شيوخ قرى بالنسبة إليه نجد استبداده رحمة وحنانا بالنسبة إلى مظالمهم"⁶.

رغم تعليقه للدستور لم تكن هناك ردة فعل في البلاد لأن الحياة الدستورية لم يؤيدها الرأي العام في الداخل ولم تدعمها فئة قوية من المستيرين، كما أن الدستور أعده مدحت باشا وعدد محدود من المفكرين⁷ وهكذا ظل دستورا معطلا طيلة احدى وثلاثين سنة⁸. إن اقامة حكم دستوري سوف يخفف من وطأة الضغوطات الدبلوماسية التي تمارسها الدول الأوروبية على الدولة العثمانية في الوقت الذي

¹ _لقد ضاق صدر مدحت باشا من السلطان وكتب له ما يلي : "لم يكن غرضنا من إعلان القانون الأساسي إلا قطع دابر الاستبداد وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من واجبات و تعيين وظائف الوكلاء و تأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم حتى تنهض البلاد إلى معارج الارتقاء، و إني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الامة ... ونحو ذلك من هذا القبيل". فعزله السلطان و حل محله أدهم باشا، وب عد ما عطل السلطان الدستور اضطهد رجال المبعوثان ففرقوا بين مصر وباريس والولايات المتطرفة منهم خليل غانم مبعوث بيروت. أنظر : حضرة عزتو يوسف بيك آصاف، تقديم محمد زينهم محمد عزب، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995، ص-ص 129 وما بعدها.

² _يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص 116.

³ سليمان بن صالح الخراشي، كيف سقطت الدولة العثمانية ؟، ط1، دار القاسم للنشر، الرياض، 1420 هـ، ص 36.

⁴ -فهو مصلح على طريقته الخاصة، عمل على تقوية الإمبراطورية العثمانية و فضل أن يتولى ذلك بنفسه بمعنى أن يكون القصر هو مركز السلطة و ليس الباب العالي أو البرلمان، إن الظروف التي تمر بها الدولة داخليا وخارجيا جعلته ينقل مركز الادارة والسلطة إلى قصره، فكان لا يغادره و يمضي معظم أوقاته في قراءة التقارير التي تصله من الإدارة، الجواسيس، البوليس السري.

أنظر : عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 241.

⁵ -توفيق برو، العرب والترك في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 32.

⁶ -جمال عبد الهادي و آخرون، المرجع السابق، ص 49.

⁷ -عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في سوريا، المرجع السابق، ص 45.

⁸ -احمد شلبي، المرجع السابق، ص 903.

كانت فيه السلطنة بحاجة إلى بناء الدولة على أسس اجتماعية أكثر صلابة عن طريق إشراك نواب الشعب في صياغة القرار السياسي، و تكون القرارات السياسية على أساس مبادئ و نظم محددة.

لقد صيغت بنود الدستور بعد اتفاق ومناقشات دارت بين المثقفين ورجال الدولة المعنيين وبين السلطان و لذلك لم يجد السلطان عبد الحميد الثاني معارضة عندما عمل بالمادة 113 ونفى بها مدحت باشا.

و تعود أسباب حل مجلس المبعوثان الأول إلى:

- 1- يرى السلطان أن المجتمع العثماني لم يكن قد نضج بعد بالدرجة التي تؤهله لخوض التجربة الدستورية.
 - 2- لم يقتنع رجال السياسة بتدخل الشعب في السياسة.
 - 3- إن الأهالي يرون أن الدولة العثمانية مصدر السلطات¹.
 - 4- أدرك السلطان أن أنصار الدستور ممن يعادي الشريعة الإسلامية من جهة و من جهة أخرى إن هدف الدول الغربية من مطالبة الدولة العثمانية بإعلان الدستور هو إلغاء الخلافة و تمزيق شملها².
- يهدف السلطان عبد الحميد الثاني من تعليق الدستور إلى:

- إتباع سياسة خارجية تقوم على أساس الحياد.
 - فتح علاقات ودية مع الجوار.
 - تطوير الناحية الاقتصادية و إصلاح السياسة المالية مع تسديد الديون الخارجية.
 - تثبيت أسس الدولة على قواعد إجتماعية أكثر اتساعا تعطي فيها الأولوية للمسلمين.
 - إصلاح النظام القضائي و النظام الإداري و نشر الثقة و الأمن بين الأهالي.
 - وضع جهاز رقابة كفئ لمراقبة مؤسسات الدولة.
- __الاهتمام بالتعليم المدني و العسكري³، حيث تقرب من الألمان و عين الكثيرين من الضباط الألمان لتدريب الجيش العثماني⁴.

¹ - مذكرات عائشة، المرجع السابق، ص 19 وما بعدها

² - سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق، ص 36.

³ - مذكرات عائشة، المرجع السابق، ص-ص 21-24.

⁴ - الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثالث، ط2، الجمعية المصرية لنشر المعرفة و الثقافة العالمية، دار الجيل، مصر، 2001، ص 1005.

إعتمد السلطان على كافة العناصر و لم يكن ينظر إلى الفوارق الجنسية فضم فرقة من جند العرب إلى حرسه الخاص، وفي الوزارة والبلاط والمجالس ترى أجناس مختلفة من عرب، ألبان، أتراك، أرمن.... الخ لأنه نظر إلى الشعوب العثمانية بنظرة واحدة¹، يقرأ التقارير التي يرسلها حكام الولايات ويعطي اهتماما لجميع المواضيع مهما كانت درجة أهميتها وفي بداية حكمه كان يقابل كل شخص التمس مقابله².

يبدو أن السلطان على علم أن أكبر خطر موجه للدولة العثمانية كان من إنجلترا التي في الظاهر تعد الدولة العثمانية بتقديم المساعدات وفي الخفاء تتحالف مع الدول الأوروبية الاخرى على تقسيم أملاكها³، ولذلك اهتم بوضع ركائز دولته من الداخل ثم إلتجأت أنظاره إلى الخارج وكان يدرك تماما مركز تركيا الضعيف بين الدول الأوروبية خاصة وأن السبيل الوحيد للحفاظ على تماسك وسلامة الدولة العثمانية اعتمد على ما بين الدول الكبرى من خصومات وتنافس خاصة بعد زحف الجيوش الروسية ووصولها إلى القسطنطينية⁴، وفي هذا السياق يذكر جمال الدين الأفغاني: " رأيتة يعلم دقائق الأمور السياسية و مرامي الدول الغربية، وهو معد لكل هوة تطراً على الملك مخرجاً وسلماً ، وأعظم ما أوحشني ما أعده من خفي الوسائل وأمضي العوامل كيلا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويربها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوربية بأسرها...."⁵ ويذكر ايضا : "... أما ما رأيتة من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكاييد أوروبا و حسن نواياه واستعداداه للنهوض بالدولة فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالملك و الخلافة "⁶.

استعمل السلطان عبد الحميد الثاني لقب الخلافة في أوائل حكمه كسلاح يساعده في التصدي للبروقراطية وأنصارها و الإمساك بمقاليد الحكم ولحماية السلطنة من الأطماع الأجنبية⁷.

تعتبر المحافل الماسونية المركز الذي روج لأفكار الإتحاديين المعادين للسلطان منهم من ينتمي إلى الماسونية هم على اتصال دائم باليهود، ولذلك تعرض السلطان لمحاولة اغتيال في يوم الجمعة

¹-توفيق برو ،العرب و الترك في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 47.

²-رفيق شاكر النتشه، السلطان عبد الحميد الثاني و فلسطين، ط1، شركة مطابع نجد التجارية، الرياض، 1984، ص50.

³- مذكرات عائشة، المرجع السابق، ص20

⁴-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص135.

⁵- حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897 - 1909، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص 269.

⁶-محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 75.

⁷-عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص 248.

21 جويلية 1905¹ خلف هذا الحادث حوالي ثمانين ضحية بين قتيل و جريح و لقد أسفرت التحقيقات أن الذين دبوا هذه الحادثة جماعة من "جمعية طاشناق الأرمنية" وعلى رأسهم إدوارد جوربة، و بعد مدة أصدر السلطان عفى عنه و سمح له بالعودة إلى بلاده².

شهدت الدولة العثمانية خلال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني إجراءات تنظيمية كثيرة بالرغم من أنه من أنصار الحكم المطلق، فتخطت قوات الجيش البرية و البحرية خطوات واسعة إلى الأمام. و أجرى عدة إصلاحات في المدارس العسكرية في العاصمة و الولايات، كما أسس عدة مدارس في العاصمة و غيرها و استطاع السلطان أن يفرض سيطرته و سيادة الدولة على الولايات أكثر من قبل واستعان بذلك على أجهزته السرية ولذلك نلاحظ الفرق بين سيطرة الدولة على ولاياتها بين أواخر القرن الثامن عشر و أواخر القرن التاسع عشر³.

لقد مرت الحياة الدستورية بمرحلتين و هما:

- **المرحلة الأولى:** من صدور الدستور 23 ديسمبر 1876 إلى حل البرلمان و إيقاف العمل بالدستور 24 فيفري 1878.

- **المرحلة الثانية:** عندما قرر السلطان إعادة العمل بالدستور في جويلية 1908 و انتهت في شهر مارس 1920⁴.

و في السنتان الأوليتان من حكمه تلقت الدولة العثمانية هزائم عسكرية، فقدت فيهما جزءا من ممتلكاتها في أوروبا و آسيا و إفريقيا⁵ مثل قبرص، مصر، تونس، الروملي، و فرضت رقابة مالية دولية على السلطنة⁶، كما تعرضت للمذلة الدبلوماسية في أروقة مؤتمر برلين سنة 1878 ضف إلى ذلك سوء الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية⁷، لقد واجه السلطان عبد الحميد الثاني هذه المشاكل و الدسائس بذكاء و دهاء و ذلك راجع لسببين :

¹-Jean Paul Garnier , La fin de l'empire Ottoman , édit plon , paris, 1973, p 94.

²-مذكرات عائشة، المرجع السابق، ص- ص 123-127 .

³-عبدالعزیز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص39

⁴-علي محمد صلاحي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، المرجع السابق، ص517.

⁵-احمد شلبي، المرجع السابق، ص901.

⁶-محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص525.

⁷-محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 28.

أولهما: ضعف الجهاز الحكومي و عدم اخلاص موظفيه للدولة و لا للسلطان.

ثانيهما: ضعف الدولة العثمانية و عدم قدرتها على التصدي للدول الغربية، أما نحو الأرمن فقد أظهر السلطان تسامي و علاء فالكثير منهم يشغلون مراكز هامة في الباب العالي و في القصر السلطاني، و مع ذلك تعتبر قضية الأرمن من أهم المشاكل التي واجهت السلطان في الأقاليم لقد كان السلطان محاطا بعدد كبير من المتآمرين و المتحالفين مع الدول الكبرى¹.

هناك تحايل كبير على السلطان رغم قبوله بالحياة الدستورية، و ماتعليقه له لم يكن عبثا و إنما ترجع إلى حنكته و دهائه السياسي فالدولة العثمانية كانت تمر بظروف داخلية و خارجية صعبة و لذلك إعتد على الحكم الفردي الذي يطلق عليه المعارضون لسياسته بالفترة الحميدية، ففطنة وذكائه وصبره هي التي أدت إلى استمرار الخلافة ردحا آخر من الزمن و تصدت للهجمات الاستعمارية الشرسة وللاطماع الصهيونية و إذا قارنا حكم السلطان بحكم الاتحاديين دعاة الاصلاح و الديمقراطية فإن حكم هؤلاء كان أكثر استبدادا و عنصرية خاصة في الولايات العربية.

المبحث الثاني: الوضع الاداري والسياسي والعسكري:

اعتمد العثمانيون على العامل الديني في حكمهم لبلاد الشام و قد ألبسهم ذلك موقعا معنويا وشرعية، وهذا ما سهل عليهم فرض سلطتهم على المنطقة و تثبيت حكمهم حتى عندما بدأ الضعف يتسرب الى كيان دولتهم و يظهر بوضوح منذ القرن الثامن عشر².

1-موقف عرب الشام من الدستور العثماني :

استقبل عرب الشام الدستور العثماني الأول بفرحة وارتياح وفي هذا الصدد يذكر سليم البستاني: "وكيف لا نفرح به ونبعد عنا ما يعذبنا...فمدح مدحت باشا في هذه الظروف واجب و كذلك مدح جميع الذين أسعفوه..³".

إلا أن الدستور أقر على توحيد جميع سكان الأمبراطورية العثمانية على أساس المركزية و سوى بين جميع المواطنين متناسيا رغبة العرب في الإحتفاظ على شخصيتهم الإقليمية في الوقت الذي عرف فيه أبناء هذا الاقليم تطورا و نموا⁴، إن مركزية السلطان عبد الحميد الثاني تهدف إلى إبقاء الحكم الفردي مع سيطرة

¹ -رفيق شاکر النشئة، المرجع السابق، ص-ص 54-56.

² -مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص14

³ -علي المحافظه، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص104.

⁴ -جلال يحيى، العالم العربي الحديث، مؤسسة المعارف للطباعة و النشر، 1975، ص 203.

الدولة بصفتها عثمانية إسلامية و اللغة التركية هي اللغة الرسمية و بقاء العنصر التركي هو العنصر المتغلب على شؤون ووظائف الدولة، و رغم ذلك تختلف هذه السياسة عن سياسة الاتحاديين الذين فرضوا سياسة التتريك بالقوة¹ و في هذا الصدد يذكر سليم البستاني الذي لم تعجبه بعض بنود الدستور خاصة المتعلقة بمنح الوظائف الإدارية للذين يتقنون اللغة التركية: " و عندما فرض على كل رجل أن يتعلم اللغة التركية إذا كان ذا ميل سياسي أو مركز أبوي يؤهله مع استعداده الطبيعي إلى الانتظار في سلك المأموريات .." كانت مشكلة اللغة عند المفكرين العرب أكبر مشكلة أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني و لذلك طلب العرب بإلغاء هذا الشرط عند عزله².

لقد ضاق السلطان عبد الحميد الثاني من الحياة النيابية و الدستور: ففي مجلس المبعوثان توجد معارضة للسلطان بزعماء فريق من النواب أكثرهم من العرب من بينهم نافع افندي الجابري، نائب حلب، نيقولاي نوفل نائب طرابلس الشام و يعتبر يوسف ضياء الخالدي نائب متصرفية القدس من ألع النواب العرب في مجلس المبعوثان، و قد تميزت معارضة النواب العرب دفاعا على مصلحة الدولة العثمانية نظرا للأزمات التي مرت بها³ خاصة الخطر الروسي و النمساوي مع تقاعس و تحايل المسؤولين أمام هذا الوضع الخطير⁴.

بعد أن علق السلطان الدستور اعتمد على أساليب متنوعة فقد حاول السيطرة على العرب و شدد قبضته مستعملا أحيانا أسلوب الشدة و تارة أخرى أسلوب الليونة و عدم الثقة في الكثير من الأحيان خاصة بعد ظهور مناشير جمعية بيروت السرية في فترة ولاية مدحت باشا على سوريا، و لذلك ربط البلاد العربية بشبكة من الأسلاك البرقية ثم عززها بالخطوط الحديدية لقمع عمليات العصيان و ثورات التي تقع فيها في أسرع وقت⁵ و تسهيل التبادل الاقتصادي و تسهيل الطريق إلى الحج⁶.

¹-توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص 46

²-علي المحافضة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص- 104

³-توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق ص- 30- 32.

⁴-توفيق برو، نظرات في نشوء وتطور فكرة القومية، المرجع السابق، ص- 107

⁵-توفيق بر، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص 33 أنظر كذلك عبد العزيز. عوض، الإدارة

العثمانية في سوريا 1864-1914 المرجع السابق، ص4.

⁶-توفيق برو، نظرات في نشوء وتطور فكرة القومية، المرجع السابق، ص-109.

و لما عطل السلطان عبد الحميد الثاني الدستور طالب العرب بإعادة العمل به و نظرا لعودة الحكم الفردي بدأت الهوة بين العرب و الأتراك و طالبوا بالاعتراف بالشخصية و اللغة العربية¹.

لقد تقرب السلطان عبد الحميد الثاني من العرب و منحهم مناصب هامة في الدولة و استخدمهم حتى في القصر، يرجع اهتمام السلطان بالعرب إلى :

- تخوفه من انشاء خلافة عربية منافسة للعثمانيين و كانت مخاوف السلطان متجهة نحو أشرف مكة² بدعم من بريطانيا خاصة، ثم مساعي جمعية بيروت السرية، و حركة الأعيان و مساعي يوسف كرم ومشروع مدحت باشا في بلاد الشام و دعوة عبد الرحمن الكواكبي لتعريب الخلافة الاسلامية و أفكار ودعوة نجيب عزوري لخلافة عربية في الحجاز، و إقامة دولة عربية غير دينية في بلاد الشام و العراق.

و لتقييد الاتجاهات القومية العربية التجأ السلطان إلى تقطيع أوصال هذا الاتجاه في بلاد الشام من الناحية الادارية: ففي عامي 1887-1888 أنشأت "متصرفية القدس" و "ولاية بيروت" وذلك لتسهيل مراقبة الاحداث³.

- كما أن عدد سكانها الذي يقدر بعشر ملايين يمد الجيش بالمحاربين⁴.

- توجد بها -البلاد العربية- الأماكن المقدسة و الأوقاف و معظم أملاك السلطان الخاصة ولذلك فإنه لم يتأخر في منح المكافآت و المساعدات للمدارس و المؤسسات الخيرية والاعتناء بها⁵ و أنفق أموالا كثيرة من أجل ترميم مساجدهم ومعاهد التعليم و بيت المقدس⁶.

-إن الولايات العربية كسوريا مثلا تمثل موردا اقتصاديا هاما بعد أن خسرت الدولة العثمانية ولاياتها

¹-جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص204

²- كان السلطان عبد الحميد الثاني يحجز كل من يشك في ولائه للدولة العثمانية و يقيه تحت رقابة الدولة في استانبول خوفا من مؤامراتهم مع الانجليز خاصة. و هذا ما فعله مع حسين شريف مكة الذي أقام هو وأفراد أسرته في استانبول بأمر السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1893 خوفا من تحركاته و في هذا الصدد يذكر السلطان: "إن الشريف حسين لا يحبنا، انه الآن هادئ و ساكن، لكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غدا." و هذا ماحدث فعلا فالشريف تحالف مع الانجليز فيما بعد وأحدث فجوة بين مسلمي العرب و الأتراك. أنظر:علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض و أسباب السقوط، المرجع السابق، ص435.

³-عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، 2005 ، ص 4-6 www.abdelraoufsinno.com.

⁴-توفيق برو، نظرات في نشوء وتطور فكرة القومية، المرجع السابق، ص107

⁵-توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق ، ص -ص 32- 33. أنظر كذلك عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في سوريا 1864-1914، المرجع السابق، ص 44.

⁶-محمد مصطفى الهاللي، المرجع السابق، ص 113 .

في آسيا و أوروبا¹ فمواردها الاقتصادية تغذي خزينة الدولة بثلاثي ميزانيتها².

2-النشاط السياسي في بلاد الشام بعد الحرب العثمانية الروسية

شهدت الولايات العربية في بلاد الشام في الفترة الممتدة ما بين 1876-1882 أحداثا سياسية هامة منها ظهور جوا من الحرية السياسية و الفكرية بعضه سري و بعضه الآخر علني، و قد نقلت لنا بعض الكتابات المحلية و تقارير القناصل هذا الجو السياسي: ففي بيروت و صيدا و دمشق مثلا شهد المراقبون في عام 1880-1881 ظهور دعوة سرية تحرض على الثورة على الأتراك علقت مناشيرها على الجدران دون توقيع تدعو السوريون إلى الحرية و الاستقلال على عكس ما يطرحه العثمانيون الجدد فكرة (الوطن العثماني) و يرجح أن المسؤول عن عملية كتابة المناشير و إلصاقها جمعية بيروت السرية³ التي تأسست حوالي سنة 1876⁴.

إن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني المطلقة أدت الى هجرة الكثير من المثقفين اللبنانيين و السوريين إلى مصر و رغم ذلك فإن الوعي القومي عرف نضجا في سوريا و تكونت جمعيات سرية كما سبق الذكر و ظهرت وثائق و مناشير تحرض الشعوب العربية إلى النهوض و الانتفاضة ضد الوضع القائم⁵، نتج عن هذه الأحداث ظهور تغيرات في بلاد الشام و لعل أهمها التوتر الطائفي بين الجماعات الدينية الذي استغلته الدول الأوروبية فأصبحت تتدخل في شؤون الدولة العثمانية، عن طريق نشاط الإرساليات التبشيرية التي تنشط في ميدان التربية و الثقافة التغريبية، هذه التغيرات أدت إلى نتيجتين هامتين و هما :

¹ -عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص-ص 4-6.

² -توفيق برو، نظرات في نشوء و تطور فكرة القومية، المرجع السابق، ص 109 .

³ -بدأ العمل السياسي العربي سنة 1875 حيث أسس نخبة من الأدباء و المثقفين المسيحيين العرب تخرجوا من الكلية السورية الانجيلية جمعية سرية في بيروت، علقت منشورات على الجدران هذه المنشورات كشفت التناقضات الموجودة بين بعض العرب والدولة العثمانية، و من أبرز أعضائها فارس نمر باشا (الشاهد)، ابراهيم الحوراني، يعقوب صروف، و ابراهيم اليازجي وشاهين مكاريوس و غيرهم، اعتبروا الإستبداد العثماني و احتقار الأتراك لهم سبب هذا العمل ، و نظرا لقمع البوليس الداخلي اضطرت الجمعية السرية أن توقف عملها بين عامي 1882-1883 و أن يلجأ أعضائها إلى القاهرة عام 1885. أنظر: وجيه كوثراني، السلطة و المجتمع ...، المرجع السابق، ص-ص 130، و كذلك علي شكيب ، المرجع السابق.

⁴ -وجيه كوثراني ، السلطة و المجتمع والعمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، المرجع السابق، ص131.

⁵ -Dominique Sourdel, op.cit, p 112.

- ظهور تيار فكري مسيحي: ظهر هذا التيار نتيجة نشاط الارساليات التبشيرية في ميدان التعليم أنتجت حركة أدبية فكرية بين مسيحي بيروت و جبل لبنان تحولت فيما بعد إلى حركة سياسية لها دور كبير في اليقظة و القومية، و قد ساهم قانون الولايات 1864 - 1867 الذي منح الولايات نوعاً من الاستقلالية الإدارية و المساواة بين أهل الذمة و المسلمين إلى تكوين شخصية عربية سورية لدى النخب المسيحية و التي وضعت تصوراً لسوريا كوحدة و وطن يسكنه شعب واحد و لذلك حث بطرس البستاني السوريين على تجاوز العصية الدينية إلى العصية الوطنية العربية، أما ابراهيم اليازجي فقد دعا إلى التخلص من العثمانيين و استرجاع العرب لأمجادهم.

- إتجاه يعتمد على الاسلام (الرابطة العثمانية): اعتبر مسلمو بلاد الشام والرابطة العثمانية أن فكريتي الوطن السوري والعروبة لا تخدمان مصلحة دولة الخلافة وستقضيان على شخصية المجتمع الاسلامي و أن هناك أيد تحرك أصحاب التيار الأول¹.

من خلال عن هذين التيارين انبثقت عدة مدارس أهمها مدرستان:

- الأولى: أعضاؤها في الغالب من أبناء الطوائف المسيحية اندفعت أكثر نحو الحضارة الغربية.

- الثانية: أعضاؤها على العموم من المسلمين الذين تثقفوا في الغرب و أرادت الاقتباس منه قدر الإمكان مع الحفاظ على الهوية الذاتية و التمايز عنه، مع نهاية القرن التاسع عشر توسعت الفجوة بين المدرستين ثم عادت و تقلصت عشية الحرب العالمية الأولى عندما شارك أفراد هاتين المدرستين في الجمعيات السياسية السرية دفعا على الحركة العربية القومية².

ولدت الحرب العثمانية الروسية التي اندلعت في 24 أبريل 1877 ذعرا في بعض الأوساط في بلاد الشام نظرا لعجز الحكومة على حماية أراضيها و خوفا من الاستعمار، هذه الحرب كانت بداية للتحويل من العثمنة إلى القومية العربية خاصة عند المتنورين المسيحيين العرب الذين مونوا حركة الوعي القومي العربي بالمادة الفكرية و الاعلامية و التنظيمية الضرورية لتحل محل الرباط العربي - العثماني القائم على عامل الدين الاسلامي.

و مع هذا استفادت الحركة الفكرية العربية في هذه المرحلة من تيارين مختلفين الفكر العلماني و الفكر الديني و لكل منهما أسلوبه الخاص، إلا أنهما يعملان لهدف عربي واحد و إن اختلفت الوسائل.

¹- عبدالرؤوف سنو: النزعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية 1877 - 1881 (بلاد الشام - الحجاز - كردستان -

البانيا)، ط1، بيسان للنشر و التوزيع، بيروت، 1998، ص-ص 32-34.

²- الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 287

و لقد عبر عن هذا التطور الثقافي و السياسي سلسلة من الاجتماعات السرية للنخب الاسلامية التي قام بها أحمد الصلح توجت باجتماع سري في دمشق سنة 1877 تقرر فيه :

- العمل على تحقيق استقلال بلاد الشام.

- اقتراح ترشيح الأمير عبد القادر الجزائري كملك على البلاد، حيث قام الامير بجولات في المناطق الشامية للحصول على البيعة .

- ارسال وفد إلى الأقطار الأوروبية لكسب تأييد دولي لدعم استقلال المنطقة.

و لذلك حدثت مراسلات بين الأمير عبد القادر و يوسف كرم (منفي في أوروبا)¹.

يذكر الحاج حسين أفندي كاتب سوريا في مجلس المبعوثان الأول رافضا لسياسة روسيا في محاولتها فرض الحماية على المسيحيين داخل الولايات العثمانية إذ قال : " إذا كان محسبكم لا يجيد التركية كما ينبغي فأعتقد أن لي عذرا مقبولا، أيها السادة إن محسوبكم نائب سوريا و هو البلد الذي يضم مللا مختلفة أكثر من أي مكان آخر، و خاصة من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم إلا أننا نعيش إخوة في ظل الشريعة وفي ظل السلطنة...إن حماية السلافيين ذريعة مثلها مثل حماية المسيحيين نلاحظها منذ عام و نصف، ويعلم المسيحيون في سوريا ماهو المقصدة من وراء اختلافها فهم يقولون : لا نريد حماية، فلنا سلطان وشرعية، ولنا قوانين، فإذا أصابنا مكروه لجأنا لحمايتهم وبلغناها"².

3-التقسيم الإداري للولايات:

في بداية حكم السلطان عبد الحميد الثاني كانت بلاد الشام قد قسمت إداريا إلى ولايتين اثنتين وسنحق واحد، هذا التقسيم كان معقدا³، لأن الدستور العثماني نص على ضرورة وجود مجالس إدارية منتخبة معينة على مستوى الولاية و السنحق و القضاء، بينما تمتعت كل من الناحية و القرية بنظام من الإدارة الذاتية المحلية.

أما الطوائف المسيحية و اليهودية فبموجب نظام الملة منحت لها حق الحكم الذاتي فيما يتعلق بقضايا الزواج، الارث، و الطلاق وحرية ممارسة الشعائر الدينية.

¹-علي شكيب، المرجع السابق.

²-مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص14 وما بعدها.

³-سيار الجميل، المرجع السابق، ص 508 .

عمل السلطان على نشر البلديات في المدن السورية و العراقية: ففي عام 1877 أصدر قانون خاص بالبلديات و مهامها و بموجب هذا القانون تم تنظيم:

- شروط العضوية و مدتها.

- حق الانتخاب والترشيح لتلك المجالس¹.

تعتبر فلسطين جزء من الدولة العثمانية يطلق عليها اسم سوريا الجنوبية نظرا لوضعها الإداري و موقعها الجغرافي و كان سنجد "متصرفية"² القدس الذي يضم معظم أجزاء فلسطين و أكثر من ثلاثة أرباع سكانها تابعا لوزير الداخلية العثمانية مباشرة وسمي بالمستقل³ نظرا لأهمية بيت المقدس التاريخية والدينية والدبلوماسية والسياسية⁴. و في عام 1881 أنشأ الباب العالي سنجقته ببيت المقدس تابعة له مباشرة⁵.

و بالتالي شملت فلسطين على سنجد القدس و كان مستقلا على سنجقي عكا و نابلس التابعين لولاية الشام، و بعد إعادة تنظيم ولاية الشام سنة 1883 الحقا بولاية بيروت و قدرت عدد قرى سنجد القدس ب 328 قرية و عدد سكانها 340 ألف نسمة أما سنجد عكا ضم 222 قرية و حوالي 77 ألف نسمة أما سنجد نابلس فضم حوالي 212 قرية بحوالي 49 ألف نسمة بلغت مساحة الاراضي المسجلة على أنها مشاع " أملاك الحكومة " ب 1.492.690 دونم أي حوالي 5,67 % من المساحة العامة يشغلها ويستغلها العرب⁶.

¹ - عبدالرؤف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص 8

² - وحدة إدارية تلي الولاية مباشرة في الأهمية و المساحة، كان لها وضع خاص متميز عند الدولة فهي قسم إداري قائم بذاته تابع للباب العالي مباشرة.

³ - عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش كانت فلسطين تحت الحكم العثماني اسميا غير أن السلطة الفعلية كانت في أيدي عشائر البلاد الكبيرة و كل عشير يحكمه شيخا الذي يمتاز بمهارة حربية عالية و ثراء أو بأصول أرستقراطية، و في جنوب فلسطين يلقب شيخ القبيلة بالأمير وتنتمي القبائل إلى أحد الاتحادين الكبيرين القبائل اليمنية و القبائل القيسية و يمكن للمسيحيون

والمسلمون الدخول تحت راية أحد الاتحادين. هناك عائلات أخرى قومية في فلسطين استطاعت أن تحتل منصب الوالي العثماني. أنظر: باميلان سميث، المرجع السابق، ص 17.

⁴ - عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1973 ص-ص 43-44.

⁵ - اسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط2، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998، ص 186.

⁶ - محمد حافظ يعقوب، نظرة جديدة في تاريخ القضية الفلسطينية 1918-1948، ط1، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، 1973 ص 34

كما أدخل السلطان عبد الحميد الثاني تعديلا على الوضع الإداري لفلسطين حيث أصبحت في سنة 1887 متصرفية -قسما إداريا قائما بذاته- وأصبح الباب العالي يراقب الهجرة اليهودية¹.

أما بلاد الشام فقد قسمت في نفس السنة إلى ثلاث ولايات و سنجقين و هي:

- ولاية حلب شمالا و ولاية بيروت غربا و ولاية الشام شرقا.

- سنجق جبل لبنان وسطا- و سنجق القدس جنوبا².

نظرا لأهمية بيروت التجارية و حساسية موقعها فصلت ولاية بيروت عن ولاية سوريا و تبع هذه الولاية سنجق عكا الذي ضم أقضية حيفا - طبرية- صفد- الناصرة- سنجق البلقان- نابلس، الذي ضم قضائي جنين و طولكرم.

يهدف الباب العالي من وراء هذه الاجراءات الإدارية إلى فرض حكم استانبول مباشرة على بلاد الشام أي مركزية الحكم، هذه الأخيرة تمتعت فيما قبل بنوع من الحكم الذاتي سواء في المدن أو في الريف وأطراف الصحراء، غير أن فرض السلطة المركزية في بلاد الشام يحتاج إلى موظفين وجيوش نظامية وقوانين تضبط الادارة و توطيد العلاقة بين الحاكم و المحكوم و لذلك واجهت هذه الاجراءات الجديدة عراقيل وصعوبات على الصعيد الذاتي و على الصعيد الموضوعي³.

و في عام 1888 أحدثت ثلاث متصرفيات مرتبطة مباشرة بالعاصمة و هي: متصرفيات جبل لبنان - القدس- دير الزور و عين على رأس كل ولاية حاكما يلقب بالوالي أو الباشا و يحمل رتبة الوزارة، يطبق القوانين المطبقة في جميع أرجاء الدولة، كما قسمت الولاية إلى عدد من الألوية و على رأس كل منها ممثل للوالي يدعى بالمتصرف و انقسمت الألوية إلى أقضية والأقضية إلى نواح و دار القضاء، قائم مقام وللناحية مدير الناحية و ارتبطوا اداريا بطريقة التسلسل: المدير بالقائم مقام و القائم مقام بالمتصرف والمتصرف بالوالي والوالي بوزير الداخلية⁴.

على رأس كل قضاء من الأقضية ولاية سوريا موظف أطلق عليه لقب قائم مقام و هو معين من قبل الدولة و يجب أن تتوفر فيه شروط كعرفة القراءة والكتابة و اللغة العربية مع الاتصاف بالصفات الحميدة، تكمن مهامه في النظر في جميع الأمور الملكية و المالية والضابطة وهو مأمور بإجراء أحكام القضاء

¹-جمال عبد الهادي وآخرون، المرجع السابق، ص 47.

²-سيار الجميل، المرجع السابق، ص 508.

³-الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 272.

⁴-عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص 60.

الداخلية التي هي ضمن نطاق اختصاصه و تنفيذ جميع أوامر الدولة و التعليمات التي ترد من طرف الولاية و اللواء، مرجعه الأول متصرف اللواء و لا يستقر في مركزه طويلا إذ كانت الدولة تجري تنقلات شاملة تنشر في جريدة الدولة الرسمية¹.

و في عام 1900 أصبحت التشكيلات الإدارية في لواء الشام على الشكل التالي:

- قضاء الشام مركزه دمشق.

- قضاء بعلبك مركزه بعلبك، أما البقاع كان تابعا للواء الشام².

و في عام 1904 توزعت المقاطعات العربية على تسع ولايات و أربع متصرفيات ممتازة، فالولايات كانت: الحجاز - اليمن - البصرة - بغداد الموصل - حلب - سوريا - بيروت - طرابلس الغرب، أما المتصرفيات فهي القدس الشريف - بنغازي - دير الزور - و جبل لبنان³.

يتكون الجهاز الإداري في ولاية سوريا من الوالي مسؤول الجهاز المدني يحمل لقب باشا أما أركان الولاية فيتكون من عدد من الموظفين منهم:

- قاضي و هو نائب الحاكم ومعاون (متسلم).

- مدير المحاسبة و الشؤون المالية (دفتر دار).

- أمين عام (مكتوبي و كرخيا).

- مدير الشؤون الأجنبية (أجنبي مديري).

- مفتش للمعارف و باش مهندس (رئيس مهندس).

- مدير أوراق و مأمور طابو.

- مدير أملاك الدولة و مدير أوقاف.

¹- عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 98

²- عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 241.

³- محمد مراد، المرجع السابق، ص 42.

و في كل وحدة إدارية مجلس إدارة يضم كبار الموظفين و عددا ماثلا ينتخبهم الأهالي¹، لقد نصب السلطان عبد الحميد الثاني الكثير من عرب سوريا و لبنان بأعلى المناصب في الدولة حيث بلغ عزت باشا² مبلغا فاق الصدارة³ و عين ولاية من كبار الموظفين و أكفاهم منهم أحمد حمدي باشا، و حسين ناظم باشا ورؤوف بك و توفيق بك⁴. و شفيق بك المؤيد المفوض في الديوان العامة و شفيق بك الكوراني رئيس الشرطة، و عرب حقي باشا و نجيب بك ملحمة و سليمان البستاني كلهم بلغو رتبة الوزارة و كان شكري باشا الأيوبي الدمشقي ناظرا للأعمال العسكرية و الدكتور يوسف رامي اللبناني أمير لواء، و الأستاذ باز من دير القمر أستاذا في كلية الحقوق و غيرهم⁵ و بالإضافة إلى ذلك فقد اعتمد السلطان على فرقة مختارة من الجند العرب ضمها إلى حرسه الخاص الألباني⁶.

كما قرب السلطان أشرف و رؤساء العشائر البدوية لما تمتلكه من قوة و نفوذ و فتح المجال لعدة أسر الأعيان كآل العظم و العابد و الخالدي و الشرفة في فلسطين للانخراط في مجالس الولاية، المتصرفية، القضاء، و وصل بعضهم و منهم المسيحيين إلى رتبة الوزارة كمحمد فوزي العظم وزير الاوقاف، و سليم باشا ملحمة وزير الإخراج و المعادن، و محمد شوكت باشا قائد الجيش في سالونيك و الفريقان محمد باشا و محي الدين باشا ولدا الأمير عبدالقادر الجزائري⁷ و قرب إليه حتى شيوخ صوفيين عرب نظرا لمكانتهم بين الجماهير العربية و من أجل ترسيخ مقولة السلطان-ال خليفة-، إنظم إلى الطريقة الشاذلية اليعربية في دمشق و من مردي شيخها محمود أبي الشامات، و أبو الهدى الصيادي الحلبي شيخ الطريقة الرفاعية في سوريا الذي لعب دورا هاما في الترويج للجامعة الإسلامية في البلاد العربية⁸.

4-الولاية ومهامهم في سوريا

تولى في عهد السلطان عبد الحميد الثاني عدد من الولاة المصلحين على بلاد الشام كأمثال مدحت باشا، أحمد حمدي باشا الذي ولى على سوريا مرتين الاولى عام 1875- والأخرى عام 1880، وحسين

¹-عبد الكريم غرابية، المرجع السابق، ص 60.

²- يعتبر السكرتير الثاني للسلطان اتصف بالذكاء و الدهاء خاصة فيما يتعلق بطبيعة العلاقات العثمانية - العربية فهو المحور لسياسة السلطان تجاه الولايات العربية. أنظر: سيارالجميل، المرجع السابق، ص 511.

³- جمال عبد الهادي، المرجع السابق، ص 52.

⁴-عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص-ص 4-6.

⁵-جمال عبد الهادي و آخرون ، المرجع السابق ، ص 52.

⁶-توفيق برو، العرب و لترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص 47.

⁷-عبدالرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب المرجع السابق، ص 7.

⁸-نفس المرجع، ص 6 .

ناظم باشا ثلاث مرات 1896 والثانية 1909 والثالثة 1912¹ ونظرا لكثرة الجواسيس² فكانت مدة الوالي لا تطول³.

عين مدحت باشا واليا على سوريا في 24 نوفمبر 1878 إلى غاية أوت 1880⁴ ولقد تم اختياره لأنه يعرف طبائع سكان المنطقة التي عمل بها كموظف عثماني بسيط (كاتب تحريرات)⁵، يشكو مدحت باشا في تقاريره الرسمية التي يرسلها إلى استانبول من سوء التطبيق و البطء في الاتصال و من غياب هيكلية إدارية قوية ومنفذ للقرار، و أن التنظيمات لم تأخذ بعين الاعتبار التنوع في البلاد و في هذا الصدد يذكر في أحد تقاريره مايلي: "مما لا يحتاج للبيان و التعريف لديكم أن ولاية سوريا أوسع من غيرها من ولايات الدولة وأن أهلها من العرب و الأتراك و التركمان و الدروز و النصرانية و الروم و الموارنة و الكاثوليك والبروتستانت و السريان و الأرمن، و يتألف من هؤلاء شعب عدده أربعة و عشرون نوعا من الملل و الأديان و المذاهب ، ينضم إليهم الجزائريون و الشراكسة والتتار وغيرهم من المهاجرين و من جهة أخرى، فإن أطوار و أحوال العربان والعشائر معلومة لديكم، وأن إدارة هذه الأجناس المختلفة على قاعدة واحدة و ما يولده من مشاكل غني عن التعريف والايضاح". كما يضيف: "إن الفرمان الذي كتب لي عند توجيهه منصب ولاية سوريا، يعترف صراحة بوجوب ما طلبته وما سأطلبه وهو مراعاة عوائد سكان الولاية و مشاريعهم ومصالحهم، و لكننا لم ننظر إلى هذه الواجبات بل أصدرنا اللوائح، وحاولنا إجراءها في جميع البلدان و لم نصلح بعضها اصلاحا جزئيا بل ولم نسمع بعض الشكايات، وقد اتبعنا مواد القوانين في بعض البلاد ولم ننفذها في بعضها، وتركنا القديم و لم نتبع الجديد، فظهرت البلاد بمظهر غريب".

نستنتج أن أزمة التنظيمات التي يشير إليها مدحت باشا في جميع تقاريره تبين لنا مدى العجز المالي الذي تعاني منه السلطنة⁶.

¹ - محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا ، المرجع السابق ، ص-ص 56-57.

² - و لمراقبة حركة الموظفين ترفع التقارير يوميا حتى إلى الصدر الأعظم، و من بين الجواسيس عدد كبير من المرتزقة يستقدون من أموال الدولة فارتفعت نفقاتها التي كانت على حساب الولايات، خلفت هذه السياسة رد فعل في أوساط المثقفين و لذلك التجأ بعضهم إلى القنصليات الأجنبية و البعض الآخر أسس جمعيات سرية داخل الدولة و علنية خارجها خاصة في باريس و لندن والقاهرة. أنظر:عبد العزيز عوض، نفس المرجع، ص46.

³ -محمد كرد، المرجع السابق، ص،ص 103.

⁴ -سيار الجميل، المرجع السابق، ص435 .

⁵ -عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص56 .

⁶ - وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، المرجع السابق، ص 119

كما نبه مدحت باشا السلطان عبد الحميد الثاني بخطر تغلغل النفوذ الأجنبي في ولاية سوريا و طلب منه إصلاح أحوال الولاية و قد جاء في أحد التقارير ما يلي: "...فالولاية محتاجة إلى إصلاح أحوالها المالية ومحاكمها ومنع الرشوة التي تورث الخجل و تجعل الوطني منخفض الرأس أمام الأجانبفالدولة لا تصل إلى الإصلاح المطلوب لأن مجلس الوكلاء يصدر القرارات و يبعث بها إلى الولايات غير ناظر إلى أحوال بعض الولايات الراقية و احتياجاتها و تبقى القرارات حبرا على ورق و هذا ما حد بالإفترج إلى عدم الاعتماد على قوانين الدولة"¹.

رغم نقص الامكانيات المادية لدفع عجلة الإصلاح فقد عرفت سوريا في عهد مدحت باشا الأمن والاستقرار خاصة أن المنطقة خاضعة للمؤثرات الأجنبية و رغم أن السلطان عبد الحميد الثاني كان ييث بذور الاضطراب في الولاية لينتقم من مدحت باشا، فحرض المشير أحمد أيوب باشا و جميل باشا على مدحت باشا- له طموحات كبيرة قد تصل إلى حد المطالبة باستقلال المنطقة عن الدولة- ولذلك عرفت المنطقة بعض الاضطرابات.

واجهت الدولة صعوبات في معاقبة عصاة الدروز حيث يذكر مدحت باشا في مذكراته "والذي زاد الطين بله أن فرنسا تحمي الموارنة الكاثوليك و انجلترا تشجع للدروز و كل هذا من السياسات التي تريد بها هاتان الدولتان توسيع نفوذهما في سوريا أو ضرب إحدهما بالأخرى، فلما أخذت الدولة أهبتها لتأديب الدروز قام سفير انجلترا في الأستانه يشكو من ذلك،... فأصبحت الأوامر ترد بحل هذه العقدة حلا سلميا"².

حاول مدحت باشا وبعض المصلحين إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالأخذ بسياسية الادارة اللامركزية و إعادة الحياة الدستورية، إلا أن السلطان فصل القيادة العسكرية في الولايات العربية عن السلطة الادارية لكي تبقى كل سلطة تراقب الأخرى و تسيير الإدارة في الولايات العربية وفق الحياة الاجتماعية للمنطقة

ولذلك استقالة مدحت باشا من ولاية سوريا و فر فريق من الأحرار العرب من الاستبداد الحميدي كما يصفه بعض المتحايين على السلطان منهم خليل غانم، و ضيا بك الخالدي، والأمير أمين أرسلان ومجموعة من الصحفيين السوريين إلى مصر³.

و في عهد أحمد حمدي باشا انتشرت المعارف و نظم الضرائب الزراعية و حل المشكلة الدرزية سلميا.

¹-عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 57 .

²-محمد كرد، المرجع السابق، ص 103.

³-توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص-ص 48-50 .

أما فترة حكم الوالي حسين ناظم باشا فقد تم بناء دارا للحكومة في دمشق و مد الخط الحديدي الحجازي و الخط البرقي بين دمشق و المدينة المنورة، كما شق قنوات للمياه في دمشق و أنشأ الثكنة الحميدية و جدد دوائر الحكومة في مدن الولاية و أنشأ حي المهاجرين بسفح جبل قسيون¹.

رفع ضياء باشا الذي عينه السلطان عبد الحميد الثاني متصرفا على لواء اللاذقية الظلم على النصرانية فعين بعض شيوخهم و وجهائهم أعضاء في المحاكم و المجالس و أنشأ لهم جوامع و مدارس و جعلهم شركاء في المنطقة و لا تأخذ الدولة منهم - النصرانية - الضرائب، و بعد نهاية فترة ضياء باشا خربت المدارس و الجوامع، لو اهتمت الدولة بالنصرانية في الساحل و الدروز في الداخل (شعبين جبليين)، وأدخلت إصلاحات في التعليم و المواصلات لما عرفت المنطقة اضطرابات و كلفت الدولة إعداد قوة لإعادةتهم إلى الحظيرة كلما تمردوا².

تميزت الفترة التي عين فيها رستم باشا 1873-1883 كمتصرف على جبل لبنان بالأمن والاستقرار فأصلح الإدارة من الفساد و الرشوة³، لكن العلاقة بين رستم باشا و الأكليروس الماروني توترت خاصة مع المطرنيين بطرس البستاني و يوسف الدبس بسبب قضايا تتعلق بالإدارة و تبديد أموال المواطنين، أدى ذلك إلى انقسام الرأي في لبنان ما جعل رستم باشا يستصدر قرارا من الباب العالي ينص على نفي البستاني إلى القدس إلا أن فرنسا تدخلت لدى الباب العالي و برأت البستاني و أعادته إلى لبنان، و بعد نهاية ولاية رستم باشا عين الباب العالي و ممثلو الدول الأوروبية الضامنة لنظامه الأساسي واصب باشا في 10 جوان 1883-1892 الذي فقام بعدة إصلاحات منها تنظيم الجهاز الإداري و تعبيد الطرق الرئيسية و في أواخر حكمه انتشر الفساد الإداري و ساءت أوضاع البلاد نظرا لمرضه وضعفه وسلوك صهره كوبليان الذي كان مديرا لدائرته السياسية⁴، كما عرفت ولايته هجرة خطيرة لعدد كبير من المواطنين اللبنانيين إلى مختلف الأقطار⁵.

أثناء فترة الوالي نعيم باشا 1892-1902 أصلح الجهاز الإداري و القضاء وتقرب من رجال الدين والعائلات المارونية والأرستقراطية، كما كسب ود الطوائف الأرثوذكسية حيث كان يستشير أحد وجهائها اسكندر التويني في أمور الحكم، ومن الناحية الاقتصادية استطاع أن يضمن تبغ جبل لبنان لصالح "شركة

¹-عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص-ص 57-58.

²-محمد كرد، المرجع السابق، ص، ص 103، 104، 113، 106.

³-علي معطي، المرجع السابق، ص14.

⁴-نفس المرجع، ص16.

⁵-فليب حتي، المرجع السابق، ص542.

التبغ العثمانية " لقاء قرشين عن كل كيلوغرام تدفعها الشركة إلى حكومة المتصرفية و أنفق المال الذي جمعه في اصلاح البنية التحتية¹.

لقد قدم مظفر باشا أثناء ولايته عام 1902-1907 برنامجا إصلاحيا إلى مجلس الإدارة حيث اهتم بالعمران و وضعية الموظفين و الميزانية، إلا أنه فشل في تجسيد مشروعه الإصلاحي فانتشرت الفوضى وعندما حاول التصدي للعائلات الأرستقراطية و لرجال الدين اللبنانية بفرض ضرائب جديدة على الشعب واجه ردة فعل ساخطة أدت إلى إقالته من منصبه².

أما في عهد المتصرف يوسف فرانكو باشا سنة 1907-1912 الذي عايش ثورة 1908 و عزل السلطان فقد طالبه الشعب بإجراء اصلاحات خاصة أن في هذه الفترة ازداد التذمر أكثر من فترة المتصرف الأرميني أومانس كويومجيان الذي يعتبر آخر متصرف في لبنان، خلال الحرب العالمية الأولى طبق الأتراك حكما تركيا إلى غاية فرض الإنتداب الفرنسي على لبنان³.

تمتعت الولايات العربية في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقدر كبير من الحكم الذاتي، إلا أن هذا الوضع تغير بعد محاولة السلطة المركزية إعادة تنظيم العلاقات و إلى تحصيل عائدات مالية أكبر من أجل إصلاح الجيش والادارة ففقدت هذه الولايات الاستقلالية وسيطرت العنصر التركي، أدى ذلك الى توتر العلاقات بين الأهالي العرب و قيادهم المتمثلة في الاعيان و مشايخ العشائر و بين ادارة الدولة المركزية خاصة أنها ثبتت- الدولة- القاعدة الاقتصادية لطبقة الأعيان و عززت مراكزهم السياسية في الأقاليم وذلك لتشديد قبضة الدولة على الولايات، لكن النتيجة كانت عكسية حيث أصبح المركز في بعض الأحيان أسيرا لمطالب الولايات و هذا ما عبرت عنه الطبقة المثقفة في القرن العشرين والتي كانت كمثثلة لطبقة الأعيان والمشايخ و العائلات شبه الاقطاعية و من بين مفكريها عبد الرحمان الكواكبي⁴.

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص 17.

²-نفس المرجع، ص 18.

³-فليب حتي، المرجع السابق، ص-ص 542-544.

⁴-تتضمن افكار عبد الرحمان الكواكبي في كتاباته على فكرتين أساسيتين و هي الأساس التي تمحورت و اعتمد عليها دعاة القومية العربية قبل الحرب العالمية الأولى و خلالها تتلخص هاتان الفكرتان في :

-الأولى :لخصها في كتابه طبائع الاستبدادحيث ركز فيه على أهمية اللامركزية الإدارية في الدولة العثمانية و شن هجوما عنيفا على السلطان عبد الحميد الثاني و أجهزة الدولة العثمانية و لذلك طلب الأعيان تحديد سلطات العنصر التركي و تسليم مقاليد الأمور في الولايات العربية لأبناء العائلات الكبيرة.=

إن طبقة الأعيان عملت على تحقيق مكاسب سياسية من خلال توطيد علاقاتها بالعناصر الإصلاحية الليبرالية في الدولة العثمانية رغم محاولة السلطان عبد الحميد الثاني جعل خيوط السلطة في قبضته، إلا أن أعيان العرب ازدادت طموحاتهم حتى أصبحت مطالبهم جهرا بالحكم الذاتي و اللامركزية السياسية و الإدارية في الولايات العربية ضمن نطاق الدولة العثمانية¹، إن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني المركزية التي سار عليها في حكم الولايات العربية أثارت عليه جزءا كبيرا من العرب و الأتراك و جلب له مشاكل داخلية وخارجية ، من بين هذه المشاكل اندلاع العديد من الثورات التي كانت كرد فعل لتشديد قبضته على بلادهم و على الموظفين و الولاة الذين استغلوا و ظلموا شعوب تلك المنطقة فقد ثارت كل من حوران و جبل الدروز و عشائر البدو في سوريا بين غزة و الحبرون و البحر الميت و رفضوا دفع الضرائب².

يتكون المجتمع في ولاية سوريا من عدد من العصبية الإقطاعية و الطائفية التي تتمثل في الدروز، النصرانية، و البدو، و الأشقياء، و قطاع الطرق، و قد حالت هذه الأخيرة دون استتباب الأمن في الولاية وسيادة النظام فيها و في ما يلي عرض لهذه العصبية و موقف الإدارة العثمانية منها:

-**الدروز:** شن الدروز خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين عدة ثورات، رغم أن مدحت باشا جهز حملة عسكرية لتأديب الدروز إلا أن تدخل بريطانيا لدى الباب العالي أدى إلى حل المشكلة الدروزية سلميا حيث جاءت في برقية الصدر الأعظم إلى مدحت باشا: "... إن غرضنا الوحيد هو تحبيب إدارة الدولة للدروز و الموارنة واستعمال القوة لا يوصل إلى تلك النتيجة و نحن نرى أن ترك المسألة إلى زمانها الموافق أليق و نحبذ الإصلاح بين المتخاصمين".

و ترجع اسباب ثورات الدروز إلى :

-**الامتناع عن دفع الضرائب** لوالي الشام و يثورون عندما يجبرهم الوالي بدفع الأموال المترتبة عليهم .
- **رفض زعمائهم** لأي برنامج إصلاح تعرضه عليهم الولاية ، رغم ذلك فإن الولاية أصلحت الأوضاع الإدارية و نشرت التعليم و أنشأت مسجدا إلا أن زعمائهم يقبلون الإصلاحات التي تنوي الدولة إقامتها في منطقتهم ثم لا يلبثون على ذلك طويلا، و لذلك أقامت الدولة في المنطقة ثكنات وقلاع عسكرية

= الثانية: ركز في كتابه أم القرى على الدور الذي يمكنه أن يلعبه العنصر العربي في بعث الدولة العثمانية من نومها و تخلفها وعودتها إلى ما كانت عليه من تقدم و ازدهار خاصة أن الكواكي كان رئيسا لبلدية حلب و تميز مشواره السياسي و الاداري بصدام مستمر مع ولاة حلب الأتراك. أنظر: وليد قزيها، المرجع السابق، ص222

¹-نفسه المرجع ، ص223 .

²-توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ، المرجع السابق ، ص- ص 45- 46.

وحتى بيوت الموظفين الأتراك كانت على هيئة قلاع ليسهل عليها الدفاع عنها عند الاعتداءات. وفي عام 1890 انقسم الدروز إلى فرقتين مشايخ وعمامة فاستغلت ولاية سوريا الفرصة فأقامت ثكنة عسكرية في السويداء — مركز جبل الدروز — إلا أن الدروز واصلوا ثوراتهم ولذلك أرسل الوالي في عام 1895 حملة عسكرية بقيادة المشير طاهر باشا وحملة عسكرية أخرى سنة 1910 بقيادة سامي باشا الفاروقي، وأمام إعتداءات الدروز المتكررة طلب مبعوث حوران سعد الدين خليل في مجلس المبعوثان من الدولة اتخاذ الإجراءات العسكرية ضدهم لتأمين وحماية الرعايا منهم، إلا أن ثوراتهم لم تنقطع ويبدو أنها مستمرة وتهدف بالدرجة الأولى إلى الاستقلال عن الدولة وبسط السيطرة الدرزية على لواء حوران .

-العصيات البدوية في لواء الكرك: كانت الكرك والعشائر البدوية بعيدة عن يد الدولة منذ خروج ابراهيم باشا من بلاد الشام، خضعت الكرك حتى سنة 1892 لحكم شيوخ العشائر تدفع الدولة مبلغ من المال لتأمين مرور قافلة الحج ومراقبة موظفي تعداد الأغنام وجباه الضرائب، وتعود سبب اندلاع الثورة في الكرك إلى رفض شيوخهما السماح للدولة اجراء إحصاء نفوس سكان لواء الكرك إلا أن الدولة أعادت الأمن إلى المنطقة وعاقبت الثائرين¹.

-النصيرية: يتركزون في القسم الشمالي من جبل لبنان الذي عرف باسمهم، امتنع النصيريون على دفع قيمة الضرائب المتراكمة عليهم ويعتدون و يقطعون الطريق، كانت حكومة الولاية تتصدى لذلك بواسطة العسكر وأثناء ولاية مدحت باشا وعد زعماء الجبل بالقيام بعدة إصلاحات لكن عدم تعاون أمانة الضرائب في استانبول معه جعلته يترك موضوع الإصلاح. وفي سنة 1882 أرسل والي سوريا أحمد حمدي باشا تقريراً إلى الصدر الأعظم سعيد باشا يطلب منه إجراء بعض الإصلاحات في جبل العلويين وضرورة إنشاء ثكنات عسكرية في المواقع الهامة لتوفير الأمن والنظام لكن الدولة لم تنفذ شيئاً من اقتراحات الوالي، لم تكن ثورات النصيرية عنيفة كثورات الدروز لأن طائفة النصيرية كانت منقسمة على نفسها إلى شماليين و جنوبيين تحت زعامة المشايخ الإقطاعيين².

-البدو: كان البدو يعتدون على الفلاحين ويجبرونهم على دفع أتاوة (الخوة) وبالتالي فإن الفلاحون منقسمين بين الحكومة التي ترهقهم بالضرائب والعاجزة على حمايتهم و البدو الطاغين في ثوراتهم، و مع ذلك فإن الدولة واجهت عشائر حوران بفرق عسكرية لكف اعتدائهم على السكان وأحياناً أخرى تتبع سياسة الليونة والتقرب من زعماء العشائر استمر ولاية دمشق على هذا المنوال لسيما مع ألوية حوران- الكرك- البلقاء، كما عملت الدولة على تحضير البدو³، يذكر لورانس أوليفانت Laurence

¹- عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 290 وما بعدها

²- نفس المرجع ، ص 294.

³- نفس المرجع ، ص 298.

Oliphant الذي زار الأردن عام 1879 بأن الدولة كانت تدفع للبدو شرقي الأردن سنويا ما يقارب 100.000 آقجة قسم كبير يعطى لبني صخر، الذين يشنون من فترة إلى أخرى غارات على قافلة الحج لأنهم يقطنون شرق طريق الحج.

و في عام 1881 أصبح بنو صخر مسؤولين على أمن طريق الحج و حماية الحجاج مقابل مبالغ مالية كانوا يتلقونها إضافة للصرة السنوية، كما تقربت الدولة من عشيرة ولد علي لخلق نوع من التوازن بين قوة هذه العشائر و بهذا تكون الدولة العثمانية قد سلكت سياسة التودد لبعض القبائل و العشائر (خاصة القوية منها)¹.

— **قطاع الطرق و الأشقياء** : رغم الأحكام القاسية التي تنزلها الدولة على اللصوص و قطاع الطرق إلا أنها عجزت على توطيد دعائم الأمن و الاستقرار في الولاية، أما الأشقياء فهم أخلاط من جميع العناصر، و في عهد السلطان عبد الحميد الثاني استقرت الأوضاع نسبيا وخفت وطأة الأشقياء وقطاع الطرق عن ذي قبل نتيجة الأحكام الصارمة التي أنزلتها الدولة بهم² للحفاظ على الأمن و الاستقرار في الولاية خاصة في لواء حوران الذي يعاني من ثورات الدروز و قد ساعدها علي ذلك إنشاء شبكة من المواصلات السلكية واللاسلكية و ازداد عدد مراكز التلغراف و البريد في ولاية سوريا حيث بلغ عددها في سنة 1900 ب 25 مركزا للبريد و 18 مركزا للتلغراف منتشرة في ألوية الشام و حوران و الكرك، و قد لعبت دورا هاما في سرعة الاتصال مع استانبول، و لذلك تبرع السلطان بمبلغ نصف مليون قرش من أجل مد خط تلغرافي بين دمشق و المدينة المنورة، و نظرا لاعتداءات البدو كانت الولاية تدفع مصاريف باهضة من أجل اصلاح خطوط التلغراف في لواء حوران، وابتداء من عام 1900 ألغيت وظيفة السعاة و أصبح البريد ينقل من دمشق إلى استانبول بواسطة السكك الحديدية³.

لقد عمل السلطان عبد الحميد الثاني على إجراء مصالحات بين العشائر المتنافسة و على استقرارها في مستوطنات زراعية حيث تم توطين البدو في بلدة بئر السبع و تشغيلهم بالزراعة و كذا بدو جبل الصفا في قرية الضمير، و الجركس في مدينة عمان الحالية و العشائر البدوية في نواحي حمص و حماه و تعمير الحرم القدسي في مدينة القدس⁴، رغم ذلك وجهت الدولة في سنة 1890 حملة تأديبية إلى منطقة بئر

¹ -إبراهيم فاعور الشرعة، المرجع السابق، ص- ص 46- 49.

² -عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 298 وما بعدها

³ — نفس المرجع، ص 287.

⁴ -عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق.

السبع لإطفاء نار الحرب بين قبيلة الترابين و العزازمة و قد تم سجن عدد من مشايخ القبيلتين¹، و في سنة 1892 هاجمت بعض البدو من قبائل الأردن قافلة الحجاج نظرا لرفض الدولة دفع المخصصات المستحقة لهم جزاء حماية الحجاج في الفترة ما بين 1880-1891 إلا أن الدولة أرسلت لهم حملة لاختصاصهم وتأديبهم، إن الاعتداءات المتكررة على قافلة الحجاج دفع بالمسؤولين العثمانيين إلى التفكير بشكل جدي في انشاء لواء معان و الكرك بين عامي 1891-1894².

بعد انشاء لواء الكرك 1894 وطدت الحكومة العلاقة مع البدو و من أجل كسب ود شيوخ القبائل حيث خصصت لهم رواتب سنوية بهدف سلامة قافلة الحج أثناء مرورها في مناطقهم.

ظلت هذه القبائل الشامية تشكل ضغطا على الحكومة العثمانية: ففي عام 1898 أعلنت قبيلة الحويطات جنوب منطقة الأردن نيتها في الانضمام إلى مصر بدلا من الدولة العثمانية لأن مردود قافلة الحج قل على القبائل البدوية في المنطقة خاصة بعد فتح قناة السويس عام 1869 و هذا ما أجبر الحكومة العثمانية إلى إعادة دفع مرتبات شيوخ الحويطات من جديد و كذلك قبائل بئر السبع³.

يبدو أن الدولة بذلت جهدا كبيرا لنشرت الأمن و الهدوء بين القبائل المتركة على التخوم خاصة الحدود المصرية كمنطقة سيناء و غزة كي لا تستغل بريطانيا هذه القبائل لخدمة مصالحها في المنطقة خاصة بعد ظهور الأطماع الصهيونية في استغلال المنطقة لاستيطان اليهود، فحولت الدولة قضية بئر السبع في سنة 1901 إلى مركز قضاء يتبع لواء القدس إداريا و تم فصلها عن لواء غزة كما و جمعت القبائل التي تسكن غزة في منطقة بئر السبع و شجعت العربان على الاستقرار لحماية المناطق المجاورة.

تتمثل مهمة متصرف القدس في كونه الحاكم الإداري على منطقتي بئر السبع و غزة النظر في الدعاوي والفصل في المنازعات، و في عام 1901 وصفت المنطقة بأنها قضاء جاف و كتب تقريرا بأوضاعه

وحول ما يحتاجه من حيث المياه الصالحة للشرب و غيرها لأن نقص المياه سيؤدي إلى نشوء نزاعات بين القبائل الساكنة في المنطقة و يعرقل عملية الإستيطان و على الدولة حفر آبار المياه الجوفية⁴.

كما خصصت الدولة العثمانية سنة 1904 الأراضي الأميرية و المحلولة في ولاية سوريا وبيروت والقدس الشريف لبعض عشائر العربان المهاجرين حيث شمل القرار العربان العرب فقط ومن أجل تطوير

¹ - اسماء رمضان الشيخ خليل : اسكان عربان " بئر السبع " في جوار القدس في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بحوث المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني دمشق جوان 2009، استانبول IRCICA 2013 ص 21

² - ابراهيم فاعور الشرعة، المرجع السابق، ص 49.

³ - ابراهيم فاعور الشرعة، نفس المرجع، ص-ص 50-52.

⁴ - اسماء رمضان الشيخ خليل، المرجع السابق، ص - ص 21 - 25.

وتحضير أهل قضاء بئر السبع منحت الحكومة العثمانية لشيخ الجوامع و مداري المدارس العربان ألف دونم لتوطينهم و منحت لهم الأراضي مجانا و كذا لذوي الكفاءة من العاملين بالفن، تهدف الدولة العثمانية من وراء ذلك " تشكيل النسيج البشري و إدماجه في البناء الحضاري للدولة و العمل على تطويره علميا و العناية به دينيا وفنيا".

نظرا لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني مع بدو بئر السبع والتي استمرت حتى نهاية عهده أصبح شيخ القبائل يقومون بالدور الأمني في القضاء، و في المقابل تقدم الدولة لهم الأعطيات لكسب الطاعة والولاء لها و للسلطان العثماني، و بهذه السياسة تكون الدولة حققت غايتين من إسكان عربان بئر السبع جوار القدس:

__الأولى توقيف المنازعات بين افراد القبيلة نفسها و بين قبائل لواء غزة .

__الثانية تعمير منطقة القدس سكانيا لمواجهة الهجرة اليهودية و لزيادة سلطة الدولة المركزية.

أما سياسة الدولة العثمانية نحو العربان المتمردة على الدولة فقد استخدمت القمع و القوة، كما اهتمت الدولة بإسكان رعاياها القادمين من البلقان في القدس و تكفلت بمصاريف نقل هؤلاء المهاجرين، وفي المقابل أصدرت الدولة سنة 1890 فرمان جاء فيه "إن القبائل عربان غزة ومدير معارف القدس دعوا إلى بطلان هجرة اليهود القادمين كجماعة إلى القدس من بلاد مختلفة". ولذلك طلب يهود جاهجة - و هم من اليهود المهاجرين من ولايات الدولة العثمانية - " الإذن بالعيش بحرية في استانبول و القدس، و قدموا استرحاما بذلك للسلطان عبد الحميد، و لم يصدر قرارا بمنعهم من الهجرة لفلسطين أو القدس"¹.

لقد تأرجح الموقف الشعبي في طرابلس من الحكم التركي وسياسة السلطان عبد الحميد الثاني بين التأييد والمعارضة، فلم يكن علماء و مثقفو طرابلس يرتاحون له و لا للتدخل الأجنبي الذي نظروا إليه بحذر وأمام سياسة عبد الحميد الثاني - الضغط - فضل بعض العلماء ومفكري طرابلس الهجرة إلى مصر ومن بينهم محمد رشيد رضا²، إن صوت المعارضة و نشاط الحركات السياسية و الجمعيات في طرابلس كان خافتا بالمقارنة بما كان في بيروت و صيدا و دمشق و حلب.

¹ - أسماء رمضان الشيخ خليل، نفس المرجع، ص 26.

² - ولد رشيد رضا في قرية قرب طرابلس من اسرة ذات علم، تتلمذة على يد الاستاذ محمد عبده، تعلم اللغة الفرنسية في مدرسة حكومية تركية كما تعلم اللغة العربية و الفقه، تأثر بعلماء المسلمين منهم جمال الدين الأفغاني و الامام الغزالي، إلتحق بإحدى الطرق الصوفية حيث اختار طريقة النقشبدي، و في 1897 غادر سوريا إلى القاهرة و بعد سنة اصدر العدد الأول من مجلة المنار و استمر في اصدارها حتى وفاته في 1935. أنظر: ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص-ص 268-272.

أما على المستوى الشعبي فإن مظاهر الحياة السياسية كانت قائمة على مظاهر الاخلاص للسلطان والدعاء له و هو شكل تقليدي أكثر منه اقتناع صادق نظرا لشد المراقبة و قساوتها و التي كان السلطان يطبقها بحزم في المجالات السياسية و الاعلامية¹.

5- الخطوط الحديدية وأهميتها السياسية:

اهتم السلطان عبد الحميد الثاني بمد شبكة من الخطوط الحديدية فقد منح لألمانيا امتياز مد سكة حديد بغداد التي تربط بين أوروبا و آسيا الصغرى و الشرق الاوسط، و نظرا لأهميتها الدولية عارضت كل من بريطانيا و فرنسا و روسيا المشروع لأنه يهدد مصالحهم الإقتصادية فتوقف المشروع².

ولذلك شرعت الدولة العثمانية في إنجاز مشروع سكة حديد الحجاز سنة 1901 و تم إنجاز سنة 1908، يربط الخط الحديدي بين القسطنطينية و المدينة المنورة مخترقا سوريا من الشمال إلى الجنوب، لقد فضل السلطان منح هذا الامتياز لألمانيا على بريطانيا رغم علمه بأهدافها³ و لذلك حاولت بريطانيا تعطيل المشروع لقطع الطريق على القوات العثمانية⁴.

افتتح السلطان عبد الحميد الثاني قائمة التبرعات لمشروع سكة حديد الحجاز بمبلغ خمسين ألف ذهابا عثمانيا من ماله الخاص و تقرر دفع مئة ألف ذهابا عثمانيا من صندوق المنافع كما تبرع للمشروع شخصيات هامة في الدولة، بلغ إجمال تكاليف المشروع 4.283.000 ليرة عثمانية.

وصل الخط في عام 1907 إلى المدينة المنورة و كان من المفروض أن يتم مده بعد ذلك إلى مكة لكن الحسين شريف عرقل مد المشروع لأن مكة مقر إمارته و خوفا من بطش الدولة العثمانية له⁵.

و يرجع سبب تحمس السلطان لمشروع خط الحجاز لما له من أهمية على الناحية السياسية و العسكرية و يتمثل ذلك في أنه:

- يتماشى مع فكرة الجامعة الاسلامية.

¹-محمود سليمان ، المرجع السابق ، ص 11.

²-الموسوعة العربية الميسرة، المرجع السابق، ص 1350.

³-حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، المرجع السابق، ص 272

⁴- علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص-ص 431-433.

⁵- علي محمد الصلابي: السلطان عبد الحميد الثاني و فكرة الجامعة الاسلامية وأسباب زوال الخلافة العثمانية، ط1، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2010، ص، ص 35، 44.

- تشديد قبضة السلطان على الولايات العربية و المناطق التي يمر بها الخط¹.
- تسهيل لعملية نقل الفياق إلى المناطق العربية في حالة اندلاع عصيان أو ثورات معادية للدولة العثمانية².
- أهدافه:
- إن ربط الولاية بالأطراف البعيدة ستسمح للوالي مراقبة حركات المتصرفين و القائمين و نشاطهم و مدى تطبيقهم للقوانين .
- ربط مركز الولاية بالعاصمة³.
- خلق حماسة دينية كبيرة في العالم الاسلامي و ذلك من خلال التبرعات بالأموال⁴.
- تسهيل رحلة قافلة الحج التي كانت تدوم حوالي ثلاثة أشهر و تتعرض لمتاعب الصحراء.
- إيجاد طريق بديل لقناة السويس التي سيطرت عليها بريطانيا⁵.
- حماية قافلة الحج من خطر القبائل البدوية الشبه الدائم، حيث انتفعت بها الشام و استراحت من وطأة الأشقياء خاصة الخط الذي يربط بين دمشق و المدينة المنورة⁶.
- التبادل الفكري.
- القضاء على دسائس الإنجليز و مؤامراتهم في البحر الأحمر و الجزيرة العربية⁷.
- التصدي لأي محاولة لإنشاء خلافة عربية و أي حركة استقلالية، لقد أدركت بريطانيا سنة 1906 مدى خطورة الخط إذا ربط بخط فرعي إلى العقبة فإنه سيهدد مصالحها لأنه سيقوي مركز السلطنة والجامعة الإسلامية فأجهضت المشروع و افتعلت حادثة العقبة⁸.

¹ - عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق ص283.

² - حسان حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897- 1909، المرجع السابق، ص275.

عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية ، المرجع السابق، ص58³.

⁴ - علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص، ص431 ، 433.

⁵ - ابراهيم فاعور الشرعة، المرجع السابق، ص، ص54 ، 58.

⁶ - محمد كرد، المرجع السابق ، ص 124.

⁷ - توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص36.

⁸ - عبدالرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص12.

-نتائجها:

- أدى مشروع سكة حديد الحجاز إلى تثبيت مكانة السلطان عبد الحميد الثاني وخلافته لعدد من السنين، كما عزز مكانة الدولة خاصة الخط الممتد بين دمشق - المدينة.
 - تعزيز مصير الحركة العربية و أعطائها فرصة الانفجار ضد الأتراك خلال ثورة 1916¹.
 - ساهمت الخطوط الحديدية في انتشار الأفكار التحررية في بلاد الشام و توجيه الحركة العربية².
- يذكر سفير بريطانيا في استانبول في تقريره السنوي 1907: "يمكننا أن نفر بأنه من بين حوادث السنوات العشرة الاخيرة خطة السلطان الماهرة التي استطاع بها أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة و أن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني و غيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز...

و قد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى بشكل لم يسبق له مثل". و فيما يتعلق خضوع المسلمين للسلطان خضوعا أعمى غير صحيح لأنهم طالبو بالإصلاحات في الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني و أنشأوا جمعيات سرية و علنية تطالب بذلك و تعرضوا للعقوبة في أغلب الأحيان، و رغم ذلك فإن السكة الحديدية الحجازية كما يذكر محمد عارف الحسيني - ابن الشيخ احمد الحسيني الشافعي الدمشقي الرئيس الثاني لمجلس المعارف بدمشق-: "أن السكة الحديدية الحجازية الشامية أسفرت عن ثروة البلاد و العباد و الراحة للحجاج و توطيد الأمن و الرفاهية و تعمير البلاد الخربة و تأهيل العامرة الخالية...."³.

رغم مزايا المشروع شنت القبائل البدوية غارات ضد الخط الحديدي و قاومته لأنه ألحق بها خسائر مالية ومادية كثيرة لأنهم كانوا يأجرون في كل سنة الآلاف من الجمال للدولة لنقل الحجاج: ففي شرقي الأردن هاجم البدو على العمال الذين يعملون على مد الخط بالإضافة إلى الخطوط السلك البرقي من أجل إيقاف المشروع، و لذلك أرسلت الحكومة إمدادات عسكرية إلى الحامية العسكرية قرب معان في بداية عام 1907 لحمايتها من هجمات بنو صخر، بلغت عدد الاعتداءات حتى بعد تشغيل الخط حوالي 128 اعتداء سنة 1907 و في هذا الصدد أوردت جريدة المؤيد القاهرية فيفري 1909 أن بعض القبائل

¹-سيار الجميل، المرجع السابق، ص512.

²- علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص 220.

³- نفس المرجع، ص، ص 220، 431، 433.

الشامية قامت بتخريب الخط الحديدي بين تبوك و معان و قاطعت الاسلاك البرقية و لذلك صرفت الدولة النظر عن اعادة الحجاج بالطريق الحديدي¹.

6- موقف الدولة العثمانية من الهجرة الى فلسطين:

خاض السلطان عبد الحميد الثاني في فلسطين صراعا سياسيا عنيفا لحماية هذه المنطقة من قوتين متعاونتين و هما الدول الأوروبية الاستعمارية و الصهيونية العالمية و لذلك رفض السلطان العرض الذي قدمه غوديل من أجل شراء مساحات من الأراضي في فلسطين لإسكان المهاجرين اليهود فيها².

و أول من أشار إلى الأطماع الصهيونية في فلسطين الرهبان الكاثوليك حيث نشر الأب هنري لامنس اليسوعي مقالة في مجلة المشرق عام 1899 بعنوان (اليهود في فلسطين ومستعمراتهم) حث فيها السلطات العثمانية للتصدي للنشاط الصهيوني و حذر من الأطماع اليهودية في شرق الأردن و في هذا الصدد يذكر: " هذا و لم يزل اليهود يطمحون ببصرهم نحو نهر الأردن و لما اجتزنا منذ ثلاث سنين في تلك الأقطار، أخبرنا مختار مكيس (ام فيس) أن للبارون دي روتشيلد وضع عمالا في تلك النواحي يطوفونها في كل جهاتها ليمتلكوا لسيدهم أراضي يجعل فيها اليهود ليفكوا ويستغلوا غلاتها"³.

لقد بدأ الصدام بين الفلاحين العرب وسكان المستعمرات الصهيونية في مطلع الثمانينات : ففي عام 1886 هاجم الفلاحون المطرودون من الخضيرة وبتاجتيكفا ملبس قراهم المغتصبة دفعت هذه الاصطدامات الحكومة العثمانية في عام 1887 إلى فرض قيود على هجرة اليهود إلى فلسطين من أجل الإستيطان⁴.

لكن الجمعيات اليهودية اشترت أراضي واسعة من عائلة سرسق اللبنانية⁵ بالقرب من طبريا ولذلك أجبر عرب فلسطين الباب العالي إلى استصدار أحكام بإلغاء بعض الصفقات التي عقدتها الصهيونية في

¹-ابراهيم فاعور الشرعة، المرجع السابق، ص-ص 54-58.

²-محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 482 .

³- علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة 1850-1925، المرجع السابق، ص 307.

⁴-محمد حافظ يعقوب، المرجع السابق، ص 25.

⁵-تمتلك بعض العائلات من سكان المدن مساحات واسعة من الأراضي في الريف، إستولت عليها بوسائل شتى، إذ ساعدت قوانين الإصلاحات العثمانية المتعلقة بملكية الأراضي في تركز مساحات كبيرة إضافية في أيدي تلك العائلات و كما عمد الكثيرون من الفلاحين إلى تسجيل أراضيهم باسم تلك العائلات تهربا من الضرائب و الجندية، و بسبب ديونهم باع الفلاحون تلك الأراضي أو صادرتها الدولة أو باعته في المزاد العلني، فاشترها التجار و الإقطاعيون و سماسرة العقارات أو المؤسسات الاجنبية، أنظر: الياس شوفاني ، المرجع السابق ، ص 304

مطلع القرن العشرين¹ رغم محاولة الدول الأوروبية من تقليل فاعلية المنع إلا أن الحكومة بقيت مصرة على المنع حتى خلع السلطان عام 1909².

خلال المؤتمر الصهيوني الأول في بال حارب مفتي القدس محمد الطاهر الحسيني الهجرة اليهودية والاستيطان الزراعي اليهودي، فقد ترأس سنة 1897 هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية تهتم بدراسة طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس ولذلك تعطل حصول اليهود على أراضي جديدة لعدة سنوات، وفي عام 1900 شن الفلسطينيون حملة من الاحتجاجات على شكل عرائض جماعية ضد شراء اليهود للأراضي الزراعية³، وفي هذا السياق قدم زعماء القدس احتجاجا رسميا سنة 1891 إلى الصدر الأعظم يطلبون فيه إصدار فرمان بمنع اليهود دخول القدس و شراء الأراضي⁴، و كما نشرت صحيفة الكرمل مقالات حول هذا الموضوع، رغم ذلك بقيت الهجرة مستمرة نظرا لفساد الجهاز الإداري و تواطؤ بعض الموظفين العثمانيين و الزعماء المحليين و شيوخ القبائل و رؤساء عائلات تم بيع مساحات واسعة للحركة الصهيونية⁵.

إن شراء الأراضي عبر السماسرة و في صفقات سرية و مشبوهة أدت الى المواجهة بين الفلاحين والمستوطنين الجدد و كذلك كان الحال مع القبائل البدوية التي حرمت من المراعي لقطعانها و لذلك واجه مستوطنون مقاومة من دون تنسيق من طرف الفلاحين و البدو و سمو هذه المقاومة بأعمال نهب وتخريب رغم مقولة الزعيم الصهيوني إسرائيل زانغويل "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، إن الحركة الصهيونية المدعومة من قناصل الدول الأوروبية و فساد الجهاز الإداري العثماني هو الذي أحبط المقاومة العربية من جهة و من جهة أخرى ساهم في تطور الشعور القومي الوطني لدى فئات واسعة من سكان فلسطين في الريف و المدينة بإستثناء فئة صغيرة كانت غائبة عن الأرض أغرتها الأسعار المرتفعة التي يدفعها السماسرة للتنازل عن ملكية الأرض، أما التجار و الحرفيون و المثقفون فقد انضموا إلى الموقف الوطني⁶.

يرى السلطان عبد الحميد الثاني أن تمكين اليهود الوصول إلى فلسطين هو قتل للعنصر العربي فيها وفي هذا الصدد يذكر: "... ولكن لدينا عدد كاف من اليهود فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقا علينا

¹ - عبد الوهاب الكيلاني، تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 50 .

² - رفيق شاعر النتشه، المرجع السابق، ص 188.

³ - عبد الوهاب الكيلاني، تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 50.

⁴ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 190.

⁵ - إلياس شوفاني، المرجع السابق، ص 305.

⁶ - ، نفس المرجع، ص 299

أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً يملكون جميع قدراتها خلال وقت قصير و لذلك نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم¹.

يذكر نجيب نصار أنه حدثت تغيرات في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بالنسبة لسيطرة الحكام المحليين وحتى موظفي الحكومة فأصبح التنظيم الإداري مراقباً مباشرة بواسطة الباب العالي² الذي أصدر في عام 1892 فرماناً يمنع بيع الأراضي الحكومية لليهود وحتى لو كانوا رعايا عثمانيين³، وفي سنة 1901 أصدرت -الحكومة العثمانية- قراراً آخر يمنع اليهود دخول البلاد، إلا أن بريطانيا كانت تتدخل في كل مرة لصالح اليهود وتقف كعائق أمام تنفيذ هذه القرارات.

و أمام خطر الهجرة اليهودية تأسس في يافا أول حزب سياسي وهو الحزب الوطني و هكذا بدأ عرب فلسطين يعملون بمساعدة إخوانهم في دمشق و استانبول و بيروت و القاهرة⁴.

إن كل الإصلاحات الإدارية التي أصابت هيكل الحكم الإداري في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تحقق أهدافها لفرض الأمن و السيطرة العثمانية المركزية عليها ناهيك عن زيادة الجبايات و الضرائب إذ بقي الأمن مختلاً، و الانتفاضات و الفتن قائمة و اعتداءات القبائل على المزارعين والقوافل التجارية مستمرة⁵، أدت الأزمة الاقتصادية التي تمر بها الدولة العثمانية و تدخل الدول الأوروبية في شؤونها الداخلية إلى عدة اضطرابات و انفجارات شعبية في كل من: جبل الدروز سنة 1886 ثم تجددت سنة 1896، و في حلب سنة 1895 و في بيروت سنة 1903⁶، و في مناطق أخرى من فلسطين وبلاد الشام ساهمت التنظيمات الجديدة التي اتخذتها الحكومة على إحكام قبضتها فاشترك السكان المحليين في تسيير شؤون مناطقهم و استقرت الإدارة إلى حد معين حيث أصبح الزعماء موظفين خاضعين لقانون الدولة وحدث هذا بعد اضعافهم و خلخلة موقعهم الاجتماعي مع ابقائهم متعاونون مع السلطة⁷.

¹-علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض و أسباب السقوط، المرجع السابق، ص 448.

²-حسان الحلاق، موقف الدولة من الحركة الصهيونية 1897-1909، المرجع السابق، ص 74.

³-جمال عبد الهادي و آخرون، المرجع السابق، ص 47.

⁴-زهية قدورة، المرجع السابق، ص 190.

⁵-سيار جميل، المرجع السابق، ص 437.

⁶-ناجي علوش، المرجع السابق، ص 131.

⁷-الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 283.

الوضع العسكري:

صدر قانون أخذ عسكر في عام 1886 و ينص على تكليف جميع المسلمين من أهالي الامبراطورية العثمانية بأداء الخدمة العسكرية المفروضة عليهم شخصياً، حددت مدة الخدمة حسب هذا القانون بعشرين سنة ، وفي أواخر الحكم العثماني أصبحت مدتها خمسة و عشرين سنة.

لقد اتبعت الإدارة العثمانية في ولاية سوريا أحيانا اسلوبا غير قانوني في التنفيذ و ذلك بزيادة عدد المكلفين المقيدين في دفاتر أخذ العسكر إلى ثلاثة أمثال العدد المطلوب طمعا في تحصيل البديل النقدي من الأهالي، ما نتج عنه غضب الاهالي و أصبحوا يبحثون على أية وسيلة للتهرب من الخدمة العسكرية بالرغم من اتخاذ السلطات إجراءات زجرية ضد الهاربين من الخدمة العسكرية كإرسالهم إلى المناطق البعيدة التي تكثر فيها الفتن و الثورات كتكريت و الجبل الأسود و الروملي و بغداد¹، بلغ عدد الضباط العرب في الجيش العثماني سنة 1886 حوالي 3200 ضابط².

بنيت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني دار الحكومة في دمشق و أنشأت الثكنة الحميدية³، وبعد عودة الدستور سنة 1908 دخل المسيحيون و اليهود في السلك العسكري العثماني⁴.

لقد أدرك السلطان أن مكانة المنطقة و أهميتها الجغرافية و الاقتصادية و الاستراتيجية جعلتها عرض للهجمة استعمارية التي لا تختلف من حيث أهدافها عن الهجمة الاستعمارية التي تعرفها الآن سوريا ولبنان و فلسطين و العراق و لكن بأسلوب آخر. رغم الاصلاحات السياسية و الادارية التي برمجتها الدولة العثمانية في بلاد الشام لكن تجسيدها على أرض الواقع يبقى قليل وصعب لأن الاصلاحات تحتاج إلى ميزانية كبيرة في الوقت الذي كانت فيه الدولة تواجه صعوبات داخلية وخارجية عرقلت مسار الاصلاحات، ضف إلى ذلك التقارير التي يرسلها الجواسيس و المخبرين و أحيانا تكون هذه التقارير غير دقيقة بقصد أو غير قصد جعلت السلطان يقع في الخطأ، إن بلاد الشام منطقة حساسة و بعيدة عن السلطة المركزية و وصول الفرمانات و الامدادات تكون بطيئة في الوقت الذي تعرف فيه المنطقة اضطرابات و عصيان في الارياف والمدن.

¹-جمال عبد الهادي و آخرون، المرجع السابق، ص-ص 147-152.

²-عبدالرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص7.

³-جمال عبد الهادي و آخرون، المرجع السابق، ص 152

⁴-عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص154.

المبحث الثالث الوضع الاقتصادي:

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني انصرفت الأمة في بلاد الشام إلى الزراعة و التجارة نظرا لتوفر الأمن و مد شبكة من الطرق البرية و الخطوط الحديدية و المواصلات البحرية، و حسب المؤرخ التركي أنه لا يستدعي من أوروبا مالا مهما احتاجت الدولة لهذا المال¹.

1-الضرائب والقروض

تعتمد مداخل بلاد الشام على الضرائب ولم تكن كافية لتسديد نفقات الجهاز الإداري الذي وظفه الباب العالي في إدارة شؤون البلاد².

أثناء ولاية مدحت باشا في سوريا سنة 1879-1880 اقترح إلغاء نظام جباية الضرائب عن طريق الأمانة و أن يجرى تحصيلها من قبل الملتزمين و برر ذلك بقوله: " بأنه من غير الممكن تحصيل الأعشار بطريقة الأمانة دفعة واحدة و ذلك لعدم وجود جهاز تحصيل تتوافر فيه الكفاءة و النزاهة"، و لكن الحكومة لم تلتفت لاقتراحه و أصدرت أمرها بتحصيل الضرائب من قبل الجباة، غير أنها في سنة 1884 تخلت عن اتباع نظام الأمانة و أخذت بنظام التلزم ثم عادت في سنة 1916 إلى نظام الأمانة، و بالتالي فإن الدولة العثمانية تلجأ أحيانا إلى تلزم الضرائب و أحيانا أخرى تتولى إدارتها عن طريق الأمانة.

لقد تسبب جباية الأعشار بطريقة الأمانة مشاكل كثيرة للإدارة المحلية: ففي سنة 1897 قتل ضابطا كبيرا و ثلاثين جنديا حينما كانت الولاية تحاول جمع الأعشار بصورة الأمانة فجهزت الدولة حملة عسكرية بقيادة المشير طاهر باشا لإخضاع الدروز لكنهم عادوا إلى الثورة³.

تتم عملية جباية الأموال سواء قامت بها الدولة أو الملتزمين بشدة و عنف و لذلك التحأ الفلاحون في ولاية سوريا إلى أعيان دمشق و غيرهم من أعيان المدن و المتنفذين لحمايتهم، و قد أدى ذلك إلى ظهور متنفذوا المدن فسيطروا على قرى ولاية سوريا و أصبحت لهم مكانة هامة في الحياة السياسية و الاقتصادية بعد انفصال سوريا عن الدولة العثمانية⁴.

¹-محمد كرد، المرجع السابق، ص 124.

²-الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 271

³- و تعود أسباب ثورات الدروز على الدولة إلى رفضهم دفع الأعشار والرسوم وتسجيل أملاكهم و إحصاء نفوسهم. أنظر: عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 163.

⁴- عبد العزيز عوض، نفس المرجع، ص 192

تدير الوزارة المالية في أستانبول مالية سنحج القدس المستقل الذي يتألف من (أقضية: القدس - يافا - الخليل - غزة - وبئر السبع)، أما مالية سنحج عكا الذي يتألف من أقضية: (عكا - حيفا - صفد - الناصرة - طبريا) و سنحج نابلس يتألف من أقضية: (نابلس - وجنين - وطولكرم) فهي تدار في بيروت¹.
و حسب المادة السابعة من قانون الولايات فإن الشؤون المالية و محاسبة الولاية يقوم بها موظف مالي يلقب دفتر دار يمثل السلطة المركزية العليا في كل ماله علاقة بمالية الولاية و هو تحت أمر الوالي و يرتبط مباشرة بوزير المالية و يساعده أكثر من عشرين موظفا و كاتباً و عدداً كبيراً من الجباة مهمتهم جباية الضرائب التي تنقسم إلى عدة أنواع أهمها:

الويركو و هي ضريبة فرضت بعد عام 1886 على الأراضي الزراعية.

العشر و هي ضريبة تفرض على الإنتاج الزراعي.

الكودة أو الأغنام تفرض على الماشية (الجمال - الأغنام)

التمتع فرضت على المهن و الصناعة و التجارة.

المعارف على المسقفات.

البدل تفرض على كل ذكر بالغ².

هناك نظامان للضرائب :

-الضرائب المباشرة: تفرض في الأرياف منها ضريبة الويركو المقرر في القانون العثماني المؤرخ في 5 اوت 1886 أي ضريبة الأملاك في الأرياف، و ضريبة العشر و ضريبة الحيوانات، كانت الدولة العثمانية من حين لآخر تصدر قوانين تنص على اضافة 41% من هذه الضريبة على المباني و 56% على الأراضي و الهدف من هذه الزيادات هو سد عجز الميزانية أو القيام بخدمات³.

- الضرائب الغير مباشرة: لم تكن أفضل حال من الضرائب المباشرة .

وفي عهد المتصرف رستم باشا سنة 1873- 1883 فرضت ضريبة جديدة و هي ضريبة المهملات تفرض على كل من : الماشية، الصيد، الطرق ، على شركات التبغ و على التبنك، الأملاك السلطانية،

¹- عادل حامد الجادر، أثر قوانين الإنتداب البريطاني في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1976، ص 260.

²-عبدالكريم غرايبة، المرجع السابق، ص 61.

³- عادل حامد الجادر، المرجع السابق ، ص، ص 260، 273 .

هذه الضريبة هي التي تسد عجز خزانة الجبل¹ و بالتالي استطاعت لبنان أن تؤمن استقلالية الجهاز المالي عن خزانة الدولة العثمانية².

2- الزراعة:

إن سياسة التنظيمات التي أقرتها الدولة العثمانية استطاعت أن تحمي الريف الزراعي من غزوات البدو إلا أنها لم تحمي الفلاح من استغلال أعيان المدن، لأنها عجزت أن تقيم أجهزة إدارية حكومية متخصصة في الأرياف الجبلية ومرتبطة بالمركز في استنبول مثل الأجهزة التي أقامت في المدن وبالتالي فإن الحكومة عاجزة على بناء إدارة واسعة و قادرة على تلبية اتساع السلطة و على تكوين عساكر نظامية قادرة على تغطية أمن كل الولايات و على إقامة شبكة من المواصلات التي تؤمن سرعة وصول القرار الإداري و تنفيذه و هذا ما طرحه مدحت باشا عندما كان واليا على سوريا³.

لقد أثر تراجع النشاط العمراني في بداية القرن التاسع عشر على النشاط الزراعي أما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أعيد إعمار العديد من المناطق الريفية أدى ذلك إلى استقرار السكان و احتراف الزراعة إلى جانب تربية المواشي⁴.

للسلطان عبد الحميد الثاني ملكية واسعة من الأراضي قدرتها بعض المصادر بنحو 64 مليون دونم تعرف بالأراضي السلطانية أو الجفتلك⁵ السلطاني - أي المزارع السلطانية - أو الأراضي السنية يمتد حوالي ثلاثة أخماسها ما بين سوريا و فلسطين.

لقد ساهم الاجلاء⁶ مساهمة فعالة في تشكيل الملكيات الكبيرة في فلسطين و في مقدمتها ملكية السلطان عبد الحميد الثاني الذي وجد فيه بعض المزارعين ملجأ مناسباً لهم فتهافتوا على الديوان السلطاني و مكاتب وكالته في فلسطين للتنازل عن مابتصرفهم من الأراضي الأميرية و تسجيلها باسمه في دائرة الدفتر الخاقاني في استانبول و الدوائر المتفرعة عنها و في نفس الوقت استمروا في فلاحيتها مقابل تقديم

¹-تحدى رستم باشا نفوذ الأكليروس الماروني في حالة وقوع عجز في ميزانية لبنان يطلب من ناظر الخزانة العثمانية أن يبعث إليه بهذا العجز، إن التعليمات الجديدة رفضت تسديد العجز الواقع في خزانة لبنان و هذا ما دفعه الى خفض رواتب المواطنين إلى النصف أدى ذلك إلى انتشار ظاهرة الرشوى، أنظر: فليب حتي، المرجع السابق، ص-ص 541-542.

²-علي معطي، المرجع السابق، ص14.

³-وجيه كوثرائي، السلطة و المجتمع و العمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، المرجع السابق، ص118

⁴- أمين أبو بكر، " ملكية السلطان عبد الحميد الثاني في فلسطين (1876-1937)"، مجلة جامعة النجاح للابحاث، المجلد 17، كلية العلوم الانسانية، 2003، ص- ص 230-231.

⁵- الجفتلك كلمة تركية تعني الارض التي يحرثها زوج من الثيران خلال سنة زراعية تتراوح مساحتها ما بين 200-500 دونم.

⁶- الاجلاء كلمة عربية مصدرها لجأو تعني الاسناد الحماية، يحتمون بها الضعفاء أنفسهم و ممتلكاتهم من الأخطار التي تهددهم.

خمس المحصول للسلطان، و لا يوجد ما يدل على أن السلطان أجبرهم على التنازل عن أراضيهم بالقوة أو استبدل بهم مزارعين جدد بعد تنازلهم.

تتمثل عقود الإلغاء التي أبرمها السلطان عبد الحميد الثاني مع رعاياه المزارعين في عقود البيع الصورية أبرمت في دوائر الجفتلك أو في المناطق الريفية و البدوية و المدينة التي يسكنون فيها، و كان تنازلهم لأراضيهم للسلطان مقابل أثمان رمزية تم توظيفها للحصول على عقد الإلغاء وهي وثيقة قانونية تحميهم و تحمي مصادر رزقهم في الحاضر و المستقبل .

هناك عدة أسباب دفعت المزارعين على التنازل عن أراضيهم و دخولها في إلغاء السلطان عيد الحميد الثاني منها:

- عجز المزارعين عن دفع الواجبات الضريبية المترتبة عن الإنتاج للخرينة خاصة أن في بعض الأحيان يكون الانتاج قليلا نظرا للظروف الطبيعية أو البشرية.
- المعاناة من غارات القبائل البدوية المحلية الوافدة عبر نهر الأردن و تعرض الأهالي للتشرد و القتل وتعرض محاصيلهم للنهب.
- اتباع جباة الضرائب و الملتزمين سياسة مجحفة في حق المزارعين رغم معرفتهم بوضعيتهم إلا أنهم يشككون في نزاهة المزارعين من أجل جمع أكبر قدر من الأرباح و ابتزاز الأمواهم بدون حق وهذا ما دفع العديد منهم للتنازل عن أراضيهم مقابل التخلص من ظلم الملتزمين.
- إن الإمتيازات التي يقدمها السلطان لرعاياه الداخلين في حماه شجع غيرهم ومن بين هذه الإمتيازات:
- تقديم قروض دون فائدة.

-إعفاء أبنائهم من الخدمة العسكرية الإجبارية.

- تخفيض قيمة المستحقات الضريبية المفروضة على الانتاج (الخرج، الأعشار).

ترمي سياسة الإلغاء و سياسة الإعمار التي اتبعها السلطان في المقاطعات الفلسطينية إلى حماية الأراضي التي تعرف أوضاعا زراعية صعبة من وقوعها فريسة في يد سيطرة القوى الاستعمارية و الحركة الصهيونية: ففي سنة 1906 كلف مصطفى أفندي وكيل الجفتلك السلطاني في قضاء غزة إلى ضم جميع أراضي قرية رفح لحمى السلطان، و بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني إستولى الإتحاديون على هذه الأراضي¹.

¹ - أمين أبو بكر، المرجع السابق، ص 224 ومابعدها

كما سيطر أعيان العائلات الكبيرة و مشايخ القرى و وجهاء الريف و تجار مرابي المدن على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، تحصلوا عليها عن طريق النفوذ و الوظيفة الإدارية و لذلك توزعت الملكيات في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في وسط و شمال سوريا الداخلية على الشكل التالي

نوع الملكية				عدد القرى المملوكة بكاملها		
أمالك الإقطاعيين	أمالك الدولة	أمالك مشتركة بين الدولة والفلاحين	حمص	حماه	السلمية	حلب
117	121	28	100	106	75	200
					40	575
			20		/	/

من خلال الجدول نلاحظ أن الدولة تمتلك الجزء الأكبر من أراضي حلب و حمص و حماه أما العائلات الإقطاعية تمتلك قرى في حلب و حمص و حماه أي حوالي 200 قرية، و من أبرز العائلات المالكة للأراضي في بيروت هي عائلات مسيحية مثال عائلة سرسق و عائلة بسترسن، أما في فلسطين فإن إحصائيات سنة 1907 تشير إلى النسبة القليلة من الأراضي الزراعية التي كانت في يد الفلاحين: ففي الخليل لم تتعدى 20% و نابلس 50% و شرق الاردن 15%، أما بقية الأراضي فكانت في معظمها في يد العائلات الكبيرة¹.

و في عهد ناظم باشا والي دمشق استدعى بعض أعيان الولاية لمناقشة وضعية الزراعة في المنطقة لما لها من فائدة في تطوير الاقتصاد و كذا تحسين أحوال الفلاحين فتم اتخاذ التدابير التالية :

- تأليف مجالس زراعية في مراكز الولاية التابعة لها تهتم بشؤون تطوير الزراعة.
- تحسين وضعية الفلاحين و عرض انشغالهم على مقام الولاية العالي من أجل النظر فيها.
- إصلاح الطرق الصعبة بين القرى و القصبات ويساهم الفلاحون في إصلاحها وفقا لنظام الطرق والمعابر تحت مناظرة مجلس الزراعة.
- فتح مكاتب ابتدائية في القرى الكبيرة تكون نفقاتها من حصة المعارف.

¹-محمد مراد، المرجع السابق، ص 75 وما بعدها

- إرسال تلميذين في كل سنة من أبناء الفلاحين النجباء إلى المدارس الزراعية العليا في استانبول و إلى الدول الأوروبية ثم استخدامهم بعد عودتهم في الميدان الزراعي.

-تسهيل أسباب الاستدانة على المضطرين من الفلاحين من البنوك و المصاريف الزراعية.

-على الجبابة أن لا يطلبوا الويركو قبل إدراك مواسمهم.

-فتح معرض زراعي في الولاية لمدة ثلاث أو أربعة ايام في السنة تحت حماية الدولة و نظارة مجلس الزراعة.

-حث الفلاحين على زراعة الحراش الصناعية في لواء حماه وجبل الشيخ وجبل علجون والقنيطرة والقلمون وبعلبك.... الخ.

-ترجمة بعض الكتب الحديثة الزراعية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.

- إبدال المحراث القديم بالمحراث الأوروبي.

-توزيع المهاجرين الوافدين إلى الولاية على القرى ليستغلوا في الزراعة¹.

وفي عام 1899 وضع الحجر الأساسي لمدينة بئر السبع الصحراوية ، و عزز السلطان عبد الحميد الثاني قوات الأمن بأسلحة حديثة للوقوف في وجه الهجمات البدوية كما سجل أراضي الناحية المعطلة بإسمه من أجل تشجيع المزارعين للعودة إليها و الوافدين على ممارسة حرفة الزراعة، و في سنة 1900 أصدر السلطان فرمانا ينص على تحويل مجرى نهر الاردن من بحيرة طبرية حتى البحر الميت جنوبا من أجل ري ما يقارب 10 مليون دونم من الأراضي الغورية الخصبة و إعمارها بالسكان².

أما الوالي مظفر باشا فقد قدم برنامجا إصلاحيا إلى مجلس الإدارة ينص على الإهتمام بالعمران والميزانية واستصلاح الأراضي الزراعية مع تحسين وضعية الموظفين والفلاحين و الحرفين³.

كما أنشأت الدولة مصرفا زراعيا لحماية الفلاح العثماني من احتكار المربين مقره استانبول و له فروع في ولايات الدولة كولاية سوريا، خصصت له الدولة رأس مال صغير ، و لذلك شهد هذا المصرف اقبال الفلاحين السوريين رغم أن الفائدة منه كانت محدودة ، كما قدم فرع المصرف الزراعي في دمشق قروضا للفلاحين قدرت سنة 1908 ب : 294.100 قرش موزعة على أقضية ولاية سوريا، و في عام 1910

أنشأت الدولة مستودعا للآلات الزراعية في دمشق وقامت ببيعها للفلاحين بالتقسيط ومدرسة وحقل نموذجي في لواء حماه¹.

هناك مؤسسات مالية أخرى في دمشق يستدين منها المزارعون منها:

- صناديق الأفضية التابعة للإدارة العثمانية و لكن أمنائها يضغطون على الفلاح المدين لأنهم كانوا يسجلون اسم الدين باسم القرية ككل و يهددون أهل القرية في حالة عدم سداد الدين بحجز أراضي القرية الزراعية وقد تباع في المزاد للأعيان أو الملاك بأسعار منخفضة .

- تقدم شعبة من البنك العثماني قروض للفلاح و في حالة عدم تسديد الدين و فوائده تحجز كل المحاصيل والأرض، وبالتالي فإن الفلاح يعاني من الظروف الطبيعية و الادارة العثمانية ، والأعيان وملاك الأراضي².

إن توظيف الرأس المال الأجنبي في الريف أثر على الزراعة سلبا سواء عند تحصيل الديون نقدا أو الحجز للأراضي و بيعها لاستفاء الدين، كما ربطت البلاد بعجلة الاقتصاد الأوروبي و هذا وفقا لما جاء في بنود المعاهدات المبرمة في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، و أصبحت أداة ضغط على الفلاحين والمزارعين ولم يسلم الفلاحون حتى من ضغط الصرافين اليهود حيث أدت الديون في غالب الأحيان إلى انتزاع الملكية وإستيلاء هؤلاء الصرافين على هذه الملكيات، عموما فإن الريف الدمشقي تأثر بالموجة الاستعمارية نحو المنطقة العربية التي تعاونت مع الأعيان و كبار المنتفذين في الإدارة العثمانية³.

لقد لعبت خطوط السكك الحديدية دورا فعالا في زيادة المساحات المزروعة واستقرار المهاجرين الشركس وغيرهم حول دمشق ومارسوا حرفة الزراعة ، ومع نهاية القرن التاسع عشر تعرضت زراعة الحبوب خاصة إلى عدة مشاكل منها:

- نقص الامكانيات و ضعف المواصلات.

- الكوارث الطبيعية و هجرة الفلاحين من الأرياف نحو المدن⁴.

لقد أجبر السلطان عبد الحميد الثاني بعد عودة الدستور سنة 1908 عن التنازل عن جميع أراضيهِ المنتشرة في الإمبراطورية العثمانية إلى خزانة الدولة مقابل مليون ليرة عسملية تدفع من الخزانة لتسديد ديونه

¹- عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق ، ص-ص 242-244 .

²- ماري ذكران سركو، دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني 1293هـ - 1325هـ/1876-1908م، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010، ص-ص 202-206.

³- نفس المرجع ، ص-ص 209-213.

⁴- نفس المرجع، ص 206

الخاصة و ذلك بموجب إرادتين سلطانيتين و هذا المبلغ لا يعكس ثمنها الحقيقي، و أصبحت هذه الأراضي التي تنازل عنها السلطان تعرف بإسم الأراضي المدورة أي المنتقلة أو المحولة بدلا من الجفتلك السلطاني، رغم هذا الاجراء فقد كان من حق مزارعيها فلاحتها و اعمارها ما يفوق 30 سنة و أن يطالبوا الخزينة بتسجيلها بإسمهم من جديد بدلا من اسم السلطان إلا أن حكومة الاتحاديين لم تعترف بحقوق المزارعين فيها¹.

يذكر والي سوريا في خطاب القاه بمناسبة افتتاح المجلس العمومي في دمشق سنة 1910 مايلي: "... ان الزراعة هي الوسطة الوحيدة لترقى بلادنا و زيادة ثروتها و عمرانها و العالم أجمع يسلم بأن بلادنا زراعية و لكن الطريقة المعروفة عندنا للحرث و الزرع لا تساوي شيئا و لا ينبغي علينا أن نسمي زراعتنا زراعة امام الطرق الزراعية في أوروبا المستندة على الأصول الحديثة و الآلات الجديدة ولهذا الغاية ابتدأنا بتأسيس مدرسة زراعية منظمة في لواء حماه و شرعنا بتأسيسها على شرط أن لا تكون عبئا ثقيلا على الحكومة..."².

3-الصناعة:

في فترة السلطان عبد الحميد الثاني كانت المدن الكبرى في سوريا مراكز حيوية للصناعة فقد امتلأت أسواقها بالصناعات المحلية مثل صناعة النسيج التي اشتهرت بها مدينة دمشق، ومن بين الأسواق المنتشرة في هذه المدن سوق الصباغة، والنحاسين، والخياطين، وسوق النسوان، وخان الزعفران وغيرها، ولم تكن هناك مؤسسات الصناعية الكبرى معروفة ولذلك تحكمت الطوائف الحرفية على نوعية الانتاج وأسعاره وتمتع العناصر الغريبة من ممارسة حرفتها، فالطوائف الحرفية لعبت دورا فعالا من حيث تنظيم العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة³.

تحتل طبقة الصناع الطبقة الثانية في الواقع الطرابلسي من الناحية الاجتماعية كصناع السكر والحلويات والزيت، الصابون، الأقمشة والحرير، الورق، النحاس، الجلود... الخ، أثناء زيارة مدحت باشا لطرابلس عام 1878 حاول أن يطور بعض الورشات و المرافق⁴.

مع بداية القرن العشرين أصبحت معظم الأقمشة النسيجية التي تباع في أسواق دمشق مستوردة من أوروبا رغم أن الصناعة النسيجية المحلية كانت تنتج أجود الأقمشة، إلا أن المنافسة الخارجية أدت إلى ركودها، ورغم تنوع انتاجها تبقى الصناعة النسيجية الأوروبية هي المسيطرة، فحسب تقرير فرنسي لسنة

¹-أمين أبو بكر، المرجع السابق، ص346.

²-عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص، ص 242، 244.

³-ماري ذكران سركو، المرجع السابق، ص 215.

⁴-محمود سليمان، المرجع السابق، ص-ص 23-27.

1922 ذكر بأن صناعة الحرير كانت مرتبطة بفرنسا و أن ما بين 1890-1905 تعرضت للمنافسة الخارجية أدى ذلك إلى تناقص عدد الورشات إلى الثلث و انخفاض عدد اليد العاملة الى النصف¹.

4-التجارة

تأسست في منتصف القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين مؤسسات مصرفية أجنبية في مختلف المدن الشامية ساهمت إلى حد كبير في تطور الاقتصاد اللبناني، لها فروع في المدن الرئيسية بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا وحلب والقدس وقد ازداد نشاط هذه المؤسسات بعد نقل رجال الأعمال اللبنانيين نشاطهم الاقتصادي إلى هذه المدن وبالأخص إلى مدينة بيروت التي أصبحت العاصمة الاقتصادية لبلاد الشام في المرحلة الأخيرة لنظام الجبل² و لهذه المؤسسات المصرفية سياسة مزدوجة وهي على الشكل التالي:

- تسعى لإيجاد الأسواق في أراضي الدولة العثمانية بما في ذلك لبنان وولايتي بيروت و دمشق.
- تعمل على تسهيل تجارة بلادها في المدن التي وجدت فيها وفي أسواقها المفتوحة ولتسهيل عملية الاستيراد و التصدير بين بلادها والولايات التابعة للدولة العثمانية تقدم قروض لأصحاب الأعمال³.

لقد بلغت قيمة الانتاج الزراعي والحيواني لسنح طرابلس سنة 1894 أكثر من اثني عشر مليون فرنك وبلغت قيمة المنتوجات المصدرة من مرفأ المدينة في نفس السنة أكثر من ثمانية عشر مليون فرنك ولذلك لعب هذا المرفأ دورا هاما في تصريف منتوجات سوريا الشمالية وانفرد بحركة استيراد وتصدير من والي طرابلس ساعد ذلك على نمو حركة التجارة في المدينة⁴.

أدى تطور المواصلات و الاتصالات في فترة السلطان عبد الحميد الثاني إلى تطوير التجارة فازداد ثراء التجار المسيحيين واليهود الذين إحتكرو استيراد البضائع الاجنبية، كما سيطرت الشركات الأوروبية وأتباعها المحليين على النشاط الاقتصادي المربح خاصة فروع الانتاج و التصدير⁵، و بالتالي أصبحت التجارة حكرا على الأجانب الذين تحميهم نظام الامتيازات و السفراء و القناصل من قوانين السلطة العثمانية، فبعدما كانت بلاد الشام سوقا تغذي أوروبا بالبضائع المصنعة تراجع إنتاجها الصناعي ونشاطها التجاري⁶.

¹- Gerard De Geaorge, op.cit, p 130.

²-علي معطي، المرجع السابق، ص160

³-وجيه كوثراني، السلطة و المجتمع و العمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، المرجع السابق، ص165

⁴-محمود سليمان، المرجع السابق، ص-ص 21- 23.

⁵-باميلا آن سميث، المرجع السابق، ص36.

⁶-ماري دكران سركو، المرجع السابق، ص 236.

مع نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين ازداد حجم التبادل التجاري مع أوروبا: ففي الفترة الممتدة ما بين 1883-1885 شهدت موانئ سوريا زيادة في الاستيراد والتصدير بنسبة 50%.

و تحولت مدينة دمشق من مركز للانتاج الحربي مع حيوية التبادل الداخلي مع المدن السورية الكبرى إلى مركز لخدمة التجارة الخارجية الأوروبية، و أصبح رأس المال الأوروبي المدعم بالامتيازات موجهاً لبناء طرق المواصلات التي تخدم مصالح التجارة ثم تحولت هذه الطرق لخدمة مصالح أوروبا السياسية والعسكرية¹.

أما في بيروت فتتركز كل الفعاليات الاقتصادية الأجنبية و ذلك راجع إلى مينائها التجاري الذي يربطها بدول أوروبا و بلدان البحر الأبيض المتوسط و لذلك عرفت بيروت وافدين من دمشق بحثاً عن العمل وكانت أوروبا تستورد المواد الأولية من الشرق الذي يغذي صناعاتها و كانت تدفع ثمن البضائع المستوردة نقداً و ليس مقايضة بالمنتجات المحلية، أدى هذا الوضع إلى عجز الميزان التجاري².

ومن أشهر الأسواق في بلاد الشام السوق الجديد (سوق الحميدية) بدأ بنائه في عهد السلطان عبد الحميد الثاني يحتوي على عدد كبير من المحلات التجارية و توجد به أنواع كثيرة من البضائع والأقمشة المحلية والمستوردة يستقبل الكثير من الزوار افتتح عام 1893³.

المواصلات:

عملت الإدارة العثمانية بعد 1889 على إصلاح و توسيع الطرق ولاية سوريا وذلك على اثر صدور قانون يخصص 10 بالمائة من واردات البنك الزراعي لتعمير الطرق، و منحت امتيازات مد الخطوط الحديدية للدول الأوروبية التي تنافست فيما بينها⁴.

الطرق البرية المعبدة:

- تأسس طريق حمص - طرابلس عام 1883.
- افتتح طريق دمشق - حوران سنة 1888، هذا الطريق ساهم في انعاش الحياة الاقتصادية في القرى المجاورة حيث أصبحت تصدر منتوجاتها إلى المدن السورية بسهولة.
- بدأ العمل في طريق حماه - اللاذقية سنة 1891 و تم إنجازه في سنة 1896⁵.

¹ - ماري ذكران سركو، المرجع السابق، ص 254.

² - نفس المرجع، ص، ص 226، 235، 236.

³ - نفس المرجع، ص 272.

⁴ - عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، ص 272.

⁵ - نفس المرجع، ص 274.

- توسيع جسر الناعورة حيث أضيفت إليه عام 1893 قنطرتان فتوسع عرض الجسر بمقدار ذراعين من كل طرف¹.

-السكك الحديدية:

تعود فكرة إنشاء خط حديدي في سوريا إلى عهد ولاية مدحت باشا على سوريا نظرا لأهمية هذا الخط في تصريف المحاصيل الزراعية و توطيد الأمن و الاستقرار، إلا أن الدولة لم تستجب لمدحت باشا وباشرت باستثمار الخط في أواسط سنة 1894².

لقد نالت سوريا و الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني حصة الأسد من شبكة السكك الحديدية، حيث قدرت سنة 1908 ب 7،43% أي حوالي 2350 كلم من سكك حديد³، ساهمت فرنسا برأسمال يقدر بحوالي 5،26 مليون فرنك فرنسي بالنسبة لسكة حديد بيروت-دمشق و 2،4 مليون فرنك فرنسي بالنسبة لطريق دمشق-بيروت البري و 6 ملايين فرنك فرنسي بالنسبة للترام كهرباء دمشق⁴ و كان المسافرون يتمركزون في مراكز تعرف باسم الخانات⁵.

وتم توزيع امتيازات شبكة الخطوط البرية والحديدية على الشكل التالي :

خط دمشق - المزيريب سنة 1890 ، خط بيروت - دمشق سنة 1891 ، خط طرابلس - حمص سنة 1911⁶.

أول خط حديدي مد في سوريا هو خط يافا - القدس و الهدف من انشائه خدمة الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا إلى يافا عن طريق البحر تم افتتاحه في 14 سبتمبر عام 1892⁷، و في عهد نعوم باشا بدأت شركة سكة بيروت - دمشق - حوران الحديدية و أنجزت السكة الحديدية سنة 1892⁸.

¹ - مجلة المنار، المرجع السابق.

² - عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 240.

³ - عبد الرؤوف سنو ، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب ، المرجع السابق ، ص-ص 10-11.

⁴ - ماري دكران سركو، المرجع السابق، ص 254.

⁵ - علي معطي ، المرجع السابق، ص 163.

⁶ - ناجي علوش ، المرجع السابق، ص 130.

⁷ - عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا ، المرجع السابق ، ص 275.

⁸ - فليب حتي ، المرجع السابق، ص 542.

استثمر خط بيروت - دمشق في عام 1895 وأنشأ خط رفاق - حماه في سنة 1902 وخط حماه - حلب سنة 1907¹.

وفي سبتمبر 1900 شرع في إنشاء الخط الحجازي الذي بدأ العمل فيه من دمشق و مزرب دفعة واحدة افتتح الخط الأول منه دمشق - درعا في سبتمبر 1903 و في السنة الموالية تم افتتاح قسم عمان - معان، أما الافتتاح الرسمي للخط الحجازي فقد كان في أول سبتمبر 1908 المصادف لعيد الجلوس السلطاني، ولقد جندت الحكومة العثمانية كل إمكانياتها لإنجاز هذا المشروع ويعتبر الخط الوحيد الذي أنشأ برأس مال إسلامي في بلاد الشام²، وهذا ما يبين لنا مدى تضامن مسلمي العالم حول الجامعة الإسلامية و حتى بناؤه كان من قبل مهندسين عثمانيين، لقد رفع الخط الحجازي من شأن السلطان عبد الحميد الثاني و في هذا الصدد كتبت السفارة الألمانية في استانبول إلى رئيس الوزراء الألماني تقول: "إن وسيلة أخرى (غير خط الحجاز) لم يكن بإمكانها أن ترفع من سمعة السلطنة العثمانية التي لحقت بها خسائر في الممتلكات و المعنويات خلال أكثر من خمس وعشرين سنة من حكم عبد الحميد"³.

نظرا للأهمية الاقتصادية لمدينة حلب عملت الحكومة على ربط المدينة بالمدن و الولايات الأخرى بشبكة من الخطوط الحديدية: ففي عام 1905 تم التوقيع على مشروع ايصال الخط الحديدي من حماه إلى حلب وكذا بناء محطة حلب غربي الجميلية، تمتد هذه المحطة من الجنوب إلى الشمال على مسافة كيلو متر واحد تحتوي على غرف ومقاصير، معامل وورشات فجذبت المحطة الأهالي لاستغلال الأراضي الزراعية وتعميرها ولذلك يذكر محمد عبدو في مقال نشره في مجلة المعرفة: "إن الخطوط الحديدية في بلاد الشام دمرت تدميرا كبيرا أثناء الحرب العالمية الأولى بتوجيه من بريطانيا لرجلها لورانس الذي كان مرافقا للشريف فيصل قائد القوات التي أرسلها حسين شريف لبلاد الشام دعما لقوات الحلفاء"⁴.

سهلت هذه الخطوط ككل في نقل السلع من أوروبا الغربية إلى المناطق الداخلية من بلاد الشام وكذلك نقل المنتوجات الشامية عبر المرافئ الساحلية إلى الخارج⁵، أما الخط الحديدي الحجازي فقد حقق الأهداف التالية:

¹-وجيه كوثراني، السلطة و المجتمع و العمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، المرجع السابق، ص166.

²- عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص283.

³-عبدالرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص-ص 10-11.

⁴-مهندسة نجوى عثمان، المرجع السابق، ص-ص 118-121.

⁵-وجيه كوثراني، السلطة و المجتمع و العمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، المرجع السابق، ص166.

-التبادل التجاري و تنمية الحياة الزراعية على طول خط سيره¹.

- نموا إقتصاديا لحوران و سهل عملية تصدير انتاجها الزراعي².

هناك مشاريع كثيرة لم تر النور بسبب قيام الحرب العالمية الأولى و الملفت للنظر أن هناك عدة الشركات أجنبية نالت إمتياز مد الخطوط الحديدية و كانت شروط الإمتيازات في صالح هذه الشركات لا في صالح البلاد والدولة³.

شهدت بيروت تغيرا جذريا بسبب سياسة السلطان عبد الحميد الثاني حيث عمل على تنظيم المدينة وعصرنتها و ذلك عن طريق تسطير مشاريع ضخمة و ضخ رؤوس أموال و أصبح مرفأ بيروت⁴ شريان الحياة الاقتصادية في بلاد الشام⁵.

ففي سنة 1861 تم تمديد مشروع السلك البرقي في حلب و بعض ملحقاتها، و في سنة 1890 كان في حلب أربعة عشر مركزا للبرق و في عام 1893 تم مد السلك البرقي من حلب الرقة و من حلب إلى دير الزور⁶.

رغم الإجراءات الجديدة و الإصلاحات التي قام بها السلطان عبد الحميد الثاني، إلا أن الفساد ظل منتشرا و سيطرت البضائع الأجنبية على السوق الداخلية فهذه المشاريع الإصلاحية كانت تخدم في نهاية الأمر سلطته المطلقة⁷، فارتفعت المعالم التذكارية مثل برج الساعة و السبيل الحميدي و لهذين المعلمين فائدة سياحية كبيرة و هذين المعلمين أقيما بمناسبات خاصة تتعلق بالسلطان⁸.

لقد أثرت الحياة الاقتصادية المزدهرة على التركيبة الاجتماعية و الحياة الثقافية لبيروت، و نظرا للإنجازات التي حصلت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني انتقلت الأعمال الإدارية من أيدي العسكريين إلى أيدي

¹-توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص36.

²عبدالرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص12.

³-عبد العزيز عوض الادارة العثمانية، المرجع السابق، ص285.

⁴- فغير مرفأ بيروت صيدا جونية و جبيل تطورت نشاط التجارة. أنظر: علي معطي، المرجع السابق، ص126.

⁵-فليب حتي، المرجع السابق، 1959، ص542.

⁶- مهندسة نجوى عثمان، المرجع السابق، ص138.

⁷-عبدالرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص10.

⁸-محمود سليمان، المرجع السابق، صص27،23.

البيروقراطيين الذين ارتبطوا بالبيروقراطية المركزية و الذين حظيوا بالدعم المادي و المعنوي و ذلك من خلال منح الرتب و الأوسمة والدرجات الشرفية لهم¹.

المبحث الرابع: الوضع الاجتماعي والثقافي

1-المؤسسات الدينية وترميمها:

هناك علاقات مميزة بين العرب المسلمين و العثمانيين في إطار السلطنة، فالمسلمون يرون أن السلطنة العثمانية قوة تحمي هيبة الخلافة، و في المقابل يعتبر السلاطين العثمانيون العرب المسلمين بمثابة الركيزة الأساسية لاستقرار حكمهم في المنطقة.

يتمتع العلماء العرب بمكانة متميزة على كل المستويات: الدينية و الاجتماعية و السياسية و ظل المرتكز الديني يمثل إحدى أهم المرتكزات الروحية و الفكرية و السياسية التي ارتكزت عليها السلطنة في حكمها للبلاد العربية و لقد ساعد التحالف الديني و السياسي الذي كان بين جهاز السلطة الحاكمة و العرب في استقرار و إطالة فترة الحكم العثماني للبلاد العربية.

يتكون الجهاز الإسلامي في الولايات العربية و السناجق التابعة لها من القضاة و المفتين و نقباء الأشراف و خطباء المساجد و أئمة الصلاة و المؤذنين، يشغل رجال الدين في التدريس أو في مجال القضاء و لذلك فإنهم يقومون بدور فعال في شؤون الدولة².

لقد انعدمت الكفاءة و النزاهة في تنظيم إدارة الأوقاف فاختلست أموالها و أصبحت معظم المساجد والمدارس والزوايا والمستشفيات و غيرها من الأوقاف مهجورة و مغلقة ولذلك تحولت أوقاف سوريا الى حوانيت و دور للسكن³، و لذلك اهتم السلطان عبد الحميد الثاني على تنظيم أوقاف ألوية ولاية سوريا فقدم المكافآت و المساعدات المالية للمدارس و المؤسسات الخيرية لترميم وزخرفة المساجد خاصة في مكة و المدينة و القدس⁴: ففي عام 1896 أرسلت لجنة إلى لواء الكرك من أجل تنظيم جداول الأوقاف في اللواء و ألحقت نظارة الأوقاف أوقاف لواء نابلس بأوقاف متصرفية القدس لقرىها منها بعد أن كانت تتبع أوقاف صيدا و انتظم ديوان أوقاف الشام، بعد إعادة الدستور عام 1908 وضع وزير الأوقاف العربي

¹-محمود سليمان، المرجع السابق، ص، ص27، 23.

²- محمد مراد، المرجع السابق، ص 49 وما بعدها

³-عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص250.

⁴-توفيق بر، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص33.

خليل حمادة باشا برنامج لتنظيم الأوقاف فتناقص النهب و الاختلاس غير أن مدارس البلاد و مساجدها لم تنل نصيبها من زيادة الإيرادات التي تذهب إلى استانبول¹.

و هكذا أصبحت خدمات الحج في عهد السلطان عبد الحميد الثاني منظمة و تدار بصورة ثابتة من مركز الدولة و تدفع المصاريف من خزنتها المركزية، كما عمل السلطان على كسب ود القبائل التي تقيم بالقرب من طريق الحج فأنشأ وحدات إدارية جديدة في هذه المناطق فظهرت سناجق حوران والكرك ومعان كما تم توطين البدو و منحت لهم الدولة الجبوب و حثتهم على ممارسة حرفة الزراعة.

ترافق قافلة الحج كتيبة مختارة من الجند "الباش بوغ" أي الجند الغير منتظمة التابعة لجيش بلاد العرب من صحراء مزيرب إلى هدية اشمه سي الواقعة بجوار تبوك و نفس العمل تقوم به أثناء عودة القافلة².

أما بالنسبة لأوقاف فلسطين فقد فتح السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1899 بابا جديدا في سور القدس يعرف أحيانا بباب عبد الحميد و الهدف من استحداث هذا الباب هو تسهيل حركة النقل بين البلدة القديمة و المباني التي أسست خارج أسوار القدس بالقرب من موقع الباب، و في عام 1897 تم فتح باب آخر في السور يقع ما بين باب الخليل و قلعة القدس من أجل تسهيل دخول عربة الأمبراطور الألماني وليم الثاني وزوجته أوغستا فكتوريا للمدينة المقدسة³.

2-طبقات المجتمع

إستفادت بعض العائلات العربية الاسلامية من الإمتيازات التي تحصلت عليها فأصبح لها نفوذا اقتصاديا واجتماعيا و أصبحت تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية التي تبلورت معالمها في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

أما البعض الآخر من العائلات الدينية فإلتجأت إلى البحث عن مرتكزات جديدة تحمي بها سلطتها الاجتماعية و الاقتصادية خارج نطاق المؤسسات الدينية: ففي مدينة دمشق مثلا اندمجت عائلة العجلان والغزي و الكيلاني والحسيبي مع مجموعة من عائلات الملاك غير المتدينين لتشكيل فيما بعد أي في اواخر القرن التاسع عشر زبدة المجتمع الدمشقي، وبالتالي سيطر أبناء هذه العائلات على مراكز السلطة في المدن عن طريق حصولهم على وظائف دينية وإدارية هامة، وفي مدينة القدس ظهرت عائلتا الحسيني والخالدي

¹ -عبدالعزیز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص251.

² - زكريا قورشون، المرجع السابق، ص- ص50-51.

³ - يوسف سعيد النتشه، "سور القدس : اهميته وخصائصه والاساطير المرتبطة به"، بحوث المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني، دمشق، المرجع السابق، ص129.

التي إحتلت الدوائر الحكومية و المجالس المحلية و في غزة ظهرت عائلة آل العلمي و في دمشق أصبح أحمد العجلاني شيخ المشايخ و نقيب الأشراف، و احتكر أفراد عائلة آل الغزي منصب المفتي الشافعي حتى القرن العشرين و تقلد حسن الحكيم من عائلة آل الحكيم وظائف متعددة في شؤون المالية، و من العائلات البيروتية ظهرت عائلة آل قباني و نجا و الأسير، و في طرابلس آل الأحذب و آل الزعي و آل الرفعي، وأصبحت هذه العائلات تتمتع بمكانة اجتماعية مميزة، حافظت هذه العائلات على علاقات القرابة بين أعضائها و فروعها و تماسكها الداخلي ولقد اعتمدت الركيزة المادية لهذه العائلات الدينية على وظائفها الإدارية و الدينية و كذلك عن طريق الاراضي الواسعة و عن ما تنتجه من أوقاف¹.

لقد وفر حكم السلطان عبد الحميد الثاني أساليب جديدة للأشراف و العائلات الكبيرة للإستفادة من ممتلكاتهم و ثرائهم فأصبح لهم نفوذ و صارت المدارس الجديدة و دوائر الدولة حكرا لأبنائهم الذين تولوا مناصب عسكرية و مدنية بل تعدت سيطرتهم إلى احتلال مراكز هامة فأصبحت الأوقاف تحت إشرافهم واستفاد أبنائهم من مداخيلها، و بفضل المناصب التي اشتغلوها خاصة في الإدارة اشتروا أراضي بور بأثمان منخفضة ثم سجلوها بأسمائهم لأن الفلاحين كانت عليهم ديونا كبيرة و لم يكن أمامهم حلا آخر فإما تسجيل الأرض باسم الشريف للتخلص من الضرائب الباهظة أو الخضوع لسياسة تركيا الفتاة بخصوص التجنيد الإجباري، و في الأرياف سيطر أبناء العائلات الكبيرة بفعل قوة روابط القرابة والدم التي تربط بينهم و خاصة أن سلطة هؤلاء الشيوخ استغلت ضعف الدولة العثمانية و ثبتت بعض أفراد عائلاتها كولاة².

حسب سجل الحكومة الرسمي لتحرير النفوس لعام 1897 بلغ عدد سكان ولاية دمشق حوالي 251,201 نسمة، شهدت الفترة الممتدة ما بين 1876-1909 نموا سكانيا كبيرا في دمشق وغيرها من المدن السورية ويرجع ذلك إلى الهجرة التي عرفتتها هذه الولايات من الأرمن وأهل الريف وكثرة الجنود الذين جلبتهم الدولة العثمانية وهجرة مسلمي البلقان وكريت إلى سوريا التي يتوفر فيها الأمن والغذاء والمرافق الصحية وينتسب السكان إما إلى المهنة التي يمارسونها أو إلى البلد الذي جاءوا منه مثل البغدادي والحمصي والحلي...³.

وقد فتح السلطان عبد الحميد الثاني باب التوظيف لجميع سكان دمشق رغم ابتعادهم قبل ذلك عن الوظائف الحكومية وفي مقدمتها التجنيد فاستلم الكثير من المسيحيين مراكز قضائية مهمة في مدينة دمشق منهم من طائفة الروم الأرثوذكس الشرقيين، ومن طائفة الموارنة الكاثوليك، وبالتالي فإن الوظائف لم تكن

¹-محمد مراد، المرجع السابق، ص 54 وما بعدها

²-باميلا آن سميث، المرجع السابق، ص - ص 27-32 .

³-ماري داکران سرکو، المرجع السابق، ص 16

حكرا على فئة معينة أو طائفة بل يحصل عليها من له الكفاءة القدرة على اختلاف مذاهب السكان¹. عرفت دمشق في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عدة حوادث واضطرابات نظرا للتدخل الأجنبي والتغلل الاستعماري الذي عمل على عرقلة التطور الاقتصادي وعمق التمزق الاجتماعي كما لعبت هذه القوى الخارجية دورا هاما في تفتيت التضامن الذي كان سائدا بين المسلمين والمسيحيين وبين المسلمين أنفسهم والمسلمين مع بعضهم والهدف من ذلك اضعاف روح الانتماء، رغم أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين كانت في السابق تتميز بالود فقد امتلك المسيحيون في دمشق وضواحيها عقارات سجلت في المحاكم الشرعية لمدينة دمشق ولقد حرصت الدولة على عدم التدخل في شؤون الملل²، كما تمتعت الأقليات في مدينة دمشق بحقوقها الخاصة بموجب قانون التملك الذي أصدرته السلطنة في منتصف القرن التاسع عشر لكن بعض هذه الأقليات وجدت فيما بعد من الأجانب سندا معنويا وقوة اقتصادية³.

لقد عرفت فلسطين الأمن والاستقرار بعد تولي السلطان عبد الحميد الثاني فازداد عدد سكانها هذه الزيادة مست خاصة سكان المحليين المسلمين فنتج عنه تطورا اقتصاديا خاصة في مدينة القدس والمدن الساحلية، كما شهدت المنطقة هجرة البعثات التبشيرية المسيحية والهجرة اليهودية التي ارتفعت بعد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897⁴.

3-التعليم و المؤسسات التعليمية:

في بدايات القرن التاسع عشر لم تهتم الحكومة العثمانية بالتعليم و تركته لطوائف المختلفة و لذلك يصف أحد شهود العيان حالة التعليم في تلك الفترة بقوله " لقد بلغ الجهل مبلغا عجيبا في الناس حتى قل فيهم من يعرف القراءة والكتابة أو أبسط العمليات الحسابية ... كما كان الكثير من التجار وأصحاب الحوانيت يتخذون رموزا خاصة بهم تذكرهم بعملياتهم التجارية اليومية إلى أن يجدوا من يدونها لهم"⁵.

¹ - ماري داکران سرک، نفس المرجع ، ص-ص 24-26 .

² - نفس المرجع ، ص 52

³ - نفس المرجع ، ص 84.

⁴ - باميلان سميث فلسطين، المرجع السابق ، ص، ص 35 ، 34.

⁵ - عبد الرازق عبد الرازق عيسى، التنصير الامريكي في بلاد الشام 1834 - 1914، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة ، 2005 ، ص 107 .

وفي عهد أسعد باشا متصرف بيروت تأسست جمعية زهرة الآداب عام 1873 برخصة من الحكومة العثمانية، كما أنشأت في سنة 1875 الجمعية التاريخية، وفي دمشق وبأمر من واليها مدحت باشا أنشأت الجمعية الخيرية سنة 1878¹ كرد فعل على نشاط المبشرين الأمريكان في المنطقة إلى جانب هذه الجمعيات هناك جمعيات خيرية إسلامية أخرى إلا أن مدارسها تعاني من قلة المناهج وطرق التعليم ولم تكن لها سياسة تعليمية واضحة نظرا لقلّة الإمكانيات المادية²، كما تأسس في هذه الفترة المجمع العلمي الشرقي للبحث في علم الصناعة³.

يعد انتشار المؤسسات التعليمية الحديثة في الولايات العثمانية المختلفة ومن ضمنها الولايات العربية من أهم إنجازات التي تحققت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وابتداء من عام 1878 باشرت الحكومة العثمانية بنشر التعليم في كل الولايات التابعة لها، رغم قلتها من حيث الكم والنوع⁴ في تلك الفترة إلا أنها تعتبر خطوة خطتها الدولة في سبيل الحداثة ثم أدخلت الإصلاحات فيها هدفها خاصة في الفترة الممتدة ما بين 1877 – 1909 ترسيخ فكرة الإصلاح⁵.

فيما يخص بلاد الشام فقد نالت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني حصة الأسد من حيث تأسيس المدارس وتشجيع التعليم باللغة العربية بالمقارنة مع المناطق العربية الأخرى ولعل السبب في ذلك هو أنها مهد الحركة القومية العربية، فانتشر التعليم على نطاق واسع بالمقارنة مع الفترات السابقة وفي جميع أنحاء الشام⁶.

لقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني قانونا عثمانيا يعفي الطلبة من الخدمة في الجيش⁷، فوسع في المدارس الرسمية واهتم بالتعليم على مختلف أقسامه المهني والمدني والعسكري تعلم فيها العرب المسلمون في

¹ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 27.

² - عبد الرازق عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص 327.

³ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 27.

⁴ - عاجل قانون المعارف العثماني الذي صدر من أجل تنظيم التعليم في الولايات العثمانية منها ولايات المشرق العربي كل جوانب التعليم حيث قسمت المدارس الحكومية إلى خمسة أقسام: - ابتدائية - رشدية (المتوسطة) - الاعدادية و السلطانية (الثانوية) - والعالية ، انظر: هيثم الجبوري و زينب الجبوري، المرجع السابق، ص 1450.

⁵ - فاضل بيات : المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، دراسة تاريخية احصائية في ضوء الوثائق العثمانية، المرجع السابق، ص 47.

⁶ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 146.

⁷ - مهندسة نجوى عثمان، المرجع السابق، ص 121.

سوريا وغيرها اللغات الأجنبية وتعرفوا على الأفكار الجديدة وتخرجوا منها وشغلوا مناصب في الوظائف الحكومية، أيقظت فيهم الوعي السياسي¹.

يعود الفضل في توسيع المدارس الوطنية إلى مدحت باشا أثناء ولايته لسوريا² عندما لاحظ تقدم المدارس التبشيرية عن المدارس الحكومية، فكلف جمعية من العلماء بإصلاح المساجد وجمع الإعانات وتحويلها إلى مدارس فأنشأ جمعية المقاصد الخيرية³ وهي أول جمعية إسلامية في بلاد الشام افتتحت في أواخر جويلية 1878: بلغ عدد التلميذات في مدرسة البنات عام 1880 ب 480 تلميذة وعدد الذكور في نفس العام ب 240 تلميذ، وساندتها الإدارة العثمانية للوقوف في وجه التبشير الأمريكي ومدارسه كما قامت بعدة نشاطات علمية منها انشاء الكلية الإسلامية في بيروت التي عينت على رأسها احمد عباس الأزهرى كرد فعل على الجامعة الأمريكية في بيروت - الكلية الانجيلية السورية⁴. وفي أواخر سنة 1882 أصدر السلطان عبد الحميد الثاني ارادة سنية باستبدال جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية بمجلس المعارف⁵ وعين الشريف محمود أفندي رئيسا له، وحمزة مفتي دمشق، وعلاء الدين أفندي أحد علماء دمشق والشيخ الطاهر الجزائري الذي شغل آنذاك منصب مفتش معارف⁶ وأطلق حرية الفكر التي عملت على ازدهار الحركة وأنشأ مدرسة الصنائع والفنون⁷ كما تأسست مدارس عسكرية في كل من دمشق وبغداد وعدة مكاتب عامة⁸.

¹ -ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 339.

² - " إن ولاية الشام اصعب ولاية تولاهها مدحت باشا في العهد السلطان عبد الحميد الثاني، لأن مشاكل الشام اعقد من مشاكل العراق وأخطرها حيث تتصل امور لبنان بفرنسا وامور الدروز بالجزيرة و لكل دولة مصالح و مدارس وكنائس"، ولم يستطع مدحت باشا أن يحقق الاصلاح في الشام بالدرجة التي حققها في العراق، أنظر: أحمد أمين، المرجع السابق، ص 54

³ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 263.

⁴ - عبد الرازق عيسى، المرجع السابق، ص - ص 322 - 323.

⁵ - في عهد ابراهيم باشا جمعت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية تبرعات من الأهالي من أجل مدارس كما خصصت إيرادات الأوقاف لإنشاء المدارس وبناء الأبنية للطلبة وترميم المدارس القديمة، تم توقيف جمعية المقاصد الخيرية بأمر من حكومة استانبول وأصبح مجلس معارف الولاية هو الذي يشرف على المؤسسات التعليمية، أنظر: هيثم جبوري وزينب جبوري، المرجع السابق، ص 1453.

⁶ - محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 87.

⁷ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 233.

⁸ - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 545.

وفي عهد والي حلب جميل باشا سنة 1879 تأسست مدارس ابتدائية وراشيدية وأنشأت مدرسة شمس المعارف والمدرسة الشرقية، وبمساعي والي رشيد طليع انتشرت المؤسسات التعليمية الرسمية¹.
هناك نوعان من المدارس :

1-المدارس الوطنية :

بلغت عدد مدارس الطوائف غير الاسلامية سنة 1879 حوالي 35 مدرسة للذكور والإناث، وللمسلمين حوالي 74 مدرسة للذكور و28 مدرسة للإناث وبفضل مدحت باشا قامت جمعية المقاصل الخيرية² بفتح 8 مدارس للذكور³، كما تأسست الكلية العثمانية الاسلامية وثانوية نهارية أضيف إليها قسم ليلي داخلي ثم أصبحت هذه الكلية جامعة يديرها نخبة من أدباء بيروت برئاسة الشيخ أحمد عباس الأزهري⁴.

خلال الثمانينات شهدت الشام افتتاح العديد من المدارس الرسمية على كافة المستويات الابتدائية والراشدية، ومدارس مهنية ومدارس لتخريج المعلمين والتحضير للمدارس العسكرية⁵.

لقد بلغ عدد المدارس الابتدائية سنة 1880 في مدينة دمشق فقط 103 مدرسة ابتدائية ومدرسة رشدية عسكرية وكذلك مدرسة اصلاحية(اصلاحخانة)، أما بقية أقضية لواء دمشق الأخرى وجدت فيها 81 مدرسة، أما لواء حماه كانت اقل تقدما من الناحية العلمية من لواء دمشق نظرا لعدم اهتمام الولاية

¹ - عمر الدقاق ، " النهضة العمرانية في بلاد الشام أواخر العهد العثماني : القدس وحلب نموذجا " ، بحوث المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني ، المرجع السابق، ص 143.

² - طلبت جمعية المقاصد الخيرية بعد تأسيسها بسنوات من والي بيروت و من الحكومة العثمانية تسليمها بعض الأوقاف الإسلامية للاستفادة من وارداتها و لاقامة أنشطة اجتماعية و لقد سلمت لها الحكومة العثمانية بعض الأوقاف مثل وقف الجبانات " المقابر "، وقف التكية و أوقاف الحلواني و القصار و وقف قطعة أرض في رأس النبع، و لقد ارتبطت الأوقاف بالحياة الاجتماعية، أنظر : حسن الحلاق، التاريخ الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي في بيروت و الولايات العثمانية في القرن التاسع عشر، ج1، الدار الجامعية، بيروت، 1987، ص-ص 25-26.

³ - يعتبر الشيخ الطاهر الجزائري أول من حذر ولفت نظر مدحت باشا إلى خطر أن يتعلم الشباب المسلم في مدارس الإرساليات التبشيرية، ولذلك طلب منه انشاء جمعية المقاصد الخيرية ، تكون شبه رسمية تموئها الدولة بالمال وتخصص لها أبنية وقفية وحكومية وتوجه نشاطها لفتح المدارس ولقد تحققت فكرة الطاهر الجزائري في عهد والي حمدي باشا ، أرجع مدحت باشا فتنة 1860 إلى الجهل حيث يذكر : " أن مسلميها قد فشا الجهل فيهم ، ومدارس الافرنج تتقدم يوما بعد يوم تقدما ملموسا وليس للحكومة سوى بعض مدارس الابتدائية يقرأ فيه الاحاديث والقرآن، فكنت افكر في أمر تعليم أبناء المسلمين و إصلاح مدارسنا"، أنظر محمد عبد الرحمن بروج ، المرجع السابق ، ص ، ص 76 ، 75.

⁴ -توفيق برو ، "نظريات في تاريخ نشوء فكرة القومية العربية وتطورها"، مجلة سيرتنا ع 5، المرجع السابق، ص18.

⁵ -عبدالرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق ، ص9.

بالمعارف و عدم اهتمام الاهالي بالتعليم و ما يوجد بها سوى كتاتيب صغيرة و في سنة 1885 بلغ عدد المدارس الحكومية 22 مدرسة¹.

أما في بيروت فقد بلغ عدد المدارس عام 1882 أكثر من 100 مدرسة للذكور والاناث وبلغ عدد المعلمين 500 معلم وحوالي 12000 طالب وطالبة² وفي لواء حوران بلغ عددها حوالي 35 مدرسة ابتدائية موزعة على عدد كبير من القرى³.

وفي 21 ديسمبر 1883 أصدر الصدر الأعظم أمرا ينص على تقصي وضع التعليم والمؤسسات التعليمية في القدس و تم استحداث 52 مدرسة ابتدائية في قضاء القدس وحده، وست مدارس في قسبة خليل الرحمن، وبوشري في بناء مدارس في القرى التابعة للقدس و تقديم اعانات للأهالي لإقامة مدارس في يافا و غزة⁴.

كما أنشأت الدولة العثمانية في ولاية سوريا عام 1882 إدارة خاصة للمعارف تعرف بإدارة المعارف تشرف على المدارس ويرأسها مدير معارف و يساعده معاونين ومحققين ومفتشين وكتاب وأمين صندوق ومحاسب، ويتم تعيينهم بموجب إرادة سلطانية على الشكل التالي مدير معارف - معاونيه - المحققين - المفتشين⁵، ويتبع مجلس معارف ولاية سوريا مجلس المعارف الكبير في إستانبول الذي يعتبر المركز العمومي لإدارة المعارف في جميع الولايات و يتبع بدوره نظارة المعارف.

يقوم مجلس معارف سوريا بمراقبة تطبيق الأحكام التي ترد إليه من نظارة المعارف داخل ولاية سوريا وكل ما يتعلق بالتعليم من تأسيس المدارس والمكتبات والمطابع و مراقبتها باستمرار والنظر في اصلاحاتها، وفي كل سنة ترسل تقريراً سنوياً إلى نظارة المعارف عن أحوال معارف الولاية وصورة عن هذا التقرير إلى مجلس الولاية و تنظيم الميزانية⁶.

¹ -عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق ، ص 260.

² -توفيق برو، "نظرات في نشوء فكرة القومية العربية"، المرجع السابق ، ص 18.

³ -علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق ، ص 265.

⁴ - فاضل بيات، "ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني - الاجنبي"، المرجع السابق، ص 158.

⁵ -في عام 1883 تم تعيين مفتش مستقل لكل المدارس العالية و الرشيدية و الابتدائية، و تم تحديد صلاحيات و مهام كل واحدة منهم، و كان السلطان عبد الحميد الثاني يعطي أهمية كبيرة لتفتيش المدارس الأجنبية في كل الولايات و لذلك أصدرت إرادة سنية بتعيين مفتشين مسلمين على هذه المدارس، أنظر: فاضل بيات ، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني ، المرجع السابق ، ص 55.

⁶ -عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص - 257-260.

وفي 18 نوفمبر 1884 تم تعيين أحمد أفندي أول مدير معارف في القدس من أجل الاهتمام بالتعليم ومؤسساته في لواء القدس، والملفت للنظر أن هذه المدارس انتهجت المناهج القديمة ولم تكن في المستوى المطلوب وهذا ما أجبر بعض أبناء المسلمين إلى الالتحاق بالمدارس الأجنبية، ولذلك خصصت الدولة مبالغ مالية كبيرة للمعارف إلا أنه لم يتم الاستفادة منها¹.

تأسست جمعية الفنون الطبية في دمشق سنة 1887²، إرتفع عدد التلاميذ الذين يدرسون في المدارس الرسمية سنة 1890 ضعف عدد التلاميذ الذين يدرسون في المدارس الدينية من الذكور والإناث³. كانت للجمعيات الخيرية الإسلامية في ولاية سوريا سنة 1896 حوالي 45 مدرسة⁴، رغم هذه الزيادات في عدد المدارس لكنها لا تتناسب مع عدد سكان الولاية فقد بلغ عدد المدارس الإسلامية التي أنشأتها الدولة والأهالي في سنة 1896 ب 291 مدرسة وبلغ عدد المدارس غير الإسلامية التي أسسها المسيحيون من رعايا الدولة 107 مدرسة، أما المدارس الأجنبية 54 مدرسة⁵.

وفي 1898 تأسست إدارة المعارف في كل الولايات، ولم يتمتع مديري المعارف في الولايات بصلاحيات واسعة لأن الوالي هو الذي يعين مديري المعارف وليس وزير المعارف، ولذلك اعتبر مدير معارف سوريا كمال خليل أن هذا الأمر يقف كعائق أمام تطوير عملية التعليم في الولاية ولا يحقق الهدف المنشود فكتب خطابا إلى السلطان في أكتوبر 1892 " ناشد فيه تعيين مديري المعارف بارادة سنوية وأن يكون مستواهم في مستوى المكتوبجية (مدير تحرير) في الولاية، وتغيير المديرين غير الأكفاء، والإبقاء على أرباب الكفاءة والاقتدار منهم " فأصدرت الوزارة نظاما خاصا بمهام مديري المعارف الذي اعتبر مدير المعارف المرجع الرئيسي للمعارف⁶.

ولقد تم بناء أول مكتب رشيدى عسكري في حلب عام 1899 و ظل المكتب يعمل إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى⁷.

إن المثقفين العرب لعبوا دورا فعالا في ادارة السلطان عبد الحميد الثاني ووفاء لشيخه في الطريقة الشاذلية محمود أبو الشامات أمر في عام 1901 بتأسيس أول مدرسة طبية في دمشق ويعتبر المستشفى الحميدي

¹ - فاضل بيات، ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني - الأجنبي، المرجع السابق، ص 159.

² - علي المحافظ، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 270.

³ - عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني والعرب، المرجع السابق، ص 9.

⁴ - علي المحافظ، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 264.

⁵ - عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 268.

⁶ - فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، المرجع السابق، ص 48.

⁷ - مهندسة نجوى عثمان، المرجع السابق، ص 131.

نواة هذه المدرسة الطبية التي تطبق فيها من الناحية العملية المناهج المتبعة في مدرسة الطب في استانبول وتخرج من هذه المدرسة خلال الفترة ما بين 1903-1918 240 طبيب و 289 صيدلاني¹، و كانت اللغة التركية هي لغة التدريس² و هكذا لم يبق تعليم الطب حكرا على الكلية السورية الانجيلية و جامعة القديس يوسف في بيروت³.

و بفضل ايرادات صندوق المعارف المتنوعة نشطت ادارة معارف سوريا في بناء المدارس: ففي عام 1901 رصدت إدارة المعارف مبلغا 445 ألف قرش لإنشاء مدارس رشيدية في مراكز أقضية جبل الدروز، و 12 مدرسة ابتدائية في قضائي درعا و بصر الحرير، و كان لعيد جلوس السلطاني مناسبة هامة لافتتاح و إنشاء عدد من المدارس في جميع أنحاء الولاية، فإنشاء مدرسة صغيرة في هذه المناطق مثلا يمر بمراحل معقدة قبل صدور الإرادة بالموافقة و أغلبها كانت من نصيب جبل الدروز و حوران و تهدف الدولة من وراء تشجيع التعليم إصلاح أحوال السكان فيها و فرض سيادتها على الدروز⁴.

من المعروف أن لواء الزور لواء مستقلا مرتبطا بالباب العالي مباشرة و كانت مدارسه قليلة و ذلك راجع إلى طبيعة اللواء العشائرية و قلة سكان المنطقة، فاعتنت لجنة المعارف برئاسة محمد عارف أفندي بشؤون التعليم فيه و استمر هذا الوضع إلى غاية سنة 1910 حيث تقرر تشكيل إدارة المعارف في اللواء نظرا لأهميته الجغرافية .

كما تعتبر بيروت من بين الولايات التي حظيت بالإهتمام الكبير من طرف الدول الأجنبية في مجال نشر التعليم و إقامة المؤسسات التعليمية لأبناء الولاية والولايات المجاورة حتى تحول هذا الاهتمام إلى تنافس حاد، و لذلك عاشت بيروت في أواخر القرن التاسع عشر تطورا علميا و ثقافيا كبيرا لاسيما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، فانتشرت فيها المؤسسات التعليمية بمختلف المستويات الابتدائية الرشيدية المولكية المدنية، الراشدية العسكرية، الاعدادية، السلطانية، المهنية، دار المعلمين، الحقوق. و بعد فصلها من ولاية سوريا أصبحت مركز ولاية تتولى تسيير شؤون المعارف إدارة عرفت بإدارة المعارف. أما في جبل لبنان تأسست فيه المدارس الأجنبية ولم تؤسس فيه المدارس الوطنية إلا خلال الحرب العالمية الاولى⁵.

¹ - محمد احمد، المرجع السابق، ص 309.

² - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 210.

³ - عبدالرؤوف سنو ، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص 9.

⁴ - عبدالعزيز عوض، الادارة العثمانية ، المرجع السابق، ص-ص 257-260.

⁵ - فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، المرجع السابق، ص 63 وما بعدها

ورغم ذلك فإن المدارس الحكومية في آواخر القرن التاسع عشر عرفت تراجعاً ولم تف بالحاجة وقد سد هذا الفراغ المساجد و الكتاتيب¹.

أما بالنسبة للمكتبات فقد سمح مدحت باشا للشيخ الطاهر الجزائري² بتأسيس مكتبة عرفت بالمكتبة الظاهرية، وهي أول مكتبة عامة في دمشق أثناء ولاية مدحت باشا ومن أهم مكتبات المشرق العربي، ضمت هذه المكتبة عدة مكتبات خاصة منها مكتبة الخياطين، والمرادية، والأوقاف، والعمرية، مكتبة سليمان باشا العظم وقد عدد الكتب فيها في عهد الوالي رؤوف باشا 3462 كتاب كما كانت هناك مكتبات أخرى في دمشق وضواحيها خاصة بالأوقاف المسيحية مثل مكتبة معلولة، و دير الآباء اليسوعيين... الخ تفتتح هذه المكتبات لجميع الناس³، كما ساهمت الدولة في مصاريف تأسيس المكتبة العامة بالشان و يعتقد أن السلطان عبد الحميد الثاني أعطى عناية خاصة لهذه المكتبة و تم ربط هذه المكتبة بنظارة الأوقاف لأن كتب المكتبة تم جمعها من مكتبات الأوقاف و بدأ عمل المكتبة العامة في 9 جويلية 1881 في عهد الوالي أحمد حمدي باشا⁴.

¹ - محمود سليمان ، المرجع السابق ، ص 23

² - تعتبر حلقة الطاهر الجزائري العلامة الشيخ طاهر بن محمد صالح بن أحمد بن موهوب الإدريسي الحسيني ولد بعد خمسة أعوام من قدوم أسرته إلى دمشق الشام من الجزائر من جبال بجاية وكان والده آخر الأدارسة قدوما إلى بلاد الشام سنة 1263 هـ تلقى الشيخ الطاهر علوم العربية و آدابها على يد العلماء مشهورين درس كتب التراث، جمع المخطوطات منذ حداثة سنه فسافر إلى العديد من البلاد لجمع نفائسها، أنشأ الجمعية الخيرية و له الفضل في تأسيس المدرسة الظاهرية في دمشق ويرجع له الفضل في إنشاء المكتبة الخالدية بالقدس الشريف .

وفي 1316 هـ عينه الوالي العثماني مفتشا لمكاتب الشام لا يختلف دوره في الإصلاح عن دور جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في بلاد الشام، حيث اعتبره البعض أحد رواد الفكر النير المتحرر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لم تنفع مكانة الشيخ في قلوب الدمشقيين السلطات العثمانية من الدخول إلى داره وتفتيشها أثناء رحلة له إلى فلسطين 1322 هـ ومصادرة كتبه وأوراقه .

توفي سنة 1338 هـ ودفن في دمشق من مؤلفاته - بديع التخليص وتخليص البديع طبع 1878 - مدخل الطلاب إلى فن الحساب طبع 1886 - التمهيد إلى فن العروض 1886 - المعجم العربي - السيرة النبوية. أنظر: محمود ارناؤوط، "الشيخ الطاهر الجزائري رائد النهضة الفكرية الحديثة في بلاد الشام"، مجلة الاصاله، ع 67، مارس 1979، ص ص 74-77.

³ - محمد أحمد، المرجع السابق، ص 325.

⁴ - محمد خان آتار، "أضواء على بعض الوثائق العثمانية الخاصة بالمكتبة العامة في دمشق"، بحوث الندوة العالمية المنعقدة في دمشق، المرجع السابق، ص - ص 179 - 180.

2/ المدارس التبشيرية :

يعود تاريخ تأسيس المدارس التبشيرية في ولاية سوريا إلى منتصف القرن الثامن عشر و كان نصيب ولاية سوريا من هذه المدارس أقل نصيب من ولاية بيروت و جبل لبنان¹، يرى معظم الباحثين الأتراك أن المدارس الأجنبية التي تأسست في أراضي الدولة العثمانية أنشأت لأهداف تبشيرية، فقد أعطى المبشرون أهمية كبيرة للتعليم لأنه الفضاء و المجال المفتوح لنشر الأفكار من أجل تكوين زعماء يكونون في المستقبل أصحاب قرار في المسائل المحلية و العالمية، و لقد اختاروا تعليم أبناء الموظفين الساميين من العائلات النبيلة خاصة أن الامتيازات التي منحت للدول الأجنبية تسمح لهم فتح أي مدرسة في أي منطقة من الولايات العثمانية بما فيها الولايات العربية، تدل التقارير التي رفعها مسؤولو الدولة إلى الباب العالي على مدى خطورة المدارس الأجنبية في تهديد كيان الدولة العثمانية وأمن ولاياتها خاصة بعد أن سعت هذه المدارس إلى حث أبناء المسلمين على الدخول فيها.

لقد تنافست الدول الأوروبية في تأسيس المؤسسات التعليمية وخصصت لها الموارد اللازمة من ميزانيتها وفي هذا الصدد ورد في كتاب أرسله والي بيروت إلى الصدارة العظمى في نوفمبر 1894 مايلي : " إن أمريكا وإنجلترا و إيطاليا كانت تقدم دعماً مالياً كبيراً للمدارس التي أنشأتها في ولاية بيروت حتى أن فرنسا كانت تخصص لها سبعين ألف فرنك من ميزانيتها السنوية"، وحتى القنصليات والسفارات الأجنبية ترعى وتحمي هذه المؤسسات التعليمية².

ونظراً لأهمية التعليم ساهمت الإرساليات التبشيرية في إنشاء مدارس، حيث أسس المرسلون الأمريكيون البروتستانت في سنة 1876 مدرسة للإناث في حي أنوري³، أما في لواء الشام: ففي سنة 1882 بلغ عدد مدارس حمص التبشيرية 12 مدرسة للذكور و 39 مدرسة للإناث⁴ و بمبادرة من الأباء اليسوعيين أسست كلية الطب و الصيدلة في بيروت سنة 1883 و أصبحت شهادة الكلية معادلة لشهادة الطب التي تمنحها الجامعات الفرنسية و تخرج منها ما بين 1883-1908 220 خريج من سوريا⁵.

وفي سنة 1885 بلغ عدد المدارس التبشيرية في دمشق فقط 28 مدرسة منها مدرسة الروم الأرثوذكس، والمدرسة الإنجيلية، المدرسة البطريركية الكاثوليكية والمدرسة الكاثوليكية السريانية ومدرسة

¹ - علي المحافظة، التيارات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 265.

² - فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، المرجع السابق، ص - ص 675 - 677.

³ - محمود سليمان، المرجع السابق، ص - ص 28.

⁴ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 267.

⁵ - نفس المرجع، ص 212.

الأرمن ومدرسة السريان اليعقوبيين ومدرسة الفرنسيين والمدرسة الإنجليزية اليهودية وهي للذكور، كما كان للبنات مدارس من هذا النوع، كان لليهود 12 مدرسة صغيرة في دمشق، ومعظم مدارس أفضية لواء الشام كانت للأجانب¹، والشيء الملفت أن مدارس الإرساليات تأخرت في الوصول إلى طرابلس بالمقارنة مع بقية مناطق جبل لبنان ولم يكن للجمعيات نشاط كبير في طرابلس بالمقارنة مع بيروت ودمشق، اهتمت المدارس الأجنبية باللغة العربية خلافا للمدارس الحكومية العثمانية و أغلب طلابها مسيحيون².

لقد تمتعت المدارس الأجنبية بحرية التعليم لم تتمتع بها المدارس الوطنية رغم أن الحكومة العثمانية تفتنت لخطرها لكنها عجزت عن التصدي لها وما كان عليها إلا فرض رقابة شديدة في جميع ولاياتها وفتح مدارس حكومية في لواء الكرك، كما استخدمت الدولة عددا من الوعاظ للتصدي للمبشرين³، وفي عام 1888 التجأت الدولة العثمانية إلى غلق مدارس المبشرين الأمريكيين لأنها تشتغل بطريقة غير قانونية لكن القنصل الأمريكي المستر بسنغر *bissinger* في بيروت والمستر اسكار ستراوس *oscar staus* تتدخل فسمح الوالي علي رضا باشا بفتح هذه المدارس من جديد بشرط ألا يلتحق بها إلا التلاميذ المسيحيون وأمام الضغط الأمريكي تخلى الوالي عن هذا الشرط⁴، وفي هذا الصدد يذكر السلطان عبد الحميد الثاني : " إن المدارس الخاصة تشكل خطرا جسيما على أمتنا، وأن إهمالنا الذي لا يغتفر هو الذي جعلنا نسمح لمثلين لكل الجنسيات بان يبنوا مدارس في الأوقاف والأماكن التي تحلو لهم، وقد أثبتت الأحداث خطورة ذلك"⁵

عملت الدول الأجنبية على توظيف كل الوسائل من أجل إقامة المؤسسات التعليمية في القدس حسب سالنامة وزارة المعارف للسنة الدراسية 1895 - 1896 فإن لواء القدس ضم 55 مدرسة ابتدائية أجنبية 7 منها فقط مرخصة، وحسب ما ورد في سالنامة الصادرة سنة 1905 بلغ عدد مدارس اليهود 45 مدرسة منها 32 مدرسة في مدينة القدس وكلها ابتدائية ومرخصة باسم أحد اليهود، أما عدد المدارس الأجنبية القائمة في لواء القدس ككل هو 73 مدرسة منها 39 مدرسة في مدينة القدس⁶.

غير أن عائلي مونتيور وعائلة روتشيلد اليهوديتين الانجليزييتين عملت على توسيع هذه المدارس وزيادة عددها خاصة في سوريا وفلسطين .

¹ - عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 266 .

² - محمود سليمان، المرجع السابق، ص-ص 28- 32 .

³ - علي المحافضة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص - ص 265-266.

⁴ - مصطفى خالدي عمر فروخ ، المرجع السابق، ص 119.

⁵ - عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 254.

⁶ - فاضل بيات، ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني الاجنبي، المرجع السابق، ص ، ص 152 ، 154.

و حسب سالنامة المعارف عن المدارس الفرنسية القائمة في السنة الدراسية 1902-1903 فقد تأسست مدرسة إعدادية للذكور و أخرى للاناث في كل من بيروت و طرابلس الشام، و مدرسة رشيدية للذكور في طرابلس و قرية بصة، و شفا، عمرو بعكا و في حيفا، و مدرسة رشيدية إعدادية أخرى للبنات في الناصرة، و مدرسة رشيدية للبنات في عكة، و مدرسة رشيدية يهودية في حيفا، و مدرسة ابتدائية للذكور في صيدا، صور، حيفا، نابلس، قرية الزبادة بنابلس و اللاذقية، و مدرسة ابتدائية مختلطة في صور نابلس واللاذقية، و مدرستان ابتدائيتان رشيديتان في الناصرة.

أما المدارس الروسية فقد بلغ عددها سنة 1902 ب 87 مدرسة توزعت كلها في بلاد الشام منها 14 في لواء طرابلس الشام و 8 في بيروت 21 في لواء عكة 23 في دمشق 4 في حمص و 10 في جبل لبنان و 5 في القدس و 2 في اللاذقية.

أما المدارس الايطالية فقد بلغ عددها في 1890 ب 3 في بيروت و 3 في طرابلس الشام و 1 في حلب و 3 في طرابلس الغرب.

رغم أن السلطان عبد الحميد الثاني قد أصدر أمره بربط المدارس الأمريكية بالترخيص إلا أن هناك ما يقرب 200 مؤسسة تعليمية أمريكية تقع في بلاد الشام منها 64 في ولاية بيروت و 66 مؤسسة في جبل لبنان و 50 في ولاية سوريا و 11 مدرسة في القدس ، و 3 في مدينة حلب.

بلغت عدد المدارس الألمانية في سنة 1902 ب 53 مؤسسة منها 37 في لواء القدس و 4 في يافا¹.

رغم المجهودات التي بذلها السلطان عبد الحميد الثاني في التصدي لنشاط المدارس الاجنبية المعادية للدولة العثمانية إلا أنه عجز في توقيف نشاطها، ولذلك أصدر فرمانا في سنة 1896 منح من خلاله صلاحيات لمدرء المعارف في الولاية ووضع شروط محددة لتأسيس المدارس الأجنبية في الولايات جاء فيه:

- لا تفتح المدارس الخاصة أجنبية كانت أو غير إسلامية إلا بعد حصولها على ترخيص رسمي .

- تكون اللغة التركية إجبارية في المدارس الرشدية في بداية الأمر و في المدارس الابتدائية فيما بعد ريثما يتوفر معلمون لتدريسها و كما تدرس في المدارس الغير إسلامية.

-تصادق المناهج الدراسية والكتب المدرسية من قبل مدرء المعارف في الولايات قبل اعتمادها في هذه المدارس .

¹-فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، المرجع السابق، ص 683 ومابعداها

-يقدم مؤسسي المدارس الأجنبية تعهدا قبل الحصول على الموافقة الرسمية لتأسيسها، و التقيد بجميع الأنظمة و التعليمات التي تضعها الدولة، و عدم عرقلة تفتيشها من قبل مفتشي المعارف .

-توفر عدد كاف من التلاميذ من اتباع الطائفة الغير إسلامية التي تعتزم تأسيس مدرسة في منطقة من المناطق.

إن المدارس الأجنبية لم تحترم هذه المواد و النصوص و ظلت في ازدياد مستمر و لذلك إلتحات الدولة إلى تأسيس عدد كبير من المدارس الرسمية و وفرت لها الوسائل اللازمة لتنافس المدارس الأجنبية خاصة في بيروت و القدس¹.

إن تطور التعليم في سوريا و لبنان ربما كان أكثر من الدولة العثمانية في تركيا العثمانية نفسها و السبب في ذلك أن العرب درسوا العلوم في المدارس الأجنبية بسوريا و لبنان ومنهم من رحل إلى أوروبا و أمريكا، و لذلك فنسبة التعليم في المدن و القرى العربية قد يقدر بنسبة 10 % زيادة على التحصيل التركي في مدن و قرى الأناضول و الروميلي².

خلال الحرب العالمية الاولى اتخذ مجلس الوزراء قرار بغلق المؤسسات التعليمية و الخيرية و الصحية التابعة للدول المعادية ولم يبق منها سوى المدارس الألمانية و الأمريكية³.

4-الصحافة:

ظهر في منتصف القرن التاسع عشر في كل من بلاد الشام و مصر صحف دورية و يومية يصدرها الكثير من المثقفين الوطنيين: ففي سنة 1870 أسس بطرس البستاني صحيفة الجنان في بيروت شعارها "حب الوطن من الايمان " وفي سنة 1876 أنشا فارس النمر ويعقوب صروف مجلة المقتطف وبسبب مطاردة نظام السلطان عبد الحميد الثاني لهما انتقلت في سنة 1883 إلى مصر التي تعتبر ملجأ الفارين من ظلم و قمع الإدارة العثمانية في بلاد الشام⁴.

كما أسس أحمد عزت باشا العابد في سنة 1878 صحيفة دمشق ثم توقفت عن الصدور وأثناء ولاية مدحت باشا عادت الجريدة إلى الصدور وأشرف على كتابة قسمها التركي أسعد أفندي أحد أبطال تركيا

¹-فاضل بيات، نفس المرجع ، ص 679.

²-عبد الله الحسين، المرجع السابق، ص 115.

³-فاضل بيات، ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني الاجنبي، المرجع السابق ، ص 155.

⁴-إلياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 288.

الفتاة، أما صحيفة دمشق فقد إهتمت بنشر مقالات سياسية و عمرانية تعزيزاً لأركان الدستور و استمرت في الصدور إلى أواخر عهد عزت باشا العابد عام 1887¹.

غير أن سليم ورضا عنجوري أصدر في جانفي 1886 مجلة نصف شهرية تحت اسم مرآة الأخلاق دون رخصة من الحكومة لأنها حجزت عليها، و في الربع الأخير من القرن التاسع عشر صدرت صحيفة الشام وهي صحيفة خاصة تخدم الوالي و سلطته².

وفي هذا الإطار تصدر كل من القاهرة و بيروت عددا كبيرا من المجلات و الصحف يحررها مسيحيون لبنانيون تخرجوا من المدارس الفرنسية أو الأمريكية منها مجلة الجنان التي كتب معظم مقالاتها سليم البستاني من 1870-1886 ، حيث نقرأ في إحدى مقالاتها أن الشرق كان مزدهرا لكنه فقد هذا الازدهار بسبب الحكم الفاسد و من أجل إصلاح هذا الفساد لابد من فصل الدين عن السياسة، و فصل السلطة القضائية عن السلطنة التنفيذية و فرض ضرائب نظامية و اصلاح التعليم و جعله إجباريا و إقامة العدل بين مختلف الفئات و الطوائف ، و تنمية الشعور الوطني لدى جميع المواطنين العثمانيين ، ولذلك تعرضت لضغوطات فرضها عليه السلطان فانتقل مركز صحيفة الجنان من بيروت إلى القاهرة.

وفي سنة 1876 أصدر يعقوب صروف و فارس نمر في بيروت جريدة المقتطف و استمرت في الصدور حوالي نصف قرن، و من بين المقالات التي نشرتها مقال عن الإدارة في جبل لبنان في عهد رستم باشا. تميزت فترة السلطان عبد الحميد الثاني بالتضييق على الصحف وفرض رقابة على المحررين ولذلك هاجمت جريدة المقطم والاهرام في القاهرة سياسة السلطان بلا ملل³ وعزف المثقفين في تأسيس الصحف حيث هاجر قسم منهم إلى مصر⁴.

كان لصحيفة فلسطين اليومية في يافا وصحيفة الكرمل في حيفا دورا فعالا في فضح المشروع الصهيونية في فلسطين، ونشر مقالات حول القومية العربية وبما أن صاحب هاتين الصحيفتين مسيحيون فإن معظم التجار المسيحيين يدعمون الصحيفتين خاصة أنهم يخافون منافسة التجار اليهود لهم⁵.

¹ - محمد احمد، المرجع السابق، ص-ص 320-322.

² - نفس المرجع، ص 320

³ - ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص، ص 316، 294.

⁴ محمد احمد، المرجع السابق، ص 320.

⁵ - باميلان سميث، المرجع السابق، ص 38.

إن الفترة الممتدة ما بين 1886-1913 صدرت في دمشق حوالي تسع مجالات وهي مرآة الأخلاق- الشمس-المقتبس- النعمة-الحقائق-العروس-الشعب-الناشئة-أنفس الأنفاس¹.

إن بلاد الشام وبقية الولايات العربية في آسيا التابعة للدولة العثمانية تخلفت عن مصر من حيث الانجازات العلمية وبناء مرافق للعلم و المعرفة².

رغم ما أطلق على عهد السلطان عبد الحميد الثاني بالحكم المطلق المستبد من قبل المتحاملين عليه، ما يهمنا هو رغم سلبات نظام السلطان إلا أن التعليم شهد في عهده تطورات ملموسة من حيث الكمية والنوعية كما أنه بذل جهداً معتبراً للتصدي لنشاط المدارس الأجنبية التبشيرية وأخطارها على بلاد الشام، لكن نظام الامتيازات وفساد الإدارة المحلية وقف كحاجز أمام تنفيذ الإصلاحات. كان من الأجدر على الدولة العثمانية أن تبحث عن سبب تواطئ وتساهل بعض الموظفين مع الارساليات والمدارس الأجنبية: هل هو قضية المرتبات المنخفضة والتي لا تكفي الحاجيات أو أن العقوبات التي تفرضها الحكومة العثمانية لم تكن ردعية تمنع الموظفين من الرشوى، أو أن التقارير التي يرسلها الجواسيس للسلطان لم تكن دقيقة.

5-القضاء:

اهتمت الدولة العثمانية بتأسيس المحاكم النظامية في ولاية سوريا و تم وضع قوانين تحدد عمل المحاكم المدنية وتنفيذ الأحكام القضائية، كما تم تعيين مفتشين قضائيين في كل ولاية³. وفي سنة 1877 تكونت محاكم بداية الولايات وانقسمت كل محكمة إلى دائرتين إحداهما حقوقية وأخرى جنائية، بعد عام 1877 حددت صلاحيات المحاكم الشرعية واقتصرت ولايتها على أمور الأوقاف والتركات والزواج والطلاق والنفقة⁴.

لقد تأسست في مدينة دمشق سنة 1885 الدوائر العدلية التالية: دائرة محكمة الاستئناف الحقوقية، ودوائر محكمة الاستئناف الجزائية، مجلس العدلية، دائرة هيئة الاتهام .

- أما الدوائر العدلية في لواء الشام فهي دائرة محكمة البداية الحقوقية، ودائرة محكمة البداية الجزائية كما لا توجد في مراكز ألوية حماه وحوران محاكم بداية⁵، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمتع قاضي دمشق بمكانة مرموقة حيث يعتبر أكبر شخصية دينية في الولاية وأصبح اسمه يكتب في سالنامه ولاية سوريا بعد اسم الوالي والدفتر دار وكانت السلطات تخاطبه بالعبرة التالية " معدن الفضل واليقين رافع

¹-محمد احمد، المرجع السابق، ص 320.

²-علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 210.

³-محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 546.

⁴-عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، صص 63-64.

⁵-عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 59.

أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين...¹. أما في لواء حوران فقد أنشأت ثلاث محاكم بداية نظامية في مراكز أقضية السويداء و عاهرة و صلخد ومونت هذه المحاكم في سنة 1901 بمبلغ قدره 62070 قرش.

و من اجل تكوين جهاز قضائي قوي فرضت الدولة رقابتها على موظفي العدلية في ولاية سوريا حيث أجرت تنقلات شاملة وقامت بعزل بعض الموظفين و وضعت بدلهم ذوي الخبرة و الكفاءة، رغم الإجزات الصارمة التي اتخذتها الدولة لإصلاح الجهاز القضائي إلا أن ظاهرة الرشوة و الفساد تسربت إليه².

للدروز قاضيه الخاص ولرجال الدين المسيح سلطات واسعة في قضايا الاحوال الشخصية بين المسيحيين من أتباعهم³.

عموما استطاعت الدولة في فترة لا تتعدى نصف قرن أن تنفذ جزءا كبيرا من الإصلاحات منها:

- إعادة تنظيم المحاكم و أصبحت المرافعات والأحكام باللغة العربية .

- توسيع المحاكم المدنية.

- ادخال نظام الجندرية و فرض الأمن⁴.

استنتاج جزئي

جلس السلطان عبد الحميد الثاني على كرسي العرش في مرحلة كانت فيها الدولة العثمانية تعاني من أزمات داخلية وخارجية فتحمل المسؤولية بحكمة و قوة حيث اعتمد على ثلاث ركائز مرتبطة، المهادنة تجنباً لأي صدام يؤثر على الدولة، ضرب العدو ببعضه البعض و الاستعانة ببعض على البعض الآخر، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية، و لذلك انتهج سياسة مركزية الحكم و طبع الإدارة بطابع الحكم المطلق.

عرفت بلاد الشام في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني نظراً لأهمية موقعها الجغرافي والإستراتيجي وثرواتها المتنوعة إصلاحات سياسية و اقتصادية و لاجتماعية خاصة في الجانب الإداري والزراعة والمواصلات و التعليم، و إن اختلفت درجة تنفيذها من منطقة الى أخرى إلا أنها حافظت على المنطقة

¹-عبد العزيز عوض ، نفس المرجع ، ص 112.

²- نفس المرجع ، ص،ص145،137.

³-عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص 63.

⁴-عبدالرؤوف سنو، المرجع السابق، ص 8.

من ظلم وفساد الإدارة المحلية ومن العدو الخارجي المتمثل في الاستعمار والأطماع الصهيونية ، وإن لم تحقق الإصلاحات جميع الاهداف المسطرة فلا نحمل السلطان مسؤولية ذلك فالفترة التي حكم فيها فترة جد صعبة و حساسة.

الفصل الثالث: العوامل المؤثرة في استمرارية العلاقات بين الخلافة العثمانية وبلاد الشام اثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

المبحث الأول: الجامعة الاسلامية .

المبحث الثاني: ظهور الوعي القومي التركي و العربي.

المبحث الثالث: التدخل الأجنبي.

المبحث الرابع : المشروع الصهيوني في فلسطين.

تميز الربع الأخير من القرن التاسع عشر - فترة تولي السلطان عبد الحميد الثاني - بضغوطات داخلية وخارجية حيث اعتمدت المعارضة الداخلية على فكر إسلامي عربي وبعضها الآخر تغذى بالفكر الغربي وارتبط به، ساهمت هذه المعارضة بشكل كبير في اهتزاز مكانة السلطان عبد الحميد الثاني وأحدثت تغيرات جذرية في الحياة السياسية و الاجتماعية، و نلتبس نتائجها في أوائل القرن العشرين خاصة أن بلاد الشام في هذه الفترة كانت تمر بمرحلة صعبة ودقيقة.

أما من الناحية الخارجية فقد اتفقت الدول الأوروبية الاستعمارية والصهيونية العالمية مجتمعة أو بشكل انفرادي على تمزيق الدولة العثمانية معتمدة على المحافل الماسونية وأحزابها وتجمعاتها مثل تركيا الفتاة، مصر الفتاة، سوريا الفتاة¹. هذه الضغوطات الخارجية دفعت بالسلطان عبد الحميد الثاني إلى تعطيل الدستور والتركيز على فكرة الجامعة الإسلامية.

رغم أن الدولة العثمانية أصدرت مراسيم المساواة في الحقوق و الواجبات إلا أن العرب شعروا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أنهم ليسوا على قدم المساواة مع الأتراك فتبلورت المعارضة العربية ورفضت الإحتكار التركي دون إشراكهم في حكم بلادهم².

المبحث الاول:الجامعة الإسلامية

امتازت فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني بالعودة إلى الأطروحات الإسلامية للتصدي للتيارات القومية الانفصالية و للغرب المسيحي فظهرت فكرة الجامعة الإسلامية³: ففي سنة 1860 ظهرت حركة الشيبية العثمانية التي تأثرت بالحركة الوهابية وتبنت فكرة الوحدة الإسلامية وطلبت من السلطان عبد العزيز مساعدة الشعوب الإسلامية التي هي تحت الحكم الروسي، إلا أن خوف السلطان عبد العزيز من الدول الكبرى كان من أهم الأسباب التي دفعته لرفض هذا المطلب، أما السلطان عبد الحميد الثاني فقد احتضن الدعوة وآمن بها ورأى أن مواجهة الغرب المسيحي لا يتم إلا بضم الشعوب الإسلامية تحت غطاء الجامعة الإسلامية ورفع راية الجهاد ولذلك شجع هذه الحركة و مد لها يد العون⁴ ، فتبني فكرة

¹ - مفيدة محمد ابراهيم: عصر النهضة بين الحقيقة و الوهم، ط1، دار مجدلاوي للنشر، الاردن، 1999، ص 587.

² - عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 244.

³ شفيق محسن، المرجع السابق، ص 174.

⁴ - محمد عبد الله عودة، المرجع السابق، ص ص 140_141.

الجامعة الإسلامية و أعلن نفسه خليفة¹ المسلمين²، و في هذا الصدد يذكر محمد عمارة: "بنى بناء الجامعة الإسلامية و شيد أركانها و أضاف إليها كل مطعم بعيد و غاية جميلة"³.

هناك عدة عوامل دفعت السلطان عبد الحميد الثاني لتبني فكرة الجامعة الإسلامية منها :

- يشكل الأتراك في التركيبة السكانية للدولة العثمانية الأقلية بالنسبة لمجموع السكان و بالتالي فإن جيشها يتكون من مختلف العناصر الإسلامية⁴.

- الظروف الداخلية والخارجية التي تمر بها الدولة العثمانية خاصة نظام الإمبريالات التي كانت لمصلحة مسيحي الداخل والأجانب⁵.

- خسرت الدولة العثمانية مناطق كانت تابعة لها في شرق أوروبا و مصر و المغرب العربي⁶.

- استغلت بريطانيا التناقضات العربية - العثمانية فروجت لخلافة عربية منافسة للعثمانيين، فطرحَت تساؤلات حول الخلافة العثمانية التي أصبحت لا تستطيع أن تؤدي واجبها في الدفاع عن دار الإسلام أي شرعية السلطان العثماني في إدعاء الخلافة في الوقت الذي تتعرض له ديار الإسلام لهجمة إستعمارية شرسة.

- ظهور يقظة و تيار تجديدي يهدف إلى إصلاح المجتمعات الإسلامية وتقويتها لمواجهة الإحتلال الأجنبي.

- معارضة القوميين الأتراك و العرب الأحرار لحكم السلطان عبد الحميد الثاني⁷.

- إبعاد مسلمي بلاد الشام خاصة من النزاعات الوطنية والقومية التي ظهرت في تلك الفترة الزمنية وفي هذا الصدد يقول أبو الهدى الصيادي من أبرز العرب المقربين للسلطان في كتابه أن : "...الطاعة للخليفة فريضة إسلامية رئيسية، وبخاصة في الظروف التي كانت تتعرض فيها الدولة لهجمات من الأعداء

¹ - عمل السلطان على إعادة هبة الخلافة وجعلها الأساس الذي تعتمد عليها الدولة و المجتمع و مؤسساتها، ولقد كسب السلطان بفكرته هذه ولاء الكثير من الشعوب الإسلامية من جهة وجهة أخرى أثارت فكرة الجامعة الإسلامية سخط المثقفين والأحرار الذين رأوا من خطة السلطان الدينية أداة لتعزيز الحكم المطلق في كافة أرجاء السلطنة العثمانية. أنظر: سيار الجميل ، المرجع السابق ، ص 510.

² - عبد الكريم رافق، "الهوية والانتماء في بلاد الشام في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية العددان 81-82 ، المرجع السابق، ص 118.

³ - مفيدة محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص 210.

⁴ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 115، 110.

⁵ - عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني والعرب، المرجع السابق، ص 1.

⁶ - شفيق محسن، المرجع السابق ، ص 175.

⁷ - عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص 118.

الخارجيين، و لفتن و تمردات من الخوارج و البغاة و المنشقين و المبتدعين في الداخل، فمن أجل مصلحة الأمة و وحدتها و سلامها على المسلمين أن يطيعوا خليفتهم كما أمر الله و أمر الرسول"¹.

- تعزيز الشعور بالولاء لدى الشعوب الإسلامية خاصة العربية في الوقت الذي انتشرت فيه الأفكار العلمانية والليبرالية، والقومية².

- أحدثت التنظيمات شرحا عميقا بين المسلمين و أهل الذمة فظهرت حركات إسلامية تريد الانفصال عن السلطنة وبتدعيم من الغرب، و هنا واجه السلطان عدة إشكاليات منها: إذا انفصلت بلاد الشام والبلقان عن السلطنة فماذا يبقى من السلطنة العثمانية؟ "ولماذا عليه أن يسير في سياسة عثمانية كما تريد أوروبا ؟ خاصة أن السلطنة أصبحت منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر دولة ذات أكثرية إسلامية؟".

ولذلك إقتنع السلطان أن ايديولوجية الجامعة الإسلامية السياسية ستؤدي حتما إلى تماسك المجتمع الإسلامي وتحافظ السلطنة على سيادة وسلامة أراضيها³، فجعل من الإسلام نهجا ومنهجيا في السياستين الداخلية والخارجية والذي سيقف كحاجز أمام الأخطار الخارجية خاصة أنه لا يوجد منافسين حقيقيين للعثمانيين على منصب الخلافة⁴، ولقد عبر عن ذلك في رسالته لمحمد المهدي السنوسي حيث يقول: "..... وقد افترض الله نصر هذه الخلافة المؤيدة العثمانية وطاعتها على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر في الباطن والظاهر لا سيما في مثل هذه الأوقات الأغيار من الكفار بل والملاحدة المارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون في السر والعلن خصومة للسنة السنية على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية"⁵.

ومن بين الأهداف التي ترمي اليها الجامعة الإسلامية :

- مواجهة المثقفين بالثقافة الغربية و الذين يشتغلون في مناصب إدارية و سياسية حساسة.

¹- عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877-1881، المرجع السابق، ص 79 _ 80.

²- علي محمد الصلاحي: السلطان عبد الحميد الثاني و فكرة الجامعة الإسلامية و أسباب زوال الخلافة العثمانية، المرجع السابق، ص 135.

³- "إن السلطان عبد الحميد الثاني لم يكن هو الذي أثار حركة الجامعة الإسلامية بل إن كل الذي عمله بهذا الصدد هو أنه أخذ الفكرة و وجدت قبولا لدى شعبه بكل طبقاته واستغلها لمقاومة أعدائه في الداخل والخارج." وبالتالي أدرج الدروس الدينية واللغة العربية في مناهج المدارس العثمانية و و استعان بالعرب من سوريا ولبنان ، وأنجز مشروع سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينة ، 1901 - 1908، أنظر : عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص - ص 250 - 251.

⁴- عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني والعرب، المرجع السابق، ص 2

⁵- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 116.

- تكتل وحدة الشعوب الإسلامية أمام الهجمة الإستعمارية.
- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية لها دور في التأثير على السياسة العالمية.
- استرجاع الدولة العثمانية مكانتها السابقة.
- احياء منصب الخلافة و تكون الرمز الموجه و الموحد بين الشعوب الإسلامية كافة، و في هذا الصدد يذكر المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي: "إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يهدف من سياسته الإسلامية بتجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، و هذا لا يعني إلا هجمة مضادة يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين"¹.
- لقد اعتمد السلطان عبد الحميد الثاني على المفكرين المسلمين من شخصيات و علماء عملوا على إبراز خطر الحركة الاستعمارية و أن السبيل الوحيد للتصدي له هو جمع شملهم تحت مظلة الجامعة الإسلامية ، فأنشأ مدارس خاصة لتخريج الدعاة و المصلحين²، و على رأسهم العلامة جمال الدين الافغاني³.

و في هذا الصدد يقول أحمد أمين : "إن جمال الدين ما أن وضع قدمه في الأستانة حتى كان في قفص من ذهب أحكم بابه"⁴، وقد عمل السلطان على جعل العرب حملة لواء الدعوة فاتخذ من كل قطر عربي

¹ - علي محمد الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني و فكرة الجامعة الإسلامية، المرجع السابق، ص-ص 31-32.

² -توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص35.

³ - بالنسبة لعلاقة جمال الدين بفكرة الجامعة الإسلامية تطرح عدة تساؤلات وهي ماذا عن انتمائه للماسونية وتشجيع انتشارها في مصر؟ ما علاقته بحزب الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة ومصر الفتاة وغيرها من الأحزاب العلمانية والقومية التي تعمل من أجل تعويض الجامعة الإسلامية؟ماذا عن تأسيسه لحزبه الماسوني المسمى بالحزب الوطني الحر وأول شعار له هو مصر للمصريين ضد الشركس والترك؟ هل يخدم ذلك فعلا الجامعة الإسلامية و ما هي حقيقة دعوة الافغاني للجامعة الإسلامية وما هي أهدافه؟ هل هي ازدواجية في التفكير وفي هذا الصدد يقول محمد عمارة ليؤكد موضوعيته " وإن لم تكن خلط وازدواجية فهل كانت مجرد استظهار بالمسلمين وبالدولة العثمانية ضد الإنجليز، وبالذات لتحقيق غايات أخرى له؟ أم كانت عملا موجها لتشتيت وتشويش الدعوة الحقيقية للجامعة الإسلامية، المتمثلة بدعوة السلطان عبد الحميد الثاني وإذابتها في بحر من الاقتراحات والتناقضات والافتراءات؟".

مهما يكن فقد تحقق الكثير من تدويع الدعوة الحقيقية للجامعة الإسلامية التي أرادها السلطان عبد الحميد الثاني والمسلمين آنذاك و هناك ما يدل على التشويش والتشويه المعتمد الذي قام به جمال الدين الأفغاني من أجل هدم الجامعة الإسلامية فقد نشر للماسونية و للفكر الأوروبي تشكيل الأحزاب العلمانية ودعوته للخلافة العربية وتأسيس دولة عربية إسلامية في الجزيرة العربية مستقلة عن الدولة العثمانية...الخ " كما دعى ايران إلى الاتحاد مع أفغانستان وحرصها بشكل غير مباشر على أن تتبنى هي الدعوة للجامعة الإسلامية في الوقت الذي كان السلطان عبد الحميد الثاني يبعث الرسل والدعاة الى أفغانستان وايران واهند...الخ لكسب التأييد لدعوته "، أنظر: مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق ، ص 207 ومابعدها

⁴ -احمد شلبي ، المرجع السابق ، ص 907.

مشيرا له فجمع حوله العلماء و الأمراء من الجزائر و الشام و مكة.... الخ، و من أجل جمع كلمة المسلمين أرسل الى جميع الأمراء و الرؤساء في جميع أنحاء البلاد الإسلامية الرسائل الودية¹. كما اقترب من المشايخ والدراويش²، و طبع عددا كبيرا من الكتب تحمل الدعوة لسياسة الجامعة الإسلامية³.

عمل السلطان على إيجاد صيغة مناسبة لتوحيد العالم الإسلامي من خطر كل من روسيا و إنجلترا فوجد جمال الدين الأفغاني يؤيده في فكرة تكوين الجامعة الإسلامية و حاول إقناعه في إمكانية تعاون الشيعة مع السنة في مواجهة القوى غير الإسلامية إذ أظهر الشيعة قبول ذلك، و يبدو أن جمال الدين الأفغاني كان قد أقنع كبار الموظفين و العلماء في إيران بفكرة تكوين الجامعة الإسلامية خاصة أن قنصل إيران في إستانبول كان قد وعد أنه سيبذل ما في وسعه لإنجاح المحاولة .

إلا أن العلاقة بين السلطان و جمال الدين توترت و هذا ما أشار إليه السلطان في مذكراته: " وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني و إنجليزي يدعى بلانت قال فيها باقضاء الخلافة عن الأتراك و أقترح على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين..."⁴.

¹- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 590 _ 593.

²- شفيق محسن ، المرجع السابق، ص 175.

³- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 589.

⁴- مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : ترجمة محمد حرب، ط 3، دار العلم، دمشق 1991، ص 25

-موقف الدول الأوروبية من الجامعة الإسلامية:

شعرت الدول الأوروبية الاستعمارية بخطر الجامعة الإسلامية على أطماعها الاستعمارية فاعتبرها اللورد كرومر¹ واللورد غراي بؤرة للتعصب الديني ودعوا إلى مراقبتها مراقبة دقيقة² وجاء رد محمد عبده على كرومر "بأن الدولة العثمانية أكبر دولة إسلامية وأن السلطان عبد الحميد الثاني أعظم و أفخم سلاطينهم"³.

يؤكد الكثير من الباحثين على أن السلطان عبد الحميد الثاني استخدم و اعتمد على الجامعة الإسلامية سلاحا ايديولوجيا لمقاومة امبريالية الغرب و الحركات القومية، و في هذا الصدد يذكر أنور الجندي أنه " إذا كانت حركته إلى الوحدة الجامعة قد أجهضت فليس لأنها فشلت بل لأنها نجحت نجاحا مذهلا مما دفع القوى الإستعمارية و الصهيونية إلى القضاء عليها و اسقاطها قبل أن يتمكن من وضع القواعد التي يمكن أن نسير عليها بالتنفيذ..."⁴، ويضيف مصطفى كامل: " الخلافة الإسلامية هي لكل مسلم السلطة العالية التي يستمد منها القوة و النور و الهداية و هي الحصن الحصين الذي يسان به الاسلام و يعتز به المسلمون. ولقد أدرك الأوروبيون قوة الخلافة الإسلامية ومعنى سلطتها على المسلمين، فسعوا لحل عقدتها، وتقويض أركانها، وتدمير بنائها، ليسهل لهم استعباد مناطق العالم الاسلامي ، وامتلاك بلاده وريوعه"⁵.

لقد تعرضت دعوة السلطان عبد الحميد للجامعة الإسلامية إلى حملة قادتها الصحف الأوروبية و تبعتها حتى الصحف العربية التي ظهرت في مصر⁶، فمن مصر هاجمها كل من اللورد كرومر حيث حرض الأوروبيين للوقوف في وجهها كما هاجمها هانوتو الفرنسي، واللورد غراي واعتبروها لون من ألوان التعصب الديني، والحقيقة أن الجامعة الإسلامية كانت كرد فعل على الحركة الإستعمارية الأوروبية وأن قادتها كانوا من الدعاة. وهذا ما شجع طبقة من العلماء أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدو ومصطفى القلايني

¹ - لقد أورد كرومر في تقريره عام 1906 ما يلي : " المقصود من الجامعة الإسلامية بوجه الاجمال اجتماع المسلمين في العالم كله على تحدي قوات الدول (الأوروبية) المسيحية و مقاومتها، فإذا ينظر إليها من هذا الوجه، وجب على كل الأمم الأوروبية التي لها مصالح سياسية في الشرق أن تراقب هذه الحركة مراقبة دقيقة لأنها يمكن أن تؤدي الى حوادث متفرقة فتضرم فيها نيران التعصب الديني في جهات مختلفة من العالم". أنظر: انور الجندي ، العالم الاسلامي والاستعمار السياسي الاجتماعي و الثقافي، ط2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1983، ص 170.

² توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص 34.

³ - نفس المرجع ، ص 34.

⁴ - مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 590 _ 593.

⁵ - احمد شلبي، المرجع السابق، ص 907_908.

⁶ - مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 594.

و رشيد رضا إلى الترويج لها و ذكر فوائدها و أنها الوسيلة الكفيلة والوحيدة لسيطرة السلطان على الوضع الداخلي و تعزيز مكانة الدولة في الخارج¹.

هناك اتجاهين رئيسيين يمكن استنتاجهما في الهجمة الأوروبية على الجامعة الإسلامية :

الاتجاه الأول: إستهداف مقومات الدعوة ذاتها والتي تناولت ما يلي :

أ- شخص الداعية أي السلطان عبد الحميد الثاني.

ب- المفاهيم و الأسس التي تقوم عليها الدعوة.

وفي هذا الصدد يذكر محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر مايلي: " كان السلطان عبد الحميد هو المقصود بكثير مما كتب عن الدعوة إلى الحرية والمناداة بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية، فالذين يتكلمون عن الاستبداد والتقيد بالنظام النيابي كانوا يقصدون استبداد السلطان عبد الحميد والذين ينادون بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية كانوا ينظرون إلى استخدام السلطان عبد الحميد سلطته الدينية بوصفه خليفة المسلمين في جمع السلطة في يده ومحاربة أعدائه. وكان العرب منهم يطالبون بأن يكون عبد الحميد سلطانا وبأن تكون الخلافة أو الولاية الدينية على شؤون المسلمين للعرب الذين هم أقدر الناس على فهم الدين، ومن بينهم عبد الرحمان الكواكبي الذي شن هجوما ليس على السلطان عبد الحميد الثاني لوحده وإنما على سلاطين آل عثمان في كتابي أم القرى وطبائع الاستبداد.

الاتجاه الثاني : إيجاد البديل للجامعة الإسلامية ويكمن ذلك في الخلافة العربية و الجامعة القومية العربية²، كانت الدول الأوروبية تخشى من الجامعة الإسلامية غير أن الجامعة الإسلامية لم تحم الدولة العثمانية من تيار القومية العربية³.

وبعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني لم يتخل الحكام الأتراك الجدد على الجامعة الإسلامية بل اعتمدوا عليها في صراعهم مع الدول الأوروبية⁴.

لقد عملت الدول الأوروبية وبعض الشخصيات والصحف العربية على التحايل على شخصية السلطان لأنه دعا إلى الجامعة الإسلامية وهذا ما يهدد مصالح الغرب الطامع في تقسيم أملاك الدولة العثمانية ، وأطماع على اللذين ينادون بخلافة العربية وفي بلاد العرب والحركات القومية، فاجتمعوا كلهم من أجل

¹ - أنور الجندي ، السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الاسلام الحديث، ط1، دار بن زيدون، بيروت، 1408هـ، ص 83.

² - مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص- ص 594-595.

³ - عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق ، ص 53.

⁴ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص116.

فصل السلطة الدينية عن الحكم، وهذا ما أثر على طبيعة العلاقات بين السلطنة وبلاد الشام، فالسلطان إذن تعرض لهجمة شرسة داخليا وخارجيا أثرت على العلاقات بين الطرفين.

المبحث الثاني : الوعي السياسي القومي التركي و العربي:

ظهر الوعي القومي العربي عند المسيحيين العرب بين عام 1882-1900 ثم استوعب هذا الإدراك المسلمون نتيجة لسياسة الحكام المحليين الأتراك¹، ولقد تميز الشعور القومي العربي في أواخر القرن التاسع عشر بطابع علماني و هذا ما عبر عنه بطرس البستاني في جريدة الجنان حيث يقول "إن الإمبراطورية هي وطننا، لكن بلادنا هي سوريا"².

إن العامل الحقيقي الذي أدى إلى بعث الوعي القومي من حالة الكمون الوجداني إلى الفعل السياسي العملي كان خارجيا ولم تكن الأوضاع الداخلية لبلاد الشام هي التي أدت إلى ظهور هذا الوعي القومي³، لأن الفترة التي شهدت فيه ولادة الوعي القومي العربي شهدت أيضا ولادة يقظة قومية مماثلة عند الأتراك⁴، فنما الوعي لدى الأمتين بصورة متوازنة، كانت البداية على شكل حركة اصلاحية تؤمن بإصلاح الدولة وتحديث أجهزتها للتصدي للأطماع الأجنبية المترتبة بها⁵.

إن فكرة القومية العربية أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني كانت على الصعيد الأدبي دون أن تتعداه إلى العمل السياسي و تركزت في سوريا عامة ومدينة بيروت خاصة أين تتركز المعاهد العلمية العالية والمفكرين المتأثرون بالفكر الغربي و الذي تجمعها قاسم مشترك وهو العروبة⁶، كما لعبت الصحف التالية : المنار، الكرمل، فلسطين، المقتبس، وغيرها من الصحف دورا اعلاميا في التوعية بالقومية خاصة فيما

¹ - نعمان عاطف عمرو، "مظاهر الوعي بالقومية العربية في فلسطين حتى عام 1920"، أكتوبر 2008، ص 5، متوفر على الموقع الإلكتروني www.qou-edu/arabic/untitledr10_drNuamanAmro.

² - ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 327.

³ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 283.

⁴ - و يتمثل في جمعية الاتحاد و الترقى التي تضم مجموعة من الشباب الاحرار المعارضين لاستبداد السلطان منذ 1865 برنامجها المنشور في باريس 1895 يبين لنا منذ البداية أن ثورة هذه الجمعية لا تختلف عن الثورة الفرنسية. أنظر:

Dimitri-Kitsikis, l'empire ottoman, presse universitaire de France, 1994, p 119.

⁵ - علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة 1850-1925، المرجع السابق، ص 299.

⁶ - مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، ط3، دار الشوري، بيروت، ص54.

يتعلق بالهجرة اليهودية، و ألفت كتب لنشر هذا الوعي أهمها كتب نجيب عازوري وعبد الرحمان الكواكبي، جمال الدين الأفغاني، محمد عبدو¹.

1- أسبابه:

-أدت سياسة السلطان عبد الحميد الثاني المركزية التي سار عليها في حكم الولايات العربية إلى أن تشير حوله المتاعب في الداخل و الخارج، فقد قامت في وجهه معارضة عربية و تركية² تزعمتها الطبقة المثقفة التي ظهرت و تكونت بين طلاب و خريجي المدارس التي أنشأها السلطان عبد الحميد الثاني، فكلما زاد عدد المتخرجين زاد عدد المثقفين و الموظفين الذين يريدون إجابات على أسئلتهم الكثيرة³.

- كبت الحريات الخاصة و العامة حيث يرى البعض أن استمرار الحكم العثماني في الأقطار العربية يكبح تطورها الاقتصادي و الحضري و الثقافي، و يزيد من اتساع الفجوة بين العرب و الحكم العثماني.

- التدخل الأجنبي في شؤون بلاد الشام شجع الحركة الوطنية العربية على الانفصال عن الدولة العثمانية، حتى و لو كان ذلك عبر التعاون مع الدول الأوروبية.

-ظهور النزعة الطورانية في أوساط الإصلاحيين الأتراك و دعوتهم إلى توحيد شعوب السلطنة على أساس مركزية الحكم⁴.

- تشكلت جمعيات سياسية سرية مهدت الطريق أمام تشكل أحزاب متعددة لاحقا، نظرا لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني-الجوسسة- اضطر زعماء هذه الجمعيات مثل فارس نمر و جورج زيدان و ابراهيم اليازجي و غيرهم إلى الهجرة إلى مصر لأن كل المنشورات و النشاطات تتعرض للمراقبة⁵.

-خاضت الدولة العثمانية عدة حروب خاصة في القرم و اليمن شاركت فيها وحدات عربية⁶.

¹- نعمان عاطف عمرو، المرجع السابق، ص 6.

²-علي معطي، المرجع السابق، ص 26.

³-مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق ، ص 33

⁴-علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة 1850-1925، المرجع السابق، ص-ص 288-289.

⁵ نفس المرجع ،ص-289.

⁶ نعمان عاطف عمرو، المرجع السابق، ص 7.

2- مظاهر الوعي السياسي العربي:

في هذه الفترة تبلور الوعي القومي لدى المسيحيين العرب في إطار مشروعين :

- الأول: استقلال ذاتي لسوريا مع متصرفية جبل لبنان (مشروع جمعية بيروت السورية) مترادفة مع ما أشيع عن مشروع خديوي سوريا مدعوما من بريطانيا برئاسة والي سوريا مدحت باشا.

- الثاني: تكوين كنفيدرالية سورية على النسق الألماني مشروع يوسف كرم.

السؤال الذي يمكن طرحه هو ما موقف العرب المسلمين من هذه المشاريع؟ ما العلاقة بين الوطن السوري والرابطة العثمانية؟¹.

إن بعض المناهضين العرب الرافضين للسياسة العثمانية لجأوا الى أوروبا للتعبير عن ثورتهم و رفضهم لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني ولايصال ثقافتهم وسياستهم إلى جانب الرأي العام العالمي، إلا أن آراء و مطالب المثقفين العرب مختلفة فمنهم من رفض الانفصال عن الدولة العثمانية وطالب بحقوق العرب في إطار الخلافة العثمانية و اصلاح أوضاع البلاد مع محاربة البيروقراطية و هذا ما عبر عنه الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد ولم ينووا الثورة، إن الدول الأوروبية الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا هي التي عملت على توجيه القوميين العرب إلى الثورة ضد الحكم العثماني التي اندلعت فعلا سنة 1916².

و يمكن ملاحظة هذه المظاهر في بلاد الشام فيما يلي :

1-الجمعيات السرية

ظهرت الجمعيات السياسية السرية العربية في كل من بيروت ودمشق والقاهرة واستانبول خلال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني تميزت مطالبها بالدقة والوضوح، حيث حددت أهدافها في رغبتها في الحكم الذاتي ثم الانفصال عن الدولة العثمانية ولقد تزعم هذه الجمعيات العرب المسيحيون بحكم علاقاتهم و اتصالاتهم الغرب³.

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص،35، 40.

²- Ali Merad, op.cit, p 44.

³-باسل الكبيسي، حركة القوميين العرب، دار العودة، بيروت، (د ت)، ص-ص 48-49.

لقد تشكلت بعض الجمعيات السياسية السرية العربية قبل قيام جمعية الاتحاد و الترقى و عملت فقط على مقاومة الحكم الفردي للسلطان عبد الحميد، غير أن نزعة انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية لم تظهر إلا في فترة متأخرة بعد اصطدام التيار القومي التركي بالتيار القومي العربي¹. كما أن الحركة القومية العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني لم تعرف نموا سريعا ولم تقم بأي نشاط يذكر: ففي بداية حكمه تكونت جمعية بيروت السرية² وفي نهاية حكمه طرح الكواكبي إشكالية حول الخلافة و الحكم العثماني في كتابيه أم القرى وطبائع الاستبداد³، تعتبر جمعية بيروت السرية أول تنظيم سياسي عربي معارض للحكم العثماني تأسست سنة 1875⁴ ويعود الفضل في تأسيسها إلى خمسة شبان من الكلية البروتستانتية السورية ببيروت ومعظم أعضائها من نصارى لبنان درسوا في نفس الكلية ولها فروع في دمشق وطرابلس⁵، من أبرز أعضائها الدكتور فارس نمر، ضاهر الزعني، وأمين مغيب، مراد البرودي، بشارة زلزل، أمين أبو خاطر، ملحم فليحان، ابراهيم اليازجي، ابراهيم الحوراني، يعقوب صروف، شاهين مكاريوس، سليم موصلي، وليم فانديك وإلياس حبالين وهذا الأخير يعتبر أنشطهم ، يعقدون اجتماعاتهم على الشاطئ عند رأس بيروت المعروف بالروشة بعيدا عن الجواسيس⁶ ولقد كشفت جمعية بيروت السرية عن نشاطاتها أثناء الحرب الروسية العثمانية من أجل مشروع وطن سوري لكنها لم تعلن عن هذا المشروع⁷ فحركات مشاعر أهل سوريا واعتبرت دعوى السلطان بالخليفة اغتصاب للحق العربي⁸.

تهدف جمعية بيروت السرية إلى تحرير لبنان من الحكم العثماني ثم طورت فكرتها لتشمل سوريا ومن أجل تحقيق ذلك اعتمدت على المحفل الماسوني في بيروت لاستقطاب بعض المسلمين، رغم ذلك فلم يؤثر هذا الاستقطاب في تركيبها الطائفية ولا في منهجها السياسي وفي هذا الصدد يذكر علي الزين إن العرب

¹ -علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين في عصر النهضة 1850-1925، المرجع السابق، ص 299.

² - ساهمت هذه الجمعية في التقدم الفكري و أرسلت الكثير من الرسائل للقنصل البريطاني وتعتبر هذه الجمعية أول صرخة قامت بها الحركة العربية و كان هدفها وغايتها الأولى سياسي وما جاءت وما نادى به الجمعية كان سابقا لعصره في ظل الظروف التي كانت تعيشها بلاد الشام و لم تكن الأمة مهيئة لجمع الكلمة. أنظر: نعمان عاطف عمرو، المرجع السابق، ص-ص 5-6.

³ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 173.

⁴ - سيار الجميل، المرجع السابق، ص 515.

⁵ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 149.

⁶ - علي معطي، المرجع السابق، ص 27 - 28.

⁷ - عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 69.

⁸ - ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 331.

اتفقوا على محاربة الحكم التركي المستبد، و اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعية، بقاء أو اخراج الأتراك من ولاية سوريا¹.

دعا برنامجها السياسي للثورة على حكم السلطان² و اعتمدت على تعليق المنشورات في الشوارع أثناء الليل، تصف هذه المنشورات الحكم التركي بالمستبد و تحرض العرب على أن يثوروا على مظالم الإدارة العثمانية ولذلك أرسل السلطان عبد الحميد الثاني جواسيسه³ أثناء ولاية مدحت باشا إلى بعض المدن السورية كبيروت، دمشق، صيدا⁴.

و في صيف 1878 وزع مجهولون في دمشق منشائر باللغتين العربية و العثمانية تندد بحكم الوالي جودت باشا و تدعو السوريين إلى التخلص من العثمانيين و تسيير أمور بلادهم بأيديهم، إن الآراء الواردة في المنشورات لا تعكس الموقف الإسلامي العام في بلاد الشام من الحكم العثماني و هذا ما يؤكد قنصل بريطانيا في بيروت في رسالة إلى لايارد Layard سفير بريطانيا في استانبول يذكر فيها: "... عدم وجود اشارات سخط ضد الحكم العثماني وسط السكان في كل من بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا"، وفي سنة 1879 ألصقت الجمعية منشورا خاصا على أبواب الجوامع و الكنائس، نشرت فيه سينية الشيخ ابراهيم اليازجي و مما جاء فيه:

أقداركم في عيون الترك نازلة** وحقكم بين أيد الترك مغتصب
لنطلبن بحد السيف مأرنا** فلن يخيب لنا في جنبه أرب⁵.

و في 1 جوان 1880 ظهرت منشائر أخرى في كل من بيروت و دمشق تطالب بالاستقلال الذاتي لبلاد الشام و بالامتيازات التي منحها الباب العالي إلى المقاطعات الأخرى، و ما بين 30 ديسمبر و الفاتح من جانفي 1880 حرضت المنشائر العرب في كل من بيروت و دمشق و صيدا و طرابلس على الثورة، وهذا ما حرك مشاعر بعض السوريين مسلمين و مسيحيين في اتجاه وطن سوري يضم سوريا و لبنان ، فقد ورد في أحد المنشائرها ما يلي: " وعلى قواعد لغتكم (العرب) بنيت أصول الخلافة التي احتلسها الأتراك"،

¹ -عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص- ص68-69.

² - سيار الجميل، المرجع السابق، ص515.

³ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص151.

⁴ - مصطفى طلاس، المرجع السابق، ص 55.

⁵ -علي معطي، المرجع السابق، ص29.

فأمرت الحكومة العثمانية والي سوريا بإلقاء القبض على المشبوهين و الحفاظ على الأمن و النظام في المنطقة¹.

أمام تطور الأحداث عزل السلطان عبد الحميد الثاني والي سوريا جودت باشا و بضغط من بريطانيا حل محله مدحت باشا. الذي سار في خطة مزدوجة:

الأولى : خلق إدارة محلية موالية له متحررة من سلطة استانبول.

الثانية : الحصول على صلاحيات مطلقة في حكم ولاية سوريا كالتى تتمتع بها أثناء ولايته على الدانوب و بغداد، إلا أن جواسيس السلطان كانت ترسلت تقارير إلى الباب العالي تذكر فيها أن مدحت باشا يخطط بالتنسيق مع الإنجليز لفصل سوريا عن الدولة العثمانية و تحويل سورية إلى خديوية أي مشروع خديوي سوريا على نسق مصر و بزعامته، و في هذا الصدد يذكر الصحافي سليم سركيس الذي أقام في دمشق سنة 1887 : " أن مدحت باشا أراد اختبار استعداد السوريين للثورة و توطئة للاستقلال بشؤون سورية على نحو استقلال مصر، فاستخدم ...أحمد مهدي الأيوبي و حسن فائز الحايي، لاجتذاب بعض الشبان الأذكياء و تأليف جمعية سرية لنشر إعلانات يختبر مدحت باشا بواسطتها ميول السوريين..."².

و حسب الوثائق الفرنسية فإن لمدحت باشاعلاقة بهذه المناشير لأنه حرص السوريين و الصحافة المحلية ضد الحكم العثماني كما أن سياسته سمحت لجمعية بيروت السرية على التعبير عن أفكاره و الترويج لها³. حيث يذكر القنصل البريطاني العام ببيروت في برقية أرسلها في 28 جوان 1880: " ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة يشترك في أن مدحت هو من أنشأها، ومع ذلك فالهدوء يسود البلاد، التفصيلات بالبريد القادم"⁴.

بينما يرى نائب قنصل بريطانيا في بيروت أن جمعية المقاصد الخيرية في بيروت وراء تلك المناشير خاصة من بين مؤسسيها مدحت باشا وهي أداة سياسية في يده ويؤيده في ذلك ديكسون(Dickson)، بالتالي لا يوجد اختلاف بين التقارير الفرنسية والإنجليزية على ذلك لأنها إعتمدت على الخلافات التي وقعت في صيدا بين بعض أعيانها والقائم مقام العثماني وتورط عائلي المجذوب والجوهري السنييتين في

¹ -علي معطي، المرجع السابق ، صص 29 _ 31. أنظر كذلك: عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص73.

² -عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانات الاسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق ، ص72.

³ -عبد الرؤوف سنو، نفس المرجع، ص76.

⁴ -جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص153 .

تنظيم العرائض ضد القائم مقام العثماني و نشر الفوضى، خاصة أن بعض أفرادها ينتسبون إلى جمعية المقاصد في صيدا و لقد جاءت هذه الحادثة متزامنة مع ظهور المناشير و لذلك ربط القنصل الفرنسي في بيروت بين الجمعية و المناشير، أما المؤرخ شامير فيذكر أن أول منشور ظهر كان عندما قدم مدحت باشا إستقالته الثانية إلى الباب العالي في نهاية ماي 1880، أي لما تأزمت علاقته مع الحكومة العثمانية بشأن حصوله على صلاحيات مطلقة للحكم و في الأسابيع التالية ظهر المزيد منها و لم يهتم الوالي باكتشاف مصدر المناشير و لم ينزعج منها.

وفي تقرير آخر لديكسون بتاريخ 17 جانفي 1881 يذكر فيه أن مدحت باشا لعب دورا مزدوجا مع الجمعيتين بعد عزله عن ولاية سوريا و تعيينه على ولاية أزمير : " فقد أخبرت بأن الجمعية الثورية (جمعية بيروت السرية) هي التي تسببت في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية و أن مدحت باشا كان سرىا أحد أعضائها، و أنه هو الذي أسسها و رعاها، لكي يعزز نشاط الجمعية الثورية ويعضدها ... إن مدحت باشا لا يزال على اتصال وثيق بالجمعية - جمعية المقاصد-، بالرغم من أنه الآن في أزمير. و يقال أيضا أن له ضلعا في توزيع هذه المناشير في سورية بواسطة عملائه السريين...¹ و في السياق نفسه تشير تقارير قناصل الدول الأوروبية الكبرى إلى صلة مدحت باشا بهذه الجمعيات خاصة مع جمعية المقاصد الخيرية²، وفي السنة نفسها كتب نائب القنصل البريطاني في بيروت : " أن الرأي السائد هو أن المناشير صادرة عن جمعية المقاصد الخيرية... و أن مجموعة الناقمين انضمت إلى جمعية المقاصد عند تأسيسها... و أن مدحت باشا أسس جمعية المقاصد و رعاها ليعزز نشاط الجمعية الثورية..."، و حتى المجندين الذين يكتبون جرنالات من دمشق إلى استانبول يربطون المناشير بمدحت باشا الذي اتخذها كوسيلة للإستقلال بسوريا³، و هنا يشير شوكلأ أنه يوجد في الأرشيف البريطاني وثائق باللغة العربية و العثمانية تنسب ضلوع مدحت باشا و بريطانيا في مشروع فصل سوريا عن الدولة العثمانية⁴، عموما فإن التقارير البريطانية أحيانا تنسب المناشير إلى مدحت باشا و أحيانا أخرى إلى جمعية المقاصد الخيرية في صيدا، أما التقارير الفرنسية فقد كانت تخلط بين جمعية بيروت السرية المسؤولة عن المناشير وحركة الأعيان المسلمين⁵.

يذكر سينكيويكز sienkiewics قنصل فرنسا العام في بيروت آنذاك في إحدى رسائله الدور الذي

¹-عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 74_ 77.

²- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 111.

³- مفيدة محمد ابراهيم، نفس المرجع، ص - ص 111- 112.

⁴-عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 73.

⁵-عبد الرؤوف سنو، نفس المرجع ، ص 74.

لعبه مدحت باشا في الإضطرابات التي عرفت بها بلاد الشام في تلك الفترة فيقول : " إن الجمعيات التي أنشأت حديثاً في سوريا قامت بتحريض من الوالي مدحت باشا لتحريك الأوضاع في البلاد كي يتسنى له توسيع صلاحياته ومن ثم الاستقلال في ولاية سوريا بدعم من الإنجليز وحمايتهم كما هو الحال في مصر"، ولا يخفى لنا أن لفرنسا كذلك أطماع استعمارية في سوريا وبريطانيا دولة منافسة لها ولذا يرى محمد جميل بيهم في كتابه العرب والترك أن المشير أحمد أيوب باشا إتفق مع فرنسا على تأييد مدحت باشا في استقلاله بسوريا¹، وهذا ما يتناقض مع ما ذكره سينكيويكز عن دور بريطانيا في تحريض مدحت باشا للأهالي.

أما المؤرخ الطيباوي فيعتبر أن المنشور الثوري الثالث الذي علق في 31 ديسمبر 1880 من صنع اسلامي لأنه يطرح قضية اغتصاب العثمانيين للخلافة، بينما يرى المؤرخ محمود سمره أن فكرة خلافة عربية تساعد على "... خلق وجدان عربي بين المسلمين يؤدي إلى تقارب بينهم وبين مسيحيين حول مشروع الوطن السوري" و لكي ينجح هذا المشروع يتطلب تقارب مسيحي اسلامي للتفاهم حول مفهوم "الأمة الإسلامية" و فكرة " الوطن السوري"، أما المؤرخ وجيه كوثراني فقد نفى اسلامية المناشير وتورط جمعيتي مقاصد بيروت أو صيدا بها على أساس أن تقارير القناصل كانت تعتمد على الشائعات خاصة أن جمعية المقاصد تأسست من أجل التصدي للخطر الثقافي الأجنبي الإستعماري، وهذا ما ينفي أنها وراء حركة التحريض على الانفصال عن الدولة العثمانية ويعتقد وجيه الكوثراني أنها كانت "وشاية الرجل المسيحي الصيداوي إلى الوالي أحمد حمدي باشا" لتغطية التحرك المسيحي المعادي للعثمانيين².

ولكي يتحقق مشروع خديوية سوريا برئاسة مدحت باشا يجب أن يتوفر شرطين أساسيين:

- الدعم الخارجي خاصة من بريطانيا.

-وجود قوة عسكرية و اجتماعية محلية تدعمه و هذين الشرطين غير متوفرين ذلك راجع إلى:

- بالنسبة للدعم الخارجي بعد استحواذ بريطانيا على جزيرة قبرص تخلت عن سوريا و أصبحت مصر من بين أهدافها الاستراتيجية، كما كان لتولي وليم غلادستون في أبريل عام 1880 رئاسة الوزارة البريطانية والمعروف عنه كراهيته للسلطان عبد الحميد الثاني ومدحت باشا أثر على الدعم البريطاني مدحت باشا في سوريا.

- أما عن وجود قوة عسكرية واجتماعية محلية فإن قيادة الفيلق العثماني الخامس المرابط في سوريا لا يخضع لسلطة الوالي العثماني، وعندما تضمنت التقارير التي تصل إلى استانبول أن هناك علاقة ومخططاً

¹ - علي معطي، المرجع السابق ، ص-ص 32-33.

² - عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 75.

بين مدحت باشا والمشير أحمد أيوب قائد الفيلق الخامس لفصل سوريا عن السلطنة العثمانية التجأ السلطان عبد الحميد الثاني إلى عزل مدحت باشا ومعه المشير أحمد أيوب عن منصبهما وعين حسين فوزي قائدا للفيلق الخامس، وهو الذي أشرف على مغادرة مدحت باشا إلى أزمير ولم تحدث في سوريا أي ردود فعل مؤيدة لمدحت باشا من قبل السكان المحليين. وهذا ما يبين لنا أنه لا يوجد قوة اجتماعية سورية تريد الانفصال خاصة الفئة المسلمة التي تعتبر ارتباطها بالدولة العثمانية له بعد ديني - واستراتيجي يكمن في حمايتهم من أي اعتداء و اعتبروا إسلامهم يتقدم على عربيتهم، ولذلك كانت سياسة مدحت باشا ترمي إلى إبعاد الأعيان المسلمين و استبدالهم بالمسيحيين والمسلمين من المقربين له كما أنه حاول إلغاء إمارة الحج، و عندما علقت جمعية بيروت السرية مناشرها الثلاثة كما نشرت جمعية حفظ حقوق الملة العربية منشورا في مارس 1881 تحت فيه السوريين على الثورة على الحكم العثماني كان موقف مسلمي بلاد الشام هو التعاطف إلى جانب الدولة العثمانية ضد الجمعيتين، و في هذا الصدد يذكر علي الزين ما يلي : " إن أقلية صغيرة متنورة طموحة غير إسلامية أرادت أن تستبدل العربية بالسيادة العثمانية... (لكنها) ... لم تكن تمثل رأي الأكثرية الساحقة من العرب المسلمين الذين نظروا في الأساس إلى تركيا كمسلمين... وإن هذه الأكثرية الإسلامية الساحقة من العرب المسلمين لم تشارك في أية محاولة لفصل العالم العربي عن السيادة التركية"، وفي نفس الوقت أرسل الأعيان المسلمون عريضة إلى أحمد حمدي باشا والي سوريا استنكروا فيها مضمون هذه المناشير وطالبوا من الوالي متابعة ومعاقبة مروجيها، كما بعث مسلمو بيروت وأثريائها رسائل إلى السلطان عبد الحميد الثاني يؤكدون فيها ولائهم له، فرد السلطان عليهم بإرساله أحد أعوانه وهو أحمد راتب باشا يشكرهم على موقفهم اتجاه الدولة العثمانية¹.

وفي المقابل هناك آراء معاصرة تنفي أن مدحت باشا خطط للاستقلال بسوريا وتؤكد بأن تحركاته المشبوهة عبارة عن تكتيك للضغط على الباب العالي من أجل الحصول على صلاحيات مطلقة لحكم ولايته و عندما ظهرت مناشير ثورية تدعو إلى إستقلال سوريا ذاتيا تزامن ظهورها مع تقديم استقالته إلى الباب العالي للمرة الثانية في شهر ماي 1880².

لقد أخفقت الجمعية بيروت في تحقيق أهدافها لأن دعوتها السياسية بما تحتويه من تحريض على الثورة ضد الحكم التركي جاء في وقت لم تكن فيه الأمة مهياً لمثل هذه الأعمال والأحداث³، و رغم ذلك فقد مهدت الطريق للحركة العربية القومية، و نظرا لصرامة المراقبة العثمانية - الجواسيس - التجأ أعضاء الجمعية

¹- عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 77 ومابعداها

²- عبد الرؤوف سنو، نفس المرجع، ص 73.

³- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 156.

إلى حرق أوراقهم و سجلاتهم في حفرة في ليلة من ليالي نوفمبر من 1881¹، هذه الأحداث تدل على أن أوضاع المنطقة كانت مضطربة².

و في عام 1881 تأسست جمعية حقوق الملة العربية وهي جمعية سرية تتكون من المثقفين العرب في كل من بيروت، دمشق، طرابلس صيدا و من مطالبها:

- تكوين وحدة إسلامية مسيحية ضمن الإطار القومي العربي.

- تحث العرب على الاتحاد و التمرد على الاستبداد الحميدي³.

كما أنشأ السوريون القاطنون في باريس سنة 1895 الجمعية الوطنية العربية و التي أذاعت في سنة 1906 منشورا إلى الدول الكبرى أهم ما جاء فيه هو رغبتها في تكوين امبراطورية عربية يرأسها سلطان عربي " ذو حكومة دستورية حرة بينما تكون ولاية الحجاز مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكا و خليفة للمسلمين"⁴.

كما عارض عبد الرحمان الكواكبي⁵ حكم السلطان عبد الحميد الثاني فقد طالب:

-إلغاء حق السلطان في الخلافة و إقامة خلافة عربية من مكة المكرمة⁶.

- نبد الخلافات الطائفية⁷.

¹- علي معطي، المرجع السابق ، ص31.

²- مصطفى طلاس، المرجع السابق، ص 55.

³-علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص131.

⁴- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص630

⁵- عبد الرحمان الكواكبي 1848 - 1902: كان أبوه أحد الدارسين في الجامع الأموي تعلم في مدرسة اسرته بحلب " المدرسة الكواكبية " و كانت هذه المدرسة تدير على الطريقة الأزهرية حيث تعلم التركية و الفارسية اهتم بدراسة قوانين الدولة العثمانية، كان محررا في جريدة رسمية، ثم رئيس كتاب المحكمة الشرعية ثم قاضي شرعي في بلدة سوريا ثم رئيس بلدية، انشأ لنفسه جريدة في حلب وهي جريدة الشهباء، اشتغل بالتجارة، قام بمشروعات عمرانية، دخل في صراع مع نظام الدولة ورجال الإدارة. أنظر: أحمد أمين، المرجع السابق، ص 249 وما بعدها

⁶- إن الدعوة للخلافة العربية و للجامعة العربية التي دعا إليها مفكرو النهضة العربية مشروع أوروبي و ما يؤكد ذلك ما كتبه ماكماهون إلى بعض القادة في الحجاز في 30 أوت 1915 رسالة يقول فيها: " و أنا أصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملكة بريطانيا العظمى ترحب باسترداد الخلافة على يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة" و بالتالي تشييت لدعوة السلطان إلى الجامعة الإسلامية ، أنظر: مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص- ص 115-616.

⁷-علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص224.

- تحقيق استقلال إداري لكل القوميات الداخلة في نطاق السلطنة العثمانية.

- إقامة حكم جمهوري يتساوى فيه المواطنون من حيث الحقوق و الواجبات

تعتبر دعوة الكواكي بإقامة خلافة عربية محل الخلافة العثمانية خطوة جريئة في بناء القومية العربية¹، و في هذا الصدد يذكر في كتابه طبائع الاستبداد الذي نشر في سنة 1901: "هي صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب و لا عقاب محققين"².

و في القاهرة تأسست سنة 1897 جمعية الشورى العثمانية و من بين مؤسسيها محمد رشيد رضا ورفيق العظم تهدف هذه الجمعية إلى: محاربة السلطان عبد الحميد و إعادة الحياة النيابية، و كانت منشوراتها تصل إلى بلاد الشام بصورة خاصة، و من أجل إثارة الرأي العام على السلطان عبد الحميد عقد الأحرار العثمانيون من 4 إلى 9 فيفري 1902 مؤتمر في دار الأمير صباح الدين في باريس حضره ممثلون عن جميع الأجناس في الدولة و طوائفها، اتفقوا على تكوين نظام حكم دستوري يحقق العدالة لجميع العناصر العرقية³، و من أجل تحقيق ذلك أسس الأمير صباح في باريس جمعية

La ligue pour l'initiative privée et le décentralisation تضم قوميات متعددة تابعة للدولة العثمانية و عدة مناطق منها أزمير، آلايان، دمشق و اللاذقية، و يمثلها في اسطنبول الجمعية الثورية cemiyet-i-inkilabye التي تأسست سنة 1904 من طرف طلبة و تلاميذ مدارس.

يهدف الأمير صباح الدين إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تكون الدولة العثمانية دولة فيدرالية دستورية مثل بريطانيا لا يسودها الحكم المركزي.

- إشراك السكان المحليين في الحكم مع مراعاة حقوق مختلف القوميات و الأقليات، و من الملفت أن أفكار الأمير صباح أفكار نظرية صعبة التطبيق في الدولة العثمانية في تلك الفترة⁴.

لقد مال معظم الأتراك خاصة الأحرار منهم إلى آراء أحمد رضا في تعزيز القومية التركية و التمسك بمبدأ المركزية في تنظيم إدارة الدولة و كانت آراء أحمد رضا تتجاوز مع أهداف الجمعية العثمانية الحرة التي أسسها جمال باشا و طلعت باشا بشكل سري في سالونيك و في عام 1907 توحدت الجمعية العثمانية

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص26.

²-علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص، ص171، 177.

³-علي معطي تاريخ لبنان، المرجع السابق، صص 37_38.

⁴-Jean Paul Garnier, op.cit, p 88.

الحرّة مع جمعية الاتحاد والترقي ومع الجمعية السرية التي أسسها اليوزباشي مصطفى كمال سنة 1906 في دمشق بعد أن نقل مركزها إلى سلانيك، ثم اتصلت هذه الجمعيات بأحمد رضا وجماعته في باريس واتفقوا على توحيدها كلها بما فيها منظمة المركز العمومي تحت اسم جمعية الاتحاد والترقي¹.

كما أسس نجيب عزوري² في باريس سنة 1904 جمعية تعرف برابطة الوطن العربي تهدف إلى تحرير الشام والعراق من سيطرة الأتراك³ وإنشاء دولة عربية مستقلة تضم سوريا والعراق و لبنان ، نجد، اليمن، الحجاز في شكل اتحادي و تعهد بالخلافة إلى شريف الحجاز الذي سيتمتع بسلطة معنوية على جميع مسلمي العالم⁴، لقد رسم نجيب عزوري الخطوط الكبرى للدولة العربية المستقلة و من شروطها:

- أن تكون سلطنة دستورية ليبرالية.

- يرأسها سلطان مسلم عربي.

- يحترم استقلال لبنان و نجد و اليمن.

لم يحدد نجيب عزوري من هو هذا السلطان بوضوح، هل يقصد الأسرة المصرية الحاكمة كسلطان وشريف مكة كخليفة؟⁵، في عام 1905 نشر كتابه يقظة الأمة العربية⁶، وبعد عامين أصدر مع مجموعة من الكتاب الفرنسيين مجلة شهرية تحت عنوان استقلال العرب⁷ تهدف إلى تعريف الغرب بالقضية العربية، ولم تعمر هذه المجلة سوى سنتين⁸.

¹- علي معطي، تاريخ لبنان، المرجع السابق، ص 38_39.

²- و في باريس التقى الكاتب السياسي الفلسطيني النشيط نجيب عازوري مع أعضاء تركيا الفتاة وكان هو نفسه موظفا عثمانيا سابقا في القدس، دعا إلى تكوين دولة عربية من الولايات الواقعة تحت الحكم العثماني (بلاد الشام). وبسبب وجوده في الخارج، ظل أثره محصورا لكن أفكاره شكلت معلما مهما في تطور الحركة الوطنية العربية عامة والفلسطينية خاصة. أنظر: الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 290 وما بعدها

³- علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص 224.

⁴- محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 109.

⁵- ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 334.

⁶- يعتبر نجيب عزوري أول صوت حدد طبيعة الصراع العربي الصهيوني بقوة و وضع ذلك في كتابه يقظة الأمة العربية، حيث جاء في مقدمة الكتاب : " هناك حدثان هامين من طبيعة واحدة و لكنهما متعارضان و هم يقظة الأمة العربية و الجهد اليهودي الخفي لانشاء ملك اسرائيل القديم من جديد و على مقياس أوسع، إن مصير هاتين الحركتين هو الصراع المستمر إلى إن تغلب إحدهما الأخرى، و مصير العالم كله منوط بالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متعارضين". أنظر :معتصم الناصر، "دور المسيحيين في الحركة الوطنية الفلسطينية 1918 م حتى 1940 م"، ع 38 ، صيف

2008.متوفر في الموقع الالكتروني www.ulum.NL

⁷- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 134.

⁸- محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 111.

أسس محب الدين الخطيب و عارف الشهابي مع الكريم الخليل و شكري الجندي و جماعة من السوريين و اللبنانيين في استانبول جمعية النهضة العربية في 23 ديسمبر 1906 لها مركز ثابت في دمشق¹، و هي جمعية سرية تطالب بالعدالة و المساواة و الحكم اللامركزي، إلا أن السلطان لاحق أعضائها وزج بهم في السجون²، يصفها الأستاذ مصطفى الشهابي بمالي : " لعل هذه الجمعية الوطنية السرية تعد أول جمعية قومية عربية منظمة نشأت في أوانها، فكان لها أكبر تأثير في بث الشعور القومي الواعي في شباب العرب قبيل إعلان الدستور و خلع عبد الحميد"³، و في نفس السنة أنشأ جماعة من الضباط الشباب لجنة الوطن و الحرية السرية و من بين أعضائها مصطفى كمال أتاتورك⁴.

إن شعارات الحرية العدالة المساواة التي رفعها الاتحاديون استمالت بعض الجماعات العربية الناقمة على السلطان عبد الحميد الثاني و لذلك أيدت الاتحاديين في قلب نظام الحكم⁵، و من أجل تأليب الرأي العام على السلطان أصدر اسحاق سكوتي و عبد الله جوده في جنيف مجلة عثمانلي لتأليب الرأي العام على السلطان عبد الحميد الثاني⁶ انضم إليهم اللاجئون المنفيون خارج البلاد و كانت لها مطالب متعددة نظرا لتعدد عناصر تكوينها إلا أنها اتفقت على هدف واحد و هو القضاء على حكم السلطان عبد الحميد الثاني الفردي و إقامة حكومة جديدة على أساس انصهار الأجناس كلها و هو الهدف نفسه الذي يرمي إليه دستور مدحت باشا⁷.

عقد أعضاء تركيا الفتاة في سنة 1907 مؤتمرا بباريس، حضره القوميون العرب و اعترفت جمعية تركيا الفتاة بحق العرب في تقرير مصيره السياسي و الثقافي⁸.

¹ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 134.

² - علي معطي، المرجع السابق، ص 35.

³ - محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 113.

⁴ - إن الشباب الأتراك و الكماليين يختلفون عن البيروقراطيين التقليديين لأنهم تكونوا تكويننا علمانيا و تأثروا بالمواطنة الأوروبية رغم أنهم نشأوا في مجتمع تسيطر فيه الدولة على المجتمع المدني و على ركائز الدولة إلا أن الشباب التركي المتنور مع الكماليين يعتبرون أنفسهم ركائز الدولة و هم لعبوا دورا في تأسيس تركيا العلمانية. أنظر Ali Kazamcigil et Ergun Ozbudun-Attaturk Fondateur de la Turquie moderne, édition Masson ; France, 1984, p 48.

⁵ - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 534.

⁶ - علي معطي، المرجع السابق، ص 37.

⁷ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 176.

⁸ - محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 114.

2- حركة الأعيان المسلمين:

لقد أثرت نتائج الحرب الروسية العثمانية¹ 1877-1878 على أوضاع بلاد الشام وعلى شعور مسلميها، حيث تشير التقارير الدبلوماسية البريطانية أن-بريطانيا- كانت تفكر في الاستلاء على سوريا للحفاظ على مصالحها في الشرق الأدنى ، كما أن الإنتصارات التي حققتها روسيا على الدولة العثمانية جعلها تفكر هي أيضا على الإندفاع نحو خليج الإسكندرونه وهذا ما يؤكد عاقل صالح الذي أرخ عن والده منح صلح² على أن أعيانهم تحركوا سرياً³ من الطائفتين السنية والشيعة منهم (منح صالح، الشيخ أحمد عباس الأزهرى، الحاج إبراهيم الجوهري، الحاج حسين بيهم، السيد محمد الأمين، الشيخ علي الحر، الحاج علي عاسيران، شبيب باشا الأسعد حسن تقي الدين الحصني وغيرهم فتداولوا بزعامة أحمد باشا الصلح مسألة اعلان الاستقلال الذاتي أو التام في سوريا لحماية بلادهم من المصير السيئ⁴، وفي هذا الصدد يذكر المستشرق الألماني فريتزشتبات الذي يعتبر أول من أرخ لحركة الأعيان بعد عام على صدور كتاب عادل الصلح: "... أن معظم المشاركين في الحركة الأعيان كانوا من عائلات رفيعة المستوى، اعتمد نفوذها على المكانة الاقطاعية القديمة و الانتماء التقليدي إلى طبقة العلماء والثروة نتيجة للأعمال التجارية، أو من خلال العلاقة مع الدولة العثمانية"⁵.

يعتبر أحمد الصلح محرك هذه الحركة اتخذت من بيروت مركزا لها حيث وضع خطة لمشروع استقلال ذاتي أو تام لسوريا، ومن أجل تحقيق ذلك زار مناطق عديدة من الشام وأجرى عدة اتصالات ولقاءات مع بعض أصحاب الرأي والمكانة من رجال دمشق فوجدت فكرتهم تأييدا فنقلها الأعيان إلى الأمير عبد القادر الجزائري في مصيفه بدمر، وبالتالي فإن مشروع استقلال سوريا قد طرح على بساط البحث قد عمل الصلح إلى استقطاب زعامات إسلامية من شمال سوريا و جنوبها إلى هذا المشروع وساعده في ذلك

¹ - أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية 1877-1878 و هذا ما أجبر تركيا في 3 مارس 1878 على توقيع معاهدة سلام مع روسيا و هي معاهدة سان ستيفانون و بموجب هذه المعاهدة تنازلت الدولة العثمانية عن منطقة رومانيا و صربيا والبوسنة... الخ رغم أن بنود المعاهدة كانت سرية لكن السلطان عبد الحميد الثاني كشف بنودها لبريطانيا و النمسا. أنظر: Edmond Taylor, op.cit, p 144.

² -محمود منح الصلح 1856-1920: ابن احمد الصلح، عين قاضيا في بيروت له علاقات وطيدة مع الأمير عبد القادر الجزائري كما عين عضوا في مجلس ولاية بيروت وقد وصفه جابر الصفا " بالعقل المدبر لكثير من شؤون التحرك السياسي الممهد والحرك للفكرة العربية ولنزاعات الاستقلالية". أنظر : عبد الرؤوف سنو النزاعات الكيانية الاسلامية، المرجع السابق، ص 46.

³ - نفس المرجع، ص 48.

⁴ - نفس المرجع، ص 40 .

⁵ - نفس المرجع ، ص 44.

رفيقه الشيخ الأزهري الذي زار كل من حلب، حمص، حماه و العشائر العلوية في اللاذقية ثم حوران و جبل الدروز ثم بيروت.

عقد الأعيان عدة اجتماعات سرية في بيروت من أجل وضع الخطط و اتخاذ القرارات اللازمة¹، و بعد أن استكمل زعماء الحركة كل الوسائل الممكنة لإنجاح خططهم عقدوا مؤتمرا سوريا في دمشق يضم ثلاثين عضوا منهم السيد محمد الأمين من الأشراف الحسينيين يمثل جبل عامل و الحاج علي عسيان رأس الأسرة العسيرانية المعروفة في صيدا وغيرهم و اتفق المؤتمرون على ما يلي:

- استقلال بلاد الشام.

-إقتراح أحمد الصلح ترشيح الأمير عبد القادر الجزائري ملكا على هذه البلاد، نظرا للمؤهلات² التي تتوفر فيه فوافقه المجتمعون على ذلك، وقد حمل أحمد الصلح القرار إلى الأمير عبد القادر الجزائري.

أما الأمير عبد القادر فقد اقترح مايلي:

- بقاء بلاد الشام مرتبطة روحيا بالخلافة العثمانية.

- تتم البيعة للأمير من أهل البلاد جميعا³.

-لا يتم تحديد نوع الاستقلال الذي ستمتع به سوريا ذاتيا أو تاما إلا بعد مؤتمر برلين⁴.

روج بين أعضاء المؤتمر أنه في حالة محاولة الدول الأوروبية الاستيلاء على بلاد الشام فلا بد من طلب الاستقلال التام أما إذا ما تبين عكس ذلك فتكون الغاية تحقيق الاستقلال الذاتي كما هو الحال في مصر وبعض بلاد البلقان.

رغم ذلك فقد قام الأمير عبد القادر بجولة دعائية في المدن الشامية مثل صيدا، جبل عامر، القدس، نابلس و غيرها تمهيدا لتنفيذ البيعة المطلوبة ومن أجل معرفة موقف السوريين من ترشيحه لعرش سوريا ثم أرسل وفود إلى أوروبا لشرح القضية السورية وكسب تأييدها لهذا الاستقلال، وعندما شعر السلطان عبد

¹ - عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية ، المرجع السابق، ص، ص33، 49.

² - قد يكون هناك سبب آخر لاختيار الأمير فالأمير مثلا يمتلك قوة عسكرية من حاشيته يمكنه أن تقدم مساعدة و في هذا الصدد يذكر (إيميرت) " إن الأمير لديه قوة عسكرية من حاشيته تقدر ما بين 1000 الى 1200 رجل عملت فرنسا على تسليحها عشية الحرب الأهلية عام 1860 تمهيدا لمخططاتها في سوريا ،" أنظر: عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية ، المرجع السابق ص 50.

³ - علي معطي، المرجع السابق ، ص 34.

⁴ - عبد الرؤوف سنو ، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية ، المرجع السابق، ص 50.

الحميد الثاني بنشاط الحركة و أهدافها عن طريق جواسيسه، نفى بعض أعضائها إلى خارج البلاد منهم محمد الأمين الذي نفى إلى طرابلس الشام و منع الاتصال بين الأمير عبد القادر و أحمد الصلح¹.

ردود الفعل حول عقد المؤتمر

هناك تباين في المعلومات حول حركة الأعيان المسلمين في دمشق ، فالوثائق الفرنسية تشير إلى ظهور مشاعر حول تحقيق استقلال ذاتي في سوريا أثناء الحرب الروسية العثمانية، أما علي الزين فقد نفى عقد المؤتمر في دمشق و ذلك راجع لعدة أسباب منها :

-عدم وجود اتجاهات وطنية أو نزعات قومية في تلك الفترة الزمنية تحفز مسلمي الشام إلى تكوين إمارات صغيرة .

- دور الجامعة الإسلامية في جر المسلمين تحت مظلة الخلافة .

-إن الأعيان الذين وردت أسمائهم كأعضاء في الحركة السياسية لم تكن لهم نفوذ وسيطرة، كما أن المصادر المذكورة التي عاصرت الفترة الزمنية لم تشير إلى هذا المؤتمر².

- لم ينعقد المؤتمر في دارة الأمير عبد القادر و لم يحضر جلساته و لم يرسل من يمثله في هذا المؤتمر .

حسب عبد الرؤوف سنو لا يعني هذا الغياب - الأمير عبد القادر - أن المؤتمر لم ينعقد أساسا، فهذا شيء طبيعي بما أن المؤتمرين سيتناقشون قضية ترشيحه لمنصب عرش سوريا و سيتداولون أسماء أخرى غير اسمه، يمكن أن يحدث ذلك إخراجا لهم و لمكانة الأمير خاصة أن هذا الأخير قد تداول اسمه منذ الستينات في مشاريع فرنسية لفصل بلاد الشام عن الدولة العثمانية و إقامة دولة عربية اسلامية برئاسته، وفي هذا الصدد يذكر جابر ال صفا: " و قد أقر المؤتمر اختيار الأمير عبد القادر الجزائري (نزيل دمشق) أميرا على سوريا. و نقل القرار للأمير المغفور له أحمد باشا الصلح ... " و قد يكون الأمير رفض انعقاد المؤتمر في دارته كي لا يصطدم مع السلطات العثمانية³.

يرجع المؤرخ وجيه كوثراني عدم تطرق المصادر والمذكرات إلى هذا المؤتمر إلى تصاعد موجة استبداد السلطان عبد الحميد الثاني عن طريق جهاز الاستخبارات والجاسوسية، هذا ما جعل استحالة نقل المذكرات والتراجم المعاصرة وكنتيجة للحرب الروسية العثمانية ظهرت هذه الاتجاهات الفكرية والسياسية .

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص 35.

²-عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية،المرجع السابق، ص 41.

³- نفس المرجع ، ص 44.

أما المؤرخ محمد سعيد بسامفي يرى : "... إن تطور الأحداث في الدولة العثمانية من الفساد الإداري إلى التهديد للوجود الكياني كان من الممكن أن يحول العمل الإصلاحية من دعوات نوعية على أيدي مصلحين إسلاميين إلى حركات إصلاحية سياسية وحتى إسلامية استقلالية كالحركة التي نحن بصدددها، فهذه الحركة لم تكن في غير مناخها"، وهذا ما يؤكد القنصل الفرنسي العام في بيروت حيث يذكر : " أن طموح السوريين إلى نوع من الاستقلال الذاتي يعود بشكل مباشر إلى فترة السيطرة المؤقتة لوالي مصر محمد علي ولكي تأخذ هذه الطموحات طابعا جديا ... كان لا بد من حصول أحداث ذات أهمية خاصة أن الحرب الروسية - التركية والتفكك الجزئي للإمبراطورية العثمانية الذي تلاها كان لهما أثر كبير في تحول هذه الطموحات الغامضة إلى آمال أكثر وضوحا و قوة".¹

لقد اتخذت الدولة العثمانية موقفا من حركة الأعيان عن طريق واليها جودت باشا الذي أمر بوضع كل من أحمد باشا الصلح وولده منح مع عدد من الأعيان في الإقامة الجبرية كما منع أي اتصال بين الأمير عبد القادر وأحمد باشا الصلح، أما أثناء ولاية مدحت باشا على سوريا عمل على مصلحة الأعيان والباب العالي حيث زار أحمد الصلح في منزله (الإقامة الجبرية) ولب دعوة الحاج حسين بيهم بزيارته في منزله، وفي الزيارة التي قام بها منح الصلح لمدحت باشا شرح له الأسباب التي دفعت الأعيان إلى عقد المؤتمر وأكد له أنهم تخوفوا من قيام دول استعمارية باحتلال بلاد الشام وبهذا يكون مدحت باشا قد لعب دور الوساطة بين الأعيان والدولة العثمانية وساهم في تهدئة الأوضاع وتحسين العلاقات خاصة أن بعد مؤتمر برلين تلاشت هذه الحركة، وفي إطار سياسة الجامعة الإسلامية التي انتهجها السلطان عبد الحميد الثاني فإن السلطان تقرب من أعيان المسلمين في بلاد الشام مدنيين أو رجال الدين ومنح لهم عدة امتيازات.²

تميزت فترة ضياء باشا عام 1877 والمشير عمر فوزي باشا ما بين 1877 _ 1878 مرورا بولاية جودت باشا سنة 1878 بالكثير من التناقضات بين العرب السوريين وبين العثمانيين، حيث طالب العرب المسلمون بالإصلاحات والحرية في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تعاني من عدة ازمات داخلية وخارجية ، إلا أن الجو العام في سوريا كان متمسكا بالخلافة العثمانية خوفا من وقوع المنطقة تحت الاستعمار الأوروبي وفي هذا الصدد يذكر الصلح: "لم تكن حركة الأعيان يثيرها الحقد على الخلافة (العثمانية)، ولا دعوة تسوقها يد غربية ذات أغراض وأطماع، بل كانت محاولة أهلية أصيلة صافية ...".³

¹ -عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 42.

² - نفس المرجع، ص 45.

³ - نفس المرجع ، ص 48.

وبعد مؤتمر برلين 1878 وجد أعضاء المؤتمر أن تحقيق هذه الأهداف أصبحت مستحيلة خاصة بعدما اتفقت الدول الأوروبية على مهادنة الدولة العثمانية¹. كما أن الحكومة العثمانية وعدت بإجراء عدة إصلاحات وأنهت ولاية جودت باشا وعينت مدحت باشا و دشنت سياسة الجامعة الإسلامية². وبعد هذا يمكننا القول أن نشاط أعضاء جمعية بيروت السرية وتحركات أعضاء الجمعيات الأخرى ودسائس مدحت باشا وألاعيب الخديوي مصر ومن ورائه الإنجليز في سوريا كانوا المسؤولين عن كتابة هذه المنشائر³. بما أن حركة الأعيان المسلمين تلاشت بعد مؤتمر برلين فمن الواضح أن لا علاقة لها بمسألة المنشائر⁴.

3- مشروع يوسف كرم: وضع يوسف كرم وهو لبناني ماروني تصورا للبلاد في حالة انهزام الدولة العثمانية في حربها مع روسيا فعرض على الأمير عبد القادر الجزائري مشروعا استقلاليا ينص على إقامة إمارات مستقلة في بلاد الشام على النموذج الكونفدرالي الألماني تخضع لحكم إسلامي برئاسة الأمير، على أن يضمن هذا الأخير مصالح المسيحيين في جبل لبنان و حريتهم الدينية ويسهر كل اقليم منها على صيانة إمارته وترتبط مصالحه مع مصالح الحكومة الرئيسية فكتب للأمير ما يلي: ".... ثم إذا رأيت فحامتكم أن تعين على الأقاليم العربية أمراء مستقلون يدفعون إليكم أموالا مقررّة، و يوحّدون صفوفهم تحت رايتكم ضد كل تعدي قبل أن تتدخل بأمورنا الدول الاجنبية... وهذه السياسة قد استصوبتها حكومة بروسيا وتمشت عليها في نظمها جرمانيا من أقاليم مستقلة اتحدت بطريقة الكنفديراسيون". وطالب يوسف كرم من الأمير عبد القادر الجزائري بوضع قانون يضمن للمسلمين والمسيحيين الحقوق الأدبية والحرية المذهبية وهذا القانون يتماشى مع واجبات الدين والدنيا⁵، إلا أن الأمير عبد القادر لم يعطي أي موافقة نهائية لا للأعيان ولا ليوسف كرم لأنه كان ينتظر نتائج الحرب العثمانية الروسية و نظرا لعلاقته مع السلطنة فهو لا يريد أن يشترك في مؤامرة ضدها حفاظا على مركزه مع الدولة العثمانية، ومع ذلك فإن الأمير عبد القادر كان أكثر ميلا إلى مشروع الأعيان رغم أن يوسف كرم كان قد إتصل بالأمير عبد القادر قبل الأعيان.

عموما لا يوجد أي تنسيق بين المشروعين رغم أن الشخصية التي تم اختيارها واحدة إلا أن هناك اختلاف في الأهداف والإيديولوجيات بين المشروعين وإذا قارنا بين المشروعين مثلا سنلاحظ أن مشروع كرم يهدف إلى استقلال جبل لبنان ويكون هو حاكما عليه ولا يهدف إلى استقلال سوريا، بينما مشروع

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص -35.

²-عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 52.

³-علي معطي، المرجع السابق، ص 33.

⁴-عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 74.

⁵- نفس المرجع ، صص 48-51.

الأعيان مشروع إسلامي له قاعدة شعبية لأنه يهدف إلى الاستقلال الذاتي مع بقاء المنطقة تحت الخلافة العثمانية خوفا من التدخل الأجنبي خاصة بعد تحرك أساطيل الدول الأجنبية على الساحل السوري طوال عامي 1877-1878¹.

لم تتوقف مشاريع الاستقلال الذاتي لبلاد الشام بتلاشي حركة الأعيان المسلمين فإن بلاد الشام تأثرت بنتائج الحرب الروسية العثمانية في جميع الجوانب، فهذه الآثار يمكن أن نلاحظها في تغيير بريطانيا لاستراتيجيتها وأصبحت لها أطماع في احتلال سوريا وكذلك مشروع الاستقلال الذاتي لجمعية بيروت السرية ومشروع مدحت باشا لإنشاء خديوية سورية²، فأثناء ولاية مدحت باشا على سوريا ظهرت حلقة الشيخ الطاهر الجزائري مفتش للمعارف في الولاية، وهي حلقة تطرح قضايا سياسية تعمل سرا في بيت الشيخ طاهر الجزائري³، ولقد إلتف حول الحلقة الكثير من شبان دمشق منهم عبد الحميد الزهراوي، وشكري العسلي، عارف الشهابي وغيرهم⁴.

ولذلك عزل مدحت باشا وتعرض الشيخ الطاهر الجزائري للمراقبة، وألغيت وظيفة مفتش المعارف إلا أن الطاهر الجزائري عرضت عليه في سنة 1898 مهمة مفتش دور الكتب العامة.

رفض الشيخ الطاهر الجزائري السياسة التي تسلكها الدولة العثمانية اتجاه العرب خاصة إهمالها للتعليم والثقافة ، و أصبح يندد باستبداد السلطان علانية خاصة بعد إقالة الوالي مدحت باشا ولذلك تعرض لمراقبة الجواسيس، رغم أن الشيخ كان من الدعاة إلى الجامعة العثمانية لكن استبداد الولاة الأتراك دفعه إلى تأييد فكرة الأمة العربية والقومية العربية كمبدأ وأصبح من دعاة التعاون مع الانجليز لتحرير البلاد العربية من ظلم الأتراك خاصة في عهد الاتحاديين⁵.

لم يكن مشروع الأعيان المسلمين في بلاد الشام و لا للشائعات عن خديوية سوريا برئاسة مدحت باشا ولا نشاط الجمعيات السرية ما يخشاه السلطان بل ما كان يحاك من مشاريع أجنبية تجاه ما تبقى من ممتلكات الدولة العثمانية⁶، خاصة أن ما ميز هذه الفترة هو تتبع قناصل الدول الأوروبية للأحداث

¹ -عبد الرؤوف سنو، المرجع السابق، ص 51.

² - نفس المرجع، ص 69.

³ -محمد العريس، موسوعة التاريخ الاسلامي (العصر العثماني)، دار اليوسف لبنان، بيروت، 2005، ص 302.

⁴ -علي المحافضة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 131.

⁵ -عبد العزيز لعميد، المرجع السابق، ص - ص 133 - 134.

⁶ -عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص 80.

التي عرفها الشام وهذا ما يدل على محاولة هذه القنصليات في إضعاف السلطة المحلية من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية¹.

ومن الشخصيات العربية التي قاومت السلطان عبد الحميد الثاني خليل غانم عضو عن بيروت في مجلس المبعوثان الأول سنة 1876، حيث أصدر في جنيف جريدة الهلال ثم أصدر في باريس جريدة أخرى بالفرنسية le jeune turque كما هاجم السلطان في صحيفة France debats وصحيفة L'eclair international واشترك مع أحمد رضا في إصدار صحيفة مشورت في باريس بمشاركة الأحرار العرب والأتراك وكانت الجريدة تدخل سرياً إلى الدولة العثمانية، و أمام ما تكتبه صحيفة مشورت رفع السلطان عبد الحميد الثاني دعوة باسمه لدى محكمة السين عن طريق سفارته في باريس سنة 1897 واتهم في دعواه أحمد رضا و خليل غانم أنهما يضمنان صحيفتهما مساساً به، وصدر حكم المحكمة وتغريمها بستة عشر فرنكاً فرنسياً وهو حكم مؤجل التنفيذ².

إن الثورة على السلطان عبد الحميد الثاني ابتهج لها القوميون العرب في بلاد الشام على أساس عهد جديد يتساوى فيه الجميع وعلقت الآمال على هذه الثورة لتحقيق الأهداف القومية، و لذلك انتقل مركز الحركة القومية إلى استانبول وتأسست هناك جمعية الإخاء العربي - العثماني برئاسة صادق باشا العظم وهو ضابط سوري في أركان الجيش العثماني ولها فروع عديدة في الولايات العربية .
ولذلك أسس ملاكي الأراضي وأصحاب رؤوس الأموال حزب الأحرار، وتعاون هذا الحزب مع السلطان عبد الحميد الثاني للقيام بانقلاب مضاد على حكومة تركيا الفتاة³.

لعبت الدول الأوروبية دوراً فعالاً في نشر الوعي القومي في البلاد العربية و في هذا الصدد يذكر عبد الرحمن البزاز في كتابه بحوث في القومية العربية: " ولقد سرت الروح القومية من أوروبا إلى بلاد الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وأخذت الأفكار القومية تتسرب إلى أبناء القوميات العديدة التي تتكون منها تلك الدول... ولقد كان من الطبيعي جداً أن تكون الإيالات العربية الواقعة على سواحل شرق بحر الأبيض المتوسط... بحكم صلتها بالغرب عن طريق التجارة والإرساليات والارتباط الديني والمذهبي بفريق من أبناء هذه المنطقة مهياً قبل غيرها للقيام بالدور الطليعي في الوعي القومي.... إن الشعور الجماعي للقومية العربية، والعمل بها بدأ.... في بيروت ثم ظهر في دمشق..... حيث أنشأت المطابع والجمعيات الأدبية.... وانتشرت الصحف والمجلات العربية واحتك الفكر العربي بالفكر الغربي عن طريق المبشرين

¹-مصطفى طلاس، المرجع السابق، ص 55.

²- محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 114.

³-إلياس شوفاني، المرجع السابق، ص 293.

والمدارس والكتليات التي أقامتها دول الغرب أو بعض الإرساليات الدينية كان المظهر الأول لبروز القومية العربية من حيث كونها عقيدة جمع أبناء العروبة و تمييزهم عن غيرهم من رعايا الدولة العثمانية...¹. إن الوعي السياسي القومي الذي عرفته الولايات العربية خاصة في بلاد الشام انقسم إلى عدة إتجاهات، فالإتجاه الأول يمثل السواد الأعظم (الأغلبية) ارتبطت بالدولة العثمانية لأنها تمثل الخلافة الإسلامية رغم أنها تعاني من مشاكل داخلية و خارجية، أما الإتجاه الثاني فيتكون من الطبقة المثقفة التي تؤمن بالتجديد وإجراء إصلاحات كقيام خلافة عربية، و إشراك العرب في مختلف شؤون الدولة و هذا ما عبر عنه عبد الرحمن الكواكبي هذه المجموعة لها علاقة بالأحرار الأتراك، أما الإتجاه الثالث فيضم المسيحيون العرب الذين درسوا في المدارس الأجنبية و تأثروا بالأفكار الغربية ينقسمون إلى فئتين منهم من آمن بقومية عربية متجردة من الإعتبارات الدينية و فئة أخرى أكثر تطرفا دعت إلى الانفصال عن الدولة العثمانية حتى و لو تحقق ذلك بمساعدة اجنبية و لذلك طلبوا بحماية الدول الأوروبية و أغلب أعضائها من لبنان، هذا الإتجاه الذي ستستغله الدول الاستعمارية في حالة وقوع المنطقة تحت الاستعمار حيث يصبح الوساطة بين الشعب والاستعمار بأنه سيحتل مناصب حساسة.

إن التيار القومي التركي و العربي من بين أصعب المشاكل الداخلية التي واجهها السلطان عبد الحميد الثاني، و لذلك زرع فرق من الجواسيس كأجهزة لمراقبة الصحف و التجمعات خاصة في بلاد الشام.

المبحث الثالث: التدخل الأجنبي

بدأت المصالح الأوروبية تنمو في الدولة العثمانية قبل القرن التاسع عشر إلا أن خطرها تجلى خلال القرن التاسع عشر حيث تنافست فيما بينها للحصول على أكبر قدر من الامتيازات في السلطنة و أكثر الدول الأوروبية تنافست إنجلترا و فرنسا التي وسعت من نفوذها في المنطقة العربية لضمان حصصها في حالة انهيار الدولة العثمانية.

استخدمت الامتيازات في الدولة العثمانية بطريقتين:

- وسيلة ضغط اقتصادي على الدولة العثمانية من أجل تحقيق مصالحها لأن اقتصاد الدولة يعتمد على هذه الامتيازات.

¹- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص-ص 623-624.

- مراكز التجسس و جمع المعلومات تفيد في تنفيذ المخططات العسكرية و غير العسكرية التي ستتحول فيما بعد إلى مراكز للتحرّض و إثارة الفتن¹.

إن الضغوطات الخارجية مهما استخدمت من وسائل ستبقى محدودة الفعالية و لذلك لا بد من وجود قوى تضغط على النظام من الداخل من أبناء الأمة، و لذلك عملت الدول الأوروبية عن طريق المدارس الأجنبية والارساليات التبشيرية، البعثات إلى أوروبا، تدعيم الجمعيات و الأحزاب، الصحافة و المنشورات، حركة الإصلاح الديني على تكوين فئة من أبناء تلك الأمة لها نظرة في التغيير على الطريق التي تريدها هذه الدول و تخدم مصالحها².

1-أسبابه:

هناك عدة اسباب فتحت باب للتدخل الأجنبي في بلاد الشام منها:

- الغزو المصري لبلاد الشام بقيادة محمد علي باشا: فبعد خروج المصريين من بلاد الشام شهدت فلسطين بعثات تبشيرية كثيرة خاصة في القدس التي أصبح بها أكبر نسبة من المبشرين عن أي مدينة أخرى في العالم في تلك الفترة الزمنية³.

- التنظيمات و الإصلاحات و الامتيازات الأجنبية التي سمحت للدول الأوروبية أن تتدخل في شؤون الدولة العثمانية عامة و بلاد الشام خاصة للحفاظ على مصالحها الاقتصادية و الاستراتيجية في الشرق وقد استغلت مسألة الأقليات الدينية و حقوقها المدنية كوسيلة لتحقيق أهدافها⁴.

- فتحت الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1860 الباب على مصرعيه أمام التدخل الأجنبي على الصعيد السياسي و العسكري خاصة بعد إنزال فرنسا لقواتها في بيروت⁵.

- نشاط المحافل الماسونية التي أسسها الإستعمار في الوطن العربي مع بداية الزحف الاستعماري والتي مهدت الطريق لاحتلال البلاد عسكريا وفكريا: ففي سنة 1873 تأسس أول محفل في فلسطين لتنتشر بعدها المحافل في مدن و قصبات فلسطين، وفي سنة 1894 تأسس أول محفل في لبنان و في سوريا⁶.

¹- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 95 وما بعدها

²- نفس المرجع ، ص 98.

³- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 280.

⁴- نفس المرجع، ص 279.

⁵- عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 330.

⁶- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 121

ولعبت المحافل الماسونية و على رأسها الجمعيات العالمية دورا فعالا في التأثير على مجريات الأمور في العالم العربي خاصة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر¹.

- إن الحروب التي شنتها الدول الأوروبية على الدولة العثمانية في هذه الفترة أجبرت السلطان على قبول و توقيع عدة معاهدات ولعل أهمها معاهدة سان ستيفانو² مع روسيا سنة 1878³.

2- مظاهر التدخل الاجنبي في بلاد الشام

1- في الجانب الديني: نظرا لوقوع سوريا على طريق المؤدية إلى المستعمرات في الشرق الأقصى تحصلت الدول الأوروبية و على رأسها فرنسا على إمتيازات دينية و ثقافية داخل بلاد الشام، و تتمثل في حماية ورعاياها المسيحيين الكاثوليكين، فأرسلت بعثات تبشيرية⁴ وقدمت العون المالي للموارنة والملكيين وعملت على تكوين الشباب العربي تكوينا فرنسيا بحيث يسهل ولائهم لفرنسا⁵، الأمر الذي تكرر رسميا في معاهدة برلين سنة 1878⁶، أثناء الحرب المصرية العثمانية ما بين 1839-1841 طلبت دول أوروبية أخرى بنفس الامتيازات وأصبحت تسعى إلى توطيد أقدامها في المنطقة، فمنذ معاهدة كوتشوك كاينرجي سنة 1774⁷ دخلت روسيا إلى حلبة الصراع وبسطت حمايتها على الروم الأرثوذكس في أراضي السلطنة ووضعت البطريركية الأرثوذكسية في القدس تحت تلك الحماية كما استعانت حكومة روسيا القيصرية " بالشركة الروسية- الأرثوذكسية " لبعث الكنيسة الروسية في فلسطين دورا فعالا لتحقيق أهدافها

¹- مفيدة محمد ابراهيم، نفس المرجع ، ص119.

²- هي أكثر المعاهدات ضررا بالدولة العثمانية حيث رسمت روسيا خريطة سياسية في البلقان كما أرادت، أما مؤتمر برلين الذي انعقد سنة 1878 من أجل حل المشاكل التي كانت بين الدولة العثمانية و الدول الأوروبية في الوقت الذي كان فيه المناخ الدولي متأزما لقد أصبح موقف الدولة العثمانية أكثر سوءا من جراء قرارات مؤتمر برلين و انكشفت نوايا الدول الأوروبية و أطماعها الاستعمارية في أملاك الدولة العثمانية، أنظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص450

³- محمد سهيل طقوش، نفسه، ص448.

⁴- جلال يحيى، المرجع السابق، ص-ص199-201.

⁵- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص165.

⁶- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص282.

⁷- عقدت في مدينة قينارجي بعد المفاوضات التي جمعت روسيا و الدولة العثمانية، خضعت هذه الأخيرة للضغط الروسي فوقع عليها في 21 جويلية 1774 تضم 28 بندا تنص على تنظيم العلاقات المستقبلية بين الطرفين العثماني و الروسي و أن يسمح للرومان الروس و لجميع رعاياها زيارة القدس و جميع الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، كما تتعهد الدولة العثمانية بتقديم التسهيلات و الحماية و ترفع عنهم دفع الجزية أو الخراج . أنظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص297

السياسية ساعدت بأموالها على إقامة المدارس و الكنائس و النزل و غيرها في البلاد¹، و هكذا اتخذت الدول الأوروبية الكبرى من حماية الأقليات الدينية و سيلة للتغلغل في فلسطين².

و في لبنان التجأت بريطانيا إلى تشجيع الدروز فاعتبروها راعيتهم و حاميتهم³ و بالتالي قسم رجال التبشير في كل منطقة إلى طوائف و أصبحت هذه الطوائف كدعائم لهم في المنطقة و لذلك تبني زعماء الحركة العربية الحديثة و خوفا من الانقسام شعار الدين لله و الوطن للجميع فأبعدهم هذا الشعار عن إخوانهم في الدين الأتراك⁴.

حقيقة إن الدولة العثمانية خلال مرحلة القوة لم تعطي أهمية للنشاط التبشيري، لكن الموقف تغير حيث أصبحت البعثات التبشيرية أداة في يد الحكومات الأوروبية تعتمد عليها في بسط نفوذها الديني و الثقافي والسياسي. و تعتبر الامتيازات الدينية أقوى الركائز الاستعمارية خاصة أن خطرهما تزايد في بلاد الشام مع القرن التاسع عشر، أدى ذلك إلى ثورات داخلية و نزاعات طائفية و التي استغلتها الدول الأوروبية في التدخل في شؤون المنطقة بحجة حماية الأقليات الدينية في الوقت الذي كانت فيه الدولة عاجزة على إرضاء الطوائف و الملل⁵.

2- في الجانب الثقافي: في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعددت الدول الأوروبية التي لها نفوذ ثقافي في بلاد الشام⁶ حيث أنشأت مدارس و كليات منها: فرنسية، انجليزية، أمريكية، روسية، ايطالية، و ألمانية ونشطت هذه الأخيرة حتى في البعثات التبشيرية⁷، و في هذا الصدد أكد كبير أهمية المدارس في التمهيد لاحتلال إذ قال: "إن التربية الوطنية في سوريا كانت بكاملها في أيدينا و في بداية الحرب 1914-1918 كانت أكثر من اثنين و خمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا و كان من بين هؤلاء فتيان وفتيات ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس تعلن عام 1917 أن جميع قلوب السوريين و عواطفهم تتجه إلى فرنسا..."⁸.

¹ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 282.

² - الكزنندر شولش، المرجع السابق، ص 69.

³ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 165.

⁴ - جلال يحيى، المرجع السابق، ص 202.

⁵ - محمد سهيل طقوس، المرجع السابق، ص 600.

⁶ - جلال يحيى، المرجع السابق، ص 202.

⁷ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 164.

⁸ - مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 105.

بلغ عدد المدارس في سوريا في سنة 1860 مالا يقل عن ثلاثة و ثلاثين مدرسة و ارتفع عددها عام 1910 إلى أكثر من مئة مدرسة¹.

لقد عملت مدارس الارساليات التبشيرية والأجنبية إلى تحقيق هدفين أساسيين هما:

- 1- نشر العلمانية والاحاد بين أبناء الأمة و بما أن أكثرها مدارس الارساليات التبشيرية التي لم تكن في حقيقتها إلا مدارس تبشر بالعلمانية وتخرج منها آلاف الطلبة العلمانيين.
- 2- إعداد قادة يقومون بتغيير قيم الأمة و يعملون على تنفيذ التغيير عندما تسمح لهم الفرصة في تولي مواقع المسؤولية، و في هذا الصدد يذكر اللورد ألبي في مأدبة عشاء أقامتها له الجمعية الانجليزية المصرية: " لقد نفذت السياسة التي وضعتها الحكومة البريطانية و هي عندي سياسة حسنة... و أي واثق أن السواد الأعظم من المتعلمين يرغبون في أن يكونوا أصدقاء لنا..."².

إن هذه المدارس تختلف فيما بينها بحسب انتماءاتها إلى الكنائس و الدول التي تمولها و تدعمها و بالتالي أثرت هذه المدارس الشباب العربي و شكلته تشكيلات مختلفة مما أدى إلى تعدد الانتماءات ليس داخل الأمة فقط و إنما داخل الأسرة الواحدة³، و بالقدر الذي كانت فيه هذه الدول تدعم مدارسها التبشيرية كانت تعارض مراكز التعليم الوطنية العربية و الاسلامية لأنها تعمل على توحيد كلمة الأمة، و في سوريا مثلاً تعرضت المدارس المحلية الوطنية إلى حملة من أجل اعجازها و اضعافها و التآمر على مؤسسيها مثل ما قام به القنصل البريطاني في دمشق مع مدارس المقاصد الخيرية حيث حرض السلطات التركية ضدها فاتهم العلماء بإعداد مناشير ثورية: ففي رسالة له بتاريخ 2 اوت 1880 أشار " إلى ظهور مناشير وجد إحداها أمام باب داره، و قال أنه من الواضح أن المنشور بقلم أحد العلماء لأن جانباً منه صبغ بلغة قرآنية. ومع ذلك فهو ثوري لأنه يدعو للقيام و التخلص من حكم الذين امتهنوا مبادئ القرآن وتصرفوا كمشركين... وجلبوا البؤس والدمار إلى المؤمنين في سورية..."⁴.

وفي سنة 1870 تأسست جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية إلا أنها توقفت سنة 1881 وحل محلها في 1900 مدرسة أمريكية للأبحاث الشرقية في القدس. كما أقام الرهبان الدرمينيكان الفرنسيون سنة 1890 المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية، و أنشأ الألمان جمعيتان الجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية سنة 1877 و الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية سنة 1897⁴.

¹- ناجي علوش، المرجع السابق، ص 57.

²- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 105، 101.

³- مفيدة محمد ابراهيم، نفس المرجع، ص 107.

⁴- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 110، 282.

كما لعبت الصحافة الفرنسية دورا فعالا في بث أفكار فرنسا و من بين هذه الجرائد "الاتحاد اللبناني، الثبات، الأحوال، البشير،...الخ"¹.

يعتبر لبنان البلد العربي الأكثر تجاوبا مع المدنية الغربية تجاوبا تلقائيا و حميما. و لذلك اختار المرسلون قرى لبنان نقطة انطلاق نحو ادخال المنطقة ضمن الحضارة الغربية، و قد نال السكان النصارى قسطا كبيرا من هذه الثقافة الغربية مما أثر ذلك على الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الروحية والعقلية². عموما لقد خلفت المدارس الأوروبية و الأمريكية المتنوعة اضطرابا عاما في بلاد الشام لأنه أصبح فريسة لانقسامات داخلية. و صارت الانقسامات و الخلافات الطائفية وسيلة سياسية للتغلغل الأجنبي في المنطقة.

إن تغليب اللغة الأجنبية على حساب اللغة العربية أثر على اللغة العربية كلغة قومية³ و كذا إثارة الأقليات و تغذية القوميات، و لذلك احتضنت فرنسا المثقفين المتنورين و شجعتهم و ساندتهم لعقد المؤتمر العربي الأول بباريس سنة 1913⁴.

3- الميدان الاقتصادي:

تحصلت النمسا و فرنسا في سنة 1837 على امتياز إقامة خدمات بريدية في المدن الرئيسية من بلاد الشام، و في الفترة الممتدة ما بين 1865-1881 أقيمت خدمات تيليغرافيه بين المدن الفلسطينية واستانبول وأوروبا، عبر الطريق الذي يربط بين يافا و القدس و أخرى بين القدس والخليل ونابلس، فانتعشت حركة السياح و الحجاج إلى المنطقة⁵، و لذلك أرسلت في سنتي 1880-1881 بعثتان إلى سوريا و فلسطين لدراسة الوضع و جمع المعلومات حول الطرق الاستراتيجية و خطوط السكك الحديدية و إمكانية استثمار رأس المال...الخ⁶.

كانت لألمانيا أطماع اقتصادية في بلاد الشام حيث يشير التقرير الألماني الرسمي الذي رفع إلى غليوم الثاني عام 1888 بالصيغة التالية : " لايزال الشرق المنطقة الوحيدة البعيدة عن سيطرة الدول الأوروبية

¹- ناجي علوش، المرجع السابق، ص58.

²- فليب حتى، المرجع السابق، ص551.

³- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص-ص 165-166.

⁴- موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص274.

⁵- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص282.

⁶- الكزنذر شولش، المرجع السابق، ص69.

المباشرة و بإمكاناته الاقتصادية و البشرية من حيث تجعله حقلاً مثاليا للاستعمار الألماني، لذا وجب أن نجد للسيطرة عليه قبل أن تمتد إليه يد الغير ، و للشعب الألماني الحق كله ليدعي بنصيبه من هذا العالم، و الدول الأوروبية تحاول اليوم أن تتقاسم ما تبقى من الامبراطورية العثمانية ... و على ألمانيا بالاتفاق مع النمسا أن تحيط هذه المساعي بجميع الوسائل السلمية و غير السلمية، و من هذه الوسائل التغلغل الاقتصادي في المنطقة ، و العمود الفقري لهذا التغلغل هو أن ينشأ خط حديدي يتصل بسوريا و العراق عبر آسيا الصغرى، و علينا- ضمانا للنجاح- أن نتقرب من الشعوب التركية و العربية و أن يكون فتحنا لهذه البلاد فتحاً أدبيا و اقتصاديا يصون مصالحنا بصورة أكيدة و سليمة"¹، و فعلاً وقع ذلك: ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر حدث تقارب ألماني عثماني حل محل بريطانيا حيث تبنى غليوم الثاني قيصر ألمانيا سياسة تعرف بسياسة "الزحف شرقاً" على شكل تغلغل عسكري اقتصادي وثقافي. و يعتبر هذا التغلغل الألماني الاقتصادي في الدولة العثمانية نقطة تحول هامة في تاريخ المسألة الشرقية في العصر الحديث خاصة بعد زيارة القيصر الألماني للأماكن المقدسة في فلسطين سنة 1898 لحماية مصالح ألمانيا في الشرق العربي²، لم تتوقف زيارة القيصر في القدس بل زار استانبول و دمشق وأبرز أثناء خطاباته إشارات توحى بأن ألمانيا تعمل من أجل مصالح المسلمين الواقعين تحت الاستعمار³. وفي هذا الصدد يذكر القيصر الألماني في خطبته التي ألقاها في دمشق ما يلي: "فليطمئن صاحب الجلالة السلطان، و ليطمئن معه الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يحبونه لأنه الخليفة أنهم سيجدون في امبراطورية ألمانيا الصديق الدائم لهم". وللتعبير عن شعوره نحو العرب وضع على قبر صلاح الدين الأيوبي إكليلاً من الزهور و أمر بصنع مصباح من الفضة للضريح.

لقد أدرك السلطان عبد الحميد الثاني مدى قوة هذا الحليف في المحافل الأوروبية، و أطماعه في السلطنة ومع ذلك منح عدة امتيازات لألمانيا⁴ التي تتمثل في بعث مشروعات استغلالية ضخمة، و لعل أهمها سكة حديد بغداد و البصرة، مع العلم أن ألمانيا في بداية الأمر أخفت نشاطها الاستعماري في بلاد الشام وعمدت إلى العمل هناك باسم السلطان عبد الحميد الثاني خاصة مشروع مد السكة الحديدية إلى الحجاز

¹-وجيه كوثراي، السلطة و المجتمع و العمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، المرجع السابق، ص-ص 127-128.

²-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص554.

³-رغم أن ألمانيا في تلك الفترة الزمنية كانت تمتلك هي أيضاً مستعمرات و لديها أهداف استعمارية. أنظر: ورنيز أنه ، "الوطنيون العرب و نشاطهم السياسي و الصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى"، الأصالة، ع 52، ديسمبر 1977، ص49.

⁴-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص147.

الذي كان تحت إشراف السلطان نفسه¹، و بهذه الصورة أصبح النشاط الاقتصادي الألماني يهدد المصالح البريطانية في الهند و يهدد حتى الأطماع الفرنسية في الشام²، و لذلك اهتمت بريطانيا بمرفأ البحر الأبيض المتوسط التجاري لحماية مصالحها في الهند و لحرصها على مصر و قناة السويس و حماية فلسطين، و لقد ساعدتها نتائج الحرب العالمية الأولى بتحقيق أهدافها و أطماعها الإستعمارية بعد انهيار كل من روسيا القيصرية و الدولة العثمانية³.

كما اهتمت فرنسا بمد خطوط المواصلات حتى في عهد السلطان عبد الحميد الثاني و بلغت قيمة رؤوس الأموال الفرنسية المستخدمة في سوريا عام 1911 بأكثر من 150 مليون فرنك و لذلك عمل الرأسماليون الغربيون على استثمار رؤوس أموالهم في المنطقة⁴.

4- في الميدان السياسي و العسكري:

كتب الكولونيل تشرشل في منتصف القرن التاسع عشر يقول : " إذا كانت بريطانيا ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق فإنه ينبغي لها بشكل ما أن تدخل سوريا ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها. أعلن نابليون أنه سيجعل من مدينة عكا مفتاحا للشرق، وكانت عبقريته العسكرية على صواب في تقديرها أهمية هذه البلاد (الشرق الأدنى).... " ⁵. ولذلك عملت الدول الأوروبية على إثارة الطوائف الدينية والقومية على الحكومة المركزية و خير مثال ما وقع في لبنان حيث كانت فرنسا على علاقة مع الموارنة وبريطانيا على علاقة مع الدروز، فإثارة الفوضى كانت عن طريق تدعيم المتمردين بالمال والسلاح. لم يغفل حكام

¹-جلال يحيى، المرجع السابق، ص- ص209-210.

²-جلال يحيى، نفسه، ص210.

³-مصطفى كزيم، المرجع السابق، ص322.

⁴-ناجي علوش، المرجع السابق، ص60

⁵-عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ص547.

الولايات الأتراك لكنهم لا يمتلكون الوسائل لمواجهة ذلك خاصة بعد حرب القرم¹، وكانت النتيجة هو اقتتال بين طائفتين في جبل لبنان في الفترة الممتدة ما بين 1841-1860².

لقد ناصرت فرنسا الحركات الاستقلالية في لبنان و لم تخرج من الجبل الذي احتلته في سنة 1860 لمدة سنة إلا بضغوطات دولية³. إن الصراع القائم بين الموارنة و الدروز يعود في جذوره إلى العصبية الاقطاعية و لولا وقوف بريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية ما استطاعت هذه الأخيرة إرغام القوات الفرنسية على الجلاء من جبل لبنان، و لذلك فصلت الدول العثمانية بيروت عن ولاية سوريا سنة 1887 و شكلت منها ولاية جديدة و ربطتها مباشرة باستانبول لمراقبة القناصل الأجانب الذين اشتكى منهم أهالي سوريا لأنهم يثيرون الفتن بين الأهالي، و لم يقتصر هذا الكره على المسلمين فقط فحتى بعض الطوائف المسيحية كانت تكن الكراهية للقناصل⁴.

إن تحرك بريطانيا أثناء الحرب العثمانية الروسية جاء نتيجة لتخوفها من اندفاع روسيا من آسيا الصغرى باتجاه خليج الاسكندرون، و تأسيس دولة أرمنية تكون تحت المراقبة الروسية و هذا ما يهدد المصالح البريطانية في الهند. فحذرت روسيا " من أية محاولة لعرقلة الملاحة في قناة السويس أو القيام باحتلال مؤقت لمصر أو اجراء أي تعديل في نظام الممرات". و لذلك خططت بريطانيا لتأسيس قاعدة في الحوض الشرقي من البحر المتوسط قد تكون سوريا أو قبرص من أجل حماية مصالحها ذات البعد الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي خاصة بعد أن استحوذت على أسهم الخديوي اسماعيل في قناة السويس سنة 1875⁵، وخوفا من إثارة كل من فرنسا و روسيا اكتفت بريطانيا بقبرص و هذا لا يعني أن بريطانيا تخلت عن مخططاتها تجاه بلاد الشام و خير دليل على ذلك أنه في 16 ماي 1878 أعلن ساليزبوري

¹ - اندلعت حرب القرم سنة 1854 وتعتبر في تاريخ الحديث من أهم مراحل المسألة الشرقية، حيث وقفت إنجلترا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا وخرجت الدولة العثمانية من حرب القرم وهي في حالة ارتباك، هناك من يرى أن أسبابا ترجع إلى خلافات دينية بين فرنسا وروسيا حول الأماكن المقدسة في فلسطين، في حين يرى البعض الآخر أن تضارب المصالح الاقتصادية والتجارية والسياسية بين الدول الأوروبية هي من الأسباب الغير المباشرة التي لا تقل أهمية. عموما عقدت إنجلترا وفرنسا والنمسا معاهدة جماعية في 25أفريل 1856 تعهدت فيها مجتمعة ومنفردة باحترام استقلال الدولة العثمانية و ضمان سلامة وتماسك أراضيها وممتلكاتها وهذا ما قررتها معاهدة باريس فيما بعد. أنظر: محمد سهيل طقوس، المرجع السابق، ص، 384 وما بعدها

² - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 280.

³ - احمد شلبي، المرجع السابق، ص 672.

⁴ - عبد العزيز محمد عوض، الادار العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 331

⁵ - عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص-ص 67 - 69.

لا يارد عن الأسباب التي دفعت بريطانيا لاختيار قبرص كقاعدة لها و أهمية سوريا و آسيا الصغرى في استراتيجية بلاده حيث يقول : " إن لقبرص ... ميزة مزدوجة بأنها تجاور آسيا الصغرى و سوريا و هي ستمكننا عند الحاجة من تجميع المعدات الحربية و القوات الضرورية لأجل عمليات في آسيا الصغرى و سوريا دون أي عمل عدائي مكشوف و دون الاخلال بالسلم في أوروبا"¹.

رغم ذلك فقد كثفت بريطانيا نشاطاتها في بلاد الشام مما دفع السلطان عبد الحميد الثاني إلى الشدك في نواياها، فبين نوفمبر و ديسمبر 1878 قام سكرتير السفارة البريطانية في استانبول بزيارة سوريا، و في العام الموالي زار لا يارد المدن السورية ما بين سبتمبر و نوفمبر فتطلع على الإدارة العثمانية و سمع إلى شكوى رؤساء الطوائف الرئيسية من الإدارة العثمانية و موفقههم من الإصلاحات، و كما زار دروز المختارة و حوران و بعد ثلاث أيام من تلك الزيارة اندلعت ثورة درزية في حوران اتهم فيها الانجليز أنهم وراء تلك الثورة لأن ديبلوماسيتها تمكنت من ايصال رجلها مدحت باشا إلى منصب والي سوريا"².

و في سنة 1904 عقدت فرنسا اتفاق ودي مع بريطانيا تنص على أن تطلق فرنسا يدها في سوريا ولبنان مقابل اطلاق يد بريطانيا في مصر. و بدخول تركيا الحرب العالمية الأولى قررت انجلترا تنفيذ تقسيم الدول العربية حسبما كان مقررا في الاتفاقيات السرية و خاصة اتفاقية 1904³.

لقد أثر تدخل القناصل في نشاط الحكومة حيث أصبحت تصرفات القنصل البريطاني وودز لا تختلف عن تصرفات حاكم فعلي للبلاد⁴، و في المقابل كان بعض الولاة يشكون من تصرفات قناصل الدول الأوروبية منهم والي سوريا عبد اللطيف صبحي باشا الذي شكى من تدخل الانجليز في شؤون الدروز ما سبب للإدارة المحلية عدة مشاكل، و قنصل ايطاليا في دمشق الذي يثير المتاعب أمام الحكومة المحلية خاصة تدخله في شؤون طائفة الأرمن السريان وجاء هذا في التقرير الذي رفعه الوالي إلى الباب العالي، على عكس ذلك كانت العلاقة بين ولاة دمشق وقناصل ألمانيا طيبة لأن ألمانيا لم تظهر أطماعها في الدولة العثمانية خاصة بعد زيارة ولي عهد بروسيا لدمشق أثناء ولاية أحمد حمدي باشا وحرصا على استمرار العلاقات الودية بينهما، نقلت الولاية قائم مقام حيفا لحصول سوء تفاهم بينه وبين سكان

¹ - عبد الرؤوف سنو، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية ، ص 70 - 71.

² - نفس المرجع، ص 72.

³ - أحمد شليبي، المرجع السابق، ص، ص 667 ، 672.

⁴ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 279.

المستعمرات الألمانية في قضاء حيفا و عينت قائم مقام آخر¹، و الحقيقة أن الدولة العثمانية خوفا من اثاره مشاكل مع الدول الأوروبية كانت تطلب من ولائها معاملة قناصل الدول الأجنبية معاملة حسنة².

نظرا للعلاقات الودية التي كانت بين الدولة العثمانية و ألمانيا أعدت لجنة الجامعة المشتركة بين جامعتي باريس ولندن التي شكلتها حكومة نيرمان تقريرا سنة 1907 تذكر فيه: "إنّ الخطر الذي يهدد مستقبل الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية إنما يكمن في المنطقة المطلة على الشواطئ الشرقية و الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط حيث يقطن شعب تعداده خمسة وثلاثون مليون نسمة (انذاك) و يتمتع بثروات طبيعية وأسباب النهضة والقوة و الوحدة"³.

رغم أن السلطان عبد الحميد الثاني وطد علاقات وثيقة مع ألمانيا خاصة في الجانب العسكري إذ اعتمد على البعثات العسكرية الألمانية⁴ إلا أنه كان حذرا في معاملاته مع ألمانيا فعندما قال له الامبراطور الألماني: "إذا حدث و اشتعلت الحرب في أوروبا و قفتم في صفنا أليس كذلك يا صاحب الجلالة؟" أجابه السلطان: "أنتم صديق عزيز لنا، غير أنني لا أملك من الآن حقا يجعلني أعدكم بذلك، ولا يمكنني إلا أن أفكر آنذاك في هذا الأمر". فالسلطان عبد الحميد الثاني يرى أن الوقوف إلى جانب طرف من الأطراف إذا اندلعت الحرب سيزيد من لهيبها عموما فإن السلطان لم يعد ولم يرتبط بأي دولة من الدول⁵.

المبحث الرابع: الهجرة اليهودية إلى فلسطين (أو المشروع الصهيوني في فلسطين)

هيأت الظروف و الأوضاع العامة خلال القرن التاسع عشر الجو المناسب لنشوء وتطور الحركة الصهيونية و لعل أهم هذه الظروف الحركة الاستعمارية الأوربية الحديثة التي استهدفت بشكل خاص بلدان الشرق في آسيا و إفريقيا خاصة البلدان العربية⁶، إلا أن فكرة توطين اليهود لم تكن ابنة القرن التاسع عشر بل فكرت الدول الأوروبية قبل هذا في قضية توطينهم في الأراضي الخاضعة لها ولحماية مصالحها⁷.

لقد أنشأ الانجليز أول قنصلية لهم في القدس عام 1838 أي في عهد ابراهيم باشا ثم تلتها باقي القنصليات الأوروبية و الولايات المتحدة الأمريكية. ولهذا الأثر الكبير في تغلغل النفوذ الاستعماري في

¹ - عبد العزيز محمد عوض، الادار العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص329.

² - عبد العزيز محمد عوض، نفس المرجع، ص331.

³ - هيثم محي طالب الجبوري، زينب حسن عبد الجبوري، المرجع السابق، ص 1449.

⁴ - سيار الجميل، المرجع السابق، ص512.

⁵ - مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص118.

⁶ - بديعة امين، المرجع السابق، ص109.

⁷ - بديعة امين، نفس المرجع، ص154.

المنطقة حيث فتح الباب للهجرة اليهودية إلى القدس منذ عام 1856 و بعد إنشاء أول سكة حديدية بين القدس و يافا بدأ اليهود بالتغلغل في البلاد تحت ستار التنقيبات الأثرية، و هذا ما جعل مدينة القدس مفتوحة على العالم الخارجي خاصة أوروبا، مما سمح للمسيحيين و اليهود إقامة علاقات تجارية ودينية وثقافية مع أبناء طوائفهم في العالم الخارجي، و لذلك تحولت القدس في سنة 1874 إلى متصرفية القدس وربطت بالباب العالي مباشرة¹.

لقد أدرك هرتزل² أن لا مجال "لتجسيد المشروع الصهيوني من دون ربطه عضويا و مصيريا بالمشروع الإمبريالي العام ازاء منطقة الشرق الأوسط و راح يعرض على كل رئيس دولة أو حكومة الخدمات التي افترض أنه يرغب فيها، فعرض على السلطان عبد الحميد الثاني المال و الخبرة اليهودية لسداد ديونه، وعلى امبراطور ألمانيا أن تشكل " دولة اليهود" محمية ألمانية، مرتبطة بما سماه " المجال الحيوي الشرقي" لألمانيا وفي لندن عرض على شميرلين، وزير المستعمرات آنذاك أن تقوم الدولة الصهيونية بحماية قناة السويس و في روسيا³ عهد لوزير داخليتها بليفية أن يخلص روسيا من العناصر اليهودية المنخرطة في الحركات الاشتراكية والثورية و التي صارت تهدد حكومة القيصر⁴.

بعد حملة نابليون ازداد تخوف بريطانيا على طرق مواصلاتها و مصالحها مع الهند و رأت في اقامة استيطان يهودي في فلسطين تحت رعايتها عنصر هام في توفير تلك الحماية. و بعد حملة محمد علي كثفت الدول الأوروبية نشاطها للحصول على الامتيازات مع السلطنة العثمانية و كانت الأقليات الدينية

¹ - اللواء الركن، ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الاسلامي و العربي، ط1، دار الملتقى للطباعة و النشر بيروت، 1997، ص - ص 120-121.

² - ولد ثيودور هرتزل (بنيامين زئيف) في مدينة بودابست على نهر الدانوب من ابوين يهوديين كان أبوه موظفا في بنك تلقى تعليمه الابتدائي و الثانوي هناك ثم انتقل الى الكلية الانجيلية و عمره لم يتعد الخامسة عشر ثم انتقلت عائلته إلى فيينا فالتحق هرتزل بجامعة تخرج منها سنة 1884 حاصلا على درجة الدكتوراه في القانون نشأ هرتزل بين التقاليد اليهودية الدينية و بين الثقافة الألمانية العسكرية. اتجه هرتزل إلى الملوك و القياصرة و كل من لديه نفوذ و سلطة من أجل مشروعه. أنظر: أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية و اليهود، الدار العربية للموسوعات، ص-ص 124-125.

³ - استجابت روسيا لهرتزل عندما ارسل إليه وزير داخليتها في ذلك الوقت رسالة قال فيها : " ان خلق دولة يهودية مستقلة تستوعب عدة ملايين من اليهود بموافقتنا جيدا و لكن هذا لا يعني اننا مستعدون ان نتخلى عن جميع اليهود عندنا ، نريد أن نبقي ذوي الذكاء المتفوق منهم أمثالك ، فالنبوغ لا يعرف تفريقا لا في المذهب و لا في القومية، نريد أن نتخلص من الفقراء وذوي العقول الضعيفة و نبقي كل من يستطيع أن يندمج ". أنظر: عبد المنعم الهاشمي ، المرجع السابق ، ص 519.

⁴ - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 328

ذريعة لذلك وبررت الدعوة إلى توطين اليهود في فلسطين مرة أخرى و مع تفاقم المسألة الشرقية¹ والاعداد لاقتسام أراضي السلطنة، و افتتاح قناة السويس سنة 1869 و شراء بريطانيا أسهم مصر فيها² و من ثم احتلال مصر سنة 1882 برزت حيوية فلسطين الاستراتيجية للمصالح البريطانية و معها أهمية الاستيطان الصهيوني كحلقة في شبكة القواعد لحماية الطريق إلى الهند³. هنا أدركت بريطانيا الدور الحيوي الذي يمكن أن يلعبه وجود جسم يهودي غريب في منطقة الشرق الأوسط، و يعبر عن هذا الاتجاه اللورد شافتز بري حيث يذكر: " لو أننا أمعنا التفكير في قضية عودة اليهود على ضوء إقامة و استعمار فلسطين لاكتشفنا أن ذلك أرخص وأضمن طريق لتزويد هذه المنطقة القليلة السكان بكل ما هو ضروري"⁴.

كانت لفلسطين مكانة خاصة لدى المنظمة الصهيونية و هذا ما يعبر عنه ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بقوله: " و كان ممكنا لليهود أن يحصلوا على أغنثة أو مدغشقر، أو غيرها و لكن اليهود لا يريدون على الإطلاق سوى فلسطين، لا لإعتبارات دينية ، أو لسبب إشارة التوراة إلى فلسطين، و لا لأن مياه البحر الميت تستطيع أن تعطي عن طريق التبخر ما قيمته خمسة آلاف مليار دولار من المعادن والأملاح، و لا لأن تربة فلسطين الجوفية تحتوي على كميات من البترول تزيد على احتياطية في الأمريكيين فحسب، بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق بين أوروبا و آسيا و افريقيا، و لأن المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية". و بالتالي فإن فكرة توطين يهود أوروبا في فلسطين انبعث من أقيية وزارة الخارجية البريطانية في لندن. و لإزالة الغموض حول فكرة توطين اليهود في فلسطين ينبغي أن نعود إلى السياسة البريطانية الخارجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط منذ نشوء ما يعرف بالمسألة الشرقية⁵.

¹ - يعبر عنها سير ريدرولارد بأنها: " مشكلة ملئ الفراغ الذي ولده الانحسار التدريجي للإمبراطورية العثمانية عن الحدود التي بلغت في أوج توسعها ". حيث بدأ هذا الصراع منذ أواخر القرن السادس عشر بين القوى الأوروبية الاستعمارية المتصارعة من أجل احتلال مناطق استراتيجية من الأراضي التابعة للدولة العثمانية في الشرق الأدنى و هذا ما فجر الوضع في العقد الثاني من القرن العشرين من خلال الحرب العالمية الأولى". أنظر: بديعة امين، المرجع السابق، ص 146.

² - لعب اليهود دورا فعالا في دفع بريطانيا إلى شراء أسهم قناة السويس حيث يسرت الأموال اليهودية للحكومة البريطانية شراء هذه الاسهم إلا أن اليهود خابت آماليهم بعدما شددت الدولة العثمانية قانون دخول اليهود إلى فلسطين كما منعت الحكومة الروسية الهجرة اليهودية فتكونت جمعيات يهودية منها جمعية عشاق صهيون التي شجعت على الهجرة و مونت بالمال لشراء أراضي جديدة. أنظر: علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق ص-ص 261-262.

³ - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 327.

⁴ - بديعة امين، المرجع السابق، ص 151

⁵ - نفس المرجع، ص 146.

وسائل الاستعمار الاستطاني الصهيوني:

- تأسست عدة جمعيات ومنظمات وشركات يهودية هدفها واحد وهو نقل اليهود المهجرة إلى فلسطين و لعل أهم هذه الشركات والمؤسسات اليهودية التي سعت إلى شراء الأراضي العربية في فلسطين هي:
- جمعية التحالف اليهودي العالمي: تأسست على يد اليهودي الفرنسي أدولف كراميه مهمتها تعليم أبناء اليهود في فلسطين.
- جمعية رومانيا الاستعمارية: ساعدتها اللجنة المركزية لأحباء صهيون¹ هدفها تحقيق استعمار فلسطين على يد اليهود.
- يسود همعلا: أسسها رافيد ليو فنتين هدفها تقديم المشورة والعون للمهاجرين الجدد الى فلسطين.
- البيلو (مختصر للكلمة العبرية تعالوا نرحل لبيت يعقوب) سجلت رسميا في الدولة العثمانية سنة 1882 نقل مكتب البيلو إلى استانبول.
- جمعية أحباء صهيون: أول حركة صهيونية ذات طابع سياسي تعمل على تهجير اليهود إلى فلسطين و تأسيس المعاهد التعليمية فيها.
- الوكالة اليهودية (جمعية الاستعمار اليهودي): نشأت من خلال مؤتمر بازل 1897 دعمتها بريطانيا حيث قامت بتقديم مساعدات للمستوطنين من مال و عقار.
- الصندوق القومي اليهودي: تأسس في سنة 1901 هدفه شراء الأراضي في فلسطين وبيعها من أجل زراعتها و تعميرها.
- المصرف اليهودي للمستعمرات: عمل على تحسين إدارة المستعمرات في الشرق خاصة في فلسطين.
- مكتب فلسطين: تأسس عام 1903 هدفه تطوير التجارة والصناعة والإشراف على مراحل النشاطات الاستعمارية الاستطانية في فلسطين.
- البنك الانجليزي الفلسطيني: تأسس عام 1903 مركزه يافا وله فروع في مناطق أخرى من فلسطين عمل على دعم المشروع الصهيوني بامتيازات اقتصادية، قدم قروض للدولة العثمانية مقابل رفع القيود على الهجرة والحصول على امتيازات².

¹ - تأسست جمعية أحباء صهيون في أوروبا، انتشرت عبر المجتمعات اليهودية في كل من موسكو ووارسو وغيرها من المدن الروسية ثم انتقلت إلى بقية الدول الأوروبية كألمانيا و إنجلترا، أسست هذه المنظمة مع منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر عدة مستعمرات في فلسطين. أنظر محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 251.

² - فدوى نصيرات، السلطان عبد الحميد الثاني و دوره في تسهيل السيطرة الصهيونية على فلسطين 1876-1909، ص-ص 46-48 متوفر على الموقع الإلكتروني:

- و في السبعينات من القرن التاسع عشر، تأسست (الشركة الاستعمارية السورية -الفلسطينية) هدفها ضمان استعمار سوريا و فلسطين و المناطق المجاورة لها من طرف أشخاص من المسيحيين واليهود¹.

يرجع تاريخ إنشاء أول مستعمرة زراعية في فلسطين إلى سنة 1878 و هي مستعمرة بتاح - تكفا، مكان قرية ملبس العربية لكنها لم تعمر حيث أعيد تأسيسها سنة 1883 عن طريق مهاجرين جاءوا في موجة الأولى تدعمهم جمعية أحباء صهيون²، و نظرا للصعوبات التي واجهوها طلبوا مساعدة خارجية والتي لباهها البارون إدمون روتشيلد³، الذي اشترى أراضي من الإقطاعيين العرب بعد أن دفع رشوة لممثلي السلطة العثمانية ثم تسلم الأراضي للمهاجرين ليستوطنوا فيها بعد طرد الفلاحين العرب منها الذين كانوا فيها منذ زمن طويل ثم يتم استئجار العرب المطردين كعمال زراعيين لتطوير الأراضي المشتراة، وهكذا وضع المهاجرون أقدامهم في الأراضي الفلسطينية⁴.

لقد حدثت إتصالات بين زعيم الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل و السلطان عبد الحميد الثاني، وكان هدف السلطان من وراء هذه الاتصالات معرفة ما يلي:

1- معرفة حقيقة الخطط اليهودية.

2- معرفة قوة اليهود العالمية و مدى قدرتها.

3- إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود⁵.

يتفق معظم المؤرخين اليهود و العرب في أن بداية الاستعمار الصهيوني الفعلي لأرض فلسطين كان عام 1882 و ينقسم إلى مرحلتين:

¹ - محمد حافظ يعقوب، المرجع السابق، ص 19.

² - سلكت جمعيات حب صهيون طرق ملتوية في إقامة المستعمرات، خلال هذه الفترة تأسست المستعمرات الصهيونية الأولى في فلسطين منها: ريشون ليستون(عين قارة) و روش بناء و (الجاعونه) و زخرون يعقوف (زمازين) نس تسيونة أي معجزة صهيون (وادي جنيتيمون هذه المستعمرات من طرف المعونة المالية التي قدمها روتشيلد و كذلك المساعدات الجمعية اليهودية للاستعمار بفلسطين. أنظر عادل حامد الجادر، المرجع السابق، ص 97.

³ - يمتلك البارون روتشيلد يمتلك الكثير من الأراضي و أنشأ عددا كبيرا من البيوت لإسكان المهاجرين الممنوعين في هذه الأراضي. أنظر: د. اسماء رمضان الشيخ خليل، المرجع السابق، ص 31.

⁴ -عادل حامد الجادر، المرجع السابق، ص -ص 184- 185.

⁵ -مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، المرجع السابق، ص 28.

المرحلة الأولى: مرحلة الاستيطان غير المنظم و ينتهي عام 1900 تضم هذه المرحلة مشروعين، مشروع مونتيفوري، و مشروع أوليفانت.

المرحلة الثانية: مرحلة الاستيطان المنظم يبدأ عام 1900 و يتميز ببرنامج استعماري منظم له أهداف واضحة اعتمد على الاستعمار المدني و الاستعمار الإستيطاني. لقد تأسست في هذه المرحلة عدة مستعمرات تدرب فيها المزارعون اليهود على الزراعة وفق الأساليب الحديثة، تزامنت هذه الفترة التي تأسست فيها المستعمرات اليهودية مع بدأ إصدار فرامانات منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين كما عبر الأهالي عن رفضهم للنشاط الصهيوني عن طريق إرسال عرائض إلى استانبول موقعة من طرف جميع شرائح المجتمع رافضة بيع الأراضي خاصة في القدس.

رغم معارضة سكان المنطقة و تمردهم على بيع الأراضي لروتشيلد، إلا أن السلطات المحلية أجبرت السكان على الرحيل من أراضيهم بعد أن أسكتتهم بتعويضات رمزية و أسكنت مواطنين يهودا في أراضيهم. و في الفترة نفسها أنشأت حوالي ثلاثة و ثلاثون قوالبانيات (عبارة عن أحياء سكنية يهودية) من أجل تمكين اليهود الأجانب من الحصول على بيوت للسكن، جهزت هذه الأحياء بجميع المرافق الضرورية من مدارس و مشافي و أسواق... الخ¹.

بلغ عدد اليهود المهاجرين في الموجة الأولى 1882 - 1903 ما بين عشرين و خمسة وعشرين ألف مهاجر أغلبهم من الروس استقروا في القدس - الخليل - صفد - طبرية²، و لذلك تعتبر سنة 1882 نقطة تحول في تاريخ الصهيونية حيث نشطت فيها حركة أحباء صهيون بعد مقتل ألكسندر الثاني قيصر روسيا وما نتج عنه من أعمال عنف ضد اليهود في المدن الروسية هذا ما دفع اليهود المضطهدين إلى الهجرة والاستيطان في فلسطين والولايات المتحدة الأمريكية.

لقد أسس المهاجرون سنة 1882 ثلاث مستعمرات هي: " ريشون ليتسيونقرب من عيون قارة في السهل الساحلي إلى الجنوب من يافا و زخرون يعقوف (زمارين) في سفوح جبال الكرمن الجنوبية الشرقية و روش بينا (راس الزاوية) بالقرب من الجاعونة بين طبرية و صفد، و في السنة التالية أقاموا مستعمرة سيود همعلا على شاطئ بحيرة الحولة و نيس تسيونا في الساحل الجنوبي، و كذلك جددوا الاستيطان في بيت بتاح - تكفا (ملبس)³ رغم ذلك فقد تأكد تأكد هوفمان رئيس جمعية الهيكلين سنة 1882: " أن

¹ - فدوى نصيرات، المرجع السابق، ص-ص 44-46.

² - عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 600.

³ - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص-ص 319 - 321.

اقصاء العرب غير مستطاع في الحقيقة، لأنهم يشكلون الأكثرية الساحقة و هم أصحاب البلاد الشرعيون و ليسوا بالعزل أيضاً، بل أن قوة تركيا المنظمة تنظيماً جيداً من الوجهة العسكرية، تستطيع أن تمنع أي عمل عنيف ضد السكان الأصليين¹.

و فس سنة 1883 أقام البارون روتشيلد مستعمرة عقرون وأرسل مرشدين لتدريب المستوطنين على الزراعة² كما تأسست مستعمرة غديرة (قطرة) سنة 1884 في السهل الساحلي الجنوبي³.

و بعد توقف دام ستة أعوام، تجددت حركة الاستيطان لفترة قصيرة إذ تأسست مستعمرة رحو فوت (ديران) إلى الجنوب من يافا، و موتسا بالقرب من القدس و حديرا (الخضيرة) بين يافا و حيفا سنة 1894 و 1896 أقيمت مستعمرة بئر طوفيا (قسطينة) في الجنوب و متولا (المطلة) في أقصى الشمال⁴.

لقد تردد ثيودور هرتزل في بداية الأمر أين تكون الدولة اليهودية التي نادى بها هل هي في أغندا أو في قبرص أو الأرجنتين، و في المؤتمر الصهيوني الأول ببال 1897 حسم الأمر بأن تكون فلسطين هي الوطن الذي سيشكل حافز لليهود العالم انطلاقاً من اعتبارات دينية (الإرث اليهودي التوراتي)⁵.

بدأت الموجة الثانية للهجرة من 1904 و استمرت إلى غاية 1913 (أي حتى بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني) حيث بلغ عدد المهاجرين ما بين ثلاثين و أربعين ألف مهاجر⁶ و من أبرز قادتها دفيد بن غريون و اسحق بن زفي و بالتالي ارتفع عدد اليهود إلى فلسطين من 50000 في عام 1897 إلى 85000 عام 1914⁷.

موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين

عارض الموقف الرسمي العثماني من سنة 1881 إلى سنة 1917 الهجرة اليهودية تحت لواء الصهيونية إلى فلسطين⁸، إلا أن هناك اختلاف بين الموقف الرسمي العثماني الممثل بالسلطان و حكومته التي أصدرت عدة فوامانات تمنع فيه بيع الأراضي لليهود و الإدارة العثمانية المحلية في فلسطين التي تعاونت مع القناصل

¹ - الكزنذر شولش، المرجع السابق، ص 79.

² - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 322.

³ الياس الشوفاني، نفسه، ص 321.

⁴ - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 321.

⁵ - أنعام رعد: الصهيونية في الشرق الأوسطية من هرتزل إلى بيريز إلى النفق و الخطة المعاكسة، ط2، 1998، ص 54.

⁶ - عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 600.

⁷ - عبد الوهاب الكيلاني، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 21.

⁸ - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 323.

الأجانب و المهاجرين اليهود إلى فلسطين دون تسجيل أسمائهم على اللائحة الخاصة بالزوار مقابل دفع رشوة. و في هذا الصدد يذكر أليغازين يهوذا صاحب إحياء اللغة العبرية في فلسطين في مذكرة يهوده: " كان ألوف المهاجرين الروس الذين تدفقوا على فلسطين بسبب الاضطهادات الروسية الأخيرة يملأون شوارع يافا، مما أثار شكوك العرب ثم سرت الاشاعات و توترات عن قرب صدور أوامر تقضي بإبعاد المهاجرين عن فلسطين"¹.

و لذلك صمم السلطان عبد الحميد الثاني على الحفاظ على فلسطين حيث أصدر بعد وفاة الخديوي توفيق في 7 جانفي 1882 و تولي ابنه عباس حلمي فرمان التولية بمحدود مصر دون الاشارة إلى سيناء أي اخراج هذه الأخيرة من ولاية مصر، و هذا ما أدى إلى تأزم العلاقات بينه و بين بريطانيا التي لم تهدأ حتى أعادت سيناء إلى ولاية مصر في 8 أبريل 1892².

كما أرسل السلطان مذكرة إلى متصرف القدس رؤوف باشا³ يأمره بمنع يهود روسيا و بلغاريا و رومانيا من الدخول الى القدس خاصة يهود الروس⁴، و لذلك كان رؤوف باشا من حين لآخر يرسل القوات العثمانية للبحث عن اليهود المقيمين بطريقة غير شرعية لكن هذه القوات كانت في أغلب الأحيان تخضع للرشوة فدخل رؤوف باشا في صراع مع الهجرة اليهودية و قد ساعده في ذلك الموقف العربي الرفض للهجرة اليهودية⁵.

و لذلك اتصل اليهود الروس بالسفير الأمريكي في استانبول للتوسط لهم لدى السلطان من أجل السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين و رغم محاولة بريطانيا لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني بفتح باب الهجرة اليهودية مقابل الوقوف إلى جانبها إلا أن السلطان رفض ذلك⁶.

¹حسان الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 90

² - موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص 227.

³ - و في هذا الصدد يذكر الشيخ علي أحد شيوخ العرب الذين قرعهم إليه السلطان عبد الحميد فعاشوا في كنفه و في رحاب قصره فيقول: " إن عبد الحميد أرسل إلى ممدوح باشا ناظر الداخلية ليكلفه بالاتصال برؤوف باشا متصرف القدس الشريف ليقوم بالتحري فوراً عن اليهود في فلسطين و لاسيما في القدس، بحيث لا يبقى منهم إلا الزائرون لمدة محدودة ". أنظر: موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص 214.

⁴ - عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص 517.

⁵ -حسان الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص 92

⁶ -موفق بني المرجة ، المرجع السابق، ص-ص 214-216.

رغم رفض الباب العالي عن طريق اصدار مجموعة من الفرمانات سنة 1882 الهجرة اليهودية إلى فلسطين و بيع الأراضي لليهود الأجانب إلا أن الحكومة العثمانية عجزت في مواجهة الهجرة نظرا للطرق الغير قانونية التي اتخذتها الهجرة كتسهيل المسؤولين المحليين لها: ففي عام 1891 استطاع البارون روتشيلد أن يؤسس حوالي عشرون قرية يهودية في فلسطين¹.

وفي المقابل سمح الباب العالي لليهود المهاجرين من رعايا الدولة العثمانية فقط بالهجرة إلى فلسطين، وحسب الوثائق العثمانية فإن الباب العالي و السلطان عبد الحميد الثاني ضيق على اليهود الأجانب الدخول إلى فلسطين و القدس و في هذا الصدد منحت الدولة العثمانية سنة 1887 سفارة بريطانيا قرار يمنع يهود بريطانيا من الهجرة إلى فلسطين.

أما بالنسبة لزيارة الأماكن المقدسة فقد حدد الباب العالي في 1884 مدة الإقامة و التي لا تتعدى إقامتهم أكثر من شهر واحد² و بتدخل من بريطانيا أصدر السلطان فرمان آخر سنة 1888 يمدد الفترة إلى ثلاث أشهر يحمل فيها اليهود الغير العثمانيين جوازات سفر³. ومن أجل مواجهة الهجرة الغير الشرعية غيّر الباب العالي الوضع الإداري لبيت المقدس حيث أصبحت متصرفية خاصة تابعة له مباشرة بعدما كانت سنجقيه تتبع والي دمشق و الهدف هو مراقبة الهجرة اليهودية إلى فلسطين خاصة في فترة رؤوف باشا⁴ وطلبت من سفارات الدول الأوروبية بإخراج اليهود المتأخرين عن العودة إلى دولتهم بالقوة⁵. و في هذا الصدد يوضح السلطان عبد الحميد الثاني سبب رفضه للهجرة اليهودية إلى فلسطين في مذكراته فيقول: ".... فإذا كنا نريد أن يستمر العنصر العربي الإسلامي متفوقا في فلسطين يجب أن لا نسمح بهجرة اليهود إليها، و إذا كان الأمر عكس ذلك وسمحنا بالهجرة فغتهم في فترة قصيرة يسيطرون على الحكم و تصبح فلسطين تحت سيطرتهم...."⁶.

¹ -Gerard Degeord, op.cit, p 131.

² -عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص 517.

³ -عبد المنعم الهاشمي، نفس المرجع، ص 517.

⁴ -محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 485.

⁵ -د. اسماء رمضان الشيخ خليل، المرجع السابق، ص 31.

⁶ -حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 271.

رغم الاجراءات العثمانية لمنع الهجرة إلا أن الدول الأجنبية الأوروبية تتدخل و تقوم بخرق تلك الإجراءات، حيث تظهر لنا أحد القرارات الصادرة سنة 1880 "محاولة الدول الأوروبية إغراء الدولة العثمانية بكسب امتيازات في أوروبا و الحصول على الأموال بمقابل إعطاء أراضي لليهود بجوار القدس"¹. و لما رأت الدولة العثمانية أن بعض الدول الأجنبية تعرقل تنفيذ القرارات الحكومية طلب الباب العالي من متصرف القدس في شهر أوت 1887 الاتصال بقناصل هذه الدول و إبلاغهم استياء السلطان والسلطات العثمانية لعدم قيامهم خاصة في القدس و يافا بتسهيل اخراج اليهود الأجانب الذين انتهت مدة إقامتهم فجاء رد القناصل في 23 سبتمبر أنهم لم يقبلوا تنفيذ الأمر حتى يتلقوا تعليمات من سفارتهم في استانبول².

ومن هنا نلاحظ أن "هناك فجوة واسعة بين النظرية و التطبيق في سياسة السلطان عبد الحميد الثاني وقراراته في منع الهجرة إلى فلسطين و الاستيطان فيها". إن قرارات السلطان أو الفرمانات التي يصدرها بشأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لا تنفذ نظرا للعراقيل التي يواجهها من طرف نظام الامتيازات الأجنبية التي جعلت السلطان يصدر القرار ثم يعدل فيه وأحيانا يتراجع وذلك وفقا للمصالح الأوروبية الكبرى والصهيانية، و هذا ما يأخذ على السلطان اتجاه فلسطين خاصة أن القدس كانت تابعة مباشرة للأستانة فهو على علم عما يحدث في فلسطين وبالتالي فالمسؤولية لا يتحملها المسؤولون المحليون فقط لأن المخططات الصهيونية أعلن عليها بكل صراحة ولم تكن سرية خاصة في الصحافة الأوروبية وكانت ردود فعل السلطان على العرائض والشكاوي التي تصل من فلسطين هو التراجع عن بعض القرارات لفترة ثم سرعان ما تعود إلى ما كانت عليه من قبل. ولذلك يتحمل السلطان عبد الحميد الثاني مسؤولية توفير البنية التحتية للدولة اليهودية التي تأسست عمليا في قيام دولة اسرائيل³.

لقد وضع اليهودي الإنجليزي سير صموئيل مونتاجو سنة 1892 برنامجا لاستيطان اليهود على مساحة تقدر ب 250 ألف هكتار في منطقة شرق الأردن، فاقترح أن يرفع للسلطان التماسا بهذا الشأن مقابل أن يقوم بتسديد ديون الدولة العثمانية ثم اقترح مرة أخرى في سنة 1896 بيع فلسطين لليهود مقابل اثنان

¹ - أسماء رمضان الشيخ، خليل المرجع السابق، ص 21

² - حسان الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص ص 96.

³ - فدوى نصيرات، المرجع السابق، ص-ص 56-57.

مليون جنيه¹ وعندما تيقنت السلطات العثمانية من التسهيلات التي تقدمها بعض الدول الأجنبية² لهجرة اليهود إلى فلسطين أصدر الباب العالي في 29 جوان 1892 فرمان ينص على منع اليهود الذين يحملون جنسيات أجنبية من الدخول إلى فلسطين، و في هذا الصدد أشارت تقارير ديكسون، القنصل البريطاني في القدس في تقرير 14 فيفري 1892 ما يلي " إن التعليمات الصادرة عن الباب العالي تفيد بأن الهجرة اليهودية بقصد الاستقرار في فلسطين غير مسموحة بها"³.

وإذا ألقينا نظرة إلى موقف السلطان عبد الحميد الثاني من عروض هرتزل⁴ نجد أن السلطان كان واعيا بأطماع الحركة الصهيونية وكان يفرق بين الصهيونية و اليهودية وعندما قبل استقبال هرتزل لم يستقبله على أنه صهيوني بل على أنه رئيس لليهود وصحفي ماهر. وما يبين لنا وعي السلطان بخطر الحركة الصهيونية الإرادة السنية التي أصدرها في 05 نوفمبر 1900 بمنع إقامة الاسرائيليين الدائمة في فلسطين وهذا الفرمان أثار الصهيونيين ودفع بعض الدول الأوروبية إلى الاحتجاج عليه لدى السلطان وكان رد الباب العالي على أن هذا الفرمان تجديد لفرمان مماثل صدر منذ عشرين عاما⁵. وليؤثر هرتزل على سياسة السلطان عبد الحميد تجاه اليهود يذكر في مذكراته: " علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا... مليونان منها ثمننا لفلسطين والباقي لتسديد ديونها تمهيدا للتخلص من البعثة الأوروبية... و من ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها." رغم الاتصالات التي أجراها هرتزل إلا أنها باءت بالفشل فقد استعان للمرة الثانية بصديقه نيولنسكي الذي تربطه بالسلطان

¹- محمد عبد الرحمن بروج، المرجع السابق، ص 252.

²- في منتصف القرن التاسع عشر شجعت الحكومة الامريكية الاستيطان اليهودي في فلسطين وهذا من خلال ضغوطاتها على الباب العالي في استانبول فكانت تسمح لليهود زيارة فلسطين لمدة شهر ثم أصبحت المدة ثلاثة أشهر، ولقد نجح السفير الامريكي في استانبول مع نهاية القرن التاسع عشر على تصويت على قانون يسمح المساواة في الحقوق بين المسيحيين الامريكيين و اليهود ذوي الجنسية الامريكية و هذا ما سهل لليهود امريكا بالهجرة إلى فلسطين و شراء الاراضي. أنظر:

Ali Abu -Al-Hassan, la Palestine-Arabe sous occupation sioniste, El-

Moustakbal ; presse Beyrouth, 1^{ère} édit , 1991, p 12.

³- عاطف عبد، قصة و تاريخ الحضارات العربية في فلسطين، بيروت، (د.ت)، ص 115.

⁴- و في نفس السياق يذكر ثيودور هرتزل: " لقد فتح هشلر -قس بريطاني- الخريطة الخاصة بفلسطين في مقصورتنا و قدم لي تعليمات ساعة بساعة فالحدود الشمالية ينبغي أن تكون الجبال المواجهة لكابادوكية- منطقة داخلية في اسيا الصغرى- والحدود الجنوبية قناة السويس." أنظر: بدبعة امين، المرجع السابق، ص 154.

⁵- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص، ص 599، 200.

عبد الحميد الثاني صداقة فقال السلطان له : " هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين¹؟".

أجاب نيولنسكي قائلاً : - " تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود فعليه فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها".

ورد السلطان قائلاً : " إن فلسطين لا تعتبر مهذا لليهود فقط وإنما تعتبر مهذا لكافة الأديان الأخرى"². حدد هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول³ في بال عام 1897 في خطاب الافتتاح بقوله : " لقد اجتمعنا هنا لوضع الحجر الأساسي للبيت الذي سيأوي الأمة اليهودية و بالتالي قررت الحركة الصهيونية وضع برنامج قومي منظم له أهداف سياسية و التي تجد تأييد جماهيري: " إن هدف الصهيونية هو خلق وطن في فلسطين للشعب اليهودي يضمه القانون العام"⁴.

¹ -رفض السلطان اعطاء فلسطين لليهود ووافق على الهجرة اليهودية إلى آسيا الصغرى و بلاد ما بين النهرين العراق، و هنا يمكن أن نتساءل لماذا عرض السلطان على هرتزل العراق و هي أرض تابعة للسلطنة ؟ أن تمسك هرتزل بفلسطين و عرض العراق ليست إلا مناورة دبلوماسية، و لا يعقل أن يغضب السلطان أهل العراق وفيها أكثرية مؤيدة لسياسته في تلك الفترة. أنظر محمد مصطفى الهلالي ، المرجع السابق ، ص 89.

² - .أحمد نوري النعيمي، المرجع السابق، ص 132.

³ - أصدر مؤتمر بال 1897 تعريفا للصهيونية على أنها: " حركة ترمي إلى إنشاء وطن للشعب اليهودي شرعي معترف به في فلسطين. و في هذا الصدد يقول هرتزل بعد نهاية المؤتمر: " أستطيع أن أقول أنني أوجدت الدولة اليهودية سواء قامت هذه الدولة بعد خمس سنوات أم بعد خمسين سنة." . أنظر: علي حسن الخربوطلي، المرجع السابق، ص- ص263-264.

⁴ -عادل حامد الجادر، المرجع السابق ، ص-ص 10-11. أنظر كذلك عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، المرجع السابق، ص 224.

يبين لنا هذا المؤتمر مدى تطور أطماع اليهود فبعد أن كانوا يتطلعون إلى الهجرة إلى فلسطين تحت سيادة الدولة العثمانية، أصبحوا بعد المؤتمر يتطلعون إلى إقامة دولة عنصرية ولذلك بدأت المواجهات الجدية بين السلطان عبد الحميد الثاني والمؤامرات الصهيونية¹ التي تهدف إلى تجسيد المشروع الصهيوني².

وجاءت محاولة أخرى عن طريق اللورد اليهودي غوش سفير بريطانيا في الأستانة، وفي هذا الصدد يذكر السلطان عبد الحميد الثاني: "لما كان اللورد غوش الإسرائيلي أي اليهودي سفيرا بالأستانة عرض على الحكومة السنية أن يجعل تلك النواحي: جلعاد ، ومؤاب في غور الأردن التي مساحتها ستمائة ألف هكتار مستعمرة لليهود تحت نظارة الباب العالي، يسوسونها كما يشاؤون، بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغا عظيما من الدراهم غير أن الدولة السنية لم تلي دعوة غوش...."³. واصل هرتزل الاتصال بفامبري و مع رئيس الحكومة النمساوية كوير بر ومع نوري بيك في آن واحد من أجل الحصول على موعد مع السلطان فكتب إلى فامبري: "أتوسل إليك أن تتدخل حالا مع كوهين (السلطان) - كان هرتزل يسمي السلطان في الرسالة كوهين حفاظا للسرية وهروبا من الرقابة- بالطريقة التي تراها مناسبة بأسرع ما يمكن... وأن تخبره بأن ما سياثيه بهذا الشكل سيكون مفيدا جدا له واجعله يفهم أنه سوف يقوم بدور جميل إذا سمح بإدخال اليهود الذين لا مأوى لهم... وسوف يثمر إحسانه رأسا بالمنفعة ورأس المال له..."⁴.

وعندما عاد فامبري من استانبول في 08 ماي 1901 أخبر هرتزل أن السلطان سيستقبله ليس كصهيوني وإنما كرئيس لليهود كما حذر فامبري هرتزل من السلطان لأنه يكره الصهيونية: "إياك أن تحدثه عن الصهيونية إنها فانوس سحري والقدس مقدسة لهؤلاء الناس مثل مكة إلا أن الصهيونية جيدة ضد

¹ - بعد مؤتمر بال 1897 قررت الحركة الصهيونية التخلي عن الاستعمار غير المنظم ثم تطورت الفكرة إلى تحويل المهاجرين اليهود من مستعمر مستغل إلى مستعمر يعمل وحده في الأرض ولقد هيا لهذا القرار كل من صندوق الائتمان اليهودي للمستعمرات colonial trust 1898jewish و كذلك لجنة الاستعمار colonization commission 1898 و الجمعية الزراعية سنة 1900 في الولايات المتحدة الأمريكية و البنك الانجليزي الفلسطيني 1902 و الصندوق القومي اليهودي كيرن كايمت jewish national fund 1901 و مكتب فلسطين سنة 1908 و اشتركت هذه المؤسسات في هدف واحد هو التصميم على عملية الاستعمار و تمويلها و الاشراف عليها و هذا ما يدلنا على أطماع اليهود في أراضي العرب بأية وسيلة. أنظر عادل حامد الجادر، المرجع السابق، ص ، ص 185 ، 187 ، 193.

² -محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 489.

³ -موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص 224.

⁴ -أحمد نوري النعيمي، المرجع السابق، ص 87.

المسيحية"¹. وبفضل جهود نيولنسكي لدى الديبلوماسيين العثمانيين استطاع هرتزل أن يقابل السلطان عبد الحميد الثاني في ماي 1901 فعرض عليه مبالغ مالية كبيرة جدا مقابل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين. إلا أنه رفض كل الاغراءات بشكل جدي وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد الثاني: "انصحوا الدكتور هرتزل بالألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية التي جاهدت في سبيلها وروحها بدمائها فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت دولة الخلافة يوما فإنهم يستطيعون أنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي فإن عمل الموضع في بدني لأهون علي من أن أرى أرض فلسطين قد بترت من الدولة الإسلامية، وهذا أمر لا يكون إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة"².

ولقد كتب هرتزل عما جرى خلال تلك المقابلة مع السلطان عبد الحميد الثاني: "قلت له بواسطة ابراهيم، إني أكرس نفسي لخدمته لأنه يحسن إلى اليهود"³، واليهود في العالم كله يدنون له بذلك... وأكدت له أنني لا أنوي نشر أي شيء عن اجتماعنا الحاضر، بإمكانه أن يتحدث إلي بثقة مطلقة فشكرني وقال: "إني دائما صديق لليهود و الواقع أني لا أعتمد إلا على المسلمين واليهود"... وقال إنه حافظ دائما على إبقاء امبراطوريته مفتوحة أمام اللاجئين اليهود كملجأ لهم"⁴.

وخلال زيارة هرتزل استانبول في 15 ماي 1901 قابل هرتزل ومعه الحاخام موسى ليفي عبد الحميد الثاني لمدة ساعتين ومما تحدث به هرتزل: "إن اليهود مدينون لفخامتكم بالعرفان حول المعاملة التي قام بها أسلافكم ازاء اليهود في الدولة". رد السلطان عبد الحميد الثاني: "أرتئ أن أعرف مقاصدكم".

¹ - أنيس الصايغ، المرجع السابق، ص 172.

² - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 491.

³ - حسب الموسوعة اليهودية فإن السلطان عبد الحميد الثاني عامل يهود الدولة العثمانية معاملة حسنة و في هذا الصدد يذكر اليهودي ارمينيوس فامبري الصديق الشخصي للسلطان ما يلي: "...كان أول حاكم تركي يعطيهم المساواة أمام القانون مع رعاياه المسلمين و عندما استلم الحكم أمر بإعطاء رواتب شهرية لحاخام تركيا الأكبر و بمعنى آخر عامل الحاخام كما يعامل كبار موظفين الدولة...." أما المؤرخ شاهين مكاربوس و هو معاد للسلطان يذكر: "إن السلطان العثماني عامل اليهود معاملة طيبة و أنه في عام 1896 انعم بالوسام المجيدي على حاخام باشي الطائفة الإسرائيلية بمصر". أنظر: حسان الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص - ص 303-304.

⁴ - أنيس الصايغ، ت هلدا شعبان، المرجع السابق ص 173.

أجاب هرتزل قائلاً : " من مولانا نتحاصر بطلب حول إمكانية استيطان عبيدكم اليهود ". أجاب عبد الحميد قائلاً : " نعتقد بأن قومكم يعيشون بمساواة تامة في الدولة و أنكم تستفيدون من ثروات البلاد أكثر من باقي المواطنين أليس كذلك يا حاحام ؟ "

قال هرتزل : " أستغفر الله يا مولانا نحن نريد أن تخصصوا لنا فلسطين و التي تعود ملكيتها لكم مع استعدادنا بدفع قيمتها نقداً مع الزيادة و لكم مليون من الذهب"، فغضب السلطان عبد الحميد لثاني وصرخ فيهما : " لو كنت أعلم أنك جئت اليوم تطلب مني ما رفضت إجابتك إليه من قبل لما سمحت لك بالدخول علي¹."

و عندما فشل هرتزل في إقناع السلطان عبد الحميد الثاني وضع تقييم للمقابلة في 21 ماي 1901 قائلاً: "...إن عبد الحميد الثاني اسم جماعي لمجموعة من أخط الخبائث تمكنت من حرمان البلاد من أمنها وسعادتها... و لعل عار الإرشاء، الذي يبدأ على بوابة القصر و لا ينتهي إلا على بعد قدم واحد فقط من العرش.... إن أوباش قصر يلدز هم بالفعل عصاة اللصوص ... و هو وحده المسؤول، و هو السيد، الذي باسمه تقترب الأفعال، و باسمه تعلق جميع الفظائع التي لا يمكن أن يوحى بها إلا المجرم العريق المتوحش الجالس على العرش بينما الحقيقة في أن المجرمين يحيطون بالعرش"².

و نظراً لتراخي الموظفين في تطبيق الأوامر أصدر السلطان عبد الحميد إرادة سلطانية ثانية و قد عممت وزارة الداخلية إلى جميع الولايات العثمانية عام 1902- بهذا التأكيد : " كنا شددنا على منع دخول الإسرائيليين إلى أرض فلسطين، و لكن الموظفين تراخوا في تطبيق الأمر و أساءوا تأويله و الإسرائيليون يأتون بحجة الزيارة و يتوطنون كما أشعرنا متصرف القدس أن مكثهم لا يجوز بأي حال من الأحوال إن مأموري الدولة مسؤولون بشدة فوق العادة عن تنفيذ هذا الأمر بدقة و قد اتخذ هذا الأمر بقرار من مجلس شوري الدولة و مجلس الوزراء و صدرت فيه إرادة سنية من الخليفة"³.

¹- أحمد نوري النعيمي، المرجع السابق. ص- ص 87-88.

²- أنيس الصايغ، المرجع السابق، ص 178.

³- محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 101.

لقد عقدت المنظمة الصهيونية عشرة مؤتمرات¹، في الفترة الممتدة ما بين مؤتمر بازل و الحرب العالمية الأولى تم من خلالها تشكيل عدد من الهيئات التنظيمية و المالية لتنفيذ البرنامج الذي تم الاتفاق عليه في مؤتمر بازل²، و في سنة 1901 وضع حاييم ويزمان³ منهاجا تاما لجامعة عبرية و فتح لها فرع للآداب في القدس⁴.

و في محاولة أخرى تقدم بها ثلاثة من اليهود و هم مزراحي أفندي، قرصوه، جال ليون إلى السلطان عبد الحميد الثاني عام 1902 بعرض مغري يتضمن :

1- دفع جميع الديون التي كانت على الدولة العثمانية.

2- بناء أسطول لحماية ثغور الامبراطورية العثمانية.

3- يقدم قرضا بدون فائدة لانعاش مالية الدولة يقدر بخمسة و عشرين مليون ليرة ذهبية بشرط أن يسمح السلطان دخول اليهود إلى فلسطين للزيارة و السماح لليهود ببناء مستعمرة ينزل فيها اليهود قرب القدس الشريف، إلا أن السلطان رفض هذا العرض⁵، كما رفض المشروع الذي تقدم به هرتزل في ماي 1902 الذي ينص على تأسيس جامعة عبرية في القدس لأنها تعتبر وسيلة للتسلل الثقافي الصهيوني و تمهيدا لإنشاء سياسة استيطانية يهودية في فلسطين. و أخطر تحدي واجهه السلطان عبد الحميد الثاني هو عقد أول مؤتمر صهيوني في فلسطين في سنة 1903⁶، فقرر السلطان حظر النشاط الصهيوني السياسي الدولي في فلسطين حتى لا تتكرر الظاهرة مرة أخرى⁷.

¹ - يرى ديفيز تريتش 1870 - 1935 أن الاستيلاء على فلسطين لا يتم عن طريق الهجرة فقط و إنما عن طريق العنف وغزوها عن طريق قبرص و هذا ما يبدو أن هرتزل تأثر به ، حيث يذكر في هذا الصدد في أعقاب المؤتمر الصهيوني الرابع 1900 : " سوف نحتشد في قبرص و ننطلق منها في يوم من الأيام إلى أراضي اسرائيل لكي نستولي عليها عنوة ... و سوف اتقدم بمشروع قبرص في المؤتمر القادم ، و بما تمكنت من الحصول على دعم المليونيرة الكبار له مسبقا ... كما أنني سأعلن أمام المؤتمر الخامس 1901 بأن قبرص خطوة على الطريق إلى فلسطين و أن استيلائنا عليها سوف يحمل تركيا على الاقتناع بجدية موقفنا. " أنظر: بديعة امين، المرجع السابق، ص - ص 166 - 167.

² - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 331.

³ - نظرا لرفض السلطان الاستجابة لمطالب ويزمان وفرض فرمانات في الأماكن المقدسة التي تسامح فيها إبراهيم باشا التجأت قنصلية بريطانيا إلى تقديم المساعدة لشراء الأراضي بطرق ملتوية و باسم الأليانس. أنظر: ناجي علوش، المرجع السابق، ص 61.

⁴ - محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 205.

⁵ - انور الجندي، العالم الاسلامي والاستعمار، المرجع السابق، ص 170.

⁶ - أنيس الصايغ، المرجع السابق، ص 173

⁷ - نفس المرجع، ص 174.

يذكر البروفسور واربورغ : " إن الحق التاريخي الذي يستند على ملكيتنا لفلسطين قبل ألفي سنة لا مفعول له وحده... بل يتوجب علينا إيجاد صيغة عصرية لذلك الحق كي تضاف إليه هذه الصيغة تقوم على تدليلنا، إن لم يكن شرعياً أو حقوقياً فبحكم الواقع الفعلي، بأن فلسطين تخضع اقتصادياً لنفوذنا و أن جميع ما أحرزته تلك البلاد من تقدم كبير و ملموس يرجع في الأصل إلى مبادرتنا و قوة وسائلنا الاقتصادية وفعاليتها و لم ينشأ إلا بفضلها". و لذلك نجح تيار الصهيونية العملية بإنشاء وكالة صهيونية في يافا عام 1908 التي ساهمت في شراء الأراضي و إقامة مستوطنات زراعية و تعتبر الأسس الأولية لتثبيت الوجود الصهيوني في القطاع الاقتصادي (شركات، بنوك، مكاتب انماء...الخ) و مؤسسات مالية و قد تم إنشاء حوالي 59 مستعمرة صهيونية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى¹.

لقد كان رجال الدولة العثمانية هم المستفيدون أكثر من غيرهم من أموال هرتزل و حركته الصهيونية حيث كان يتعامل معهم إلا بالرشوة و في ذلك يذكر هرتزل عندما أراد الاتصال بعزت باشا² في 4 جوان 1903 كتب على ورقة منفصلة غير الرسالة الرسمية ما يلي: "كم تريد لنفسك لو نجح المشروع أطلب ما تريد و أذكر على ورقة غير موقعة الطريقة التي تريد لنا أن ندفع بها و أبعث إلي في مظروف مختوم عليه اسمي فقط، لن يعرف حامل الرسالة ما فيها تستطيع أن تعطيه طلبك هذا، و يبقى كل شيء سرا بيني و بينك فقط"³.

و عندما فشل هرتزل من الحصول على أي موافقة من السلطان عمل على تشويه صورته و ما يدل على ذلك هو التقرير السري الذي رفعه إلى لجنة الأعمال الصهيونية و الذي نشر في صحيفة فلسطين الصادرة في القدس 24 أوت 1921 يذكر فيها : " أقرر على ضوئي حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أما عن طريق الزج بها في حروب تنهزم فيها أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معا في آن واحد"⁴.

¹ -بديعة امين، المرجع السابق، ص-ص172-173.

² -عزت بك سياسي عربي من دمشق سطع نجمه أيام السلطان عبد الحميد الثاني سكرتير للسلطان نال الباشوية 1902 و وزيرا، و كان قوي النفوذ وصاحب سطوة على السلطان عرف بالفساد و الرشوة هرب من تركيا 1908 . أنظر: انيس الصايغ، المرجع السابق، ص529.

³ - انيس الصايغ، نفسه، ص397.

⁴ -محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 94.

و لذلك تأمر على الخلافة و في هذا الصدد يقول: "إن الأمور تتأزم في تركيا، و إذا ازداد هذا التأزم بخصوص المسألة الشرقية و انتهى إلى حد يقضي بتقسيم تركيا في المؤتمر الأوروبي فقد نتمكن من أخذ قطعة أرض محايدة لأنفسنا"¹.

إن السلطان عبد الحميد الثاني رفض بيع الأراضي لليهود في الأعوام 1891-1892-1900-1905 إلا أن الدول الأوروبية تتدخل و تفرض ضغوطات على الباب العالي عندما يصدر فرامانات تمنع بيع الأراضي و أحيانا أخرى حتى الحكام المحليين و المواطنين يساهمون في ذلك بعد رشوتهم .

و يرى عبد العزيز الشناوي أنه كان لعبد الحميد "زلة" في سياسته الفلسطينية و هي منح بعض اليهود "فرمانات" مكنتهم من شراء بعض الأراضي و بناء مستوطنات عليها، لكنه يعود و يستدرك بأن عدم تجاوز عدد اليهود في فلسطين 10% من سكان البلاد آنذاك يعود إلى سياسة عبد الحميد بالذات"².

إن المساعي اليهودية التي تزعمها هرتزل لم تنجح في استمالة السلطان عبد الحميد الثاني في تحقيق مشروعه و بعد عزله سمحت جمعية الاتحاد و الترقى لليهود تجسيد المشروع الصهيوني و هذا ما أدى إلى احتجاج النواب العرب في مجلس المبعوثان سنة 1912 على الهجرة اليهودية إلى فلسطين³.

بعد وفاة هرتزل لم يقترب زعماء الحركة الصهيونية من السلطان عبد الحميد الثاني حتى 1907- عندما زار ديفيد والفنسون (خلف هرتزل) استانبول و جرت مفاوضات غير مباشرة مع السلطان عبد الحميد الثاني عن طريق تحسين باشا السكرتير الأول في مقر يلدز لكن هذه المفاوضات فشلت⁴.

وافق المؤتمرين في المؤتمر الصهيوني السابع بتاريخ 30 جويلية 1905 بالاجماع على رفض أي نشاط صهيوني خارج فلسطين و الفريق المؤيد لهذه الفكرة يعرفون بالصهيونيين العاملين الذين أسسوا بنك انجلو - فلسطين عام 1903⁵ و في سنة 1905 أنشأت جمعية بصليل لترقية الحرف و الصناعة في القدس.

وفي عام 1907 تأسست مدرسة الجمناز اليهودية في يافا. كما أسس مصدر داود ولفسون دور للعمال في فلسطين. وفي سنة 1908 أنشأت اللجنة التنفيذية للجمعية الصهيونية في فلسطين وأصبحت

¹-مصطفى حلمي، المرجع السابق، ص 19

²-عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني و العرب، المرجع السابق، ص 13.

³-Dominique Sourdel, op.cit, p 117.

⁴-محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 100.

⁵-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 604.

يافا مركزا لها¹. وشركة تطوير أراضي فلسطين² وهكذا خططت المنظمة الصهيونية العالمية خطوة حاسمة لتطوير نشاطها الاستيطاني عبر إقامة مكتب فلسطين³ في يافا كممثل للمنظمة الصهيونية وذراع تخطيطي وتنفيذي لنشاطاتها في فلسطين³.

لقد أعلن المؤتمر الصهيوني التاسع المنعقد في هامبورغ سنة 1909 "بأن عهد منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد انتهى، وعاد اليهود موحدين بفضل "معجزة الثورة التركية"⁴ ولذلك دعت الكرمل إلى انشاء "جمعية وطنية فلسطينية" تضم أعضاء من نابلس، والقدس، ويافا، وحيفا وغزة لشراء أراضي الدولة - الأراضي المدورة- قبل أن يستولي عليها الصهاينة، وردت عليها الحركة الصهيونية باصدار صحيفة باللغة العربية هي "صوت العثمانية" التي أصدرها الدكتور شمعون مويال في يافا عام 1914 من أجل الرد على الصحف العربية و تهدئة الأوضاع⁵.

إن عطف السلطان على اليهود داخل الدولة العثمانية و في بلاد الشام خاصة لا يعد عيبا أو مساسا بقوانين الدولة، لأن السلطان يمثل الخليفة و التعامل مع المل و الطوائف الأخرى سواء يهود أو مسيحيين يسمح بها الدين الإسلامي شرط أن لا تتجاوز حدودها. فالسلطان أصدر العديد من الفرمانات حددت وضعية اليهود في فلسطين، فالخطأ إذن يرجع إلى الإدارة المحلية في فلسطين التي تعاطت الرشوة سواء مع قناصل الدول الأوروبية التي تحمي الأقليات اليهودية أو مع زعماء الحركة الصهيونية، في ظل غياب وسائل النقل و الاتصال التي تنقل شكاوي الأهالي المتضررين من الهجرة و من إغتصاب أراضيهم و ممتلكاتهم في وقت سريع إلى السلطان وحتى جهاز الجوسسة الذي إعتد عليه فأحيانا لا يرسل تقارير صحيحة ودقيقة إما عن قصد أو غير قصد، والسلطان كشخص واحد محاط بإدارة فاسدة حتى في العاصمة وتربص به الدول الاستعمارية ومخططاتها من الخارج لا يستطيع مواجهة الصهيونية العالمية المدعومة بقوة خارجية لأنها تتحكم بالمؤسسات المالية و السياسية العالمية.

¹-محمد كرد علي، المرجع السابق، ص204.

²-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 604.

³-الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص331.

⁴-عبد الكريم مشهداني، تركيا الفتاة وارتباطاتها المشبوهة باليهودية العالمية، مجلة المنعطف، ع 3-4، 1992، ص30.

⁵-علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين عصر النهضة"، المرجع السابق، ص 307.

الموقف الشعبي العربي اتجاه النشاط الصهيوني:

يتجلى الموقف العربي في:

- تقديم العرائض و الشكاوي التي رفعها أهالي فلسطين إلى السلطان مطالبين منه بتوقيف الهجرة و الاستيطان و تنبيهه السلطان إلى الخطر الصهيوني.
- نشاط الأعيان و أصحاب النفوذ خاصة في القدس لمواجهة المشروع رغم أن فلسطين لم تشهد حركة مقاومة منظمة و مهيمنة.
- قدم وفد من وجهاء فلسطين احتجاج ضد والي القدس عام 1890 وأرسلوا عريضة إلى السلطان شرحوا فيها تواطئ بعض المسؤولين في فلسطين في بيع الأراضي بين حيفا- و يافا للمستوطنين اليهود.
- و في سنة 1891 أرسلت برقية موقعة من خمسمائة فلسطيني إلى الصدر الأعظم يطالبون بتوقيف الهجرة و بيع الأراضي¹.
- أرسل يوسف ضياء الخالدي مبعوث القدس إلى مجلس المبعوثان في مارس 1899 إلى زادوك كاهن الحاخام الأكبر ليهود فرنسا حثه على اقناع هرتزل بالعدول عن المشروع الصهيوني².
- لعبت الصحافة العربية دورا هاما في تنبيه الرأي العام العربي عامة و الفلسطيني خاصة إلى خطورة الأطماع الصهيونية في فلسطين و نبهت السلطان عبد الحميد الثاني، حيث كتب لأمين ارسلان مقالا نشر في جريدة المقطم بعنوان " مملكة صهيون" يشير فيه إلى مؤتمر بازل، كما كتب فرح انطون في جريدة الأهرام مقالا بعنوان " الحمام الاسرائيلي و وطنه القديم" وضح فيه مطامع الألمان في فلسطين و أنهم من أكبر المدعمين للصهيانية في احتلال فلسطين.
- نشرت جريدة المقطم سنة 1901 أن الجمعية تحصلت من السلطان بالسماح لها باستثمار مناطق عديدة حول القدس و ذكرت الصحيفة " أنه تم الاتفاق على ذلك ماليا إما على سبيل البيع أو الشراء".
- أشار رشيد رضا في كتابه إلى الخطر الصهيوني و أطماعه في فلسطين.
- كتبت المقطم مقالا بعنوان " استعمار فلسطين" طلبت من السلطان محاربة الحكام المحليين المشجعين للهجرة عن طريق الرشوة.

¹- فدوى نصيرات، المرجع السابق، ص-ص 52-53.

²- إلياس شوفاني، المرجع السابق، ص 332.

- أشارت الأهرام في عدة مقالات إلى مقابلات هرتزل وسعيه لأخذ الموافقة من السلطان لتأسيس الدولة اليهودية و لقد نشرت الأهرام الكثير من المقالات التي " تعبر عن عطف السلطان على اليهود واستعداده لمنحهم إذنا بالاقامة في فلسطين".

- أشار نجيب عزوري في كتابه يقضة الأمة العربية إلى الخطر الصهيوني في ظل ضعف الإدارة المحلية في فلسطين، و شرح في العديد من المقالات نشرها في صحف الإخلاص والمقطم الطريقة التي تتم بها تمليك مساحات شاسعة من أراضي فلسطين خاصة الرشوة ونخص بالذكر كاظم بك حاكم القدس، حيث نشر في الإخلاص المصرية رسالة فضح فيها الوالي ليتأكد السلطان عبد الحميد الثاني أن هؤلاء الخونة سيكونون سببا في انهيار الامبراطورية العثمانية، ولذلك يحمل نجيب عزوري السلطان مسؤولية ما يحدث في فلسطين من خلال الكثير من المقالات منها -أملاك الدولة في المزاد- المتصرفون في السلب- وغيرها من المقالات ولذلك لعبت التوعية الإعلامية عن طريق المجلات والصحف دورا هاما في محاربة المشروع الصهيوني¹.

تذكر وثيقة أرشيفية أن مجموعة من أهالي البلقاء و حيفا وبيروت أرسلوا إخبارية إلى الخليفة عبد الحميد الثاني بأنه عندنا موظفين مستخدمين في لوائي عكا والبلقاء سمعوا و علموا من مصادر موثقة و مؤكدة عن ارتكاب بعض المسؤولين في قضاء حيفا التابعة للواء عكا تتنافى وقوانين الدولة العثمانية خاصة المتعلقة بإدخال اليهود الأجانب من رومانيين وروس إلى فلسطين و تمليكهم أراضي تمنعه الارادة السنية لحضرة مولانا السلطان، و نظرا لفساد الجهاز الإداري و لأغراض شخصية فإنه في سنة 1890 " بتوسط من موسى خانكروماير زبلون اليهوديين الروسيين المقيمين في بلدتي يافا و حيفا...اتفق متصرف عكا صادق باشا...مع قائم مقام حيفا السابق مصطفى القنواي، و الحالي أحمد شكري و مفتي عكا علي أفندي ورئيس بلدية حيفا مصطفى أفندي و عضو مجلس الإدارة نجيب أفندي على إدخال و قبول مئة و أربعين عائلة يهودية طردوا من المماليك الروسية في قضاء حيفا و على بيع الأراضي التي يملكها والي أضنة السابق وشقيق المتصرف المشار إليه شاكرا باشا وسليم نصر الله خوري من أهالي جبل لبنان..." ولقد تم توزيع هؤلاء اليهود في نواحي القضاء كما إلتجأ رئيس بلدية حيفا مصطفى أفندي إلى إعداد رخص مزورة وانشاء مائة وأربعين منزلا على الأراضي المذكورة و حولها إلى قرية لاسكان اليهود و منح لهم صفة رعايا الدولة العثمانية دون أن يكون لهذا المصطفى أفندي أية صلاحية في ذلك. وأصبح هؤلاء اليهود صفة قدماء الأهالي فيها مقابل ذلك قبض شاكرا باشا مفتي عكا علي أفندي وسليم نصر الله الخوري ثمانية عشر ألف ليرة مقابل بيع تلك الأراضي، وعن طريق طرق ملتوية بيع جزء كبير من المكان المعروف بجبل

¹-فدوى نصيرات، المرجع السابق، ص-ص 53-55.

الكرمل الذي له أهمية كبيرة لدى الدولة من قبل رئيس بلدية مصطفى الخليل وعضو الإدارة نجيب الياسين إلى رهبان دير الكرمل بإسم فرنسا، كما اشترى رعايا ألمان على عشرة آلاف دونم من الأرض بأسعار منخفضة جدا وبتوسط من القنصل الانجليزي في حيفا المستر سميث تحصلت سيدة الانجليزية على حوالي خمسة آلاف دونم من الأراضي أنشأت على هذه الأراضي مباني وكنائس.

كما يقوم بعض الموظفين في الإدارة إلى انتزاع الأراضي من الفقراء بأثمان بخسة و بيعها فيما بعد بأثمان فاحشة لليهود و الأجانب. و أصبح هؤلاء اليهود و الأجانب النفوذ و يعاملون المسلمين في القرى المجاورة معاملة سيئة و مستغلين تراخي بعض المسؤولين المحليين¹.

رغم معارضة الباب العالي للهجرة اليهودية لفلسطين لكن عدد سكان اليهود في فلسطين في ارتفاع كبير حيث قدر في 1880 بخمسة و عشرين ألف يهودي حوالي 5% من مجموع سكان فلسطين، ارتفع هذا العدد إلى حوالي خمسة و ستون ألف سنة 1920، بعد وصول الموجة الأولى من المهاجرين 1889 هاجم عرب فلسطين المستعمرات اليهودية التي أقيمت فيها حديثا و بعد عام 1891 أخذت المعارضة للهجرة اليهودية الطابع السياسي لأنها أصبحت تهدد حتى أمن الدولة العثمانية و الحركة القومية العربية معها و في أبريل 1909 حذر الصحفي التركي يونس نادي Yunus- Nadi من الأطماع الصهيونية التي تهدف إلى تكوين امبراطورية اسرائيلية التي ستضم الامبراطوريات القديمة بابل - Ninive و تصبح القدس عاصمة لها².

إن الثورة على السلطان عبد الحميد لثاني قد كانت ثمنا دفعه السلطان على مواقفه الرافضة للمشروع الصهيوني في فلسطين و لذلك يمكن اعتبار أن ثورة 1908 و حادثة خلع السلطان عام 1909 قد لعبا دورا فعالا في تحقيق آمال الحركة الصهيونية لإقامة دولة اسرائيل في فلسطين وما يثبت ذلك ارتفاع عدد المهاجرين إلى فلسطين ما بين 1909-1914³.

أثناء الانقلاب الدستوري 1908 خرجت تظاهرات في يافا "رفع فيها العلم الصهيوني الذي اقر في مؤتمر بازل وهو " ترسداود" الأزرق على خلفية بيضاء، وقد استغلت القيادة الصهيونية التناقضات بين

¹ - وثيقة عثمانية عن تأمر وبيع أراضي فلسطينية ترجمة كمال أحمد خوجة، اخبارية صادقة نرفعها الى مقام مولانا الخليفة، متوفر على الموقع الالكتروني www.Fustat.com Y.PRK.AZS 27/39، أنظر النص الكامل للوثيقة في الملحق رقم 01، ص 325

² Gerard DEGeorge, op.cit, p 132.

³ - سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق، ص 124

الإصلاحيين و التقليديين و توتر العلاقات بين الأتراك و العرب و في الوقت نفسه المعارضة الفردية للسياسة التركية اتجاه المشروع الصهيوني و هكذا فإن نجاح المشروع كان محدوداً¹.

استنتاج جزئي:

أثناء الحرب الروسية العثمانية عرفت بلاد الشام تحولاً سياسياً و اقتصادياً، خوفاً من وقوع المنطقة تحت الاستعمار الأوروبي تبنى السلطان عبد الحميد الثاني لمواجهة ذلك فكرة الجامعة الإسلامية و سخر لها كل الإمكانيات البشرية و المادية لجعل الولايات العربية في بلاد الشام تحت مظلة الخلافة خاصة في هذه الفترة بالذات التي نما فيها تيار معادي للحكم العثماني و لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني، و لذلك تشكلت جمعيات سياسية سرية يتزعمها مثقفون عرب أغلبهم مسيحيون تأثروا عموماً بالثقافة الغربية فعارضوا فكرة الجامعة الإسلامية، تمحورت مطالبهم في بداية الأمر حول الاستقلال الذاتي لبلاد الشام في إطار السلطنة العثمانية ثم طالبوا بالانفصال عنها و نظراً للمراقبة التي تعرضوا لها من طرف جهاز الجوسسة تميز نشاطهم السياسي داخل الدولة العثمانية بالسرية و سار بشكل بطيء و أكثر نشاطاً خارجها خاصة في مصر وفرنسا و أمريكا التي أصبحت ميداناً رحباً لنشاط خليل غانم و الأمير أمير أرسلان و يعقوب صروف و فارس نمر وغيرهم، رغم أن السلطان قرب العرب و منحهم مناصب عليا في الإدارة و اعتمد على بعضهم في نشر دعوة الجامعة الإسلامية التي أقلقّت الدول الأوروبية خاصة بريطانيا.

إن التدخل الأجنبي في بلاد الشام خلف صراعاً طائفيّاً حاداً خاصة في لبنان و يظهر لنا خطورة هذا التدخل في الشؤون الداخلية كاتخاذ القرارات و في المحاكم و حتى في الناحية الاقتصادية.

يمثل السلطان عبد الحميد الثاني العقبة التي وقفت في طريق تنفيذ المشروع الصهيوني ففي الوقت الذي كان فيه زعماء المنظمة الصهيونية كهرتزل تطلب منه منحهم وثيقة رسمية تؤكد شرعية هجرة اليهود إلى فلسطين كان السلطان يصدر سلسلة من الفرامانات السلطانية تأمر موظفي الإدارة المحلية في فلسطين بمراقبة الهجرة اليهودية.

¹ -إلياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 335

الفصل الرابع: مستقبل العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأول: سياسة الاتحاديين في بلاد الشام

المبحث الثاني: تطور الحركة القومية العربية

المبحث الثالث: موقف عرب الشام من الحرب العالمية الأولى

قادت جمعية الاتحاد والترقي انقلاب 24 جويلية 1908 من أجل إعادة الحياة الدستورية¹ والعمل على بث أفكار الحرية والإخاء والمساواة فدعت إلى التغيير على جميع الأصعدة واتهمت السلطان عبد الحميد الثاني بالمستبد، وأن جهاز التجسس بث الرعب في نفوس الرعية وعرقلة الأنشطة والفعاليات ولذلك مثلت أحداث الانقلاب العثماني هزة عنيفة في الحياة العامة العثمانية² وأصبح الجميع يردد شعارات الحرية والمساواة و زوال الاستبداد³.

لقد عمت الفرحة كافة بلاد الشام⁴، فألقى القبض على الوالي محمد علي بيك الموالي للنظام القديم وسيق إلى بيروت ثم إلى استانبول كما أقيـل باقي الموظفين عن مناصبهم. أرسل البيروتيون وفدا يتكون من مفتي المدينة مصطفى نجا وكل من سليم علي سلام ومنح رمضان ومري قبطي وسليم أيوب وبطرس داغر إلى العاصمة استانبول لتقديم التهنية⁵ كما رحبت صحافتها⁶ في بيروت بالعهد الدستوري وأيدته النخب

¹ - لم يكن للأتراك بعد عودة الدستور هدف واحد فمنهم من آمن بالجامعة الإسلامية في حين آمن البعض الآخر بحركة الجامعة الطورانية و بقي بعضهم الثالث على إخلاصه لاتجاه العثمنة و بالتالي نستنتج أن الذين رحبوا بعودة الدستور لم يتفقوا إلا على خلع السلطان ع الحميد الثاني ثم اختلفوا فيما يجب أن يكون بعد ذلك، و نظرا لهذا الاختلاف الذي أصاب صفوف الاتحاديين تشكل حزب اللاتتلاف و الحرية 1911 ضم كل المعارضين لحزب الاتحاد و الترقى. أنظر: إسماعيل احمد ياغي، المرجع السابق، ص 214.

² - إسماعيل نوري الربيعي، "موقف المثقفين العراقيين من الانقلاب العثماني 1908 - 1914"، مجلة العلوم الانسانية السنة الثالثة، ع 28، ماي 2006، متوفر على الموقع الالكتروني، www.uluminsaNia.Net

³ - ساطع الحصري، المرجع السابق، ص 214.

⁴ - لقد شارك المفكرين العرب الأحرار دعاة الإصلاح الأتراك في القضاء على حكم السلطان عبد الحميد الثاني على أساس أنهم عانوا الكثير من الاضطهاد و من بينهم خليل غانم، عبد الرحمن الكواكبي الذين فضحوا دكتاتورية عبد الحميد الثاني و لما نجح الانقلاب العسكري على يد الاتحاديين هلل به المفكرين العرب في البداية و في هذا الصدد يذكر شاكـر الخوري: " الحرية السياسية التي نلناها هي خلاصنا من الجاسوسية و المراقبة ... فالمراقبة هي التي جعلت صاحب مطبعة كتابي أن يقول طبع في مصر، مع أنه طبع في بيروت ... فلا ظلم أمر من الجاسوسية و لا ضعف أذل من المراقبة" ملاحظة الشدة فوق الرء و الام". أنظر: علي المحافظة، الاتجاهات، المرجع السابق، ص-ص 106- 107.

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص 50.

⁶ - فقد جاء في افتتاحية العدد الأول من مجلة الأصمعي الصادر في 19 أوت 1908 مايلي: " الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، و من علينا أطلق ألسنتنا في القول بعد كاد أن يقضي عليها التعقيد لطول احتباسها وراء الشايبا و الشفاه، و مكن أيدينا من العمل بعد أن مرت عليها السنوات و هي مكبلـة بالأصفاد" أما جريدة الإنصاف فقد: " أشادت بالمساواة والإخاء و بعث الحياة العربية، فأنصف المظلوم من الظالم، و تساوى أمام العدل السيد و الخادم". أنظر: علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين، المرجع السابق، ص- ص 295-296.

البيروتية، و في هذا الصدد ألقى كل من الشيخ علي اليوسف صاحب جريدة المؤيد المصرية و أحمد طيارة صاحب جريدة الاتحاد العثماني و شكيب أرسلان و آخرون كلمات مدح بالدستور و بالسلطان عبد الحميد الثاني في الحديقة الحميدية في ساحة البرج أمام تجمع الآلاف، كتب مصباح طيارة في مجلة " ثمرات الفنون" تحت عنوان الأمل "...إن الأمانة التي أحيت بلاد الدولة العثمانية عموما وسوريا خصوصا، وأيقظت كل عثماني من مرقد البالي و نهته من نومه العميق هو ما نطق بهلسان البرق بإعادة مجلس المبعوثان والعمل بالقانون الأساس".

دعت الصحف إلى استغلال صدور الدستور في تأسيس الجمعيات و النوادي العلمية و الخيرية وتطوير التعليم و الاهتمام باللغة العربية و تطوير الزراعة و التجارة و الصناعة¹ و في طرابلس دامت الاحتفالات لمدة أسبوع، طالب فيها الأهالي تطبيق الدستور و إقالة المتصرف عزيز بيك و محاكمته².

و على النقيض من بلاد الشام نجد سكان جبل لبنان أبدو تحفظات على إرسال مندوبين عنهم لتمثيل لبنان في مجلس المبعوثان، بين مؤيد و معارض بعدما طلب الباب العالي من متصرف جبل لبنان القيام بإجراءات الانتخاب، و ذلك خوفا على ضياع الامتيازات التي تمتعوا بها من قبل منذ سنة 1861 و بالتالي نادوا بالقومية اللبنانية أحدث هذا الوضع انشقاق داخل الجبل بين قوى درزية و إقليم مسيحي مؤيدة للعهد الدستوري و أكثرية مارونية رافضة له مع أقلية درزية أدى ذلك إلى مواجهة اندلعت في بيت الدين أن بن أنصار الدستور و معارضين له و بين أهالي دير القمر و الجنود العثمانيين. و بالتالي تشكلت في الجبل جمعيات وزعت منشائر و كتب تحرض ضد الدستور و في هذا الصدد رفع المتصرف يوسف باشا عريضة إلى الباب العالي يذكر فيها: "إن لبنان غير أهل للدستور". و لذلك حث شكيب أرسلان في مقالات صحفية الموانة على قبول عودة الدستور و ذلك لأسباب سياسية و اقتصادية و ارسال مندوبين عن لبنان إلى مجلس المبعوثان من جهة و احتفاظه بامتيازاته المضمونة دوليا من جهة أخرى³.

لقد انظم عدد كبير من اللبنانيين و السوريين إلى الفروع التي أنشأتها جمعية الاتحاد و الترقى في معظم المدن الشامية كما تكونت جمعيات تدعو إلى الوفاق بين العرب و الأتراك⁴.

¹ -عبد الرؤوف سنو: "إشكالية الدستور العثماني في صحافة بيروت عام 1908 صدها و ردود الفعل عليه" بحوث المؤتمر الدولي حول المشروطية الثانية في الذكرى السنوية مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الإسلامية، باسطنبول 2012، ص 62.

² - علي معطي، المرجع السابق، ص 49

³ -عبد الرؤوف سنو: إشكالية الدستور العثماني في صحافة بيروت عام 1908 صدها و ردود الفعل عليه، المرجع السابق، ص - ص 46-62.

⁴ - علي معطي، المرجع السابق، ص 50.

لم تستقبل الجماهير في الولايات العربية كافة إعلان الدستور على غرار واحد فردود الفعل كانت مختلفة بين منطقة و أخرى هناك الكثير من لا يعرفون ماهية الدستور¹ و هناك "فريق من المستنيرين العرب يشكون في حقيقة هذه التجربة الدستورية الجديدة فلم يشتركوا في هذه الموجة العارمة من الحماس و لم يدخلوا في جمعية الاتحاد و الترقى و فروعها أو في الجمعيات التي أسسها العرب في تلك المرحلة و قد تحقق حدسهم في النهاية و ذلك عندما تسلمت الاتحاد و الترقى الحكم مباشرة بعد ثورة 13 أفريل 1909"².

يصف رشيد رضا أثناء الجولة التي قام بها في سوريا (طرابلس و دمشق) إثر إعلان الدستور و انتخاب هيئة المبعوثان فيقول: " و كنت أبين لهم و لغيرهم إن تنفير العرب من الترك مفسدة من أضر المفاسد، و أننا من أشد الحاجة إلى الاتحاد بالترك و الإخلاص لهم لأن مصلحتنا و مصلحتهم في ذلك، على أننا أحوج إليهم منهم إلينا، فمن يسعى إلى التفرقة بيننا و بينهم فهو عدو لنا و لهم..."³.

اعتبر رشيد رضا افتتاح مجلس المبعوثان حدثا كبيرا في تاريخ الأمة العثمانية بعد إعلان الدستور ببضعة أشهر زار رشيد رضا سوريا ثم رجع إلى استانبول و مكث فيها سنة كاملة فتغيرت نظرية عن جمعية الاتحاد و الترقى و في هذا الصدد يذكر: " أقمت في الأستانة سنة كاملة لبثت فيها عزيزا مكروما من رجال الدولة وزعماء جمعية الاتحاد و الترقى و تيسر لي بذلك أن اكشف الستار عن الحاد هؤلاء الزعماء و عزمهم على محو الإسلام من الشعب التركي و تأسيس دولة تركية محضة و جعل الولايات العربية مستعمرات لهذه الدولة وتترك سائر العناصر العثمانية و من تقدر على تتركه من العرب أيضا..."⁴.

¹-فاضل بيات، القانون الأساسي و جمعية الاتحاد الاتحاد و الترقى في منظور الشيخ محمد رشيد رضا، بحوث المؤتمر الدولي حول المشروطة الثانية في الذكرى المئوية، المرجع السابق، ص- ص 115-124.

²-يمثل الاتحاديون الأثرية في البرلمان إلا أنهم لم يشتركوا في وزارة كامل باشا التي تألفت بعد إعلان الدستور إلا بوزير واحد والهدف من ذلك هو إدارة الأمور في الخفاء و إلقاء مسؤولية الأخطاء على الغير، مع فرض رقابة شديدة على السلطان والصدر الأعظم، حيث نجد أن أعضاء لجناتهم المركزية في سلانيك* يفرضون على أعضاء الحكومة إرادة الجمعية، و تقوم أنديتهم في الأقاليم بفرض إرادتها على الولاة والمواطنين في الولايات والأقضية، يعزلون كل من يعترض سياستهم ولما رأوا أن وزارة كامل باشا تحارب الفساد الإداري وقوية شوكته وساندته العناصر غير التركية عملوا على الإطاحة به وبوزارته ولذلك عارضهم المؤيدون لوزارة كامل باشا، وشنوا هجوما قويا ضدهم وساندتهم المتدينون من الترك وأسسوا لأنفسهم جمعية تعرف باتحاد محمدي. وكانت النتيجة اندلاع الثورة ضدهم في عاصمة الخلافة في 13 أفريل 1909 المعروف بيوم 31 مارت ولكن الاتحاديين سرعان ما أعادوا حكم البلاد إلى أيديهم. أنظر: سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق، ص-ص 50-54.

³-وجيه كوثرني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي، المرجع السابق، ص168.

⁴-فاضل بيات، القانون الأساسي و جمعية الاتحاد والترقى، المرجع السابق، ص 115 ومابعدها

أثناء حكم الاتحاديين تعاقب على مقام الخلافة ثلاثة سلاطين في فترة لا تتجاوز عشر سنوات لم يكن لهم السلطة إلا اسمياً فقط¹.

المبحث الأول: سياسة الاتحاديين في بلاد الشام:

شهدت الفترة الممتدة من جويلية 1908 إلى مارس 1909 بعض التعديلات في القانون الأساسي وذلك من أجل إرساء قواعد حياة برلمانية عصرية وقد صادق السلطان محمد رشاد على هذه التعديلات² وتعتبر هذه الفترة حاسمة وحيوية حيث عرفت العلاقات التركية- وبلاد الشام تطورا ومراحل مختلفة بسبب ظهور الحركة القومية العربية التي كان لها الأثر في مصير المنطقة³. ولدراسة تاريخ هذه العلاقات في ظل العهد الاتحادي لابد لنا من إلقاء الضوء على السياسة التي انتهجها الاتحاديون في بلاد الشام⁴.

وأول تجربة مرت بها العلاقات العربية - التركية هي الدعوة التي قام بها نخلة باشا مطران و رشيد بك مطران بينت عن إخلاص العرب للأتراك حيث لم يمض نصف سنة على إعلان الدستور حتى أذاعت الجمعية- السورية منشورا في باريس comite- syrien على رأسها نخلة و رشيد مطران تدعو فيه إلى استقلال سوريا استقلالا إداريا إلا أن المنشور استنكرته شخصيات عربية بارزة وأبرق عدد من الأعضاء البارزين في الجالية السورية بباريس إلى رئاسة مجلس المبعوثان في استانبول وإلى جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك يعربون فيه عن ولائهم للمجلس والجمعية والدولة العثمانية كما وصلت إلى مجلس المبعوثان برقيات أخرى من دمشق وحلب تحمل 300 توقيع تستنكر فيه المنشور⁵. ولذلك عمل أعضاء جمعية الاتحاد و الترقى على توحيد الجمعيات العثمانية والعربية التي تأسست قبل الدستور وبعده ثم أدمجهم في جمعيتها ثم أعلنت لجنتها المركزية برنامجها السياسي وهو في نظرها مؤقت ومن بين بنوده :

- الوزارة مسؤولة أمام البرلمان.

-لمجلس المبعوثان و الأعيان حق بتشريع القوانين.

- يتساوى جميع المواطنين أمام القانون.

-حرية التعليم و تكوين الجمعيات.

¹ - سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق، ص54.

² - عوض عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق ، ص 48.

³ - تاج السر احمد مروان، المرجع السابق، ص617.

⁴ - علي معطي، المرجع السابق، ص55.

⁵ - توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص92.

-إصلاح حالة الفلاحة.

- توطيد العلاقات بين العمال و أصحاب العمل.

-تدار الولايات على أصول " توسيع المأذونية الصلاحيات التي نصت عليها المادة 108من القانون الأساسي(النظام المركزي) مع توسيع المأذونية.

-اللغة التركية هي اللغة الرسمية.

-تربية النشء العثماني تربية موحدة في المدارس¹.

ونظرا لثقة عرب الشام في جمعية الاتحاد والترقي تأسست لها فروعاً في المنطقة و انضم إليها كل شرائح المجتمع من زعماء وضباط وسياسيين....الخ². و م يكن للنشاط العربي في تلك الفترة طابع قومي رغم أن آرائهم كانت مختلفة ومنقسمة في أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

تعتبر الفترة الممتدة 1909-1912 منعرجاً حاسماً في تاريخ العلاقات بين الأتراك والعرب إذ هي بداية النهاية للحكم العثماني للأراضي العربية في الوقت الذي رحب القادة العرب السوريون خاصة بمبدأ العثمنة كانت تصرفات الشباب التركي متناقضة، و بذلك توترت العلاقات بين الشباب الأتراك خاصة المتطرفين والقادة العرب وأغلبهم من السوريين ولتوقيف انتشار القومية أعلنوا على التساوي في الحقوق لجميع رعايا الدولة العثمانية .

فمن سنة 1909 إلى سنة 1911 سيطرت جمعية الاتحاد والترقي سيطر كلية على جميع مؤسسات الدولة (الجيش ، الوزارة ، والسلطان ، مجلس النواب و الصحافة).

ولذلك أدت سياستهم القمعية إلى خلق جو يتسم بعدم الرضا والذي حسنت به شعوب الدولة ما دفع البعض إلى البحث عن بديل للحكم العثماني وعندما فشل القادة العرب أغلبهم من السوريين مواجهة استبداد الاتحاديين طالبو بالحكم اللامركزي³.

نلاحظ هذه الخلافات العنصرية والسياسية التي ظهرت بعد مدة قصيرة من قيام المشروطية بين الاتحاديين والعرب فيما يلي:

¹توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني ، المرجع السابق، ص- ص 79-81.

²توفيق برو، نفس المرجع، ص81.

³-تاج السر أحمد مروان، المرجع السابق، ص362.

أ-الانتخابات النيابية عقدت تركيا الفتاة في سنة 1907 مؤتمرا في باريس حضره القوميون العرب اعترفت فيه بحق العرب في تقرير مصيرهم السياسي والثقافي إلا أنها نكثت العهود التي قطعتها للقوميين العرب: ففي الانتخابات البرلمانية التي نظمتها سنة 1908¹ قدر عدد المبعوثين 275 قسموا مبدئيا كما يلي: 65 للولايات العربية، 25 للألبان، 33 لليونان 12 للأرمن، 4 للبلغار، 5 للإسرائيليين، 2 للصرب، 1 للفلاخ لكن نتائج الانتخابات كانت مزورة حيث تم انتخاب 50 مبعوثا فقط من الولايات العربية في مجلس المبعوثان والباقي من الأتراك رغم أن العرب يمثلون خمسي سكان الدولة و عددهم أكثر من عدد الأتراك لو احترمت هذا العدد لكان لهم أكثر من 100 نائب في الوقت الذي لا يتعدى عدد نواب الأتراك 75 نائبا².

كما بلغ عدد الأتراك في مجلس الأعيان 31 تركيا 3 أعضاء من العرب و بالتالي انعدمت المساواة في التمثيل السياسي³، حيث كانت الجمعية ترشح في المناطق الانتخابية في الولايات العربية أترك و عن طريق نفوذها المادي و المعنوي تضمن انتخاب مرشحها و هكذا أخذت الانتخابات شكل التنافس العنصري و القومي بدلا من التنافس الشخصي أو الحزبي⁴ كما يشترط على المترشح إتقان اللغة التركية و يسمح لأي شخص تتوفر فيه الشروط أن يرشح نفسه في أي منطقة يشاء، وبالتالي رشحت في الولايات العربية الموالين لها من الأتراك أنتج ذلك تنافس حاد بين العرب و الأتراك⁵.

لقد أدرك الشباب الأتراك أن العرب يتفوقون عنهم عددا و أن تطبيق مبدأ المساواة فهو سيعطي العرب وزنا كبيرا في إدارة الدولة العثمانية لذلك رفضوا تطبيق هذا المبدأ رغم أن المطالب العربية تمحورت حول إدخال الإصلاحات في الولايات العربية مثلا الإدارة اللامركزية للولايات العربية دون التفكير في الانفصال عن الدولة ولما تماطل ورفض الاتحاديون النظر بشكل جدي في المطالب العربية عرفت سوريا بكاملها هيجانا وسخطا وذلك للحصول على حقوقهم في الدولة العثمانية⁶.

وفي الحقيقة تعتمد الاتحاديون على التقليل من العناصر العربية في مجلس النواب الجديد وتهميشهم لكي تبقى أمور الدولة في أيديهم، إن سيطرة الأتراك على مجلس المبعوثان أدى إلى ظهور اتجاهات عربية في

¹ -الياس الشوافي، المرجع السابق، ص292.

² - توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري، المرجع السابق، ص، ص 109، 108.

³ -زهية قدورة، المرجع السابق، ص234.

⁴ - ساطع الحصري، المرجع السابق، ص217.

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص61.

⁶ -تاج السر أحمد مروان، المرجع السابق، ص 627.

دمشق رفضت نفوذ الاتحاديون في الحكومة الجديدة و لذلك تأسست جمعية الاخاء العربي - العثماني التي تدعوا إلى التعاون العربي - التركي بدلا من المواجهة بينهما¹، لقد فرض الاتحاديون على اللبنانيين إرسال مندوبين عنهم إلى مجلس المبعوثان و المشاركة في الانتخابات الجديدة و هذا ما أقلقهم خاصة بعدما علموا بوجود وثائق رسمية في استانبول تحت عنوان ولاية لبنان تلغي متصرفية جبل لبنان² و اعتبروا أن اشتراك ممثلين عن لبنان في مجلس المبعوثان سيؤثر على استقلال لبنان و امتيازاته³، وطالبت الجمعية اللبنانية "الاتحاد اللبناني" من الحكومة العثمانية بالمحافظة على نظام لبنان الأساسي، رغم حصول نائب بيروت سليمان البستاني على موافقة الاتحاديين بإبقاء الاستقلال الداخلي لجبل لبنان إلا أنهم لم يثقوا من حقيقة نوايا الاتحاديين نحو بلادهم خاصة بعد أن وجه المتصرف يوسف فرنكو باشا إلى جميع القائمين في لبنان بضرورة اشتراك اللبنانيين في الانتخابات و اختيار ممثلين لهم في مجلس المبعوثان استنادا إلى التعليمات التي وصلته من الباب العالي في 30 أوت 1908، و في 12 سبتمبر 1908 رفع بعض زعماء جبل لبنان على رأسهم الأمير شكيب أرسلان و حبيب باشا السعد وكنعان الظاهر عريضة إلى المتصرف في بيت الدين يطلبون فيه بتعميم الدستور العثماني في لبنان و أن النواب اللبنانيين المنتخبين يمنع عليهم "مناقشة القضايا التي تمس الأنظمة الخاصة بالجبل إلا بناء على طلب اللبنانيين أنفسهم".

اعتبر الدروز أن الدستور يستطيع أن يضع حدا للتسلط الماروني بحيث يسمح لهم على الحصول على عدد أكبر من الوظائف واستعادة نفوذهم، ولأن الدستور الجديد سيساعدهم على الاتحاد مع دروز حوران وصار كذلك في هذا الاتجاه الأورثوذكس، أما الموارنة فقد رفضوا الانصياع لأوامر المتصرف وطلبوا باستمرار الامتيازات التي منحتهم إياها النظمات الأساسية للبنان وراسلوا في هذا الشأن كل من المتصرف يوسف فرانكو باشا و سفراء الدول الكبرى في استانبول.

وفي 25 سبتمبر 1908 نشرت الهيئة الإدارية لجمعية الاتحاد والترقي في جريدة لسان الحال مايلي: "... وإن اهتمام حاكم لبنان و رغبته في نشر الدستور في الجبل يستحقان بكل تأكيد آيات الشكر والتقدير من جمعيتنا ... إن المتصرف سيباشر بعملية الانتخاب لاختيار أربع نواب لبنانيين ... وإننا نتمنى أن يظهر إخواننا اللبنانيون حماسا وطنيا جديرا لكل تقدير ومستحقا لأن يكون المثال لجميع العثمانيين وهكذا فعليهم توحيد جهودهم والاشتراك في الانتخابات للوصول إلى الغاية العظمى، و هذا كل ما تنتظره جمعيتنا في النهاية"، ومن خلال ذلك نستنتج أن الاتحاديين يريدون ربط جبل لبنان بسلطتهم

¹ - عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص - ص 245-246.

² - علي معطي، المرجع السابق، ص 64.

³ - عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في سوريا، المرجع السابق، ص 48.

المباشرة و لم يولوا أي اهتمام للمعارضة اللبنانية و رغم فشل سياستهم إلا أنهم استطاعوا إلغاء امتيازات جبل لبنان و استقلاله الإداري خلال الحرب العالمية الاولى¹.

كان من الأفضل للاتحاديين منح العرب وغيرهم استقلالاً داخلياً حتى لا تطلب هذه القوميات الانفصال و الاستقلال من جهة و من جهة أخرى لا تدع للدول الغربية مجالا للتدخل في شؤون المنطقة في الوقت الذي نشطت فيه المؤامرة الغربية فضيعوا صداقة الولايات التابعة لهم².

ب- عزل العناصر العربية

بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني امتدت يد العزل الى كبار الموظفين العرب الذين يعتمد عليهم دون غيرهم و اتهموا بعض زعماء العرب بأن لهم يد وراء مظالم السلطان منهم من كان موضع ملاحقة من الاتحاديين³، لم يتقبل الاتحاديون الأتراك ظهور أغلبية عربية في مجلس النواب الجديد و بالتالي عملوا على أن تبقى أمور الدولة في يد الأتراك و أن يسيطروا على مجلس المبعوثان هذا أدى ذلك اتساع الفجوة بين العرب و الأتراك خاصة عندما حاول بعض المتعصبين إبعاد النائب العربي نصيف المؤيد و طالب النقيب إلا أنهم فشلوا⁴، و رغم ذلك لم يعاملوا الضباط العرب و الأتراك نفس المعاملة نفسها في الجيش وأرسلوا أتركاً لا يعرفون العربية كولاة في البلاد العربية و لقد كان لتعصب أحمد آغا بك، و يوسف أقشور أثر على التفاهم الذي سعى إليه بعض الضباط العرب مع أقطاب الاتحاديين⁵. على عكس من سياسة السلطان عبد الحميد الثاني نجد الدستوريين من جمعية الاتحاد و الترقى عزلوا عددا من المتصرفين العرب و لم يبقوا من العرب في وزارة الخارجية سوى عربياً واحداً من اصل 12 عربي⁶ "بينما قرب السلطان عبد الحميد الثاني الكثير من العرب منهم أحمد عزة باشا، العابد فاق نفوذه الصدارة و شفيق بك المؤيد المفوض في الديوان العامة، وعرب حقي باشا، و سليم بك ملحمة، و نجيب بك ملحمة، وسليمان البستاني الذين بلغو رتبة الوزارة كلهم من سوريا و لبنان و شفيق باشا و أخوه الفريق وهيب باشا من أكان أساتذة المدارس العسكرية والحكومية و هما لبنانيين، و عين الدكتور يوسف رامي من لبنان أمير لواء

¹- علي معطي، المرجع السابق، ص 64.

²- محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 728.

³- حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 333.

⁴- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص-ص 245-248.

⁵- موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص 174.

⁶- محمد مصطفى الهلالي، المرجع السابق، ص 114.

و الدكتور إلياس مطر من بيروت أستاذ للتشريح في الكلية الطبية و من العرب من عينهم حرسا خاصا و أنزلهم حول قصره¹.

و في عام 1913 تألفت وزارة محمود شوكت و لم تضم أي وزير عربي و بينما ضمت ثلاثة وزراء يهود² من بينهم نسيم مزلياج أفندي الذي دافع عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين، و في هذا الصدد أشار النائب شكري العسليفي مجلس النواب إلى: "إن وزارة المالية كان يوجد فيها 111 موظف تركي و 13 موظفا يهوديا و 06 موظفين من الأرمن و 04 موظفين من الروم و لا يوجد فيها موظف عربي واحد " كما استبدل الضباط العرب بالأتراك و الولاة و المتصرفين و القضاة بالأتراك و بالتالي أصبح أغلب الموظفين لا يعرفون لغة البلاد فلا البلاد استفادت منهم و لا هم استفادوا منها و حتى المحاكم كانت تسير باللغة التركية فضاعت حقوق العباد لأن المرافعة تمر على المترجم³ و من هنا نستنتج أن العرب كانوا أكثر لينا و أقل تعصبا عندما اسسوا جمعياتهم العلنية و السرية بعكس الأتراك.

بعد انفصال البلقان أصبحت الولايات العربية في المشرق تمثل غالبية الدولة العثمانية و لذلك نطرح السؤال التالي لماذا يتمسك الأتراك الاتحاديون بالحكم المركزي⁴ ؟ " هل لتشديد قبضتهم أكثر على المنطقة؟ أم خوفا من إنفصالها؟.

يصف السلطان عبد الحميد الثاني استبداد الاتحاديين بعد خلعه " السلطنة العثمانية آنية قديمة متفسخة منعتهـ بالاعتماد على مرهم "ادارة مصلحت" - من السقوط و ذلك مدة ثلث قرن، على أن الاتحاديين ما كادوا يتسلمونها مني - و قد استولوا عليها بقوة الشباب الخدوع بقوته - حتى أضاعوا التوازن و بدأ الانهيار دون أن يشعروا بالأمر⁵.

¹ -محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 745

² - عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 248.

³ - علي معطي، المرجع السابق، ص -ص 59 - 60.

⁴ - عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 248.

⁵ - حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية، المرجع السابق، 333.

ج-تغليب القومية التركية و سياسة التتريك:

بعد تسلم الحكم الثلاثي العسكري انور باشا، طلعت باشا، جمال باشا، التجأ حزب الاتحاد و الترقى¹ إلى تغليب القومية التركية في الإدارة والتربية والمؤسسات العلمية والثقافية ... الخ و أبعد العرب خاصة عن مؤسسات الدولة لذلك طرحت مسألة المساواة في المواطنة العثمانية أي التبعية العثمانية التي نص عليها الدستور والتي تمسكت بها الحركة المطالبة العربية وكان رشيد رضا من أبرز المعبرين عن هذا المطلب². وفي بداية الامر اختلفت اتجاهات القادة الثلاثة، فطلعت باشا مال إلى فكرة الجامعة العثمانية، أما أنور باشا مال إلى فكرة الجامعة الإسلامية، وإما جمال باشا فكان من المتحمسين لفكرة القومية التركية الطورانية وفي الاخير اعتمد الاتحاديون في سياستهم على الطورانية بزعامه ضياء كوك الب، ويوسف آقشور آغا أوغلي وآخرون³.

"إن لحركة التتريك واجهتان إحداهما أدبية و الأخرى سياسية و كانت غاية الوجهة الأولى هي تمجيد الشعوب الطورانية و نشر تاريخها أما غاية الوجهة الثانية فهي القضاء على العنصر العربي الذي كان ينظر الاتحاديين مصيبة على الأتراك " ⁴.

وفي هذا الصدد يذكر طلعت باشا ما يلي: " إن الدستور ينص على المساواة بين العناصر العثمانية ولكن لا يمكن أن تكون هناك مساواة بين المواطنين ما لم نفلح أولاً في تتريك الامبراطورية وهو عمل شاق طويل المدى و إني لأجرأ على التنبأ بأننا سننجح في نهاية المطاف"⁵.

رغم المجهودات التي بذلها العرب والنية في التعاون مع الاتحاديين كان جواب الاتحاديين هو ممارسة مركزية ادارية شديدة معتمدين على تعزيز النزعة الطورانية فأصابهم الإحباط⁶.

¹- إن أعضاء جمعية الاتحاد و الترقى لعبوا دورا فعالا في انهاء الخلافة خاصة أنهم لا ينتمون الى السلالة التركية العثمانية و في هذا الصدد يذكر رشيد رضا في مجلة المنار: " و إن ملاحدة الترك هم الذين يثبون الدعوة إلى تشويه الدولة العثمانية و قلما ثبت لهؤلاء الملاحدة نسب صحيح في الشعب التركي و قد سلطوا على إفساد هذا الشعب بدعاية العصبية الجنسية و أن السواد الأعظم من الترك يمتنون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يمتنون اخوانهم الاتحاديين." أنظر: مصطفى حلمي، المرجع السابق، ص 32، كذلك علي معطي، المرجع السابق، ص 54.

²- وجيه كوثرائي، رشيد رضا وشكيب أرسلان: " الموقف من الدولة العثمانية ومن صيغة الدولة البديلة "، مجلة التسامح، ع 4، المرجع السابق.

³- سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق، ص-ص 60-63.

⁴- علي معطي، المرجع السابق، ص 55.

⁵- نفس المرجع، ص 54.

⁶- سيار الجميل ، المرجع السابق ، ص 516.

لقد لعبت الصحافة دورا فعالا في تمجيد السياسة الطورانية والتتريك حيث كتب حسين جاهد في جريدته طنين في أكتوبر 1908 ما يلي: "إن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة في السلطنة العثمانية، وأن الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين، فلا مجال إذن للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الأخرى، وأن الدستور العثماني لا يمكن أن يكون في شكله النهائي سوى دستورا تركيا".

رغم الانتقادات التي وجهت لحسين جاهد إلا أنه عبر عن واقع حقيقي وأليم، لقد أثبتت ذلك الحكومة الجديدة التي سيطر عليها الاتحاديون. حيث شملت سياسة التتريك العناصر الغير تركية في المدارس الحكومية و في المحاكم¹.

هذه النزعة القومية تتعارض مع العثمنة و حركة الجامعة الاسلامية، و أن نمو الروح القومية التركية جعل كلمة تركي تستعمل باعتزاز و أصبحت صفة تركي تحل محل صفة عثماني، فانكمش مدلول مصطلح عثماني²، و إبقاء اللغة التركية في حد ذاتها كلغة رسمية في جميع دوائر الدولة و حتى في ميدان التعليم³ يمثل تناقضا مع مبدأ تحقيق حرية التعبير و الرأي و الحرية الثقافية⁴.

اعتمد الاتحاديون في تتريك العناصر غير التركية خاصة العربية على جمعية تورك أوجاقي التي فتحت نوادي لها في جميع المدن و القرى التركية لتكون مركزا للاجتماعات و مدارس لتعليم تاريخ الأتراك القديم فغيرت الأسماء العربية إلى: إيشلدافر- أغوزا- تيمورا- جنكيزا- هولاكو. و عملت مدارس الدولة في كل من ولايتي بيروت و دمشق على إضعاف اللغة العربية وأرسلت أترাকা لتعليم التلاميذ اللغة العربية، رغم برقيات الاحتجاج التي ترسل من هذه المناطق إلى الصدارة العظمى و رئاسة مجلس النواب⁵ وفي هذا الصدد يذكر أسعد داغر أحد رجال الحركة العربية القومية في مذكراته: إن الاتحاديين عملوا على محو العرب وصهرهم في بوتقة الأتراك خاصة بعد استقلال البلقان عن السلطنة العثمانية ولذلك أنشأ الاتحاديون جمعية "ترك أوجاقي" أي طائفة الترك أو العائلة التركية بفروعها الأربعة.

"ترك يوردي" المملكة التركية.

"ترك درنكي" ثبات الترك.

¹ - توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص- ص 95-99 كذلك: علي معطي، المرجع السابق، ص 55.

² - اسماعيل احمد ياغي، المرجع السابق، ص 207.

³ - ساطع الحصري، المرجع السابق، ص 219.

⁴ - سيار الجميل، المرجع السابق، ص 514.

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص- ص 55-57.

"ترك بلكيثي" العلم التركي.

"ترك كوجي" القوة التركية التي تهدف من وراء ذلك إلى تترك العنصر العثمانية خاصة العرب وتطهير اللغة التركية من المفردات العربية¹.

رغم أن الأهالي في البلاد العربية يدفعون الضرائب للمعارف لكن الحكومة أهملت التعليم في المدارس العربية فكانت النفقات التي تنفق عليها قليلا جدا، و يتم تعيين مسؤولين عليها غير إكفاء ومن بين 500 طالب يبعث إلى باريس على نفقات الضرائب التي يدفعها الأهالي لا يستفيد منها سوى ستة طلاب من أبناء العرب في الوقت نفسه كان الاتحاديون يسمحون لبقية القوميات كالأروام و الأرمن والبلغار استخدام لغتهم القومية في مدارسهم. و أصبحت اللغة التركية هي اللغة الرسمية في جميع الدوائر الرسمية و في جميع الولايات وحتى في مجلس المبعوثان فرضت المناقشات باللغة التركية. و أصبحت سياسة الاتحاديين اتجاه العربية و العرب واضحة " و الحادثة التي وقعت تحت قبة البرلمان بعد شهر واحد من افتتاحه تدل على نية الأتراك ... ذلك أن وزير الأوقاف و هو عربي قد دعي إلى تقديم بيان عما قامت به وزارته، و قد أنهى خطابه الذي ألقاه بالتركية بدعاء كانت كلماته عربية وقف النواب الأتراك صائحين محتجين على استعمال لغة غير اللغة التركية على منبر الخطابة"².

و هذا ما عبر عنه وزير العدل التركي نجم الدين منلابك: "إن سياسة الحكومة تسير في طريق تترك العرب (عربلري تركلشديرة جغز)" كما فرض على التجار العرب تقديم البيانات إلى الدوائر الجمرك بالتركية أو الفرنسية و لا تقبل عرائض الشكوى المكتوبة باللغة العربية في مجلس المبعوثان وحتى لغة من بقي في الوزارة من العرب كانت اللغة التركية، و هكذا أصبح الحكم مركزي يسيطر عليه الباب العالي³، و في هذا الصدد يستعرض رشيد رضا أسباب سوء التفاهم بين العرب و الترك فيقول: "وإن الأسباب المتعلقة بحكومة العاصمة فمنها إسرافها في عزل أبناء العرب من وظائفهم حتى أنها عزلت في وقت قصير زهاء بضعة عشر متصرفا ومنها تعجلها بأمر تشعير بتعمد إضعاف اللغة العربية، فالمرافعات في محاكم الولايات العربية باللغة التركية مع علمها بان الناس يجهلونها في الغالب حتى وكلاء الدعاوي (المحاميين)، وكجعل الكشف (البيان نامة) التي يقدمها التجار من أبناء العرب في بلادهم الى إدارة المكس (الجمرك) باللغة التركية أو الفرنسية وعدم قبول عرائض الشكوى بالعربية و حتى في مجلس الأمة ، مع أن

¹ - ناجي علوش، المرجع السابق، ص 266.

² - علي معطي، المرجع السابق، ص-ص 58-59.

³ -توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص 99.

المشتكين من الأمة. و هي ذات لغات متعددة للعربية منها مكانة خاصة من حيث هي لغة الدين الرسمي الذي يكفله مقام الخلافة ...¹.

ولقد رافق السياسة الطورانية شدة في الحكم و ضغط على الحريات، و إعلان للأحكام العرفية، و شنت الصحف حملات شديدة على العرب مثل جريدة طنين، و صحيفة (استامبول) اللتان حرصتا الحكومة التركية على طرد العرب من ديارهم و تحويلها إلى مستعمرات تركية، و تعليم التلاميذ أناشيد وقصائد تجعل من جنكيز خان المثل الأعلى للزعيم المنقذ².

وبالتالي تم تكريس فكرة الجامعة الطورانية التي ترى ضرورة انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية لتصبح تركيا بلدا تركيا بقومية تركية خالصة و هضم حقوق القوميات الأخرى ولذلك أغلق الاتحاديون جمعية الاخاء العربي العثماني التي تأسست في عاصمة الدولة³.

و أصبح واضحا تصادم القومية التركية و القومية العربية فالوفاق العربي- التركي الذي أعلنه الاتحاديون لم يدم طويلا فقد قضى الاتجاه القومي الطوراني على هذا الوفاق و نتج عنه تباعد تركي-عربي وازداد هذا التباعد عندما أهمل الاتحاديون مدى الشعور القومي وعمقه في نفوس العرب خاصة في سوريا، ولم ينجز من الإصلاحات التي انتظرها العرب في العهد الدستوري إلا القليل رغم اللجان التي تكونت في كل من بيروت، و دمشق، و حلب وغيرها من المدن السورية من أجل دراسة موضوع الإصلاحات خاصة في ميدان التعليم و المواصلات و الضرائب و الأمن العام غير أن الجزء الأكبر من الإصلاحات بقي مرفوضا بسبب الضائقة المالية التي تمر بها الإمبراطورية فكانت الخيبة وهذا ما عبرت عنه الصحافة العربية كصحيفة الحقيقة البيروتية، و صحيفة الأهرام⁴.

إن تبني الاتحاد و الترقى التطرف كأساس لبناء تركيا الجديدة على أساس التفوق العرقي دفع الزعماء العرب و الطبقة المثقفة للتفكير في مستقبل بلادهم بنفس الأسلوب أي تكوين الجمعيات والأحزاب للدفاع عن حقوقهم ولقد اتخذ هذا القرار جماعة من الشبان العرب المثقفين و المفكرين⁵.

¹-وجيه كوثراني ، رشيد رضا و شكيب أرسلان، المرجع السابق.

²-علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص 230 .

³-رامزور، المرجع السابق، ص 24.

⁴-تاج السر احمد مروان، المرجع السابق، ص 626.

⁵- ناجي علواش، المرجع السابق، 63.

يرى رشيد رضا أنه: "لم يكن لهذه الدولة هذه القيمة إلا بكون بلاد العرب التي هي مهد الإسلام وموطن نشأتهم جزءا طبيعيا فيها ولكن الاتحاديين المستكبرين احتقروا العرب وبلادهم ودينهم..... وحاولوا إبطال لغتهم..... وأنهم هم الذين أسسوا الأمة العربية من الدولة العثمانية واضطروها إلى إعلان الثورة في البلاد الحجازية فكانت من أسباب تقليص ظلها من رؤوسهم وزوال سلطانهم من بلادهم"¹.

د- فرض نظام حكم مركزي:

لقد نجحت الدولة العثمانية في إقامة نظام حكم مركزي اكتمل بناؤه في عهد السلطان عبد الحميد الثاني و لما جاء الاتحاديون إلى الحكم أرادوا أن يرثوا حكم عبد الحميد المركزي²، رغم أن ثورة تركيا الفتاة موجه أصلا ضد السلطان عبد الحميد الثاني من أجل تقييد سلطانه بدستور، ولقد علق الكثير أمالهم في هذه الحركة أتركا أو عربا إلا أن الشعور التركي الذي سيطر على زعمائها جعل تصرفات هؤلاء تعتمد على العنف، فحست الشعوب الغير تركية خاصة العربية بخيبة أمل³ وأصبحت قضية المركزية واللامركزية من بين الخلافات السياسية التي كانت بين الأتراك و العرب، فالعناصر غير التركية مالت إلى نظام اللامركزية وجمعية الاتحاد و الترقى فرضت نظام المركزية في إدارة البلاد و هو نظام اقتبسوه من مبادئ الثورة الفرنسية لكنهم غفلوا عن الفرق الجوهرى بين أوضاع فرنسا سنة 1789 وأوضاع الدولة العثمانية 1908.

إن تعدد الأجناس داخل دولة واحدة يتطلب نظام حكومي لا مركزي بطريقة تتمتع فيه الولايات العربية و غيرها بقسط من الحكم الداخلي إلا أن الاتحاديين سلكوا سياسة مناقضة لذلك فلم يغيروا في نظام الحكم شيئا حيث بقي نظام الحكم المركزي كما كان⁴، و عن طريق العنف و الشدة جعلوا الشؤون الداخلية والخارجية للولايات في أيديهم و حرمو أهلها من المشاركة في الحكم و لقد سمى جاويد بيك أحد وزرائهم العرب بالجنس الأسود⁵، و في هذا الصدد يذكر ساطع الحصري: "و لكن التشدد في المركزية، في عهد المشروطية، في دولة تتألف من قوميات عديدة، مثل الدولة العثمانية، كان لا بد أن يثير مشاكل خطيرة، وتوالي هذه المشاكل كان لا بد أن يحمل الكثيرين من النواب إلى المطالبة باللامركزية"⁶.

¹-انور الجندي، تاريخ الصحافة الاسلامية، المرجع السابق، ص 231.

²- عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 60.

³- ارنست رامزور، المرجع السابق، ص 34.

⁴-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص، ص 214، 182، 183.

⁵- سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق، ص 67

⁶-ارنست رامزور، المرجع السابق، ص 23.

لقد همش الاتحاديون الطبقة المثقفة التي كانت تأمل في المشاركة في الإدارة و الحكم و لذلك نشأ بينها وبين التيار القومي التركي صدام خاصة في الفترة الممتدة من 1909 - 1914 حيث أكدت هذه الطبقة على ضرورة حصولها على نصيب في الإدارة و الحكم يتناسب مع عدد سكان العرب في الدولة العثمانية وأن تكون شريكة معها في تولي شؤون المنطقة و عندما فشلت في تحقيق ذلك عملت على نشر الوعي السياسي بين الجماهير العربية " مستغل التذمر الشعبي الناتج عن سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية"¹.

وبالتالي طرحت قضية المركزية و اللامركزية و انسحب معظم نواب العرب من حزب الاتحاد و الترقى و انضم عدد منهم إلى حزب الحرية و الائتلاف ثم أسسوا حزبا خاصا بهم عرف بحزب اللامركزية العثماني² في الفترة التي تليها فيه الوعي السياسي لدى عرب الشام و أصبحوا يعرفون مزاييا الحكم اللامركزي و لذلك حدث هناك صراع بين الإتحاديين أنصار الحكم المركزي و بين الإصلاحيين العرب خاصة بعدما اعتبر الإتحاديون أن تقوية قبضتهم على الولايات العربية كشرط أساسي للإصلاح³.

رغم أن الاتحاديين أصلحو الإدارة المحلية و الأمن العام و حققوا مشاريع في حقل الأشغال العامة وازدادت عدد المدارس و شجعوا على تحرير المرأة إلا أن الشعوب كرهت سياستهم المركزية⁴.

ح-تجسيد المشروع الصهيوني في فلسطين:

أقر المؤتمر الصهيوني الثامن سنة 1907 على مباشرة النشاط الاستيطاني الواسع في فلسطين ومنذ سنة 1908 بدأ الصهاونيون العمليون يمارسون هذا النشاط الاستيطاني تحت شعار "سياسة التغلغل الاقتصادي".

بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني ازداد نفوذ الحركة الصهيونية حيث تمكن الحاخام حاييم ناحوم رئيس الطائفة اليهودية في مصر و بمساعدة ستراوس، و مرجانتو سفيري الولايات المتحدة الأمريكية من إلغاء الجواز الأحمر⁵. و قوانين التملك التي وضعت خصيصا لتحديد الهجرة إلى الدولة العثمانية كما بذلت الحركة الصهيونية جهودا للحصول على "ميثاق اتحادي" يسمح لهم باستيطان فلسطين حتى لا ينقض السلطان الجديد كل ما وضعوه، و في هذا السياق تذكر التقارير البريطانية أن النفوذ الصهيوني لم

¹-علي المحافظ، المرجع السابق، ص- ص314-315.

²-ساطع الحصري، المرجع السابق، ص ، ص 216 ، 220.

³-عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص60.

⁴-ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 332.

⁵-أصدر السلطان عبد الحميد الثاني الجواز الأحمر حتى يميزهم عن أهل وسكان القدس الأصليين و يشترط عليهم أن يظهروا الجواز حتى تتمكن الشرطة من معرفة أن كانوا متجاوزين أم لا.

يكن على الجانب السياسي فحسب إنما تعدى إلى الجانب الاقتصادي لأن الجهاز الاقتصادي التركي كان ضعيفا و يحتاج إلى الدعم الاقتصادي و بالتالي ازدادت عدد المؤسسات المالية التي تعمل على تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين¹، و في هذا الصدد يذكر مراسل صحيفة الأهرام إلى فلسطين في أواخر 1909 بأن فلسطينيين قلقون من نشاط الحركة الصهيونية خاصة أن بعض أثرياء اليهود يدفعون الرشوة للحكومة العثمانية حتى يعفى اليهود العثمانيون في فلسطين من الخدمة العسكرية و يتفرغون للنشاط الاستعماري في الوقت الذي يتحمل المسلمون و المسيحيون خيار أعباء الخدمة العسكرية، و في صيف 1910 شنت عدة صحف عربية من بينها المقتبس الدمشقية، المفيد، الحقيقة و الرأي العام (بيروت) حملة على بيع الأراضي الفلسطينية للمستوطنين اليهود هذه الاحتجاجات أجبرت طلعت بك على فرض قيود على بيع الأراضي وإقناع موظفي السفارة البريطانية بإستانبول أن هذه الإجراءات الجديدة كانت استجابة لشكاوي السكان المحليين الذين يخشون غزوا يهوديا أجنبيا².

و في عام 1911 حذر النواب العرب من أخطار المشروع الصهيوني و نددوا بموقف تركيا الفتاة المتعاطف مع الحركة الصهيونية، حيث كشف نائب دمشق شكري العسلي³ و محمد روجي الخالدي وسعيد الحسيني عن مساعي الحركة الصهيونية لإنشاء دولة يهودية في فلسطين و لقد برر ذلك بادل ووزعها على المندوبين إلا أن وزير الداخلية خليل بك أكد على أن الدولة ستعمل على تركيز المهاجرين اليهود في مكان واحد⁴.

و في المجلد الرابع عشر من المنار تحدث السيد رشيد رضا عن النشاط اليهودي ونفوذهم: " خبرنا الأستاذة بإقامتنا فيها سنة كاملة فرأينا أن نفوذ اليهود في جماعة الاتحاد والترقي عظيم و أن ناظر المالية اسرائيلي النسب و أنه جعل كاتم سره و كثيرا من موظفي نظارته من اليهود فعلمنا أن اليهود سيكون لهم شأن أي شأن في هذه المملكة، وآمالهم في القدس وفلسطين معروفة ومطامعهم الحالية في المكان تعظم.... ثم جاءت أنباء مجلس الامة العثماني في هذه الأيام مصدقة لما قلناه فقد خطب بعض النواب المستقلين و المعارضين للحكومة خطبا نبهوا فيها على خطر جمعية اليهود الصهيونية في المملكة العثمانية".

¹-حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية و الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص - ص 325 - 329.

²-عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص- ص 53- 61.

³-عرف عن شكري العسلي عندما كان قائم مقام الناصرة و أثناء خدمته في فلسطين أنه عارض الصفقة التي عقدتها عائلة سرسق البيروتية مع ممثلي الحركة الصهيونية لبيع مساحات واسعة في وسط مرج ابن عامر إلا أن الصفقة تمت نظرا لعلاقة أسرة سرسق بوالي بيروت.

⁴-تاج السر أحمد مروان، المرجع السابق، ص 626.

و في نفس السياق يذكر الصدر الأعظم حقي باشا في خطاب له في مجلس الأمة العثمانية : " بأن اليهود هم أصحاب المستقبل في هذه الدولة حتى في أمورها الإدارية و العسكرية"¹.

شنت الصحف الفلسطينية حملة عنيفة عن النشاط الصهيوني وطلبت من الحكومة العثمانية بمنع الهجرة اليهودية و منع بيع الاراضي لذلك تعرضت هذه الصحف للمراقبة بأوامر من السلطة العثمانية ولقد حملت صحيفة " الكرمل" التي صدرت في حيفا لواء المقاومة العربية للصهيونية هذه الصحيفة التي أسسها نجيب نصار لبناني الأصل سنة 1908 و نظرا لكشف الأهداف الصهيونية و مشروعها تعرض للاعتقال من طرف السلطات العثمانية و البريطانية ثم أغلقت مقر الصحيفة سنة 1909 و نفس الدور لعبته صحيفة فلسطين سنة 1912 و تم اغلاقها سنة 1913، و قد خلفت الصحيفتان رأيا عاما مناهضا للصهيونية وانتقل تأثيرهما حتى إلى دمشق كما كتب محمد كرد علي في جريدته المقتبس عن أخطار الصهيونية على الأمة العربية².

و في انتخابات سنة 1914 نقد سعيد الحسيني سياسة الاتحاديين المتواطئة و المتباطئة مع النشاط الاستطاني الصهيوني في فلسطين³ حيث بلغ عدد المستوطنين الصهيونيين سنة 914 ب 12 ألف نسمة من أصل مجموع السكان اليهود البالغ عددهم 60 ألف و امتلك اليهود حوالي 2 % من الأراضي بينما بلغ تعداد العرب 644 ألف نسمة منهم 70 ألف مسيحي و 574 ألف مسلم⁴.

رغم هذه الاحتجاجات أصدر الاتحاديون تشريعا يسمح ببيع جميع الأراضي السلطانية في الدولة وبالمزاد العلني و لو لاندلاع الحرب العالمية الأولى وموقف عرب فلسطين من المشروع الصهيوني لاستفرد اليهود بفلسطين⁵.

¹ -أنور الجندي ، تاريخ الصحافة ،المرجع السابق ، ص 239.

² - الياس شوفاني ، المرجع السابق، ص- ص 299-303.

³ -الياس شوفاني الموجز ، نفس المرجع ، ص 304.

⁴ -عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص 605.

⁵ -موفق المرجة ، المرجع السابق ، ص 220.

تفيد المصادر " أن ما باعه الفلاحون في الفترة ما بين 1901-1914 لا يتجاوز 4.3% من مجموع ما اشترته الحركة الصهيونية، والباقي تم شراؤه من الدولة أو من الملاكين¹ الغائبين²، وحتى أعضاء الاتحاد والترقي توجد بينهم خلافات شديدة حول المشروع الصهيوني :

- فئة منهم صاحبة النفوذ شجعت الحركة الصهيونية و مشاريعها في فلسطين.

- و فئة أخرى حاربت النشاط الصهيوني و اعتبرت نفسها مغررا بها.

وحتى اسم الجمعية "الاتحاد و الترقى" هو اسم اللوج الماسوني في سلانيك³ تؤكد مذكرة لوثر إلى الخارجية البريطانية : " بأن لجنة الاتحاد والترقي بدوا في تشكيلها الداخلي تحالفا يهوديا - تركيا مزدوجا، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، بينما يمدوها اليهود بالعقل المدبر، وبالتنظيم والمال والنفوذ الصحفي القوي في أوروبا"⁴.

خلال الحرب العالمية الأولى كانت المنظمة الصهيونية تعمل على جبهتين: من الناحية السياسية تسعى للحصول على اعتراف دولي للصهيونية و أهدافها، و من جهة أخرى نشطت في حقل الاستيطان وتهويد فلسطين أرضا وشعبا على حساب أهل البلد الأصليين ماديا و معنويا، وقد اكتشف الحكام الأتراك الجدد أن أهداف الصهيونية المطروحة التي طرحها النواب العرب في البرلمان والتي وقع حولها نقاش بينهم وبين الأوساط التقليدية العثمانية تتناقض مع مبدأ الحفاظ على وحدة الأراضي العثمانية كونها ستفقد الأرض والسكان و تساعد على توسيع النفوذ الأجنبي في أراضي السلطنة⁵.

إن النشاط الاستيطاني الصهيوني دفع عرب فلسطين على مقاومته فأحيانا اتخذت المقاومة شكل الصراع العنيف لأن أعضاء الهجرة الثانية اعتمدوا على فكرة العنف المسلح لفرض وجودهم القسري على السكان و اعتبروا أنفسهم حراسا على أرواح و ممتلكات المستوطنين القدامى رغم موقف المستوطنين القدامى الرافض، فأصبح أعضاء الهجرة الثانية حجر الأساس للمنظمات الارهابية الصهيونية المسلحة في فلسطين، فجردوا العمال العرب و لو بالقوة عن أراضيهم و عملوا على احتلال العمل، وفي سنة 1909 عقد المؤتمر التأسيسي لمنظمة هشومير (الحارس) (المسلحة بصورة شبه علنية) في مستعمرة مسحة (الجليل الاسفل) وتم الاتفاق على تكوين منظمة تتولى حراسة المستعمرات و تدريب حراس على استعمال

¹- إن الأراضي التي يمتلكها المالكين الغائبين كانوا قد وضعوا ايديهم على هذه الأراضي في فترة التنظيمات بأساليب متعددة من الاحتيال على الفلاحين و التآمر مع الموظفين الأتراك الفاسدين. أنظر: الياس شوفاني، المرجع السابق ص 340

²-حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 329.

³- نفس المرجع، ص 333.

⁴- نفس المرجع ، ص 306.

⁵- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص- ص 338- 339.

الأسلحة و ركوب الخيل إلا أنها - المنظمة - لم تحقق النجاح المنشود و لذلك عاد سكان المستعمرات إلى استخدام نواطير القبائل و القرى المجاورة إلا أن منظمة هشومير استطاعت أن تطرد الفلاحين المربعين من أراضي المالكين الغائبين الذين باعوا تلك الاراضي إلى الصندوق القومي اليهودي واستطاعوا المسلحون السيطرة على أراضي مستعمرة دغانيا (جنوب بحيرة طبرية) وطرد الفلاحين العرب من الخضيرة واستولوا على أراضيها وانتزعوا أراضي من أيدي الفلاحين في مستعمرة مرحافيا أقيمت هذه المستعمرة سنة 1911 على أراضي كانت قد باعها عائلة سرسق اللبنانية الغائبة رغم أن شكري العسلي حاكم الناصرة بذل جهدا كبيرا لمنع بيع هذه الأراضي إلا أن يوسف سرسق عن طريق الرشاوي أبعد العسلي من فلسطين.

و لما يؤس عرب فلسطين من تماطل الأتراك أمام تعاظم الهجرة اليهودية فكروا في اللجوء إلى العنف في الوقت الذي كانوا يحضرون لتفجير الثورة على الأتراك لتحقيق الاستقلال، و صاحبها حملة صحفية داخل و خارج فلسطين على الصهيونية و على الحكومة العثمانية¹، تشجعت الحركة الصهيونية خلال هذه الفترة و عقدت عدة مؤتمرات محلية واجرت محادثات سرية إلى أن تم التوصل بعد مؤتمر فينا الذي انعقد في سنة 1913 إلى استخدام أسلوب التغلغل الاقتصادي في فلسطين لإيجاد قاعدة اقتصادية و إقامة شركة تطوير أراضي فلسطين و تزامن هذا مع تحركات سياسية على نطاق أوروبا لكسب المواقف السياسية و نشر اللغة العبرية و الثقافة اليهودية و أنه للشعب اليهودي الحق في امتلاك الأراضي الفلسطينية².

سوء الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

إن حركة الاصلاحات والتنظيمات التي قام بها الاتحاديون لم تستمر طويلا نظرا لعدة عوامل:

العوامل الخارجية: انفصلت عن الدولة العثمانية ممتلكاتها في أوروبا و طرابلس الغرب التي احتلتها إيطاليا سنة 1911 نظرا لتهاون الحكومة العثمانية في حمايتها من الاحتلال الايطالي.

العوامل الداخلية: تتمثل هذه العوامل في النزاع القائم بين أنصار الحكم المركزي ممثلين في أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وأنصار الحكم اللامركزي ممثلين في الأحزاب المعارضة للاتحاديين مثل التشبث الشخصي واللامركزية ثم الحزب الحر المعتدل وحزب الحرية والإئتلاف و الجمعيات العربية العلنية و السرية³ ولذلك لا تختلف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية عن الأوضاع السياسية: ففي فلسطين نشرت جريدة الاصمعي: مقارنة بين وضع الفلاح العربي والمستعمر اليهودي حيث ذكرت الجريدة الامتيازات التي يتمتع بها اليهودي

¹- عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 27-28.

²- مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 40.

³ - عوض عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 49-50.

كإعفائه من دفع الضرائب التي تفرضها الدولة العثمانية و نشرت الجريدة بكثير من المرات وضعية العرب المزرية و استحالة صمودهم في وجه منافسيهم اليهود¹ الذين يسيطرون على مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة في سهل مرج بن عامر وغيره من السهول، كما يستغلون الفلسطينيين في خدمة الأراضي التي انتزعوها منهم بأجور زهيدة، نظرا لفساد الجهاز الإداري في الولايات العربية فرضت رسوم جمركية مرتفعة على البضائع المستوردة، فتسببت في كثرة الضرائب وتنوعها في انتشار الفقر والمجاعة في حوران خاصة، ودفعت الأهالي إلى أعمال عنف و تخريب تضرر منها أصحاب الأراضي والفلاحين، ولم تهدأ الأوضاع حتى وعد سامي باشا رئيس الفرقة العسكرية زعيمهم بإجراء الإصلاحات الادارية الضرورية في حوران، رغم ذلك امتد صدى الثورة إلى المدن الشامية الأخرى بزعامة يحيى الأطرش².

وفي جبل لبنان رغم بعض الإصلاحات التي أنجزها الاتحاديين كرفع أجور الموظفين ونشر الأمن والاهتمام بالمزارعين و مد الخزينة اللبنانية بالأموال و تأسيس صندوق لمساعدة صغار الفلاحين سنة 1909 إلا أنهم فرضوا على السكان دفع جميع الضرائب التي يدفعها سكان الولايات الأخرى في السلطنة و الانصياع للقوانين التي تصدر عن البرلمان العثماني، كما احتكروا زراعة التبغ وسيطروا على صناعة الملح و منعوا البحارة اللبنانيين من استقبال سفن غير الشراعية في مرافئهم ثم أقاموا مراكز مراقبة تركية على السواحل لتراقب تنفيذ الأوامر، إن هذه الإجراءات التعسفية دفعت البعض إلى الهجرة و البعض الآخر أرسل برقيات احتجاج الى قناصل الدول العظمى يعبرون فيها عن رفضهم لهذه الاجراءات و في هذا الصدد يذكر جورج سمّنة في كتابه سوريا صورة واضحة مدى التدمير الذي كان يخلج في نفوس رجال الأعمال اللبنانيين حيث يقول: " إن المؤسسات التي اعتبرتها أوروبا كافية لضمان حياة اللبنانيين لم يترك منها الأتراك إلا الواجحة و على هذا الأساس يصبح الاستقلال بالنسبة للبنانيين الموت دون مجد، فالأهالي الذين يمنعون من استخدام الموانئ لعمليات الترانزيت لابد و أن يحتنقوا في مقاطعة صغيرة غير خصبة و أن تجارهم و صناعتهم لابد أن تخضع للجمارك التركية و بضائعهم التي يستوردونها من أوروبا كان عليهم أن يدفعوا حتى تدخل بيروت أو طرابلس أو صيدا و حتى عند دخولها الجبل كان يفرض عليهم الدفع ، ولا ننسى البغشيش فكيف يمكن أن يعيش الانسان في هذه الظروف"³.

¹ - عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 53، 61.

² - علي معطي، المرجع السابق، ص 61.

³ - علي معطي، نفس المرجع، ص 65 وما بعدها

لقد أدت المجاعة التي عرفت لبنان في سنوات 1917-1918 إلى هلاك 40 % من الأيدي العاملة الفلاحية و منيت الأسواق الداخلية بفقر شديد وتوقفت المصارف واختفى الذهب من الأسواق وحتى أساطيل الحلفاء الحربية فرضت حصار على موانئ لبنان و ولايتي سوريا و بيروت فانقطعت أموال السياحة و أموال المغتربين من الوصول إلى أصحابها و توقفت الواردات الغذائية و الأدوية... الخ و انخفض انتاج الصناعات التي تعتمد على المواد الأولية المستوردة كالخشب و بالتالي انتشر الجوع في جميع المدن والأرياف و مست جميع طبقات المجتمع، خاصة بعدما كون جمال باشا لجنة التكاليف الحربية " التي كلفت بأخذ سائر المواد التي يحتاج إليها الجيش طيلة مدة الحرب كالأرز و الحبوب و السكر... الخ و هذا ما أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية حتى عجز الناس على الحصول على الخبز. و حتى طرق المواصلات و وسائل النقل سيطر عليها جمال باشا تسهيلا لنقل الجنود و لقد استغلت أشجار الزيتون والتفاح... من جبل لبنان و ولايتي بيروت و دمشق كوقود بدلا من الفحم الحجري الذي بدأ ينفذ أثر ذلك على الثروة الزراعية¹.

اعتمدت الحكومة العثمانية على نظام السخرة سواء كانوا رجالا أو نساء، و من أجل إعداد حملة عسكرية ثانية فرض جمال باشا ضرائب جديدة و جند كل شاب قادر على حمل السلاح و فرض قوانين جديدة زادت من شدة الأزمة. هذه السياسة شلت قدرة اللبنانيين على الانتاج حتى عجزوا على تأمين الغذاء و الكساء.

رفض سكان بلاد الشام التداول بالعملة الورقية الجديدة التي فرضتها الحكومة العثمانية و حتى الصيارفة رفضوا ابدال هذه العملة بأي قطع نقدية أخرى فتكدست مبالغ كبيرة من الذهب زاد ذلك في تأزم الوضع الاقتصادي و هبطت قيمة الليرة الورقية التركية بين عامي 1915-1917 بالقياس إلى قيمة النقد الذهبي و تعرض الذهب إلى مضاربة واسعة و انتشرت الاحتمارات حتى في الحبوب.

إن الحصار الذي فرضه الحلفاء على سواحل بلاد الشام أثر في الأزمة التي شهدتها لبنان حيث منعت البواخر من ايصال المساعدات التي ترسلها الجاليات العربية من الخارج وبالتالي يكون للحلفاء يد في تجويع اللبنانيين والسوريين لأنهم منعوا عنهم وصول المواد الغذائية والأدوية من أمريكا ومصر²، وحتى فرنسا التي تساند الموارنة أصبحت تؤيد الصحف والجمعيات المناوئة لاستقلال لبنان فسيطرت على السكك الحديدية ومرفأ بيروت وشركات الكهرباء والمياه وفروع البنك الامبراطوري العثماني وعلى السوق السورية

¹ - علي معطي، المرجع السابق، ص- ص222 وما بعدها

² - نفس المرجع ص 226 .

واللبنانية التجارية. خاصة تجارة الحرير والجلد والحبوب والحيوانات ولما عجز المتصرف يوسف فرانكو باشا والمتصرف أوهانسن قوجيان في معالجة الكثير من مشاكل لبنان انسحب اللبنانيون الأعضاء من جمعية الاتحاد والترقي¹.

يصور لنا بعض المعاصرين حقيقة ما كان يجري في عهد الاتحاديين الذي كان يسمى "بعهد الحرية" فقد شاهدوا الأحداث بأنفسهم أمثال جواد رفعت اتلخان و مصطفى طوران فيقول الاول: " في الواقع إن جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبد الحميد الثاني عن عرشه هي التي أقامت الاستبداد بعد ذلك، وشهدت البلاد من المآسي ما لم تشهده خلال ثلاث و ثلاثين سنة من حكم السلطان.... ولفظ مواطنون مخلصون كثيرون أنفاسهم الأخيرة على أعواد المشانق التي نصبت في مختلف أنحاء البلاد....".
و يقول الآخر مبينا ما جرى للأمة بعد اعلان الاتحاديين للحرية: " لقد رأيت أجيالنا فيما بعد أي شيء هذه الحرية، عاشت مصائب و نكبات خنق فيها البشر كالكلاب على أعواد المشانق و طعن الأبطال بالحرب في صدورهم و شهدت الأرض التي أقسم جيشها على تحقيق الحرية حمامات الدم والإبادة الجماعية كل ذلك كان في عهد الحرية"².

لقد أغلق الاتحاديون الباب في وجه الحركة العربية التي تأمل في المشاركة في حكم بلادها و لذلك نشأ بينها و بين التيار القومي التركي صدام³.

المبحث الثاني: تطور الحركة القومية العربية:

منح الدستور العثماني للشعوب حرية التعبير والانتماء و إبداء الرأي أدى ذلك إلى قوة و حيوية الجدل العربي التركي وبهذا الحوار تكونت حركة قومية عربية ناضجة⁴، إن انقلاب السلطان عبد الحميد الثاني على التنظيمات وعلى أدواتها و رجالها كحله للبرلمان و إلغاء الدستور ووضع حد للتدخل الأجنبي دفع الاصطلاحيين وأغلبهم أتراك إلى تكوين جمعيات سرية تعمل على قلب نظام الحكم.

لقد ظهر تيار إصلاحى محافظ يتزعمه كل من جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده في مصر، الشيخ طاهر الجزائري في سوريا، إلى جانب هذا التيار الإصلاحى والمحافظ ظهر تيار آخر يتكون من المثقفين العلمانيين انعزلوا تقريبا عن الماضي و رفضوا الواقع القائم، انبثق عن هذا التيار عدة مدارس أهمها مدرستان:

¹ - علي معطي، المرجع السابق، ص-ص 69-71.

² - سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق، ص-ص 58-60.

³ - علي المحافظة، التيارات السياسية، المرجع السابق، ص 315.

⁴ - تاج السر أحمد مروان، المرجع السابق، ص 622.

- الأولى: أغلب أعضاؤها من أبناء الطوائف المسيحية، تأثروا بالحضارة الغربية.

- الثانية: أعضاؤها على العموم من المسلمين الذين درسوا في مدارس الغرب، أرادت الاقتباس من هذا الغرب قدر الإمكان و لكن مع الحفاظ على الهوية الذاتية فحدث خلاف بين هاتين المدرستين في نهاية القرن التاسع عشر، إلا أنها نسيت خلافاتها عشية الحرب العالمية الأولى فأسس أعضاؤها جمعيات سياسية سرية التي تشكلت حول شعارات وطنية¹.

1-العوامل التي أدت إلى تطور الوعي القومي العربي :

- سياسة التتريك إلى ظهور تيارين مختلفين حيث دعا التيار الأول إلى التعاون مع الأتراك ضمن الدولة العثمانية في إطار المساواة القومية يمثل هذا التيار جمعية الإخاء العربي العثماني و المتندى الأدبي، و لذلك عمل رشيد رضا أثناء تواجده بالأستانة على إزالة سوء التفاهم العربي العثماني و إحباط مشاريع التفرقة بينهما، بينما دعا التيار الثاني إلى اللامركزية العربية ردا على المركزية التركية ثم تطور إلى المطالبة بالاستقلال التام عن السلطنة العثمانية و كانت بلاد الشام المركز الرئيسي له و تعتبر دمشق مركز قوته يمثل هذا التيار الجمعية القحطانية و الجمعية العربية الفتاة - جمعية بيروت الإصلاحية تزامنا مع عقد المؤتمر العربي الأول باريس 1913.

-الضغوطات التي مارسها الاتحاديون على الجمعيات العربية و رجالاتها العاملين داخل السلطنة أدى إلى تطور النضال القومي العربي أولها جمعية التشبث الشخصي و اللامركزية التي أسسها الأمير صباح الدين، لها فروع في دمشق و بيروت وغيرها من المدن العربية يرى الأمير أنه من غير الممكن صهر شعوب تختلف عن بعضها في بوتقة واحدة² لكنه لا يقصد باللامركزية خلق ولايات مستقلة ذات امتيازات خاصة، و إنما تكون اللامركزية في الإدارة فقط³.

-تأثر بعض المثقفين العرب بالمثقفين القوميين الأتراك المتأثرين بالفكر الأوروبي.

-ساعدت سياسة التتريك بقدر كبير على تبلور الفكر القومي العربي و اكتسبته حتى المؤيدين الإسلاميين الذين كانوا في السابق يعارضونه انطلاقا من إيمانهم للجامعة الإسلامية⁴.

¹ - الياس شوفاني الموجز، المرجع السابق، ص286

² - جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص.

³ - توفيق برو، العرب و الأتراك، المرجع السابق، ص.87

⁴ - مفيدة محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص627.

- لعب الدستور دورا فعالا في إيقاظ الحس القومي¹.

-إن سياسة جمعية تركيا الفتاة و الاتحاديين عملت على هضم حقوق الشعب العربي في بلاد الشام وتسلط العنصر التركي على بقية القوميات ما دفع الأعيان و العاملين في الإدارة العثمانية إلى البحث عن الوسائل و السبل الكفيلة لتحقيق حقوقهم الاجتماعية و السياسية، و هكذا شكلت هذه الفئة مع أبنائها من الشباب المثقف و بعض الموظفين العرب في الإدارة و الجيش جمعيات سرية. تعاونت في بعض الأحيان حتى مع قوى خارجية لا يصال أصواتها إلى الخارج².

- عدم وجود رأي سوري شعبي لأن الطبقة الشعبية كانت لا تهتم بالنشاط السياسي.

-ظهور حركة عامة لإحياء الشعور القومي بين عرب سوريا ووصل صدى هذه الحركة إلى بيروت ولبنان³.

الطرق والوسائل التي اعتمدت عليها:

1-الجمعيات والاحزاب السياسية العربية:

أثناء حكم الاتحاديين ظهرت عدة جمعيات و أحزاب سياسية مارست نشاطها خاصة في الفترة الممتدة ما بين 1909-1914 و كانت كل جمعية تكمل أعمال الجمعية الأخرى⁴ و للوقوف على أهم المبادئ و الأسس التي حكمت العلاقات العربية - التركية في تلك الفترة التاريخية من تاريخ بلاد الشام لا بد من أن نتطرق إلى هذه الجمعيات و نشاطها⁵.

ظهرت بذور العمل العربي⁶ في سوريا في صورة جمعيات ثقافية في بداية الأمر ثم تحولت إلى جمعيات سياسية⁷ لا يختلف نشاطها ودورها عن المدارس والبعثات الأجنبية، فهي كوسيلة لتنوير العقول لمن لم يلتحق بالمدارس الأجنبية أو لم ينخرط في بعثة إلى الخارج لتكون منهم فئة متميزة تضغط في المستقبل

¹ - عبد الوهاب الكيالي ، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق ، ص54.

² - وليد قزيها، المرجع السابق، ص223.

³ - مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص619.

⁴ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص183

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص 76.

⁶ - اهتمت الأقلية السورية المتنوعة التي تتكون من مجموعة من الشباب مسلمين و مسيحيين مثقفين بالأمور السياسية للدولة العثمانية و بمصير بلادها سوريا، لعبت هذه المجموعة دورا حاسما في تاريخ العلاقات السورية- التركية. أنظر: مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 618.

⁷ - زهية قدورة ، المرجع السابق ، ص 234.

على القاعدة تقبل التغيير وتجسده على أرض الواقع عندما تحتل هذه الفئة مواقع حساسة وهامة لكي تحافظ على مصالح الغرب في المنطقة¹.

-جمعية الإخاء العربي- العثماني: أسس رفيق بك العظم، شفيق بك المؤيد العظم و مجموعة من رجال العرب بعد إعلان الدستور جمعية عربية وهي جمعية الإخاء العربي العثماني²، فهي أول جمعية عربية أنشأت خلال الحكم الاتحادي الجديد وذلك من خلال الاجتماع الذي عقدته الجالية العربية في استانبول في 2 سبتمبر 1908³ برئاسة صادق باشا العظم وهو ضابط سوري في أركان الجيش العثماني لها فروع في الولايات العربية⁴.

أيدت هذه الجمعية في برنامجها السياسي خطة جمعية الاتحاد و الترقى في النصوص الظاهرية خاصة أن في هذه الفترة كانت العلاقة حسنة تفانى فيها العرب و اخلصوا للعهد الجديد، و اختلفت معها في الجوهر لأن هذه الأخيرة أرادت أن تفرض سلطتها و مبادئها و نفوذها على كل أفراد الأمة العثمانية من البداية⁵.

وأول هزة هزت الإخاء العربي العثماني عندما أجريت الانتخابات لأول مجلس نواب في ظل الدستور الجديد حيث أشرفت جمعية الاتحاد و الترقى على جهاز الانتخابات و بالتالي أسفرت النتائج النهائية على نجاح الأغلبية العظمى من مرشحيها⁶، ولذلك أيد معظم المنتسبين إلى جمعية الإخاء حركة التمرد التي وقعت في 31 ماي 1909 و التي قام بها أنصار السلطان عبد الحميد الثاني، فأغلق الاتحاديون الجمعية و فروعها في البلاد العربية بعد القضاء على التمرد وأقصى عددا كبيرا من الموظفين العرب من المناصب الهامة في وزارتي الخارجية و اتمم أعضائها بالعمل على استقلال البلاد العربية عن الأتراك⁷.

-الجامعة العثمانية:

تأسست في بيروت خريف 1909 فتحت لها فروعاً في مختلف المدن السورية واللبنانية يعتبر فرع باريس الذي يضم كل من شكري غانم، جورج سمّنة، الفرد سرسق، نجيب طراد من انشط الفروع، طالبوا بالاتحاد

¹ -مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص119.

² -توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص94.

³ - سيار الجميل، المرجع السابق، ص516.

⁴ -الياس شوفاني، المرجع السابق، ص292.

⁵ - توفيق برو، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، المرجع السابق، ص، ص94، 87.

⁶ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص178.

⁷ - علي معطي، المرجع السابق، ص، ص137، 52.

في إطار الجامعة العثمانية، تهدف الجامعة إلى تحقيق المساواة وتطبيق اللامركزية ونشر العلم، إلا أن أعضاء هذه الجامعة تعرضوا لظلم و استبداد الاتحاديين¹.

- **جمعية المنتدى الأدبي:** تأسست سنة 1909 من طرف جماعة من الموظفين والنواب والأدباء والطلاب من بينهم رفيق سلوم، جميل الحسيني عبد الحميد الزهراوي، و عبد الكريم الخليل، أصبحت لها فروعاً في سوريا و لبنان و العراق و هي ذات طابع أدبي ظاهرياً و سياسي و ثقافي باطنياً²، حاول بعض مؤسسي المنتدى الأدبي بوضع تصميم لرؤية العرب القومية و اتفقوا على أن تكون الرؤية تحمل الألوان الأربعة التالية : الأبيض، الأسود، الأخضر، الأحمر. و رفعت هذه الرؤية داخل بناية المنتدى الأدبي بعد أن كتبوا تحتها بيتاً من الشعر للشاعر صفي الدين الحلي قال فيه :

بيض صنائعنا، سود وقائعنا** خضر مرابعنا، حمر مواضعنا³.

أقام أعضاؤها اتصالات مع أقرانهم في مصر و الولايات المتحدة الأمريكية و أدخلوا المطبوعات الممنوعة فتحول نشاطها الى العمل السياسي السري⁴. و كان كل عربي يصل إلى استانبول ينظم إلى هذا المنتدى و بلغ عدد المنظمين إليها بالآلاف حتى الاتحاديون كانوا يترددون كثيراً على المنتدى منهم أنور باشا، جمال باشا، ومدحت شكري خاصة و أثناء ظهور بؤادر الحرب العالمية الأولى زادت زيارة الاتحاديين الى المنتدى لتبادل الخطب الحماسية بين الأعضاء و في آخر احتفال له بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف قال طلعت باشا في خطبة ألقاها يوم الاحتفال : " إن العرب و الترك جسم واحد و كتلة عظيمة واحدة لا ينفك أحدهما عن الآخر أبداً و هذه يدنا نمدّها لمصافحتكم فصافحونا أيها العرب و المسلمون وثقوا أنكم إن فررتم منا فإننا تابعوكم و لاحقون بكم لنظمكم إلى صدورنا و نتمسك بكم ابداً الدهر"، و رغم هذا فإن الاتحاديون خلال الحرب العالمية الأولى لاحقوا العرب المعارضين و منهم أعضاء المنتدى الأدبي فأغلق مركزه في استانبول و أعدم رئيسه عبد الكريم خليل 1915⁵.

عندما تأكد رجال الحركة العربية في استحالة استمرار التعاون مع الاتحاديين خاصة بعد غلق الحكومة المنتدى الأدبي المتنفس الوحيد للعرب في استانبول توترت العلاقات و في هذا الصدد يذكر أحمد قدري: " وقد أدى هذا المنتدى للعرب خدمات جليلة فنشر الفكرة العربية، و كان بمثابة موئل للطلاب العرب

¹ - علي معطي، المرجع السابق، ص 53.

² - سيار الجميل، المرجع السابق، ص 517.

³ - علي معطي، المرجع السابق، ص 303.

⁴ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 293.

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص - ص 83-86.

الذين يؤمنون الاستانة، و بالنظر لكونها المؤسسة العربية ذات المكانة الوحيدة في الدولة العثمانية فقد بلغ هذا المنتدى مكانة رفيعة و خاصة ابان عقد الاتفاق بين زعماء العرب و الاتحاديين عقب مؤتمر باريس¹.

-الجمعية القحطانية:

جمعية سرية أنشأها بعض المثقفين والضباط العرب سنة 1909 استمرت إلى غاية الحرب العالمية الأولى ثم انضم أعضاءها إلى جمعية العهد و العربية و الجمعية الفتاة² تعمل بالسياسة بموازاة النشاط الثقافي للمنتدى وللقحطانية فروع في المدن العربية³ من بين أعضائها سليم الجزائري مسلم من دمشق، أمين وعادل أرسلان درزيان⁴، وعبد كريم خليل عبد الحميد الزهراوي ، عزيز علي من مصر، حقي العظم، وحسن حمادة ، وشكري العسلي والدكتور عزة الجندي، علي افندي النشاشيبي.

تهدف إلى:

- رفع مستوى العرب الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي.
- تحويل الإمبراطورية العثمانية إلى مملكة ثنائية بين العرب و الترك على غرار الامبراطورية النمساوية - الهنغارية يرأسها السلطان العثماني⁵.

غير أن الوضع السياسي المتردي في الدولة العثمانية خاصة ما بين النصف الثاني من عام 1911- 1912 جعل حركة اللامركزية العربية تصل إلى القمة فأصبحت كلمة اصلاح الإدارة على أساس لامركزي تتردد في جميع المناسبات خاصة أن في هذه الفترة عرفت الدولة عدة أزمات داخلية و خارجية⁶.

4/ الاتحاد اللبناني بالقاهرة :

تأسس الاتحاد في القاهرة في 19 نوفمبر 1909 يهدف إلى الحفاظ على الامتيازات التي يتمتع بها جبل لبنان و في 26 جانفي وضعت الهيئة العامة قانون الاتحاد الاساسي و تم اختيار خمسة أعضاء لتسيير شؤونها التنفيذية هم :

¹ - ارنست رامزور، المرجع السابق، ص25.

² - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص139.

³ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص294.

⁴ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص186.

⁵ -علي معطي، المرجع السابق، ص77

⁶ - تاج السر احمد مروان، المرجع السابق، ص628.

-اسكندر عمون رئيسا.

- و انطوان الجميل سكرتيرا.

- و حيدر معلوف أميناً للصندوق.

- داود بركات و حبيب يزبك عضوين عاملين، و قد أرسلوا إلى اللبنانيين في أمريكا و أوروبا والأستانة للعمل من أجل تحقيق الهدف المنشود.

و في 20 أكتوبر 1912 أرسل الاتحاد اللبناني رسالة إلى الدول الأوروبية الكبرى فرنسا إنجلترا إيطاليا و النمسا المانيا روسيا تلتمس منها باسم الشعب اللبناني تحقيق المطالب التالية :

1- تطبيق استقلال ذاتي حقيقي في لبنان.

2- اعتماد التمثيل النسبي في تشكيل المجالس التشريعية.

3- منح جبل لبنان حقوق جمركية و بريدية و تلغرافية.

و عندما قرب اجتماع سفراء الدول لاختيار خلفا للمتصرف يوسف فرنكو باشا أرسل اسكندر عمون رئيس الاتحاد برقية إلى الصدر الاعظم كامل باشا و سفراء الدول الأوروبية الكبرى في استانبول يذكر فيها : " إن الإصلاح الذي يمكن أن يعيد إلى لبنان الهدوء و يوقف هجرة أبنائه المدمرة هو الاصلاح الذي يستند إلى استقلال ذاتي حقيقي وتوسيع فعلي لأراضيه، و كل اصلاح خارج هذا الإطار يكون غير مجد".

وجه اسكندر عمون مع خير الله خير الله سكرتير الجمعية في باريس إلى السيد كوجه قنصل فرنسا العام في بيروت يشكر فيها الحكومة الفرنسية على خدماتها اتجاه لبنان ويعرب عن أملهما بأن تبقي فرنسا باب الاصلاح في لبنان مفتوحا، ولقد تعاون هذا الاتحاد مع حزب اللامركزية للتصدي للتيار الطوراني¹.

- الاتحاد اللبناني بالإسكندرية:

اجتمعت الجالية اللبنانية في الإسكندرية في 28 مارس 1910 لتكوين جمعية تحافظ على الامتيازات التي يتمتع بها لبنان فتكونت الجمعية تحت اسم الاتحاد اللبناني بالإسكندرية و مما قاله يوسف السودا أحد أعضائها محدد أهدافها : " نحن قوم كانت لنا امارة فدكت معالمها وكان لنا استقلال ففردنا فيه، وبقيت لنا امتيازات فبدلا من العمل على الاحتفاظ بها و الاسترداد منها أصبحنا، و فينا فريق لم يكتف بالقعود عن الدفاع عنها بل قام يسعى إلى إلغائها والاستعاضة عنها بالإدماج في جسم دولة نفقد شخصيتنا

¹ -علي معطي، المرجع السابق، ص- ص86-89.

ونقتل قوميتنا و نضيع في مجموع لا تربطنا به رابطة، دوي في لبنان صوت يهيب بأبناء البلاد، بالمقيمين فيها والنازحين أن احتفظوا بامتيازاتكم و لا ترضوا عنها بديلا إلى يوم ينبثق فيه فجر عهد جديد فينال لبنان حقوقه كاملة أسوة بغيره من الأمم".

و عندما حاولت حكومة الاتحاديون الانتقاص من استقلال لبنان وجه يوسف السودا كتابا إلى رئيس مجلس النواب الفرنسي جاء فيه: "إنني باسم إخواني اللبنانيين ألتمس مساعدتكم و مساعدة حكومة بلادكم لنشلنا من الأزمة التي نعيشها إن استقلال لبنان الذي ساعدت حكومتكم على الاحتفاظ به أثناء فتن 1840 - 1845 - 1860 - 1864 مهدد بالانهيار هناك محاولات كثيرة من قبل الأتراك لضمنا إلى ولايات الامبراطورية العثمانية ولإجبارنا على ارسال ممثلين إلى البرلمان العثماني، و قد استخدموا لإقناعنا حججا واهية، منها تطبيق الدستور و انفاذ القوانين و الحقيقة أنهم قصدوا من ذلك فك ارتباطنا بالدول الأوروبية و ابعاد طلب حمايتها".

أثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى عملت الجمعية على توحيد أهدافها مع مختلف الاتجاهات اللبنانية كما دعت الى استقلال لبنان التام إلا أن الأحكام العرفية التي فرضتها السلطات البريطانية أجبرت الجمعية على السكوت¹.

جمعية الدروز: "أنشأها نخبة من زعماء لبنان المعارضة لتصرفات يوسف فرانكوباشا و قد ترأس هذه الجمعية حبيب باشا السعد و سليم بك المعوشي.

و من بين مطالبها:

-وضع حد لسلطة المتصرف المطلقة.

- اعتماد طريقة الانتخابات الشعبية في تشكيل مجالس الإدارة.

- تأمين حرية و استقلال القضاة و التأكيد على النزاهة في اختيارهم.

- تفويض الجمعية في إجراء كل ما تراه مناسب لتحقيق الإصلاح في لبنان².

و في سنة 1910 ظهرت في جبل لبنان جمعيات مسيحية أخرى تدعو لتوسيع حدود الجبل ليكون وطننا للمسيحيين بمساعدة و تدعيم فرنسا و لذلك تأسست جمعية حزب النهضة اللبنانية السرية في جبل لبنان من قبل آل الخازن و كانت الجمعية تتلقى الدعم المادي البشري من طرف قنصل فرنسا في بيروت

¹ -علي معطي، المرجع السابق، ص- ص 89 -91.

² - نفس المرجع ، ص94

تهدف الجمعية إلى إخراج لبنان من حظيرة الدولة العثمانية¹. وكذلك جمعية النهضة اللبنانية في البرازيل ونيويورك، جمعية الاتحاد اللبناني في كندا وجمعية الدفاع والجمهورية والحزب الوطني وجمعية الترقى اللبنانية².

لقد سبق المسيحيون العرب المسلمين للاستجابة لدعوة القومية العربية وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمن البزاز: "إن وجود فئة كبيرة من مثقفي المسيحيين العرب في ديار الشام كانوا يدركون قوميتهم العربية ويتحسسون بها بصورة أقوى من بني قومهم من المسلمين... كان له أثر في نضج الشعور القومي في الشام قبل مصر... وإن نصارى الشام قد أسهموا إسهاما جديا في تمكين عرب المشرق في بلاد الشام والعراق خاصة من التمييز الواضح بين القومية والدين و الفصل بينهما..."³.

- حزب الحرية و الائتلاف: تأسس هذا الحزب في 8 نوفمبر 1911 حيث انظم بعض النواب العرب إلى زملاءهم الألبان و الأرمن و الأتراك و كونوا جمعية حزب الحرية و الائتلاف⁴، يختلف هذا الحزب ايديولوجيا عن الاتحاد و الترقى في ايمانه باللامركزية⁵ و في جوان 1912 تألفت الوزارة الاتحادية إلا أنها سقطت وتألفت وزارة ائتلافية جاء بها ضباط الانقاذ⁶ و تضم كذلك عناصر سياسية و بعض المنشطين من الاتحاديين⁷، فوقع نوع من التقارب بين العناصر التركية و العناصر الغير تركية "وبدأت حكومة الحرية والائتلاف في تنفيذ سياستها اللامركزية في البلاد العربية : ففي ولاية سوريا تلقى الوالي كاظم باشا الأمر بجمع المجالس العمومية في اليوم الأول من جانفي 1913 لمعرفة مطالب السكان وتحديد حاجة الولاية من الإصلاح وقد تمكن أنصار الحزب من تقديم لائحة اصلاحية تضمنت ماييلي:

- ايجاد مجلس عمومي منتخب ومستقل وغير مقيد بالوصاية الإدارية.

- فصل البلديات عن الإدارة المحلية.

- أن يكون للمجالس العمومية صلاحية الاشراف على جميع أعمال الإدارة المحلية.

- و يكون لها وحدها أن تهتم بشؤون المعارف و النافعة و الأوقاف.

¹ - علي شكيب، المرجع السابق.

² - علي معطي، المرجع السابق، ص- 95.

³ - مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 637.

⁴ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 141.

⁵ - سيار الجميل، المرجع السابق، ص 997.

⁶ - نفس المرجع، ص 518.

⁷ - محمد العريس، المرجع السابق، ص 304.

- تعيين موظفون من أبناء البلاد تحت مراقبة المجلس العمومي، و من لم يكن عربيا وجب عليه أن يعرف اللغة العربية التي لا يجوز استعمال غيرها في المحاكم¹، إن الوزارة التي فيها حزب الحرية و الائتلاف حضرت لتطبيق مبدأ اللامركزية و دعت المجالس العمومية في الولايات إلى الاجتماع من أجل مناقشة حاجات الولاية²، و كان الصراع هو الطابع السائد بين الائتلافيين و الاتحاديين في مجلس المبعوثين العثماني حتى أسقطها الاتحاديون على إثر انقلاب عسكري قاده أنور باشا في 23 جانفي 1913³. وتشكلت وزارة اتحادية برئاسة محمود شوكت باشا سارعت إلى تعطيل المجالس العمومية في الولايات التي انعقدت في عهد وزارة الائتلافيين من اجل صياغة المطالب اللامركزية. كما أصدر الاتحاديون في 17 ربيع الثاني 1913 قانونا جديدا للولايات كان امتدادا لنظام الولايات الذي صدر في سنة 1864⁴ و بموجب هذا النظام أصبح للوالي صلاحيات واسعة حيث اعتبر أكبر مأموري السلطة التنفيذية في الولاية و ممثلا لكل نظارة و مسؤولا عن إدارة الولاية⁵.

- **الجمعية العمومية:** تأسست في بيروت وعقدت عدة اجتماعات فوضع أعضاؤها لائحة اصلاحية تتضمن عدة مطالب إلا أن جمعية الاتحاد و الترقى رجعت إلى الحكم و حل الجمعية العمومية أدى ذلك إلى مظاهرات و احتجاجات، عمت جميع الولايات العربية و لذلك التجأ بعض المثقفين إلى عقد المؤتمر العربي الأول في باريس ما بين 17 - 23 جوان 1913⁶.

¹ - عبد العزيز عوض، الادارة العثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص 51

² - ارست رامزور، المرجع السابق، ص 23.

³ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 518.

⁴ - و في عام 1871 صدر نظام إدارة الولايات العمومية و جرى تعديل لهذا النظام بموجب المادة 108 من القانون الأساسي ثم أعيد النظر فيه عدة مرات و صدر سنة 1913 و صيغ في 149 مادة مع مقدمة و مادة مؤقتة سمي هذا القانون "بقانون إدارة الولايات العمومية" و قد نظمت القوانين السابقة علاقة موظفي الولاية مع بعضهم متبعة نظام التسلسل الإداري و بذلك حدد القانون اختصاصات و وظائف أعضاء الجهاز الإداري المدني و لقد ربط هذا النظام ولاية سوريا بالحكومة المركزية في استانبول و كانت التعليمات لا تصل بسرعة إلى الولاية مما أثر ذلك على سير المعاملات الإدارية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. أنظر: عبد العزيز عوض، الادارية لعثمانية في ولاية سوريا، المرجع السابق، ص-ص 68 - 69.

⁵ - نفس المرجع، ص 52.

⁶ - ساطع الحصري، المرجع السابق، ص-ص 223 - 225.

-الجمعية العربية الفتاة: تأسست في باريس سنة 1911 من طرف مجموعة من الطلاب العرب¹، و في الحقيقة ظهرت في 14 نوفمبر 1909 تحت اسم جمعية الناطقين بالضاد ثم تغير اسمها إلى العربية الفتاة² وهي أقوى الجمعيات العربية السرية التي تأسست قبل الحرب العالمية الأولى³، أعضائها من ملاك الأراضي والكتاب و الأطباء و كبار الموظفين يعملون في سرية تامة و لذلك عجزت الحكومة أن تجد أي دليل موثوق يكشف عن زعمائها أو أعضائها و قد راسلوا شريف مكة و بريطانيا⁴ منهم عوني عبد الهادي و محمد رستم، و أحمد قادري، و جميل مردم، و ابراهيم مردم من دمشق، و توفيق يوسف السويدي ، و عبد الغني العريسي و غيرهم⁵، و في 1912 انتقلت الجمعية إلى بيروت و تأسس لها فروع في دمشق و أثناء الحرب العالمية الأولى انتقل مقرها العام إلى دمشق عبر عن مطالب الجمعية المؤسس الرئيسي للجمعية حيث يقول : " إن فكرة القومية العربية، أو العروبة لم تكن بعد قد تبلورت و قويت، جل ما كنا نحن العرب نطلبه هو أن نتمتع في الامبراطورية العثمانية بنفس الحقوق و الواجبات التي كان يتمتع بها الأتراك و أن تقوم الامبراطورية على ركنين عظيمين : الشعب التركي و الشعب العربي"⁶.

من بين مطالب الجمعية العربية الفتاة :

-النهوض بالأمة العربية و عدم الانفصال عن الدولة العثمانية، لكن بعد الحرب العالمية الأولى طالبت بالاستقلال عن الحكم التركي⁷.

- دعت إلى توحيد نشاط كافة الأحزاب و المنظمات العربية الوطنية و لذلك تعاونت مع حزب اللامركزية فعمدت المؤتمر العربي الأول⁸.

¹ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 235.

² - رامزور، المرجع السابق، ص 30.

³ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 142.

⁴ - توماس لورونس: لورونس العرب اعمدة الحكمة السبعة، ترجمة محمد نجار، ط2، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، 2001، ص 39.

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص - ص 79 - 80.

⁶ - نفس المرجع ، ص 80.

⁷ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 142:

⁸ - الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 294.

اتصلت خلال الحرب العالمية الأولى بالأمير فيصل بن الحسين فانتسب اليها و تبنى فكرتها، قدم لها الأمير ألف ليرة ذهبية كمساعدة مالية¹. و بالتالي تعرضت للبطش العثماني فأعدم جمال باشا عددا من أعضائها سنة 1915².

-حزب اللامركزي العثماني: تأسس في القاهرة عام 1912 من طرف مجموعة من الأحرار العرب الذين تعرضوا لاضطهاد السلطان عبد الحميد الثاني برئاسة رفيق العظم - أحد رجال الحلقة للشيخ طاهر الجزائري في دمشق - ، و كذلك محمد رشيد رضا و أصبح للحزب فروع في بلاد الشام و العراق. يهدف الحزب إلى:

- المطالبة باللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية³.

- تقوية الامبراطورية ضد الأخطار الداخلية و الخارجية و ذلك عن طريق تحقيق لا مركزية في الحكم.

شك الاتحاديون في نشاط الجمعية فاتهمهم كمال باشا الحاكم العسكري لسوريا خلال الحرب العالمية الأولى بأن لهم أهدافا انفصالية⁴ و لذلك توقف الحزب عن العمل بعد الحرب العالمية الأولى⁵.

-جمعية بيروت للإصلاح: تأسست بتشجيع من اللامركزيين السوريين في القاهرة و بما أنها إقليمية و لم تجد استجابة في سوريا خاصة أن زعمائها ابتدعوا شكلا من الإدارة اللامركزية لولاية بيروت حلتها السلطات التركية⁶.

-جمعية الجامعة العربية: أسسها محمد رشيد رضا نظرا لسيطرة جمعية الاتحاد و الترقى على شؤون الدولة العثمانية تهدف إلى تحقيق تعاون عمران البلاد العربية و الدفاع عنها و كذلك إيجاد صلة بين الجمعيات العربية في سوريا و العراق⁷.

¹ -علي معطي، المرجع السابق ، ص80. أنظر كذلك محمد أحمد دروزة، المرجع السابق، ص 266.

² - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص142.

³ - نفس المرجع، ص144.

⁴ - تاج السر احمد مروان، المرجع السابق، ص 628.

⁵ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص144.

⁶ - تاج السر احمد مروان، المرجع السابق، ص628.

⁷ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص140.

-الكتلة النيابية: تأسست من طرف بعض النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني في ماي 1911 ومن بين أعضائه شكري العسلي، و عبد الحميد الزهراوي، سليم سلام....تطالب بحقوق العرب¹.

-جمعية العلم الاخضر: جمعية علنية تأسست في استانبول سبتمبر 1912 على يد الدكتور اسماعيل الصفار و الدكتور فائق شاكرو غيرهم تهدف الجمعية إلى:

-تقوية الروابط بين الطلبة العرب في المدارس العليا العثمانية و استمر نشاطها إلى غاية الحرب العالمية الأولى².

يصف القنصل الفرنسي في بيروت M. coulondre الحالة العامة التي سادت المدن الشامية عام 1912 و الوجهة السياسية التي يسير وفقها الأعيان العرب المسلمون في تلك المدن فيقول : "إن العرب يطالبون بحقوقهم في المزيد من المساهمة في حكم بلادهم، و اتجه حكم الاتحاديين إلى المركزية قد سبب سخطا أسفر عن حركة انفصالية زادت الأزمة الراهنة حدة". أما عن الأجواء السياسية الموجودة بعد انقسامها إلى إسلامي و مسيحي و توزعها في ولاءات انجليزية و فرنسية يذكر : "كل شيء ينبأ بأن الحركة الانفصالية التي ظهرت معالمها بوضوح سوف تزداد باستمرار في حين تنزل نهائيا فكرة الوطن العثماني...."³ و في هذا الصدد أرسل كولوندر M. coulondre تقرير إلى رئيس الوزراء و وزير الخارجية الفرنسية في 12 نوفمبر 1912 يبين فيه الأوضاع في سوريا بشكل عام و في لبنان بشكل خاص موضحا أن العرب رغم استيائهم من الحكم العثماني إلا أنهم يعارضون حكم الدول الأوروبية" فالمسلمون العرب الذين ملوا الخضوع للحكم التركي و لكن مازالوا يعارضون حكم الأمة المسيحية المباشر لابد أن يتجهوا بكل بساطة نحو مصر.... لهذا السبب فإن فكرة الانضمام إلى بلاد النيل تلقى اتباعا كثيرا و أنصارا متحمسين يجتهدون في نشر هذه الفكرة"⁴.

-جمعية مكافحة الصهيونية: تأسست سنة 1913 و اتخذت من نابلس مقرا لها و لها فروع في بعض المدن الفلسطينية، و كانت الدولة العثمانية في الكثير من الأحيان تأخذ إجراءات تأديبية ضد الصحف

¹ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب ، المرجع السابق، ص141.

² - نفس المرجع ، ص، ص225، 146.

³ -وجيه كوثراني، رشيد رضا و شكيب ارسلان، المرجع السابق .

⁴ - حسان حلاق، العلاقات التاريخية بين مصر ولبنان، مجلة العلوم الانسانية، ع1، جامعة بيروت العربية، اوت1999، ص-ص216-217.

العربية و هذا ماجعل العرب يعتقدون أن هناك تحالف بين الحركة الصهيونية و الحركة الطورانية ضد الحركة الوطنية العربية¹.

- **جمعية العهد:** بعد اكتشاف سر الجمعية القحطانية فكر عزيز علي المصري على تحويل القحطانية إلى جمعية عسكرية² فتأسست جمعية العهد في عاصمة الدولة العثمانية 28 أكتوبر 1913 لها فرعين في الموصل و بغداد اجتمعتا بعد ذلك في دمشق 1915³. انضم اليها الضباط العرب في الجيش العثماني منهم سليم الجزائري و نوري السعيد و يحيى كاظم أبو الشرق و غيرهم⁴ و هي أكثر انضباطا و سرية عن القحطانية ولها اتصالات مع بريطانيا، عملت الجمعية على إسقاط الحكم التركي و لذلك حكم على عزيز علي المصري بالإعدام لولا تدخل بريطانيا⁵.

تهدف إلى:

- تحقيق الاستقلال الداخلي للدول العربية على أساس فيدرالي مع العثمانيين دون الانفصال على الدولة يشترك فيها العرب مع الأتراك في العمل السياسي⁶.

- الحفاظ على الدولة العثمانية و الدفاع عنها مع بقاء الخلافة في أيدي آل عثمان.

- إغناء الفضائل و التمسك بالأخلاق للحفاظ على الكيان السياسي القومي⁷.

تخوف الاتحاد و الترقى من نشاط هذه الجمعية فعقدوا اجتماعا خاصا في دار وزارة الحرية في 24 جانفي 1914 باستانبول و حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا و محافظ استانبول العسكري أحمد جمال باشا و درسوا التدابير اللازمة اتخاذها للتصدي للحركة العربية و جمعية العهد و تم الاتفاق على ما يلي:

- اقضاء الضباط العرب المقيمين في استانبول و من توليتهم القيادة في البلدان العربية و الاستغناء عن خدماتهم.

¹ - عبد الوهاب الكيلاني، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 26.

² - علي معطي، المرجع السابق، ص 80.

³ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 234.

⁴ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 144.

⁵ - الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 296.

⁶ - محمد العريس، المرجع السابق، ص 306.

⁷ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 145.

- يتولى جمال باشا تترك العناصر الغير تركية.
- مقاومة الحركة الإصلاحية التي ظهرت في بيروت.
- إلغاء الأحزاب العربية كلها و نشأت شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية تتخذ الإجراءات اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال .
- إقصاء العرب الذين يعملون ضد الترك من استانبول.
- تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد و الترقى في البلاد العربية والإكثار من المنتسبين إلى أنديةها¹.
- و في سنة 1915 وحدثت جمعية العهد نشاطها مع جمعية العربية الفتاة للتحضير للثورة معا ضد الأتراك².

و في سنة 1916 نفذ حكم الاعدام في اثنين من الضباط المنظمين إلى الجمعية منهم سليم الجزائري وأمين لطفي فانفرط عقد الجمعية سنة 1920³.

-الجمعية الإصلاحية: تأسست جمعية بيروت الإصلاحية بعد وقوع ليبيا تحت الاحتلال الإيطالي، وقيام الحرب بين البلقان و تركيا، و تعرض مدينة بيروت للقصف أثناء الحرب الطرابلسية الإيطالية فأصبحت سوريا و لبنان معرضة للخطر، هذاما دفع السوريين و اللبنانيون إلى التفكير في مواجهة الأخطار المحيطة بهم خاصة أن فرنسا كانت على استعداد لتقديم المساعدة و هذا ما يؤكده سليم علي سلام في مذكراته حين قال: "غن القنصل الفرنسي في بيروت قد أسر إلى أحد المدعو نخلي تويني أن حكومة بلاده على استعداد مد الثورة عند قيامها في سوريا بعشرين ألف جندي" و تعليقا على هذه المساعدة يقول سليم علي سلام : "وبالرغم مما نحن فيه وبالرغم من ضعف الدولة و اضطهاد الاتحاديين لنا و لعنصرنا كنا نحرص قلبا و قالبا على البقاء في حضيرة الدولة و لهذا قمت بزيارة الوالي أدهم بيك وأطلعته حقيقة ما يجري دون أن أشير إلى الموقف الفرنسي بالتحديد". فأرسل الوالي في أواخر ديسمبر 1912 برقية إلى الصدر الأعظم كامل باشا يذكر فيها: "إذا لم تقم الدولة العلية بإجراء الإصلاحات الضرورية في وقت قريب فإن البلاد ستفلت من أيدينا فلا مجال". ثم طالب منه بإلحاح تأليف لجنة برئاسته في بيروت لتنظيم لائحة بالإصلاحات الضرورية⁴، عندما وصل حزب الحرية و الائتلاف العثماني إلى السلطة قررت الحكومة

¹ - ارنست رامزور، المرجع السابق، ص29.

² -علي معطي، المرجع السابق، ص82.

³ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص145.

⁴ -علي معطي، المرجع السابق، ص 98.

الجديدة برئاسة كامل باشا أن تجمع الولايات العثمانية مجالسها العمومية لكي تقوم بالإصلاحات الضرورية لها ذلك لأن الحكومة الجديدة آمنت بالحكم اللامركزي، فطلب من والي بيروت ومن الوجهاء والمفكرين وضع برنامج لإصلاح الولاية فتألفت الجمعية العمومية الإصلاحية سنة 1913¹، التي تتكون الجمعية من أكثر من ثمانين عضوا أثرت أفكارهم في الشام و العراق، قد رفضوا قانون الولايات الذي يناقض اللامركزية² و من بين أعضائها سليم علي سلام، و أحمد مختار بيهم، قدموا برنامجا إصلاحيا³ أساسه اللامركزية و جعل اللغة العربية لغة رسمية في دوائر الولاية الحكومية فابتهج لها السكان في كل من دمشق و حلب، عكا، نابلس و بغداد و البصرة إلا أن عودة الاتحاديين إلى الحكم أدى إلى إيقاف أعمال الجمعية الإصلاحية و بالتالي عرفت المدن السورية اضطرابات كبيرة⁴.

هناك تناقض بين مواقف المسيحيين و المسلمين حيث يرى المسيحيون ضرورة التخلص من الحكم العثماني، أما المسلمون فهم متمسكون بالدولة العثمانية و كان من الضروري من تقارب وجهات النظر بين طلاب الإصلاح من أنصار فرنسا و أنصار اللامركزية. و بتاريخ 31 جانفي 1913 أعدت اللائحة الإصلاحية التي أقرتها جمعية بيروت الإصلاحية التي جمعت ما بين شروط اللامركزية وبين وجود مستشارين أجانب في جهاز حكومة الولاية مع وجود مفتش أجنبي لكل لواء⁵. وأثناء قيام جمعية الاتحاد والترقي بانقلاب عسكري على حكومة الائتلافيين في 23 جانفي 1913 أقيل أدهم بك والي بيروت لأنه أيد الحركة الإصلاحية و تم تعيين حازم بك وأمرته جمعية الاتحاد والترقي باستعمال الشدة والعنف مع الجمعية الإصلاحية و إغلاق النوادي والجمعيات الأخرى، و لما تسلم الوالي الجديد مهامه زارته اللجنة الإصلاحية و قدمت له لائحة إصلاحات وأكدت له تمسكها بوحدة الدولة العثمانية إلا أن الوالي الجديد طلب إدخال بعض التعديلات على اللائحة، كما تحرب من الزعماء وأصدر في 8 أبريل 1913 قرار حل أعمال اللجنة و غلق ناديها في بيروت وهذا ما رفضه أهالي بيروت "وظهرت الصحف في اليوم التالي بيضاء مكللة بالسواد وخالية من أي كلمة ما عدى نص بلاغ الولاية في الصفحة الأولى دون تعليق" ثم دعت الجمعية العمومية الإصلاحية لإضراب عام في 12 أبريل 1913 وأرسلت برقيات احتجاج إلى المسؤولين في استانبول على ما أقدم عليه الوالي الجديد الذي كان قد أصدر بيانا في اليوم نفسه يعلن فيه

¹ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 147.

² - رامزور، المرجع السابق، ص 32.

³ - علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 147.

⁴ - رامزور، المرجع السابق، ص 32.

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص 101 - 102.

أن بيروت قد شرعت في تطبيق قانون الولايات الجديد، ساند أهالي بيروت الجمعية الإصلاحية و بعثوا برقية احتجاج إلى الحكومة العثمانية و وزارة الداخلية وجريدة اقدم يطالبون فيها " إصدار أمر عاجل إلى مقام الولاية بإلغاء أمرها بمنع الجمعية من الاجتماع". وكان رد الحكومة التركية سلبيا وعنيفا حيث هددت الأهالي فيه بالعقاب، وأن السكان إن أرادوا الإصلاح فيطلبونه من البرلمان فإن وافقت عليه الأكثرية البرلمانية تنفذه الحكومة أما إذا شاء السكان تأسيس لجان وتقديم مطالب تتناقض مع القانون فإن الحكومة ستتخذ الإجراءات اللازمة.

إنهم الوالي حازم بك كل من زكريا طيارة والشيخ اسكندر عازار و رزق الله أرقش وسليم طيارة ومختار ناصر بالتحريض على العنف وقدمهم إلى المحاكمة كما صادر صحيفتي " الاتحاد العثماني " و "المفيد" ولذلك امتدت أعمال العنف من بيروت إلى بقية المدن العربية مثل البصرة التي شكل فيها زعماء العراق جمعية البصرة الإصلاحية وفي بغداد وطرابلس و بعلبك ودمشق، وفي الوقت نفسه راسل حزب اللامركزية في مصر الحكومة العثمانية ووالي بيروت والدول العظمى الست وأعضاء مؤتمر لندن يعرب عن أسفه على التدابير التي أخذت بحق الحركة الإصلاحية في بيروت، كما بعثت الجمعية العربية-السورية في باريس برقية احتجاج إلى الحكومة التركية، رغم ذلك لم يبال الاتحاديون بالاحتجاجات ورفضوا الموافقة على أي اصلاح حيث اعتبر بعضهم أن قانون الولايات الجديد خطوة مقنعة نحو المزيد من المركزية والاستبداد¹. وبعد تدخل أعيان المدينة لتهدئة الأوضاع أصدر الديوان العلي حكم البراءة في حق المحكومين المسجونين، و عادت الأمور إلى طبيعتها بعدما وجه كل من محمد بيهم ويوسف سرسق في 14 أفريل باسم الجمعية نداء إلى الأهالي أن يعودوا إلى أشغالهم و نشاطهم هذا السلوك يدل على طاعة أوامر الحكومة السنية.²

إن توقف دعاة الإصلاح عن نشاطهم لا يعني أن الصراع العربي - التركي قد وضعت له الحلول الناجعة و أن الحركة العربية توقفت عن النشاط وإنما تأكدوا من أن الاتحاديين مصممون على تشتيت زعمائها وتفكيكها في كل منطقة وعدم تنفيذ أي مطلب من المطالب الإصلاحية ولذلك التجأت إلى أسلوب جديد للعمل السياسي يتمثل في عقد مؤتمرات في المدن الأوروبية.³

¹ - علي معطي، المرجع السابق، ص - ص 102 - 108.

² - نفس المرجع، ص 108.

³ - نفس المرجع ، ص 109.

15/ حزب اللامركزية الإدارية العثمانية:

هو تنظيم سياسي علني، أسسه السوريون خارج سوريا و بالتحديد في مصر أواخر سنة 1912 وأوائل سنة 1913، و يرجح التاريخ الثاني حيث اجتمعت اللجنة العليا للحزب في 12 جانفي سنة 1913¹ وانتخب رفيق العظم رئيسا لها و اسكندر عمون نائبا للرئيس وحقي العظم سكرتيرا و محي الدين الخطيب نائبا لسكرتير وغيرهم، يحق لأي مواطن عثماني أن ينضم إلى الحزب شريطة العمل واحترام مبادئه²، انتشر الحزب انتشارا واسعا في بلاد الشام و بقي قائما إلى غاية 1916 و لقد أعدم جمال باشا أكثر أعضائه و في هذا الصدد يقول رشيد رضا أحد مؤسسي الحزب: "إن حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة و البلاد العربية معا و كان سبب تأسيسه ما ذكر آنفا من سبب تأسيس الجمعية العربية، وهو ما أُنذرت به الحرب البلقاني العثمانية من توقع زوال الدولة، و قد كنا نعتقد أن الدولة لا يمكنها أن تعيش طويلا إذا أصرت على شكل حكومتها المركزي و تحكم الترك في جميع شعوب الدولة"³.

يهدف حزب اللامركزية إلى :

- تكوين حكومة عثمانية لا مركزية تعطي الولايات استقلالا ذاتيا.

- نشر هذه الأهداف بين العرب و الترك⁴.

كان لهذا الحزب شبكة من لجان الاصلاح في المدن العربية خاصة في بيروت و من مطالبه:

- 1- اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.
- 2- تمنح الوظائف في الولايات العربية للعرب مع استشارة السلطات المحلية في منح الوظائف.
- 3- تمارس الخدمة العسكرية محليا في حالة السلم.
- 4- تخصص بعض الواردات المحلية بسد الحاجات المحلية.
- 5- توسع صلاحيات مجالس الولاية⁵.

نشر الحزب بيانا جاء فيه: " و مما ثبت بالتجارب لهذا العهد أن أفضل شكل من أشكال الحكومات هو الدستوري و أفضل أشكال الدستوري هو اللامركزي خصوصا في الممالك التي تعددت فيها الفرق

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص95

²- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص183.

³- ناجي علوش ، المرجع السابق، ص-96-97.

⁴- علي معطي، المرجع السابق، ص97.

⁵-ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 337.

والمذاهب و اللغات و اختلفت العوائد و التقاليد و الأخلاق فلا اللامركزية توزع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن و بسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية و تفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة ... و المركزية مقيدة لكل ولاية بقيود تمنعها عن الحركة نحو الإصلاح المطلوب إلا ببطء و بما لا يوافق الحال و الحاجة في الغالب"¹. لقد علق هذا الحزب آمالا كبيرة على مساعدة تقدمها بعض الدول الأوروبية لمطالبه خاصة أنه وافق على أن تتولى فرنسا الإشراف على سوريا و لبنان، بينما تتولى بريطانيا الإشراف على العراق و فلسطين، إلا أنه وقع في صدام مع تركيا الفتاة بعد عودتها إلى الحكم، ساهم في عقد المؤتمر العربي في باريس عام 1913².

يعتبر عمل هذا الحزب أول عمل منظم قامت به الحركة الوطنية فوحد جهود الناشطين في القضية العربية في عمل منسق و متواصل. يرى أعضاء هذا الحزب أثناء الحرب العالمية الأولى أنه من الأحسن مساعدة الدولة العثمانية³.

زرعت الدول الأوروبية الاستعمارية مفاهيم خاصة لدى الأقليات التي تدعي حمايتها خاصة في بلاد الشام، هذه الأقليات كانت تجهل الأهداف الحقيقية وراء المساعدات التي يقدمها لها قناصل الدول الأجنبية على رأسها فرنسا و بريطانيا، و لذلك كانت هذه الأخيرة تستغل قضايا و مشاكل هذه الأقليات من حين لآخر و عندما تقتضي الضرورة تستعملها كورقة ضغط على الدولة العثمانية من أجل حماية أطماعها ومصالحها الاستعمارية، و هذا ما نراه الآن في إطار النظام الدولي الجديد الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية في إطار القطبية الأحادية فالغرب أي دول الشمال تسعى الآن إلى تفتيت وتفكيك المنطقة نفسها -عراق-سوريا-فلسطين-لبنان- إما بإثارة النزعات العرقية أو الاختلافات المذهبية.

2- المؤتمر العربي السوري:

انعقد المؤتمر العربي في جوان 1913، يذكر شكيب أرسلان في شأن اختيار باريس مكانا لانعقاد المؤتمر كان بمبادرة من اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر، ما يلي: "كنت ساخطا على عقد هذا المؤتمر وكانت وجهة نظري أن مؤتمرا كهذا لا ينبغي أن يعقد في عاصمة كباريس لها ما لها من المطامع في سوريا، ولا يجوز أن يعقد بينما الدولة مشغولة بالحرب البلقانيين، وقد فقدت قسما عظيما من السلطنة، وسقطت أهميتها العسكرية والسياسية، وأن سوط أهمية الدولة لا ينحصر ضرورة في الترك وحدهم، بل

¹- علي معطي، المرجع السابق، ص 97.

²- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 295.

³- علي معطي، المرجع السابق، ص 97.

يتناول جميع المسلمين، لأن الأوروبيين لا يعرفون المسلمين إلا أمة واحدة، إذا سقط بعضهم رأيت الأوروبيين احتقروا الجميع"¹.

أعرب عبد الحميد الزهراوي لمحرر جريدة الطان Le temps الفرنسية عن سبب اختيار مكان انعقاد المؤتمر مايلي: "إن حوادث بيروت الأخيرة برهنت لنا على قدر الحرية التي يمكن أن يتمتع بها المؤتمر يعقد في سوريا و نحن لاحظنا من وجه آخر أن نسمع مطالبنا و نفهم رأينا إلى أوروبا التي تزداد أهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوما بعد يوم.... و قد فضلنا باريس على غيرها من عواصم أوروبا لأن الجالية العربية فيها أكثر عددا من غيرها من الجاليات العربية في عواصم الغرب"². و في هذا الصدد يذكر أحمد مختار بيهم للوزير الفرنسي: "أننا نكرر شكرنا للحكومة الفرنسية على تسهيلها لنا لعقد مؤتمرنا نأمل منها بالنسبة لصداقتها مع دولتنا أن تنصحها لإعطائنا الإصلاحات.... فنحن نصرح لكم إننا لم نختار باريس لعقد مؤتمرنا لنا الا لما نعلمه من الحرية الفرنسية... و للمحبة الكائنة بينها و بين دولتنا إننا لا نرضى عن دولتنا بديلا"³. هناك من العرب من عارض انعقاد المؤتمر بباريس معارضة شديدة لأنهم يرون أن لفرنسا أطماع خاصة في سوريا و أن من بين أعضاء المؤتمر من يعرفون ذلك منهم من سيشترك مع فرنسا في مشروعاتها الاستعمارية في سوريا⁴.

اتصلت اللجنة التحضيرية بمركز حزب اللامركزية العام في القاهرة و عرضت عليها تبني المؤتمر و رئاسته، بما أن المطالب التي سيطالب به المؤتمر لا تختلف عن منهج الحزب. و كان رد اللجنة العليا للحزب إرسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر و يكون لهم الحق في النظر و المشاركة في موضوعات المؤتمر أما الخطوة الثانية للجنة هو دعوة أبناء البلدان العربية المساهمة من أجل انجاح المؤتمر⁵.

تمس العرب للمؤتمر و توافد إلى باريس الكثير منهم من البلاد العربية و المهجر و من أوروبا بعدما استأذنت اللجنة التحضيرية من وزير الخارجية الفرنسية بيثون pichon بعقد المؤتمر و أكدت له احترام و تمسك المؤتمرين بالأعمال المجيدة التي قامت بها الحكومة الفرنسية في سوريا. انعقد المؤتمر في مبنى الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمن في باريس⁶، و ضم المؤتمر الكثير من الشخصيات السياسية البارزة في سوريا

¹ - وجيه كوثرائي، الموقف من الدولة العثمانية ومن صيغة الدولة البديلة، المرجع السابق .

² - علي معطي، المرجع السابق، ص110.

³ - علي محمد لآغا، الاتجاهات السياسية في لبنان 1920-1982، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991 ص61.

⁴ - مفيدة محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص-ص 631-632.

⁵ - علي معطي، المرجع السابق، ص109.

⁶ - نفس المرجع ، ص 111.

ولبنان وسط تيارات متفاعلة و مختلفة¹. و من الملفت للانتباه ارتفاع نسبة المشاركين الفلسطينيين فيه وتدفق سيل من البرقيات من فلسطين تعلن عن معارضتها لبيع الأراضي².

أسباب انعقاد المؤتمر:

- إن جو التفاهم الذي سار بين حكومة الاتحاديين و المركزين السوريين حول الإصلاحات لم يدم طويلا فقد سادجو من التوتر في العلاقات بين حكومة الاتحاديين و القادة السوريين و الحركة العربية التي عرفت تطورا سريعا، فالمؤتمرون يعتبرون أن هذا المؤتمر آخر محاولة يقومون بها للحصول على الحكم اللامركزي، ولكي يجسده أعضاء المؤتمر على الأراضي العربية قررت اللجنة التحضيرية للمؤتمر أن تنسب نفسها إلى الحزب اللامركزي القاهري لأن له الأهداف نفسها³.

-صرح عبد الحميد الزهراوي في شهر جوان قبيل انعقاد المؤتمر لمندوب جريدة الطان Le temps يذكر له الأسباب التي دفعتهم إلى عقد المؤتمر قائلا: "إن ما حدث في ولايات الدولة العثمانية بأوروبا من الحوادث الخطيرة داعانا إلى التفكير و إمعان النظر في الحالة الجديدة التي دخلنا فيها، و اتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء نتائجها، ذلك من جهة و من جهة ثانية فإن العرب يؤلفون عنصرا مهما بعدد..... و لهذا العنصر العربي ميزة بين العناصر الأخرى بوحدة لغته و عاداته و مصالحه و ميوله، و إن هذه الخصائص قد أحدثت له حقوقا كانت مهملة حتى الساعة"⁴.

ورد في المؤتمر عدة آراء و ظهرت عدة اتجاهات أهمها:

- أكد جميع الخطباء أن حركتهم بعيدة عن الغايات الدينية و هذا ما أكده عبد الحميد الزهراوي: "إن المؤتمر ليس له صفة دينية، و كل أعماله تنحصر في الدائرة المحددة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية".

-إن العرب لا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية و إنما الاشتراك في إدارة الدولة لصيانة حقوقهم القومية وفي هذا الصدد يذكر اسكندر عمون في خطابه: "توهم بعض أنصار النظام المركزي من إخواننا الأتراك، أن الغرض من النهضة العربية هو الانفصال عن الدولة، ذلك بعيد عن الصحة، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل الحكم الفاسد - الذي يكاد يؤدي بالدولة - بالحكم الذي يرجى منه وحده الصلاح و النجاح لنا و لهم، و هو الحكم على قاعدة اللامركزية".

¹ - عبد الوهاب الكيلاني، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص25.

² - عبد الوهاب الكيلاني، نفس المرجع، ص26.

³ - تاج السر أحمد مروان، المرجع السابق، ص - ص 630-632.

⁴ - ناجي علوش، المرجع السابق، ص63.

- رفض التدخل الأجنبي و الدفاع عن مصالح العرب حيث يرى ندره مطران في خطابه : "....وباسم الأمة العربية الممثلة هنا بكم و بوفود كرام..... تنبذ بكل قوتها كل حركة من شأنها تدخل الغريب في أحكامها أو انفصام العرى بينها و بين الدولة العثمانية، و ترويج أي غاية كانت غير عربية عثمانية في البلاد العربية العثمانية".

- حق العرب في المملكة العثمانية حيث يذكر عبد الغني العريسي في خطابه : "تساءلون عن ماهية هذا الحق لجماعة الأمة العربية فبياننا لهذا الحق أقول:" أول حق لجماعة الشعوب حق الجنسية".

- يكون الإصلاح على قاعدة اللامركزية و هذا ما يؤكده اسكندر عمون : "إننا حكومة عثمانية، لا تركية و لا عربية حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق و الواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق".

- ترقية المهاجرين و مؤازرتهم للنهضة العربية الإصلاحية و في هذا الصدد يذكر نعم مكرزل في خطابه : "أيها المصلحون، نحن في المهجر نشعر بالحركة لا بالسكون نعتقد بأن من لا يتقدم يكون بحكم جموده و تقدم غيره، متأخرا".

- من أهم القضايا التي دارت حولها مناقشات حادة بين مؤيد و معارض قضية الاستعانة بالمستشارين الأجانب¹.

من خلال الخطب و المناقشات التي دارت وقائعها في المؤتمر نستنتج عما يدور في خواطر أبناء الاعيان وعائلاتهم ما يلي:

__ هناك اتجاه علماني بدأ يتسرب إلى أذهانهم و السبب هو احتكاكهم بالغرب و بالليبراليين الأتراك رغم استمرار تعلقهم بالدولة العثمانية .

__ اقتناعهم أن العرب يمثلون جماعة متميزة عن غيرها من العناصر التي تنتمي إلى الامبراطورية العثمانية لذلك يجب أن تكون لهم حقوق الجماعات القومية.

__ إصرار المؤتمرين على ضرورة المشاركة السياسية بين العرب و الأتراك و أن تكون اللغة العربية اللغة الرسمية في الولايات العربية².

وبالتالي فإن المؤتمر تجاذبته ثلاث اتجاهات:

¹- ساطع الحصري، المرجع السابق، ص 228 وما بعدها .

²- وليد قزيها، المرجع السابق، ص 225.

- الاتجاه الأول : كان على رأسه ندره مطران الذي كان يميل إلى الانفصال على تركيا دون أن يتورط بالارتباط مع فرنسا.
- الاتجاه الثاني : وكان يمثل اسكندر عمون الذي يرغب بالتعاون مع فرنسا و بريطانيا إلى اقصى حدود التعاون دون أن يكون لاحدهما أفضلية على الأخرى.
- الاتجاه الثالث: ويتألف من جماعة البيروتيين على رأسهم أحمد مختار بيهم و خليل رينيه، يتسم هذا الفريق بالوضوح والواقعية، و كان على علاقة جيدة مع القنصل الفرنسي و قد طرح البرنامج الذي وضعته الحركة الإصلاحية البيروتية و هذا ما يضمن لفرنسا ازدياد نفوذها في البلاد¹.

قرارات المؤتمر:

اتخذ المؤتمر عدة قرارات منها:

- الاعتراف بحقوق العرب السياسية.
- تكون اللغة العربية لغة رسمية في ولايات العربية .
- يؤدي العرب الخدمة العثمانية المحلية في ولايات العربية.
- الدفاع عن الأراضي العربية².

موقف الدولة العثمانية من المؤتمر:

اجتمع زعماء الاتحاديين في منزل عبد الرحمان بك اليوسف في دمشق اتهم فيه الحاضرون السوريون الذين يتظاهرون في باريس أنهم لا يعملون في مصلحة الشعب السوري و أنهم تابعون للحكم الأجنبي، وأن تصرفاتهم هذه عبارة عن خيانة و بالتالي أرسلوا برقية احتجاج إلى "الحكومتين العثمانية و الفرنسية وإلى السفير التركي في باريس و بعض الصحف التي كانت تصدر في العاصمتين"³.

ثم قاومت المؤتمر بمختلف الوسائل و الأساليب حيث حرضت الشيخ عبد العزيز جاويش وأنصاره من دعاة الجامعة الإسلامية لإحباط مساعي المطالبين بالإصلاح و بث الشقاق بين العرب المسلمين والمسيحيين، كما شنت الصحف التركية حملة شرسة على المؤتمر خاصة جريدة طنين حيث جاء في عددها

¹- علي معطي، المرجع السابق، ص112.

²- محمد العريس، المرجع السابق، ص308.

³- علي معطي، المرجع السابق، ص 114

الصادر في 6 جويلية 1913 بعنوان مؤتمر غريب ما يلي: " إن موقعي بيان المؤتمر دخلوا في الجنسية الفرنسية و لم يبق لهم أقل صلة بالعربية الاسلامية و إذا كان موقعه يسمون حقيقة باسم العرب فلماذا لا يدعون مندوبين من كل البلاد العربية التي ينطق سكانها بالضاد؟"¹.

غير أنها فيما بعد رأت من الأصلح الاتصال بزعماء المؤتمر و أن تتفاوض معهم في شؤون الإصلاحات، و لذلك بعثت إلى باريس سكرتير جمعية الاتحاد و الترقى -مدحت شكري بك- للتفاوض معهم ثم عاد إلى استانبول و أتمم المفاوضات مع طلعت بك وزير الداخلية، و تم التوقيع على اتفاقية وقع عليها طلعت بك عن الاتحاد و الترقى وعبد الكريم خليل باسم الشبيبة العربية و اتفق على أن تبقى الاتفاقية سرية حتى تتخذ جمعية الاتحاد و الترقى التدابير و تصدر قوانين و أنظمة و تعليمات بالأساليب التي تراها الحكومة مناسبة مع مراعاة أحوال العناصر العثمانية الأخرى².

و في هذا الصدد يقول طلعت بك: "أود أن أصرح للملأ أن مواقفنا من نظام اللامركزية كان مبنيا على أوضاع الشعوب البلقانية و لكن الآن....و قد انفصلت تلك الشعوب عن الدولة فعلا، لم نعد نرى ما يستوجب الاستمرار في سياسة المركزية التي كنا نتبعها من قبل، لأننا نعرف نزعاتكم الحقيقية ، فلا نتردد في المضي معكم إلى آخر حدود التسهل في سبيل تطمينكم على صيانة حقوقكم...."³.

4-نتائجه:

نتج عن المحادثات التي دارت بين سكرتير جمعية الاتحاد و الترقى و عبد الكريم خليل معتمد الشبيبة العربية و طلعت بك وزير الداخلية تقارب وجهات النظر في معظم المسائل الأساسية، استمرت المفاوضات في استانبول و تم وضع برنامج إصلاحى ينص على:

-تعريب الإدارة و التعليم الابتدائي والاعدادي في جميع الولايات العربية.

-يكون التعليم العالي بلغة الأكثرية.

-يشترط في رؤساء المأمورين العاملين في البلاد العربية أن يكونوا واقفين على اللغة العربية، إما سائر المأمورين فيجوز تعيينهم من قبل الولاية باستثناء الحكام ومأمورى العدلية، الذين يتولون أعمالهم بإرادة سنية.

¹-علي الحافظ، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص، ص239، 154، 241.

²-رغم إعلان الدولة العثمانية قبولها بقرارات المؤتمر و صدر مرسوم سلطاني في 8 أوت 1913 إلا أن الاتحاديين لم يكونوا مخلصين واستغلوا انقسام المشاركين في المؤتمر من الاتجاه الإسلامي ضد الاتجاه العلماني فقاوموا دعاء الانفصال و ألغوا الجمعيات العربية، وراقبوا حركة الضباط العرب و أبعدهم عن الولايات العربية. أنظر: محمد العريس، المرجع السابق، ص 308.

³-ساطع الحصري، المرجع السابق، ص- ص239- 243.

- ينبغي أن تترك العقارات والمؤسسات الوقفية المشروط صرفها على الجهات الخيرية إلى مجالس الجماعات المحلية.

-ترك أمور النافعة إلى الإدارة المحلية.

- تؤدي الخدمة العسكرية في أوقات السلم داخل البلاد العربية ضمن دوائر الجيش التي ينتسب المكلفون بالخدمة إليها.

- و فيما يتعلق بالجنود الذين لا بد من إرسالهم إلى مناطق اليمن و عسير و الحجاز تخضع وفق نسبة معينة من جميع الولايات العثمانية.

- تعيين ثلاث وزراء عرب على الأقل في الوزارة العثمانية و عدد مماثل بصفة مستشارين أو معاونين.

-تعيين في كل وزارة أربعة أو خمسة موظفين و خمسة ولاية و عشرة متصرفين من العرب و عضوان في مجلس الأعيان عن كل ولاية عربية.

أرسل المؤتمر إلى الأستانة كل من سليم علي سلام و الشيخ أحمد طيارة و أحمد مختار بيهم لتقدم شكر المؤتمر إلى السلطات العثمانية¹.

عموما تبدو الاتفاقية ظاهريا نصرا للعرب ولكن فيما بعد أهمل زعماء الاتحاديين مواد الاتفاقية، ولم تكن لهم نية في تنفيذ بنود الاتفاقية رغم ترحيبهم بزعماء العرب الثلاثة الذين حضروا من باريس و في 8 أوت صدر مرسوم سلطاني ينص على المصادقة على شروط اتفاقية باريس غير أنها حذفت منها مواد و ما بقي من موادها غامضا خاصة فيما يخص اللغة - و الخدمة العسكرية².

لقد شعر القوميون العرب بخيبة الأمل خاصة أن الاتحاديين تقربوا إلى بعض الشخصيات العربية و منحوا لهم مناصب مقابل سكوتهم³ و كانت المفاجأة الكبرى حينما صدرت إرادة سنية في 04 جانفي 1914 بتعيين الزهراوي و خمسة من أصدقائه في مجلس الأعيان، فاعتبر أحرار العرب في قبول الزهراوي بمنصب الأعيان ضربة كبيرة للإصلاح الذي لم ينفذ شيء منه و نكث لعهد قطعها الزهراوي و رفاقه على أنفسهم في ملحق مقررات المؤتمر، غير أن الزهراوي يريقبوله بهذا المنصب من أجل مساعدة الحكومة على تنفيذ الإصلاح بالسرعة اللازمة، ومن أجل المحافظة على استمرار الاتحاد العربي- التركي للحد من

¹- علي معطي، المرجع السابق، ص120.

²-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص- ص193-194.

³- نفس المرجع ص 195.

أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية في البلدان العربية و أنه مستعد على تقديم استقالته إذا أصرت الشبيبة و رغم ذلك فإن الشبيبة قطعت صلتها مع الزهراوي و صحبه، و بالتالي ظن الأتراك الجدد أنهم فرقوا بين الأحزاب والجمعيات العربية وباستطاعتهم تنفيذ خططهم للقضاء على الحركة العربية فأبعدوا الضباط العرب من استانبول إلى غاليلوي و الأناضول و تراقيا و من ثم قرروا الفتك بزعمائهم و هكذا أخذت العلاقة بين السوريين و اللبنانيين من جهة و الأتراك من جهة ثانية تسير نحو الأسوء¹.

و في مطلع 1914 اتخذ الاتحاديون عدة قرارات سرية منها:

— مقاومة دعاة الانفصال.

— إلغاء الجمعيات العربية.

— مراقبة حركة الضباط العرب و ابعادهم من استانبول و توزيعهم بين الحاميات البعيدة.

— تعيين ضباط أتراك في الولايات العربية.

— تطبيق سياسة التتريك².

تقييم المؤتمر:

— أهمل المؤتمر العربي في باريس الاستعمار ومطامع الغرب في البلاد العربية³.

— لا يمثل المؤتمر العربي كل العرب لأنه اقتصر على المندوبين في الولايات العربية العثمانية فقط ولذلك فقد أبعد القوى المكافحة في شمال افريقيا ومصر والسودان، كما وضعت الأمور في يد عبد الكريم الخليل والزهراوي على أمل تنفيذ قرارات المؤتمر فقد كانوا أقل خبرة من زعماء جمعية الاتحاد والترقي طلعت باشا وأنور وجمال باشا⁴.

— لم يبحث المؤتمر بشكل جدي وفعال مشكلة الخطر الصهيوني على فلسطين ولذلك لم تتخذ بهذا الشأن قرارات رغم أنها مشكلة خطيرة، و رغم رفض الفلسطينيين سياسة التحالف مع الصهيونيين في وجه الأتراك

¹ - علي معطي، المرجع السابق، ص 119.

² - محمد العريس، المرجع السابق، ص 308.

³ - د. ذوقان قرقوط، المرجع السابق ص 63.

⁴ - عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 250.

وحتى إن كان التحالف مؤقتا لقد بلغت الحركة المعارضة للصهيونية في فلسطين ذروتها في الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الأولى¹ في الوقت الذي حسمت الحركة الصهيونية اختيار فلسطين كوطن قومي لها.

- تركز النشاط السياسي العربي حول العلاقة مع الدولة العثمانية و مع الدول الأوروبية و لذلك وجهت صحيفة كرمل و صحيفة فلسطين نقدا إلى المؤتمر العربي الذي لم يعط اهتماما كبيرا للخطر الصهيوني على فلسطين حيث اهتم المؤتمر بمصير العلاقة بين البلاد العربية و الدولة العثمانية².

- أرسل الأعضاء النصارى رسالة في 12 مارس 1913 يصرحون فيها عن رغبة نصارى سورية في أن تستولي فرنسا على البلاد الشام و أن تعذر ذلك تلحق بيروت بالجل و توضع تحت الرقابة و الحماية الفرنسية³.

- ظهر اتجاه في المؤتمر رفض الرابطة الدينية و دعا إلى الرابطة القومية و هذا ما أجاب به عبد الحميد الزهراوي عن سؤال لمراسل جريدة temps الفرنسية حيث قال : " إن الرابطة الدينية عجزت دائما عن إيجاد الوحدة السياسية أنظر إلى الحكومتين العثمانية والفارسية كيف لم تقوي رابطتهما الدينية على إزالة خلاف بسيط بينهما، و هو الاختلاف المتعلق بالحدود"⁴.

- أحدث المؤتمر انقساماً لدى المفكرين العرب فأصحاب الاتجاه الإسلامي اتهموه بالتعامل مع الأجانب والخيانة من بينهم شكيب أرسلان لقد خدم هذا الموقف الاتحاديين في تطبيق سياسة التتريك و جعل قيادة الولايات العربية في يد الضباط الأتراك، و سهل لهم مقاومة دعاة الانفصال عن الدولة العثمانية⁵.

- أصدر علماء دمشق و على رأسهم المفتي و نقيب الأشراف و غيرهم بيانا عنيفا يدين عقد هذا المؤتمر⁶.

- إن الأعضاء الذين شاركوا في هذا المؤتمر ممن نجو من المشانق التي نصبها جمال باشا قد شغلوا أرفع المناصب خلال عهد الانتداب الفرنسي و البريطاني لبلاد الشام⁷.

¹- عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 69-72.

²- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 306.

³- علي محمد لآغا، المرجع السابق، ص 60.

⁴ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص 151.

⁵- سيار الجميل، المرجع السابق، ص 521.

⁶- محمد. م الارناؤوط: علماء دمشق والحكومة الفيصلية، الدولة العربية 1918-1920، مجلة دراسات تاريخية، العددان 81-

82، جوان 2003 ص 232

⁷- موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص 314.

- خرج المؤتمر بنتيجة أبعد و أعمق وتمثل في ذلك الاتحاد الذي وقع بين مسلمي و مسيحي بلاد الشام ضمن إطار القومية العربية رغم الفتنة التي عرفت لبنان في 1860 و هذا ما كان صدمة بالنسبة لقناصل بعض الدول الأوروبية الذين عملوا على زرع بذور الشقاق بين الطائفتين، و أثبت المؤتمر للرأي العام العربي و الأجنبي رفض فكرة التعصب الطائفي هنا أدرك زعماء الاتحاديين خطورة المؤتمر رغم التفاهم الذي وقع بين الاتحاديين و زعماء المؤتمر إلا أنه فشل لأنه من الصعب التوفيق بين قوميتين في نطاق دولة واحدة ومن هنا كان الصدام محتما بين كل من العرب و الأتراك حتى نظرة العرب إلى الخلافة العثمانية تغير و من ذلك بدأ الانفصام بين الأمتين¹.

قررت حكومة تركيا الفتاة في سنة 1914 غلق جميع المنظمات السياسية العربية و شتت الضباط العرب في الوحدات العسكرية، نتج عنه انتقال المعارضة إلى العمل المسلح حيث اتصل شفيق المؤيد بالسفير الفرنسي في استانبول و طلب تقديم الدعم للثورة العربية، كما أجرى عبد الله بن حسين شريف مكة اتصالات بالمندوب السامي البريطاني في مصر كيتشز و طلب منه دعم الثوار العرب بالأسلحة رغم رفض بعض القوميين العرب المساعدات الأوروبية ضد الدولة العثمانية²، و لقد سلكت أغلبية المنظمات العربية السياسية السرية مع مطلع الحرب العالمية الأولى طريق الانتفاضة المسلحة تحت راية الشريف حسين في مكة³.

المبحث الثالث: العرب والحرب العالمية الاولى

موقف عرب الشام من الحرب العالمية الأولى:

عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى أصبح اكثر المعارضين للاتحاديين من عرب الشام يرون بقاء السلطنة العثمانية ضرورية لبلاد الشام، وذلك خوفا من وقوع المنطقة تحت سيطرة دولة أوروبية⁴. فنسي السوريون واللبنانيون خلافاتهم مع الأتراك و م يظهر في تلك الفترة أثر للشعب أو للثورة أو المعارضة، و عند دخول تركيا الحرب اجتمعت الهيئة العليا لجمعية العربية الفتاة واتخذت القرار التالي: " نتيجة لاشتراك تركيا في الحرب أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضا لمخاطر شديدة ويجب بذل جميع الجهود

¹-زهية قدورة، المرجع السابق، ص- ص238-240.

²- الياس الشوفاني، المرجع السابق، ص 296.

³ - علي شكيب حركة الوعي القومي في بلاد الشام في أواخر الحكم العثماني، المرجع السابق.

⁴- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص 644.

لضمان حريتها و استقلالها، كما تقرر انه اذا تحقق للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد فإن الجمعية ملزمة بأن تعمل إلى جانب تركيا لكي تقاوم التدخل الأجنبي، مهما تكن صورته". و الموقف نفسه اتخذه أعضاء جمعية العهد بعدما تلقوا رسالة من عزيز علي مؤسس الجمعية يحذرهم فيها بالقيام بأي عمل ضد الدولة العثمانية لأن المنطقة مهددة، و الواجب الوطني يفرض عليهم أن يقفوا إلى جانب الدولة العثمانية.

كتب مختار بيهم إلى أحد أصدقائه السياسيين في مصر 26 أكتوبر 1914 ما يعبر عن هذا الموقف حيث قال: " و لقد ألغينا أحزابنا السياسية و تناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك و سوف يرى إخواننا الترك و لاسيما الاتحاديون من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم عظم إخلاصنا للعرش العثماني و تفانينا في خدمة الوطن المشترك".

و في فيفري 1915 دعا الأمير سعيد الجزائري حسين شريف مكة للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية وتقديم لها يد المساعدة¹ فكان رد الشريف حسين²: " بأن فوّض الأمير الجزائري بالعمل على تحسين العلاقات بينه وبين جمال باشا ولقد ورد على لسان جمال باشا مسالمة ومهادنة عرب سوريا ولبنان وفلسطين عندما تحدث عن عبد الكريم خليل و عبد الرحمان شهبندر وعبد الغني العريسي و محمد كرد علي حيث قال: بأن هؤلاء قد أقسموا بالله جهد أيمانهم و بشرفهم أن يظل عرب سوريا و فلسطين موالين للحكومة مادامت الحرب و أن لا يقيموا العراقيين في طريقها وأن ينفذوا أقوالهم هذه بالفعل، وفي الوقت نفسه شرع أولئك الذين يدعون بالثوريين وفي مقدمتهم عبد الكريم خليل يقصون حزنهم مبدين أنهم في حاجة قصوى إلى المال فغمرت عبد الكريم و محمد كرد علي وعبد الغني العريسي بالأموال الطائلة و أصبحوا من ذلك الحين فصاعدا خدما مطيعين لأوامري و أكدوا لي أنهم لا يدخرون وسعا لمساعدتي".

من جهة أخرى هناك موقف آخر على نقيض الموقف الأول و هم أقلية من العرب السوريين واللبنانيين جلهم من المسيحيين عملوا على تحقيق مشروع استقلال لبنان وسوريا بمساعدة فرنسا وفي هذا الصدد وجه البطريك الماروني إلياس الحويك في 27 أوت 1914 رسالة إلى السيد دومرغوزير خارجية فرنسا جاء

¹- علي معطي، المرجع السابق، ص- ص180-181.

²-لقد ساعد الشريف و غيره من الزعماء القوميين العرب حزب تركيا الفتاة في الاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى اكتشف الشريف أن حركة الاتحاد و الترقى أكثر استبدادا من السلطان عبد الحميد الثاني إلا أن الشريف وأبنائه أخفوا انتسابهم للحكومة الاستبدادية الثلاثية التركية و حزب تركيا الفتاة لأنهم منحوه لقب حافظ الأماكن المقدسة للإسلام أو الأمير السادس و الستين لمكة للعهد العثماني. أنظر: لويل توماس لورونس، المرجع السابق، ص41. كان عبد الحميد الثاني لا يأمن للشريف حسين و حين اصر الاتحاديون عليه لتعيينه شريفا على مكة بدل الشريف علي قال لهم: "أني أبرأ من تبعة كل ما يستعمله هذا الرجل لأني أعرف حقيقته". أنظر: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص745.

فيها : " إنه مهما كان موقف تركيا في الحرب فإن الموارد في لبنان قرروا الابقاء على علاقات الود والحماية مع فرنسا وفي حال قيام صراع مع تركيا وتعرض لبنان للخطر فإننا نشعر بحاجتنا إلى وجود حاكم نخوله سلطته المميزة بضم جميع الفئات إليه وأن يكون مرتبطا بشكل مباشر بالسيد جورج بيكو القنصل الفرنسي العام في بيروت".

و في 15 أوت 1914 تتطوع خير الله خير الله من مؤسسي الجمعية اللبنانية في باريس في الجيش الفرنسي كما سلك الدرب نفسه بعض المسيحيين المقيمين في باريس، و في 15 نوفمبر 1916 أصدر وزير الحربية الفرنسية قرارا بتشكيل فرقة الشرق التي تهدف إلى تنظيم مقاتلين في فرق مساعدة من الأرمن والعرب وغيرهم، يتطوعون في الخدمة ضد تركيا هذه الفرق تشكلت في قبرص و وضعت تحت القيادة الفرنسية¹.

يذكر حلاق حسب الوثائق التي عثر عليها : "في هذا الوقت كان الأعضاء المسيحيون يقومون باتصالات سرية مع فرنسا مطالبين بسيطرتها على البلاد السورية عامة، و هذا ما يؤكد القنصل الفرنسي العام في بيروت قوجة Couget و ذلك في تقرير سري إلى جوناك Jounart وزير الخارجية الفرنسية في 18 مارس 1913 و مما جاء في التقرير : " و لقد حرص هؤلاء السادة في الخطاب الذي أرسلوه إلى باسم طوائفهم على أن يوضحوا بدقة أمانى مسيحية سورية و تأكيد ارتباطهم بفرنسا، و تشكل هذه الوثيقة شهادة أخرى على التعاطف العميق الذي يشد إلينا مسيحيي هذه المنطقة، كما أنها تدل على مبلغ التأثير الذي أحدثته في نفوسهم الوعود الصادرة عن فرنسا و على مدى عظيم الآمال التي ولدتها لديهم"².

2-موقف الشريف حسين و العلماء من الحرب العالمية الأولى:

أبلغ حسين شريف مكة بواسطة ولديه عبد الله و فيصل أن الاتحاديين يعتزمون دخول الحرب إلى جانب ألمانيا فبعث الشريف حسين إلى السلطان محمد رشاد برقية في أوت 1914 محذرا فيها من خطر الدخول إلى الحرب ضد دول الحلفاء القوية و التي تحيط بأراضي الدولة العثمانية إذ قال في برقيته : " تعلمون جلالتك أن الحرب البلقانية قد انتهت على ما انتهت عليه، و أن الدولة الآن في حاجة إلى تجهيزات و استكمالات حربية لم تتم إلى الآن و أن في الدخول إلى جانب ألمانيا الخطر العظيم، حيث أسلحة الدولة كلها من ألمانيا... و أن العامل بالطوبخانة العثمانية لا تكفي إمداد الجيوش بالعتاد اللازم... عدا هذا في الأخطار المترامية إلى الجنوب من جسم الدولة، كالبصرة و اليمن و الحجاز هذه البلاد المحاطة

¹- علي معطي، المرجع السابق، ص184.

²-علي محمد الآغا، المرجع السابق، ص،53، 59.

من كل ناحية بقوات مستعدة من الدول المعادية البحرية ستصبح في إحراج المواقف و ربما اتكلت الدولة في الدفاع عن حماية أهلها و هم ليسوا منظمين و لا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة جيوش أوروبا المنظمة، و أنني أستحلف جلالكم بالله أن لا تدخلوا الحرب وأن تعلموا بأنني أعتقد في كل من يرى الحرب إلى الألمان عدم التمييز أو الخيانة الكبرى".

وعندما زار والي الحجاز وهيب باشا الشريف بالطائف لإبلاغه بأن وزيرى الداخلية والحرية يرغبان بمعرفة رأي الشريف في إعلان الحرب ضد روسيا و بريطانيا فرد الشريف: "أقول لك كجندي شريف اني لست بالخائن حتى أشير على الدولة بأن تدخل هذه الحرب التي لا ناقة لها فيها و لا جمل، ونحن محاطون هنا بالدول العظمى البحرية، والتي ستشغلكم جيوش روسيا و جيوش الإنجليز بمصر مع أنكم غير متصلين بحليفكم ألمانيا من البر، وصربيا معادية و رومانيا معادية". اعتبر الاتحاديون موقف حسين الشريف من الحرب لا يعبر عن الرأي العام في البلاد¹.

موقف العلماء

لقد عبر علماء دمشق على تأييدهم للدولة العثمانية بعد أن أعلن السلطان العثماني الجهاد تكونت لجنة من المفتي محمد أبو الخير عابدين، والشيخ عبد المحسن الأسطواني، والشيخ تاج الدين الحسيني، والشيخ عبد القادر الخطيب وغيرهم شاركت في الوفد الذي ذهب إلى استانبول في سبتمبر 1915 للتهنئة بالانتصار العثماني في الدردنيل على القوات الإنجليزية ومع اندلاع الثورة العربية في الحجاز في جوان 1916 لم يتوان مفتي دمشق الشيخ محمد أبو الخير عابدين على إصدار فتوى بتكفير الشريف حسين بن علي².

وضعت مجريات الحرب العالمية الأولى العرب أمام موقفين مختلفين، هل يستمر ارتباطهم بالدولة العثمانية أو التخلي عنها والتعاون مع الدول الأوروبية ضدها؟ وإن اختاروا الثاني يكونون قد حزموا أمرهم اتجاه الدولة العثمانية، وجاء هذا التصرف بعدما أيقن رجال الحركة العربية أن الظروف الدولية الجديدة لن تسمح للدولة العثمانية الرجوع إلى سابق عهدها³.

إن دخول العرب إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى يبين لنا مدى نجاح الدول الأوروبية الاستعمارية (فرنسا و بريطانيا) على سلخ العرب من الجامعة الإسلامية التي حاربتها بريطانيا واعتبرتها

¹-كليب سعود الفوز، المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين والعثمانيين 1908-1918، المطابع العسكرية (د.ت)، ص 109 وما بعدها

²- محمد. م الارناؤوط: علماء دمشق والحكومة الفيصلية، المرجع السابق، ص232.

³- وليد قزيها، المرجع السابق، ص-ص226-227.

خطرا كبيرا على مصالحها في الشرق، وعن الدولة العثمانية الدولة الحاضنة لبلاد الشام و لولا سياسة الشدة وسياسة التتريك اتجه الحركة العربية القومية لما استطاعت الدول الأوروبية أن توجه الحركة العربية وتقحم العرب في حرب لا علاقة لهم بها.

خلال الحرب العالمية الأولى اختلفت آراء القوميين العرب السياسية عن مصير بلادهم فمنهم من رغب في تأسيس دولة مستقلة بجهودهم الخاصة، بينما رغب الفريق الآخر في تكوين هذه الدولة بمساعدة خارجية¹ و في هذا السياق طالب ندره مطران بإنشاء دولة سورية مستقلة تظم لبنان حيث ذكر في كتابه سوريا الغد مايلي: "إن السوريين الواعين ليس لديهم أي و هم حول إمكانية استغلالهم، حول مقدراتهم الذاتية لحماية ديمومة هذه الحكومة المستقلة إن السوريين يعرفون جيدا رغم كل الاشاعات المتجنية، أن فرنسا تحترم في مستعمراتها التي تدين بالإسلام التقاليد الإسلامية وأنها أدخلت فيها نظاما مزدهرا تحسد عليه فإذا تحرروا عن طريقها فإنهم سوف يكونون بكل تأكيد أكثر سعادة" واقترح ندره مطران بأن يكون على رأس الدولة السورية حاكم فرنسي " ونتيجة لهذه الدعوة تجمع بعض قدامى مؤسسي اللجنة اللبنانية تحت اسم اللجنة المركزية السورية برئاسة شكري غانم وسكريتارية وجورج سمنة نص بيانها التأسيسي على أن هدفها تحرير سوريا تحت القيادة الفرنسية، إن موقف هؤلاء لا يؤثر في الأوساط الثقافية لدى الطوائف الأخرى². أما مثقفو فلسطين فمنهم من دعا الدولة للتحالف مع ألمانيا ومنهم من فضل التحالف مع بريطانيا³.

3- دخول تركيا الحرب وموقف الشريف من اعلان الجهاد:

بعثت الدولة العثمانية عددا كبيرا من البرقيات والرسائل حملت توابع كبار شخصياتها أمثال الصدر الاعظم، أنور باشا، وطلعت باشا وجمال باشا قائد الجيش التركي الرابع في بلاد الشام يطلبون من حسين شريف و بإلحاح⁴.

¹- جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص 367.

²- علي معطي، المرجع السابق، ص - ص 184-186.

³- علي المحافظة، الاتجاهات السياسية، المرجع السابق، ص 297.

⁴- في الاجتماع السري الذي عقد في مبنى وزارة الحربية في استانبول بتاريخ 24 جانفي 1914 حضره كل من الصدر الأعظم (سعيد حليم باشا) و حاكم الأستانة العسكري (أحمد جمال باشا) و مدير الأمن العام (عزمي بك) وضع الاتحاديون القواعد الأولية لسياساتهم في البلاد العربية بصورة عامة وسوريا و لبنان بصورة خاصة و انتهوا الى القرارات التالية:- إقصاء الضباط العرب المقيمون في استانبول إلى الولايات التركية النائية كتراتيا و الأناضول.- إسناد القيادة في الولايات العربية إلى ضباط أتراك و إقصاء الضباط العرب عنها و عن خدماتهم.... الإسراع في تنفيذ سياسة التتريك.- تكليف أحمد جمال باشا بوضع المنهاج اللازم لسياسة التتريك.- القضاء على الحركة الإصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس.- إلغاء الأحزاب =

- 1- إعلان الجهاد الديني ضد بريطانيا و حليفتها.
 - 2- إرسال راية النبي صلى الله عليه و سلم إلى دمشق ليأخذها الجيش الرابع من قبيل التبرك في زحفه المرتقب على مصر عبر شبه جزيرة سيناء و قناة السويس.
 - 3- تجنيد وحشد جيش من قبائل الحجازية و ضمه إلى الجيش الرابع المرابط في سورية و الموكلة إليه مهمة الهجوم على قناة السويس.
- وأمام الموقف الحرج الذي وجد حسين شريف مكة نفسه فيه اعتمد على المهارة و الغموض في ردوده على مطالبتهم إياه بتأييد الدعوة إلى الجهاد إذ ورد في رسائل "أنه يؤيد من أعماق قلبه الدعوة إلى الجهاد ويضرب إلى الله سبحانه وتعالى أن يكلل بالنجاح جهاد المسلمين في الدفاع عن دينهم، ولكنه يرى أن إقدامه على إصدار بيان علني يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد أمر ينطوي على مخاطر"، وللتغريب بالأترك تظاهر الشريف حسين للاتحاديين بالموافقة على طلباتهم منها إرسال راية الرسول صلى الله عليه و سلم من مقرها في المدينة إلى دمشق ليتبرك بها الجيش الرابع، وحتى الاتحاديين لجأوا بدورهم إلى خداع الجماهير عن طريق حملات إعلامية نشيطة حيث صدر عن " حكومة استانبول أن حسين شريف مكة قد بارك الدعوة إلى الجهاد التي أصدرها جلالة السلطان الخليفة¹. وطلبوا من خطباء المساجد والوعاظ أن يعلنوا هذا النبأ بدون تحفظ في خطبة الجمعة في جميع مساجد الشام و العراق". كما ساهمت الصحف العثمانية في هذه الحملة: ففي بيروت ورد في صحيفة الاتحاد العثماني: "لقد نشرنا أحسن نقلا عن مصادر رسمية أن الأمير عبد الله بن شريف مكة قد تطوع للعمل في سبيل الجهاد، ومعه فرقة كبيرة من رجال القبائل الحجازية وبوسعنا الآن أن نؤكد أن شريف مكة قد أعلن الجهاد في جميع أنحاء الحجاز مليا في ذلك رغبة الخليفة، وأن القبائل يستجيبون من كل ناحية لهذه الدعاية بأسلحتهم الكاملة"².

على الرغم من ذلك فإن الاتحاديين عملوا على عزله حيث صدرت أوامر إلى وهيب باشا والي الحجاز سرا لاعتقاله دون أن يثير هذا الاعتقال انتباه القبائل وإذا تعذر فسوف يتم استدعائه إلى سوريا ويتم عزله، فوجهت له فعلا الدعوة، إلا أن الشريف الحسين أدرك خطر هذه الدعوة على حياته ومستقبله، ومن

=العربية كلها و تأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية - وضع الخطط الكفيلة بالقضاء على دعاة الانفصال و مراقبة تحركاتهم بدقة زائدة. - إبعاد العرب الإصلاحيين من استانبول واستمالته من يمكن استمالته منهم. - تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد و الترقى في البلاد العربية و زيادة عدد أعضائها. ولقد دافع عن هذه السياسة الكثير من السياسيين والأدباء الأتراك منهم ناظم بك الذي وضع أسس النهضة التركية الحديثة ويوسف بك اقجورا استغل أصحاب هذا الاتجاه. اندلاع الحرب العالمية الأولى لتطبيق هذه السياسة و لقد اختاروا لها أحمد جمال باشا. أنظر: علي معطي، المرجع السابق، ص-ص 243-244 .

¹- كليب سعود الفوز، المرجع السابق، ص- ص 116-118.

²- نفس المرجع، ص 119.

جهة اخرى وافق على الاشتراك في الحملة العثمانية التي قررت الدولة تنفيذها بقيادة جمال باشا على القناة حيث أجاب الشريف جمال باشا أنه سيرسل نجله الأكبر الأمير علي على رأس المتطوعين يرافق وهيب باشا و القوات النظامية وسينظم إلى الحملة و رغم ذلك أمر الاتحاديون الوالي وهيب باشا بمراقبة تحركات الشريف حسين، وبدوره كان وهيب باشا يرسل تقارير خاصة بتحركات حسين شريف مكة إلى استانبول. إن الحملة العثمانية على قناة السويس التي كانت على أتم الاستعداد فشلت أمام القوات البريطانية و لقد برر جمال باشا¹ الهزيمة بخيانة حسين شريف مكة حيث ذكر في مذكراته: "أنا كدنا نستولي على مصر غير أن خيانة الشريف حسين منعنا من ذلك".

وما نستنتجه أن الأمير علي أمر رجاله بالتوقف مبررا ذلك بالدفاع على المدينة المنورة فسارت القوات العثمانية وحدها ورجع الأمير إلى مكة وبالتالي فإن الشريف لم يكن جادا في المشاركة الفعلية في الحملة لأنه لا يثق في الاتحاديين المتحالفين مع الوالي وهيب باشا ضده، وحتى الاتحاديين تجنبوا الاصطدام معه في هذا الوقت الحرج خاصة أن الشريف حصل على وثائق كانت في حقيبة أمتعة وهيب باشا والتي أضعها الوالي في طريقه إلى المدينة المنورة واستطاعت العيون التي وضعها الشريف لمراقبة الوالي أن تعثر على الحقيبة وتبلغ الأمير علي ما تحتويه من مراسلات سرية تدور بين الوالي و حكومته في استانبول والتي تنص على الفتك بالشريف وأبجالة كما تتضمن خطط لتدبير المؤامرة و لذلك توقف الأمير علي على مواصلة السير بالقوات و رجع إلى والده و سلم له الوثائق التي تعتبر ورقة رابحة في يد الحسين شريف والتي أدت إلى توتر العلاقات بينه و بين الاتحاديين.

وأثناء زيارة الأمير فيصل استانبول في أواخر ماي 1915 شكى للسلطان محمد رشاد و الصدر الأعظم سعيد حليم سياسة الاتحاديين اتجاه والده وأطلعهما على محتوى الوثائق التي وجدت في حقيبة وهيب باشا السرية، أما في مقابله بأنور باشا (وزير الحربية) وطلعت باشا (وزير الداخلية) شكى من تصرفات جمال باشا و تنكيله بالأحرار العرب وفي هذا الصدد يقول علي فؤاد باشا رئيس أركان حرب الجيش الرابع في مذكراته بأنه كان على استعداد للذهاب على رأس قوة حجازية للاشتراك في الحملة، وأنه طلب من أنور

¹-وقع اختيار جمال باشا لهذا المنصب ليس عن طريق الصدفة و إنما " فهو مدبر مذابح الأرمن في اضنة بعد الدستور إذ كان واليا عليها، و هو منظم مؤامرات الاتحاديين ومدبر فرع الجواسيس والفدائيين في جمعيتهم، وهو الذي قتل مئات من الأبرياء في الأستانة عقب اغتيال محمود شوكت باشا لأنهم لم يكونوا من أنصار جمعية الاتحاد والترقي" وكانت له نزعة طورانية متطرفة خاصة اتجاه العرب و كذلك إبعاده عن استانبول وعن كل واحد من الثالوث التركي يرغب في الاستئثار بالحكم، كما رغب جمال باشا في تأسيس مملكة مستقلة في سوريا بعد أن يضم مصر إليها و عمل على تحقيق هذا الهدف . أنظر: علي معطي، المرجع السابق، ص-ص 189-191.

باشا إعادة النظر في قرار اعتقال رجال العرب في عالية و ترجاه أن يطلق سراحهم و أن على جمال باشا اتباع سياسة الليونة مع العرب، فوعده خيرا.

عينت الحكومة في استانبول اللواء غالب باشا مكان وهيب باشا من أجل توطيد العلاقات مع الشريف و أنجاله، في الوقت نفسه عملت الحكومة على إقناع الأمير فيصل أن إقدام حسين شريف مكة على إعلان الجهاد الديني ضد الحلفاء سيقوي مركزه في الحجاز و يكون حكم الحجاز وراثيا في إصلاص حسين شريف مكة¹.

بذل الأمير فيصل جهدا كبيرا لاقتناع جمال باشا لكي يعفو عن المحكومين عليهم بالإعدام إلا أنه رفض و نفذ حكم الإعدام ولكي لا يثير حوله الشكوك جامل جمال باشا و كظم غيظه لكي لا يحتجزه ويرتحل إلى الحجاز².

و في طريقه إلى الحجاز في أواخر آذار 1915 مر الأمير في صلب دمشق فاستقبله جمال باشا ثم مضى معه إلى القدس و أعلن لجمال باشا ولاءه و ولاء عائلته للدولة العثمانية و واعدته بالعودة إلى دمشق على رأس 1500 متطوع، و بالتالي قرر حسين شريف مكة إرسال فيصل على رأس المتطوعين كما وعد و ابعاد الشك عنه و في الوقت نفسه أخبر جمال باشا الشريف حسين في برقيته " أنه سيتولى قيادة الجيش الرابع في ظل علم الخلافة المقدس للهجوم مرة ثانية على الإنجليز في مصر، و أن قوات ألمانيا و النمسا سوف تشترك في الجهاد، فرد عليه الشريف بعبارة ذات مغزى قائلا "إن وصول القوات النمساوية و الألمانية سيفتح فصلا جديدا في تاريخ الإسلام ذلك أن الشريف لم يستطع فهم كيف يمكن تسمية اشتراك الجنود المسيحيين في الحرب جهادا؟" و لقد وصل فيصل على رأس المتطوعين و جماعة من أشرف الحجاز و اتخذ من دار جمال باشا و عمل على تجهيز القوات التي يفترض مشاركتها في حملة القناة الثانية. و في الوقت نفسه عمد الشريف إلى فتح المفاوضات مع بريطانيا فكانت الرسالة الأولى إلى السيد ماكمهون في تموز 1915³.

¹-كليب سعود الفوزان، المرجع السابق، ص- ص 126-129.

²-سلمى الحفار الكزبري، لطفي الحفار 1885 - 1968، مذكراته حياته وعصره، ط1، رياض الرايس للكتب و النشر، 1997، ص 74.

³-كليب سعود الفوزان، المرجع السابق، ص 131.

4- سياسة جمال باشا اتجاه الحركة العربية:

إن لسياسة جمال باشا اتجاه الأحرار العرب و تشتيته للمقاطعات العسكرية العربية المرباطة في سورية وإحلال القوات السورية بدلا منها، أثر على الأمن في سوريا وأصبحت الحجاز أرضا صالحة لإعلان الثورة. و في أول مارس 1916 أرسل أنور باشا برقية الى الشريف حسين يطلب فيها إعلان الجهاد المقدس في بلاد الإسلام في مكة و باسم الخليفة السلطان محمد رشاد الخامس على الأعداء إلا أن الشريف حسين أرسل برقية إلى الصدر الأعظم وإلى وكيل القائد العام أنور باشا في 16 مارس 1916 أشار فيها: "ويلوح لي أن إرضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه، بتهم سياسية مختلفة و القبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي:

- إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين.

- منح سوريا ما تطلبه من نظام لامركزي، وكذلك العراق.

- جعل إمارة مكة وراثية في أسرة حسين، و اعتبار الشرافة معترفا لها بحق الموروث و المتفق عليه في عهد السلطان سليم الأول، و اختتم الشريف حسين ببرقية بهذه العبارة: " فإذا قبلتم هذه المطالب فأتعهد بحشد القبائل العربية للجهاد بقيادة أبنائي في ميدان القتال في العراق و فلسطين كما أنه على الدولة التأثير على ابن الرشيد لينظم إلى الجهاد. و اذا لم تقبل هذه المطالب فأرجوكم أن لا تنتظروا مني الإشتراك في حرب كنت نصحت بأن لا تثار و لا تشق و سأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر و الظفر". و كانت البرقية التي أرسلها حسين شريف مكة باسم العرب تتضمن مطالب تتعلق بحقوق العرب في سوريا الطبيعية و العراق وجاء في البرقية الجوابية التي أرسلها الصدر الأعظم أنور باشا إلى حسين شريف مكة يذكره فيها أن من مصلحته أن لا يطلب العفو على المتهمين لأنهم لا بد أن ينالوا عقابهم، و من غير الممكن في الوقت الراهن تطبيق النظام اللامركزي في سوريا، أما إمارة مكة لن تكون تحت إمارته و إمارة أبنائه من بعده لأن الخلافة ستبقي الحجاز على ما كان عليه من قبل، و عليه أن يستدعي ولده و يطلب منه الرجوع إلى مكة، كما أمره بأن يرسل فرقة من المجاهدين بقيادة فيصل بيك إلى دمشق و الذي سيبقى ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب، و في حالة عدم تنفيذ هذه الأوامر سيتعرض إلى عقوبات، وفي برقية أخرى إلى الأمير عبد الله وصل تهديد أنور باشا إلى حد حجز الأمير فيصل في دمشق و لن يعود أبدا إن لم ترسل فرق من المجاهدين¹.

¹- كليب سعود الفوزان، المرجع السابق، ص-ص 133 - 138.

يذكر جمال باشا في مذكراته أنه استدعى الأمير فيصل، و كان مقيما في دمشق مقر قيادة الجيش الرابع، و تمت المقابلة بينهما، وحضرها فؤاد علي بيك رئيس أركان الجيش الرابع ليكون شاهدا على الحديث وقال لفيصل: " لما سمعت حين رجوعي من المدينة بأن أخاك عليا يتدخل في شؤون الحكومة ويدعي لنفسه حقوقا ليست له أبلغت المحافظ أن يطلب إليه الكف عن هذه الأعمال لاعتقادي أنه لم يقدم عليها إلا لحدثه سنه و قلة تجاربه و أبلغت والدك أن يكفه، و قلت لك في محادثة أنني أبذل ما في و سعي للمحافظة على منصب والدك، و قد أبلغته ذلك شخصيا بما أخبرك تكتب إلي معربا عن عظيم شكره و أمتنانه، و لا أظنك تجهل أن لآبيك خصوما لا يستهان بهم من أبناء عمومته في الأستانة و هم يعملون لإيعاز صدار الحكومة عليه، فخير لكم و أبقى الإقلاع عن الإتيان بأي عمل يكون حجة لخصومكم ثم أطلعته على برقية واردة إلى أنور باشا، فاضطرب و أظهر تألمه و أسفه و قال أن ما وقع ليس سوى سوء تفاهم فوالدي لا يقصد شيئا ضارا و يلوح لي أن البرقية ترجمها مترجم عاجز عن فهم النص العربي بحرفها و وعد أن يكتب إلى أبيه في الحال يسأله العدول عن مصالحه". و بعد المحادثة أرسل جمال باشا برقية إلى حسين شريف مكة يخبره فيها عن البرقية التي أرسلها إلى أنور باشا، و أنه من غير الممكن أن يصدر قرار العفو على المتورطين لأن هذا سيأخذ على مكانة الحكومة التي تعفو عن الخونة ويجعلها ضعيفة أمام شعبها خاصة أن الوثائق التي تم العثور عليها تدل على خيانة هؤلاء.

و في منتصف شهر مارس - بعد تنفيذ حكم الإعدام في القافلة الثانية- سافر فيصل مع وفد يتكون من بعض العلماء إلى المدينة بعد أن استأذن من جمال باشا ليأتي بأخيه الأمير علي إلى القدس و للتأثير في نفوس المجاهدين. فقصد الأمير فيصل المدينة المنورة بالسكك الحديدية، لم يكن جمال باشا مطمئنا لسفر الأمير فيصل إلى المدينة و في هذا الصدد يذكر في مذكراته إن فيصل فرح عندما سمح له جمال باشا بالسفر و حتى علي فؤاد بيك رئيس أركان حربي لاحظ ذلك لأن فيصل لم يستطع إخفاء شعوره ولقد نبهني فؤاد باشا أن الثورة ستندلع في القريب العاجل في الحجاز و رغم ذلك أمرت حاكم المدينة بتسليم المبالغ المالية للأمير فيصل لسد نفقات حوالي 1500 متطوع لحملة القناة¹.

عمل الشريف خلال الفترة الممتدة من 1908 إلى 1914 على تقوية سلطات امارته في مكة، واستخدم الإسلام كأيدولوجية سياسية، و كان ينوي التعاون مع الحكومة العثمانية من أجل تنفيذ برنامج رابطة جامعة إسلامية فعالة، إلا أن سياسة الاتحاديين المركزية وقفت كخاجز أمام طموحات الشريف

¹-كليب سعود الفوزان، المرجع السابق ، ص 141 وما بعدها.

حسين، ولذا ساءت العلاقة بينهما، و لذا لم ينجح الاتحاديون في اضعاف نفوذ الشريف حسين و إزاحته و لعل ذلك راجع إلى:

- كانت الدولة العثمانية في هذه الفترة تعاني من مشاكل الدولة العثمانية في (نجد - اليمن - البلقان).
- المقاومة التي يبديها سكان الحجاز.

- مكانة الشريف لدى بعض الشخصيات التركية المحافظة.

-و كانت حكومة الاتحاديين ترغب في فرض السلطة المركزية على ولاية الحجاز و سكوتها على حسين شريف مكة كان نظرا للظروف التي تمر بها الدولة العثمانية، و حتى حسين شريف كان يشك في نوايا الاتحاديين لذلك عارض تنفيذ مد السكك الحديدية إلى مكة المكرمة.

و نستنتج من خلال المراسلات التي كانت بين حسين شريف مكة و الاتحاديين مدى تدهور العلاقات بينهما. و عند اندلاع الحرب العالمية الأولى أكد طلعت باشا في آخر مراسلة على ضرورة كسب حسين شريف و النزول عند رؤيته في قضية السكة الحديدية و ضمه كحليف في الحرب ليعلن الجهاد و لتعبئة الشعور الإسلامي إلى جانب الدولة العثمانية إلا أن حسين شريف انتهج سياسة الحذر و يقظة مع أية محاولة يقوم بها الاتحاديون فقد وصفهم في بعض المراسلات بأنهم ألد أعداء العرب¹.

عينت الدولة العثمانية في بداية الأمر الفريق زكي باشا الحلبي أحد الضباط العرب في الجيش العثماني ووضع الخطط العسكرية ثم عينوا أحمد جمال باشا مكانه و أخرجوا القائد زكي باشا الحلبي من خدمة الجيش لأنه رفض القيام بحملة سيناء و قناة السويس بالاستعدادات العسكرية التي تمتلكها الدولة العثمانية و في هذا الصدد يذكر عزيز بك رئيس مخابرات جمال باشا في مذكراته عن أسباب اختيار جمال باشا بدلا لزكي باشا لأن هذا الأخير لم يكن عنصريا و كان محبا للجامعة العثمانية و هذا ما لم يعجب الاتحاديون الذين يريدون شخصا ينفذ أوامرهم العنصرية خاصة مع العرب أما جمال باشا يذكر في مذكراته أن أنور باشا عينه قائدا للجيش الرابع نظرا للاضطرابات التي تعرفها سوريا و أن القائد زكي يرفض القيام بحملة السويس بتلك الإمكانيات القليلة و يطلب دعما عسكريا كبيرا و لذلك تم عزله²، و طلب منه القيام بهجوم على القوات الإنجليزية المربطة على قناة السويس و إعادة الأمن و النظام إلى سوريا و القضاء على النشاط الذي يقوم به الثوار العرب³.

¹-كليب سعود فواز، المرجع السابق، ص-ص 102 104.

²-جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص367

³-علي معطي، المرجع السابق، ص، ص 189، 191.

ولقد ذكر جمال باشا لما دخل إلى دمشق 5 ديسمبر 1914 أن أهالي سوريا رحبوا بقدومه حيث يقول: "أظهروا وطنية كبرى وإخلاصاً، وقد امتلأ قلبي سروراً إذ رأيت وشعرت أن غالبية العرب لا تحجم عن بذل ما يطلب منها من التضحيات في تلك الحرب لتحرير الخلافة الإسلامية"¹.

حكم جمال باشا سوريا لمدة ثلاثة سنوات حكماً مطلقاً استبدادياً، وعند وصوله إلى سوريا تقرب من زعماء سوريا و لبنان أمثال عبد الرحمن شهنيدر، وعبد الكريم الخليل، ومحمد كرد علي وغيرهم ومنح المال لكثير من مشايخ العرب منهم الشيخ أسعد الشقيري و الشيخ عبد الكريم الحسيني، والشيخ عبد الرحمن الأنصاري وغيرهم واستعملهم لإقناع الضباط العرب وقادة الرأي لقبول وظائف في الأناضول وأكد لهم ضرورة التعاون والتفاهم بين العنصر العربي والتركي² وهو القائل في أحد خطبه: "واليوم أراي قادراً على أن أؤكد لكم أن الأماي التركية والأماي العربية لا تتعارضان مطلقاً، والتركي والعرب ليسوا إلا إخواناً في غاياتهم الوطنية و ربما أكمل بعضهم مجهود بعض"³.

أصدر في دمشق جريدة الشرق لتكون اللسان و داعية تقارب بين العنصر العربي و التركي و قد نالت إعجاب السوريين و الأتراك و الألمان، إلا أن هذه الجريدة تراجعت عندما عارضت السلطة التركية الكثير من المقالات ولذلك قطع شكيب أرسلان علاقته بها كل هذا كان لأن جمال باشا أراد أن يكون جواً من الحماس الديني والوطني في البلاد العربية لأنه كان يحضر للحملة العسكرية على القناة وتجنيد العرب فيها⁴. عثرت السلطات العثمانية قبل وصول جمال باشا إلى دمشق على وثائق⁵ تدين بعض الشخصيات

¹-جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص369.

²-علي معطي، المرجع السابق، ص-ص 91-93.

³-محمد بديع شريف و آخرون: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، ص108.

⁴-علي معطي، المرجع السابق، ص 195

⁵-تسلم جمال باشا في أواخر 1914 عدة وثائق من والي دمشق "خلوصي بك" تم العثور عليها في قنصليتي فرنسا في بيروت ودمشق تدين عدداً من أبناء العائلات السورية و اللبنانية الكبيرة وتدينها بالتعاون سرى مع فرنسا و بريطانيا وحسب جريدة "المقطم" إن عدد هذه الوثائق سبعة وثائق:

الوثيقة الأولى: "تتعلق بأمر الحكومة الفرنسية التي وجهته إلى قنصلها العام في دمشق و القاضي بإعطاء عائلة الأمير عبد القادر الجزائري مبلغاً من المال قدره 3940 فرنكاً يجري توزيعها على ذات القاعدة التي اتبعت في شهر تموز الماضي". الوثيقة الثانية والثالثة و الخامسة: "إلى العلاقة التي أقامها شفيق المؤيد مع الحكومة الفرنسية، و إلى الإتصالات التي كان يجريها مع قناصل فرنسا بشأن الإصلاح في سوريا ولبنان".

الوثيقة الرابعة: "تتحدث عن أعمال وأهداف حزب اللامركزية في مصر وعن سعيه الحثيث لجعل سوريا إمارة مستقلة يدير شؤونها مسلم".=

العربية بأنهم الفرنسية¹ في بيروت ودمشق وعندما وصل جمال باشا أخبره خلوصي بك والي سوريا بذلك، إلا أن جمال باشا صرف النظر عن اتخاذ أي إجراء ضد المتهمين لكي لا يحدث صدعا في الجبهة الإسلامية². حيث ركز على اعداد الهجوم على قناة السويس الذي تم فعلا في 2 فيفري 1915 إلا أن الحملة فشلت في تحقيق أهدافها فالتجأ إلى تنفيذ المشروعين اللذين جاء يحملهما معه بالاتفاق مع طلعت وأنور باشا وأول مشروع هو: اخضاع متصرفية جبل لبنان وسكانها للسيادة العثمانية المباشرة وثاني مشروع هو: تترك العرب و محاربة فكرة القومية³.

=الوثيقة السادسة: " إلى بعض المرافعات التي كان يقوم بها بعض الأشخاص مع قناصل فرنسا في الشرق لإثارة المسألة العربية بشكل عام و القضية اللبنانية والسورية بشكل خاص". الوثيقة السابعة والأخيرة: " عبارة عن صورة كتاب مرسل من بعض أدباء بيروت إلى القنصل الفرنسي فيها و يتضمن شكوى هؤلاء من تعسف الحكومة المحلية وشدة مضايقتها للأهالي بفرضها ضرائب جديدة، وإكراه الناس على هجرة البلاد إلى الخارج". يقال أنه بعد عملية التفتيش تم العثور على الوثائق في دار القنصل الفرنسي وأن هذا الأخير والقنصل البريطاني غادرا الشام مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. أما الوثائق الدبلوماسية الأمريكية تذكر أن السلطات التركية اقترحت القنصليتين في بيروت ودمشق دون مراعاة القواعد الدولية وأخذت اثنين وثلاثين وثيقة من أرشيف القنصلية الفرنسية و لذا احتجت الحكومة الأمريكية إلى سفيرها في الاستانة.

عموما لا تعتبر هذه الوثائق الوسيلة الوحيدة التي استعملها جمال باشا لمعرفة بأسماء الزعماء العرب الذين يطالبون بالإصلاح فقد وقعت بين يديه كتب حقي العظم الموجهة إلى محمود الحمصاني في بيروت، وأوراق الجمعية اللامركزية التي كانت محفوظة لدى حقي العظم في القاهرة ورسائل فريق من المغتربين ويقال أن أحد مساعدي حقي العظم وهو محمد الشنطي اليافي هو الذي سلمها إلى الاتراك لكسب ود جمال باشا ولتخليص نفسه من حبل المشنقة لكنه بدون فائدة.. ورغم هذا فإن جمال باشا احتفظ بهذه الأوراق والوثائق سرا في خزائنه واستعملها في الوقت المناسب وتقرب من العرب واتبع سلوك المصلح من أجل كسب تأييد السوريين و اللبنانيين لمشاريعه السياسية والعسكرية في قناة السويس واسترجاع مصر تحت قيادته ولم يبد نواياه حتى تأكد من فشل الحملة على القناة و بدأت سياسة الاعتقالات على أعضاء الجمعيات العربية التي أنشأت داخل وخارج البلاد ولولا اندلاع الثورة العربية لكانت الاعتقالات ستمارس على العدد الكبير من العائلات اللبنانية والسورية. انظر: علي معطي، المرجع السابق، 1992، ص-ص 254-258.

¹- بعض الموارنة و رهبانهم اتهموا بأنهم دعوا فرنسا للاستيلاء على الشام بعد أن كشفت علاقاتهم في أوراق قناصل فرنسا في دمشق وبيروت و حلب. إلا أن قناصل بريطانيا قد أحرقوا أوراقهم و بالتالي نجا كل من له علاقة من الأهالي بقناصل بريطانيا يذكر محمود كرد أنه سأل خلوصي بك والي دمشق وهو من الأحرار العقلاء في السلطنة: "كنتم أمس في بيروت فماذا رأيتم يا سيدي في قضية أولئك المتهمين وما هو وجه تهمتهم يا ترى ؟ فأجابني بما يعرّيه بالحرب: " سلسلة من التزويرات والتلفيقات عليهم، قاتلهم الله وأحزاهم". يعني بهم الاتحاديين و جاء هذا السؤال عندما قبض على الرعيل الأول في السنة الأولى للحرب. أنظر: محمد كرد، المرجع السابق، ص-ص 137-136.

²- جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص 370. أنظر كذلك سلمى الحفار، المرجع السابق، ص 73.

³- جهاد مجيد محي الدين، نفس المرجع، ص 371.

ومن أجل تحقيق هذه المؤامرة تمتع جمال باشا بسلطة مطلقة عسكريا، ماليا و إداريا فاعتمد على المحاكم العرفية لإرهاب اللبنانيين و السوريين أهمها محكمة عالية العرفية خاصة بعدما أعلنت حالة الطوارئ في لبنان و سوريا في 7 أوت 1914 و قد تشكلت المحاكم العرفية بعد فشل الحملة على قناة السويس. وتعتبر محكمة عالية من أهم الأسباب التي أثرت على العلاقات العربية - التركية حيث أصدرت أحكاما في حق الأحرار العرب من إعدام و نفي، كانت جلساتها تعقد في الليل وبشكل سري وتتم بطريقة صورية تصدر أحكامها وفقا لرغبات جمال باشا تشبه محاكم التفتيش التي كانت في القرون الوسطى ولذلك رغب معظم قضاة المحاكم العرفية الاعتزال من وظائفهم عندما يصير جمال باشا على إعدام الأبرياء¹.

عمل جمال باشا في أول سنة 1915 على تفريق شمل الضباط العريف أرسل البعض منهم إلى جبهات القتال في الدردانيل و جبال القوقاز و طبق على عرب الشام سياسة التجويع²، كما ألقى القبض على معظم أعضاء المنتدى الأدبي و حزبي " العهد و جمعية الفتاة " والجمعيات السرية، والأشخاص الذين تدينهم الوثائق السرية و هكذا حكمت محكمة عالية العرفية على ثلاثة عشر منهم بالموت و على 70 بالإعدام غيابيا و على آخرين بالسجن و النفي إلى الأناضول وآسيا الصغرى. تتكون القافلة الأولى التي نفذ فيهم حكم الإعدام: " عبد الكريم خليل، وهو أول من وقف تحت حبل المشنقة و محمد و محمود المحمصاني، و عبد القادر الخرنساء، و نور الدين القاضي، و سليم عبد الهادي، و محمود نجا العجم و محمد مسلم عابدين، و نايف تللو، و صالح حيدر و عليا لارمنازي. ونظرا لتقدم السن بحافظ العيد والشيخ سعيد الكرمي فلم ينفذ فيهم حكم الإعدام الذي استبدل بالسجن وقد لفظ عبد الكريم خليل لحظة إعدامه³: "بلغوا السفاح جمال باشا أنه سوف يكون اعدامنا أكبر برهان على ذهاب ملك آل عثمان"⁴. ونفذ حكم الإعدام شنقا وعلنا في مدينة دمشق في 22 مارس 1915 أما الباقون فقد نصبت المشانق

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص- ص 250 - 253.

²-علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص 230

³-جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص- ص 265 - 268.

⁴-تثبت الوثائق السرية التي نشرها البلاشفة بعد الثورة البلشفية 1918 من سجل وزارة الخارجية الروسية عن الصلة الموجودة بين جمال باشا و الأرمن حيث حاول هذا الأخير توسيط الأرمن لجعل الحلفاء يعترفون به سلطانا على تركيا مقابل قضائه على الدولة و ما يؤيد ذلك التصريح الذي أدلى به عبد الكريم خليل ساعة اعدامه حيث يقول: "أني اعرف لماذا يقتلني جمال باشا فقد قيل أنه أراد التخلص منه لأنه وقف على جانب من خطته وكان يكتمها عن كل الناس". أنظر: أمين سعيد، المرجع السابق، ص 68.

في الميدان الرئيسي ببيروت و بعلبك و حماة و دمشق و جنين و قد أعدمت القافلة الأولى من الشهداء في بيروت في 21 أوت 1915¹.

يبرر علي فؤاد باشا رئيس أركان حربه أن الاجراءات التي اتخذها جمال باشا كانت ضرورية لأنه لولا تنفيذ حكم الإعدام في القافلة الأولى لما استطاع السيطرة على الأوضاع. و يكمن الخطأ الذي ارتكبه جمال باشا هو مواصلة إصدار حكم الإعدام و النفي خاصة أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام في القافلة الأولى هابه رجال الحركة القومية فمن الصواب أن يتوقف عند هذا الحد و هذا ما جعل العرب يلقبونه بالسفاح².

و في هذا الصدد يذكر الجنرال الألماني فون ساندروز: " أن تأثير حكم جمال باشا لم يحرم سوريا من زعامة الثورة بل زاد في الشعب روح الثورة"³.

أما شكيب أرسلان⁴ يرى أن خطأ جمال باشا يكمن في:

- قتل أبرياء ذنبهم أنهم كانوا في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد و الترقى.
- أن فريق منهم لم توجد عليه أدلة مادية ليحكم عليهم بالإعدام و اعتبره جمال باشا أنهم أعدموا من باب "القتل السياسي".
- و حتى ان كان هؤلاء أعداء الدولة فلم يكن من باب السياسة فتح الملف أثناء الحرب و إثارة عواطف العرب.
- إن الذين حكموا عليهم بالنفي والتشريد و مصادرة أملاكهم القليل منهم من يعرف السياسة.

¹-لقد أعلنت الصحف عن أسمائهم و أسماء من حكم عليهم بالإعدام و السجن و أكثرهم حكم غيايبا و تعود تهمة الدفعة الأولى من المشنوقين و هم مسلمين إلى انتسابهم لحزب اللامركزية كما حكم على عدد كبير من المسلمين و النصارى بالإعدام .
أنظر: محمد عزة داروزة، المرجع السابق، ص 255.

²-جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص378.

³- نفس المرجع، ص 375.

⁴-فقد أكد الأمير شكيب أرسلان" على حقيقة هامة و هي أنه لم يكن من مصلحة الدولة اثارة قضية الخلاف بين العرب والترك أثناء الحرب. و لم يكن من الحكمة أيضا أن يترك جمال باشا و شأنه في سوريا و أن يحاكم في ديوان عسكري رجالا متهمين بجرائم سياسية صرفة. و قد احتج الصدر الأعظم الامير سعيد حليم باشا على جمال باشا كما أن السلطان محمد رشاد نفسه كان يردد أنه بريء من دم الذين قتلهم جمال باشا في سوريا". و حتى فؤاد باشا رئيس أركان حرب جمال باشا " إن عمله هذا كان خطأ فادحا ارتكبه و جعل العرب في سوريا و لبنان يمقتونه حتى لقبوه بالسفاح". أنظر: علي معطي، المرجع السابق، ص-ص 291-293.

وبهذا العمل يكون جمال باشا قد زاد من أعداء السلطنة و قدم للأجانب العرب على طبق من فضة¹. و من بين الأوراق التي استخرجتها السلطة التركية من القنصلية الفرنسية في بيروت عريضة تتضمن على التماس مساعدة فرنسا لفصل سوريا و لبنان عن الدولة العثمانية و حصولها على الاستقلال التام والحرية، و من التوقيع الذي تحويه العريضة اسم يوسف الهاني و هو من موارد لبنان نفذ فيه حكم الشنق في بيروت يوم 5 أفريل 1916 أما الباقي فقد غادروا بيروت في بدء إعلان الحرب².

كما صب جمال باشا غضبه على بقية زعماء العرب فألقت الشرطة على حوالى أربعين من أعيان دمشق منهم الشيخ شكري باشا الأيوبي، و عبد الحميد باشا القلطي أمير لواء في الجيش التركي، وفارس الخوري نائب مسيحي في المجلس العثماني، و زكي بك العظمة ضابط عالي الرتبة تعرضوا للتعذيب في السجون، ورغم ذلك لم يعترف أحد منهم بسر من أسرار الحركة العربية، كما ألقى القبض على عدد كبير من وجهاء العرب و أرسلوا إلى الأناضول³. و في هذه الفترة كان الأمير فيصل في موقف خطر للغاية حيث أنه كان منتسبا إلى الجمعية السرية و يعيش كضيف في كنف جمال باشا الذي يجهل نوايا الأمير فيصل لأنه لو كشف سيرسله إلى حبل المشنقة مع أصدقائه السوريين⁴.

تعتبر سياسة جمال باشا من العوامل التي أدت إلى اتساع فجوة الخلاف بين العرب و الترك و دفعت العرب إلى الثورة من أجل الحصول على الاستقلال كما دفعت معظم الزعماء المسلمين إلى المطالبة بضرورة الانفصال عن الدولة العثمانية⁵.

هناك اختلاف حول حقيقة من أعدمهم أحمد جمال باشا فالبعض يعتبرهم شهداء أحرار والبعض الآخر يرى أنهم تعاملوا مع دولة أجنبية عدوة للدولة العثمانية كما أن جمال باشا كان في فترة حرب و ما يلزمه إلا اتخاذ الحيطة و الحذر و اتباع أسلوب الشدة و اللين⁶.

¹-محمد كرد علي، المرجع السابق، ص138.

²-جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص376.

³-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص-ص 298-299.

⁴-توماس ادوارد لورانس، المرجع السابق، ص46.

⁵-جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص 379.

⁶-جيهان بنت ابراهيم شار علي عبد الرحيم، الآثار السياسية و الحضارية للانتداب الفرنسي و البريطاني على بلاد الشام (1342-1359 هـ/ 1924-1939م)، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي الحديث و المعاصر، كلية الشريعة و الدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2011، ص 6.

وما إن اندلعت الحرب العالمية الأولى حتى سارع جمال باشا إلى تحقيق مشروعه الأول هو اخضاع متصرفية جبل لبنان وسكانها للسيادة العثمانية المباشرة¹. وألغى استقلاله وأقام فيه حكما عسكريا وقمع النشاط السياسي واضطهد رجال الحركة القومية. وهكذا ظل لبنان طيلة ثلاث سنوات الحرب الأخيرة تحت الحكم العثماني المباشر، ولقد عانت لبنان من ويلات الحرب أكثر من أية ولاية في السلطنة العثمانية، فساءت الأوضاع الاجتماعية وما إن حل شتاء 1916 حتى عرفت البلاد مجاعة و هجرة، فقد رحل قسم كبير من فقراء الدروز إلى حوران².

وقد مهد لهذا الاحتلال بكر سامي بك والي بيروت آنذاك وذلك من خلال زيارته الكثيرة للمناطق اللبنانية الساحلية والجبلية وفي 28 نوفمبر 1914 أذاع جمال باشا بلاغا إلى اللبنانيين يحثهم على الاخلاص للدولة العثمانية وأنها ستطبق سياسة ملائمة بالمنطقة أن الأحكام العرفية التي عرفت لبنان اقتضتها ظروف الحرب وأن الدولة ستدافع على جبل لبنان، ولذلك أرسلت قوة من الجند لحمايته من أي عدوان محتمل.

إن القيادة التركية في سورية كانت تسعى إلى احتلال لبنان سلميا و من أجل تحقيق ذلك أرسلت مجموعة صغيرة من الجند بقيادة الضابط أمير آلاي تحسين بك " إلى مدينة عالية بحجة النقاهاة " و كان دور هذه الفرقة هي دراسة الأوضاع و جس النبض.

وفي أول سبتمبر 1914 تلقى المتصرف أوهانس باشا برقية رقمية من الباب العالي جاء فيها: إن الأوضاع الأمنية في لبنان غير مستقرة ومن الضروري إرسال قوة من الجيش لحماية المنطقة وتوفير الأمن اللازم ولكن أوهانس باشا كان رده على البرقية بعدما استشار كبار الموظفين اللبنانيين أنه يرحو من الحكومة إن تقبل استقالته من منصبه في حالة تغيير الوضع السائد في لبنان، إلا أن الدولة العثمانية احتلت بعض المناطق في الجبل ومن أجل تبرير ذلك توجه الحاكم العسكري رضا باشا إلى عاليه وبرر لأوهانس باشا أن الاحتلال سيتم لضرورات حربية عسكرية ونظرا لظروف الحرب أمر جمال باشا القائد السوري " علي رضا البلانكي أن يسير على رأس قوة عسكرية من ثلاثة آلاف جندي إلى بيروت وفي 22 نوفمبر استطاعت هذه الأخيرة أن تحتل مناطق عديدة من لبنان ورغم ذلك قدم الأهالي المساعدات

¹ -و في 1914 أعلنت حكومة الاتحاديين استقلال لبنان و وضعت والي تركي و الذي وضع قوانين جديدة و أعلن أن الوضع في لبنان يختلف عن الوضع الذي امتاز عليه من قبل من طرف الدول الستة و بالتالي تكون تركيا قد خرقت الاتفاق الذي كان بينها و بين الدول الستة حول وضع لبنان و لذلك خضعت لبنان لسياسة جمال باشا التي أقدمت على إعدام العديد من المثقفين اللبنانيين و كانت أكثر قساوة على بقية الولايات العثمانية الأخرى خاصة المسيحيين اللبنانيين القوميين. أنظر

Jean – Pierre Alem et Patrick Bourrat, op.cit, p37:

² - فليب حتي، المرجع السابق، ص- ص 588 - 590.

الغذائية وحتى المسؤولون أوفدوا الأطباء و الدواء والغطاء للجنود الأتراك، وقد احتل الجنود كل ما تبقى من لبنان واتخذوا ما بنته المدارس الأجنبية و الأديرة مراكزاً لهم وحولوا بعضها إلى ثكنات عسكرية وهذا بطلب من القائد العام لقوى جبل لبنان محمد رضا باشا. الذي أرسل حامية مؤلفة من سبعة آلاف جندي.

وفي 31 ديسمبر 1914 عقد اجتماع في سراي بعبداه حضره أوهانس باشا، و أعيان لبنانيين ومشايخ القرى و بعض رجال الاكليروس و المامورين ترأس الاجتماع رضا باشا حث الحاضرين على الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية و بعد أن أنهى خطابه قال للمتصرف إن بعض اللبنانيين يتعاملون مع الأعداء ومن الضروري نفهمهم إلى القدس ليكونوا عبرة لكل لبناني يخون الوطن ويتعامل مع فرنسا وإنجلترا أو روسيا إلا أن المتصرف حاول استنكار الأمر فأجابه رضا باشا بجدّة: " ولا يخفى عليك أننا الآن في حرب... وأن الأحكام العرفية تشمل لبنان، أنا المميت و أنا المحيي، وأعلم أن حكمي هذا سيكون باكورة أعمالي العسكرية في لبنان و سينفى بدون شفقة كل لبناني أشك في انخيازه إلى دولة الأعداء". وهكذا صدر حكم النفي بحق بعض اللبنانيين و أصبح المتصرف و الموظفين الإداريين والعسكريين تحت تصرف القيادة العسكرية التركية¹، و أخذ جمال باشا يأمر كبار الموظفين اللبنانيين وأعضاء مجلس الإدارة المشكوك في علاقتهم مع الحلفاء بالسفر إلى القدس أو الأناضول، فارتفع عدد المنفيين من السوريين واللبنانيين إلى الأناضول كما سعى جمال باشا لنشر الفتنة بين اللبنانيين وأهل جبل عامل أو بين الشيعة والمسيحيين.

وفي 23 ماي من عام 1915 قرر جمال باشا حل مجلس إدارة الجبل لأن معظم أعضائه في المنفى، ثم ألغى امتيازات رجال الدين الموارنة كما طلب من البطريك إلياس الحويك الإعلان عن تأييده لسياسته في لبنان و بقية المناطق العربية بشكل علني ورغم هذا فقد زار بطريق إلياس الحويك جمال باشا في 21 جويلية 1915 في صوفر وكانت الزيارة الثانية في 4 ماي 1916 في بيروت.

كما أجبر جمال باشا الدرك اللبناني باستبدال ملابسهم الشبيهة بثياب حراس المصارف والقناصل الأجنبية بملابس رجال الدرك العثماني تعبيراً على تبعيتهم للدولة العثمانية. كما استمال بعض الزعماء المحليين مثل الأمير شكيب أرسلان و كامل أسعد والدكتور أسعد حيدر في جمع المتطوعين وضمهم إلى الجيش التركي²، وفي 6 مارس 1916 نفذ حكم الإعدام في الدفعة الثانية من رجال الحركة القومية³ شنقا

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص 199 وما بعدها

²- نفس المرجع، ص 210.

³-تتكون القافلة الثانية التي نفذ فيها حكم الإعدام " شفيق المؤيد العظم، عبد الحميد الزهراوي، عمر الجزائري، شكري العسلي، عبد الوهاب الانكليزي، رفيق رزق سلوم، رشدي الشمعة، (اعداموا في دمشق) و باترو باولي، جرجي حداد، سعيد عقل، عمر حمد، عبد الغني العريسي، الأمير عارف الشهابي، الشيخ أحمد طيارة، محمد الشنطي اليافي، توفيق البساط، سيف الدين الخطيب، علي الحاج عمر النشاشيبي، محمود جلال البخاري، سليم الجزائري، أمين لطفي الحافظ، (اعداموا في بيروت) بالنسبة لعبد=

في دمشق والباقون أعدموا في بيروت¹. رغم أن شكري بك، رئيس محكمة عالية العرفية عارض قرارات جمال باشا المتعلقة بحكم الإعدام وحتى هيئة الديوان العرفي كانت متأكدة من براءة معظم الذين حكم عليهم بالموت إلا أن جمال باشا أصر على إعدام أحرار القوميين العرب، رغم أن من الشروط التي قدمها حسين شريف مكة لأنور باشا مقابل دخوله الحرب إلى جانب الدولة هو إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين الذين يحاكمون في ديوان عالية العرفي إلا أن رد الصدر الأعظم و أنور باشا كان ضرورة معاقبة الموقوفين، كما حاول شكيب أرسلان مع جمال باشا في العدول عن قراراته إلا أنه رفض ورجا حتى أنور باشا عندما زار سوريا بتغيير حكم الإعدام بالنفي إلا أن أنور باشا كان جوابه بالتركية: " (توصية ايده حكم) أي سأوصيي إلا أنه لم يغير في الأمر شيئاً".

وفي هذا الصدد نشرت جريدة سوريا الرسمية إعلاناً من القائد العام: " بأن بعض ذوي النفوذ يتدخلون بآمر العفو عن المنفيين وأنه غير مسموح لأحد بالتدخل في هذه الشؤون و ما شابه ذلك". رغم أن هذه الشفاعة كانت من شخصيات كبيرة إلا أنها لم تأت بأية نتيجة ولم تغير من موقف جمال باشا " كان ذلك عاملاً حاسماً في موقف أكثرية الزعماء السوريين والبنانيين² من الاتحاديين، إذ أنه قضى على كل تردد و دفع بهم إلى اتخاذ قرار حاسم بالانفصال التام عن تركيا³. عارض شكيب أرسلان سياسية جمال باشا في سوريا وحذره من نتائج هذه السياسة ومخاطرها على العلاقات العربية - التركية إلا أن شكيب أرسلان رغم سياسة الاتحاديين مع العرب فهو يفضل الدولة العثمانية على الأجانب و مهما بلغت أخطاء الحكام

=الحميد الزهراوي كان " عضو في مجلس الأعيان العثماني ليشرف على تطبيق اتفاقية باريس، و لما كانت محاكمته لا تجوز إلا بأمر من السلطان فإن جمال باشا أمر بإعدامه دون محاكمة وأقتيد إلى المشنقة دون أن يعرف التهمة الموجهة إليه". و عندما تقدم رفيق سلوم إلى الموت خاطب جثة عبد الحميد الزهراوي بشجاعة و كانت جثة متدلّية في ساحة المرجة: " مرحباً يا أبا الحرية". قال مخاطباً الاتحاديين: " إن نظامكم الرهيب سيعجل في نهاية حكمهم الظالم". أنظر: علي معطي، المرجع السابق، ص- ص 274-277.

¹-محمد أحمد دروزة، المرجع السابق، ص 263.

²-و قد طلبت جمعية النهضة اللبنانية في الولايات المتحدة الأمريكية من الرئيس ولسن التدخل لانقاف المجازر في سوريا و لبنان و كان رد سكرتارية البيت الأبيض أن الرئيس قد اهتم بهذا الموضوع". أنظر: علي معطي، المرجع السابق، ص 291.

³- نفس المرجع، 285-287.

الأتراك و في الوقت نفسه بين لرجال الدولة خطر سياسة جمال باشا وطالب منهم رده، الأمر الذي أثار جمال باشا عليه و على أخيه عادل لولا مكانة شكيب أرسلان لدى طلعت و أنور¹.

لقد ساعدت الاجراءات القمعية التي اتخذها جمال باشا على استتباب الأمن و المحافظة على سلطة الحكومة في هذه البلاد التي كثرت فيها التدخل و الدعاية الانجليزية و الفرنسية².

و في هذا الصدد نشرت صحيفة التايمز في 22 أوت 1916 مقال كتبه مراسل محايد غادر سوريا قبل هذا التاريخ يذكر فيه: "إن حال أهالي سوريا مما لا يكاد يصدق ... هناك يتعرض المسلمون الناطقون بالعربية لإرهاب جديد و يقدر عدد الذين قضت عليهم المجاعة في شمالي سوريا بين الستين ألف والثمانين...."³.

كما تم إلغاء الامتيازات اللبنانية فأصدرت إرادة سلطانية تعتبر لبنان لواء مرتبطا مباشرة بوزارة الداخلية، و هذا ما يخالف نظام لبنان الأساسي و خاصة بع تعيين تعيين علي منيف بك من 25 سبتمبر 1915 الى 15 ماي 1917 و تكمن المخالفة في أن علي منيف بك كان مسلما و عينته الدولة العثمانية دون استشارة الدول الأوروبية العظمى و بالتالي تكون الارادة السلطانية قد ألغت الامتيازات اللبنانية التي دامت من عام 1861 إلى 1915 ألقى علي منيف بهذه المناسبة خطابا أمام الجماهير ذكر فيه: "أنتم لا تجهلون أن تسميتي لهذه الوظيفة تختلف عن تسمية الحكام الذين سبقوني والذين سموا من قبل السلطات الشرعية الستة، أما أنا فقد عينت من قبل الباب العالي مباشرة".

إن إلغاء الامتيازات التي تمتعت بها لبنان و أقرتها الدول الأوروبية الكبرى بعد فترة 1860 منحت للحكومة العثمانية الجديدة سلطة مطلقة في هذا الإقليم المهم من البلاد و يعد ذلك جزء من سياسة التتريك التي أقرها الاتحاديون أي تتريك جميع العناصر العربية بدون استثناء و ما سكوت بريطانيا و فرنسا و روسيا على هذا الاختراق لأنها تمر بظروف حرجة تتحكم في مصيرها النتائج التي ستسفر عنها الحرب العالمية الأولى.

تميز علي منيف بك بشدة حزمه حيث منع بعض القواد العسكريين منهم رضا لرشيد في التدخل في شؤون لبنان الإدارية و اهتم بالتعليم، حارب الوشاية "كما ألغى دائرة الشؤون الأجنبية ليبرهن عن نفسه

¹-وجيه كوثراني، "الموقف من الدولة العثمانية ومن صيغة الدولة البديلة"، مجلة التسامح، المرجع السابق.

²-علي معطي، المرجع السابق، 289.

³-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 300

أنه مجرد موظف إداري يتبع وزارة الداخلية في استانبول لا يخلو حكمه من النقائص كتعيين موظفين من غير اللبنانيين... الخ¹.

بعد أن حقق جمال باشا مشروعه الأول الذي يتمثل في احتلال جبل لبنان و إلغاء امتيازاته إلتجأ إلى تطبيق المشروع الثاني الذي يتمثل في حركة تترك سوريا و لبنان عن طريق:

- إغلاق المؤسسات التعليمية في جبل لبنان و في دمشق و أصدر أمراً بأن تكتب أسماء المخازن التجارية في لبنان و سوريا باللغة التركية بدلا من اللغة الفرنسية أو العربية.

-أخضعت دوائر البريد لمراقبته الخاصة.

-إهتم بالصحافة التي لا تعارض سياسة الاتحاديين، أما الصحف التي تعارض سياسته كجريدة " رحلة الفتاة - لسان الحال - الثبات ".عاقب محرريها بالنفي و الإعدام.

- تنظيم دائرة الاستخبارات في لبنان و سوريا، و فلسطين فنشر عددا كبيرا من الجواسيس و فرض مراقبة شديدة على أهالي جبل لبنان و حتى اللبنانيين مارسوا التجسس خاصة على بعضهم و أرسلوا تقارير ضد بعضهم خاصة على رجال الدين الموارنة و خصوصا البطريك كما راقب الإرساليات الأجنبية و رجال الدين التابعين لها.

- قرب إليه بعض رؤساء القبائل في البادية بواسطة إغرائهم بالمال و استعانت به رجال الدين المسلمين من أجل تأييد سياسته في بلاد الشام و هي المناداة بنفسه خديويا على البلاد لكنه في الأخير لم يستفد منهم.

أما بالنسبة لليهود فقد قدم لهم امتيازات خاصة مثل التسهيلات في تملكهم الأراضي في فلسطين²، و فتح أبواب الهجرة و إنشاء مستعمرات مقابل مساعدتهم له في تحقيق حلمه بإنشاء مملكة في سوريا³.

-نفى حوالي 300 ألف أسرة لبنانية و سورية بكاملها إلى الأناضول و صادر أملاكها و أموالها. و هي في الغالب من الأسر الغنية و الكبيرة لكي يضعف العصبية العربية في بلاد الشام و يدمجها في الطورانية⁴.

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص210 وما بعدها

²-و كانت له علاقة وطيدة ومميزة مع الحركة الصهيونية بواسطة اليهودية (ناتاليا داوتس) التي تربطها علاقة عاطفية مع جمال باشا انظر: عبد العزيز لعميد، المرجع السابق، ص154.

³-علي معطي، المرجع السابق، ص250.

⁴-جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق، ص387.

إن التطورات التي شهدتها المنطقة خلال الحرب دفعت الحكام الأتراك إلى إلغاء الامتيازات و الحماية التي يتمتع بها اليهود والأجانب ولم يسلم حتى اليهود من اضطهاد جمال باشا في سوريا الكبرى و حل كل المنظمات الصهيونية الفاعلة ونفى عددا من الزعماء الصهيونيين من بينهم دافيد بن غريون، و ازداد القمع ضد اليهود في أواخر 1917 عندما اكتشفت السلطات العثمانية شبكة تجسس نيلى تعملين يهود فلسطين لصالح بريطانيا¹. وفي هذا الصدد يذكر شكيب أرسلان في المقال بعنوان: " ماذا تنتظره سوريا من الحرب:" أن غالبية الشعب السوري (وأعني به منطقة الشام التي كانت تضم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) يتمنون أن تظل هذه المنطقة تحت النفوذ العثماني، ولكن ليس تحت الشروط الحالية، بل تحت شروط تكفل أحياء العروبة واللغة العربية". ويبدو أن شكيب أرسلان قد أطلع الساسة الألمان على الإجراءات التعسفية التي يمارسها جمال باشا في سوريا، وكان يهدف من وراء ذلك جعل الألمان "يضعطون على الحكام الأتراك الجدد لتغيير سياستهم اتجاه العرب"².

استنتاج جزئي:

يعتبر تعيين أحمد جمال باشا واليا على سوريا نكبة تاريخية للعلاقات العربية - التركية عامة و العلاقات التركية - اللبنانية خاصة و لذلك قاوم الأحرار العرب سياسة الإتحاديين بكل الوسائل المتاحة لديهم، فأسسوا الجمعيات و الأحزاب السياسية و عقدوا مؤتمرا في باريس سنة 1913 كل هذا كان من أجل تحقيق الهدف المنشود.

و عندما يؤسس الحركة القومية العربية في تجسيد مطالبها على أرض الواقع حرضت عرب المنطقة خاصة المثقفين و المجندين في الجيوش العثمانية بعدم الوقوف إلى جانب السلطنة خلال الحرب العالمية الأولى خاصة بعدما رفض حسين شريف مكة إعلان الجهاد المقدس من الأراضي المقدسة.

إن إعدام القافلة الأولى و الثانية من أحرار العرب دون محاكمة شرعية أكد لزعماء العرب عدم جدوى الرابطة التي تشدهم إلى الأتراك، و بالتالي فإن العصبية التورانية التي ركز عليها الاتحاديون لعبت دورا فعالا في إحياء العصبية العربية، و ما يأخذ على بعض رجال الحركة العربية القومية خاصة في لبنان تحالفها مع الدول الأوروبية جاهلين أن هذه الأخيرة هي البلد الأم للاستعمار و للصهيونية جند كل الوسائل و حتى الغير مشروعة من أجل تجسيد المشروع الصهيوني على أرض فلسطين.

¹ - رفيق التنشه، المرجع السابق، ص-ص 103-104.

² - ورنير أنده، "الوطنيون العرب و نشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى"، الأصالة، ع 52، الجزائر ديسمبر 1977، ص 53.

الفصل الخامس: أثر توتر العلاقات بين الخلافة العثمانية وبلاد الشام على المنطقتين:

المبحث الأول: عزل السلطان عبد الحميد الثاني وسقوط الخلافة العثمانية

المبحث الثاني : الثورة العربية الكبرى الإتفاقيات التي انعقدت خلالها

المبحث الثالث : الانتداب البريطاني و الفرنسي على بلاد الشام (سوريا لبنان فلسطين)

استنتاج جزئي

عملت المعارضة الداخلية لحكم السلطان عبد الحميد الثاني بمساعدة المحافل الدولية و جهود الدومنة على إعادة الحياة الدستورية أي المشروطية الثانية سنة 1908 كخطوة أولى، أما الخطوة الثانية هي عزل السلطان عبد الحميد الثاني و هذا ما تم فعلا سنة 1909 رغم استجابته لمطالب المعارضة.

لقد حدث تقارب عربي- عثماني لكن هذا التقارب لم يدم طويلا نظرا لسياسة الاتحاديين الاستبدادية التي عملت على تهميش العنصر العربي خاصة في بلاد الشام، و عندما فشلت الحركة العربية القومية في تحقيق مطالبها غيرت أسلوب نضالها من النضال السياسي إلى النضال المسلح خاصة أنها وجدت مساندة من طرف بريطانيا التي استغلت الفرصة و وجهت الحركة العربية حسب مصالحها، فاندلعت الثورة العربية الكبرى بقيادة حسين شريف مكة و التي شارك فيها عرب الحجاز و عرب الشام ضد الدولة العثمانية من أجل تكوين دولة عربية مستقلة يكون حسين شريف مكة ملكا عليها، و لكن اتفاقية سايكس بيكو و وعد بلفور حال دون تكوين هذه الدولة و ما حدث هو فرض الانتداب البريطاني و الفرنسي على بلاد الشام و العراق.

المبحث الاول: عزل السلطان عبد الحميد الثاني وسقوط الخلافة الاسلامية:

1- إعادة دستور 1876:

أسس جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية في إسطنبول سنة 1889 منظمة سرية تهدف إلى عزل السلطان عبد الحميد الثاني و يعتبر ابراهيم تيمو الألباني وراء هذا التشكيل، حيث بدأت عملها في جنيف عام 1891 ثم انتقلت إلى باريس، اتخذت لذلك طريق الجيش لنشر أفكارها، هذا ما دفع السلطان عبد الحميد الثاني، سنة 1894 إلى غلق جميع المحافل الماسونية باستثناء محافل سالانيك¹ لارتباطاتها الدولية مع دول و محافل أوروبا².

لقد لعب كل من محفل سالانيك "ماسيدونياريورتا" وكذلك محافل باريس و جنيف وفلورنسيا دورا هاما، فعن طريق تركيا الفتاة أصبحت المؤسسات الهامة بالدولة العثمانية و فئات كثيرة من البكتاشيين والضباط والوزراء و السفراء و الشعراء والكتاب والمحامين ينتسبون إلى هذه المحافل واعتنقوا الماسونية ولم يسلم منها حتى شيخ الإسلام موسى كاظم وخيري أفندي. وبالتالي توسع نشاط تركيا الفتاة داخل استانبول، رغم ملاحقة الشرطة السرية لهم وحتى موظفي القصر انضموا إلى الجمعية والكل يهدف إلى اسقاط السلطان

¹ - مدينة تقع في مقدونيا اليونانية، شرق اليونان على خليج سالانيك و هو مدخل على بحر إيجه و في سنة 1430 انتقلت إلى حكم الأتراك ثم إلى اليونان في 1912. أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، مجلد الثالث، المرجع السابق، ص 1293.

² - حسن الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، المرجع السابق، ص 287، 284.

عبد الحميد الثاني رغم ملاحظة الشرطة السرية لهم¹ منذ سنة 1900 و من هنا نستنتج أن عزل السلطان عبد الحميد الثاني كان مؤامرة تقاسمت أدوارها القوى الأوروبية و اليهودية الماسونية في محافلها التي استغلت الأقليات الدينية و العنصرية و الطائفية و زرعت الفوضى و لا أمان داخل الدولة العثمانية و ولاياتها في الداخل أما من الخارج فقد حاصروها بجيوشهم و أساطيلهم²، و في هذا الصدد يذكر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكرات: "بأن المنظمة في مناستر كانت تدار بواسطة الانجليز بينما أعضاء تركيا الفتاة في سالانيك³ كانوا تحت تأثير ماسون ألمانيا و إيطاليا، و قد بدأ أنور و نيازى تحت ضغط الماسون الألمان - مع جماعة سالانيك - بالتحرك ضدي ... و أن الاتحاديين في سالانيك كانوا يرون أن التحالف مع الانجليز ضرورة ملحة لأنها أكبر دولة بحرية ..."⁴ و يضيف السلطان أيضا : " و كما استغل الانجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة عن طريق المحافل الماسونية، بدأ الأمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم و عن طريق المحافل الماسونية أيضا و بهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة في سالونيك و سيطرة الانجليز على تشكيل تركيا الفتاة في مناستر، و كان الانجليز يثيرون علي اتحادي مناستر ، ويشير الألمان علي اتحادي سالونيك ، كانوا يعملون على قيام انقلاب للإستيلاء على الدولة من الداخل..."⁵.

أما الجمعيات التي تأسست داخل الدولة العثمانية وجدت صعوبات في ممارسة نشاطها نظرا لصرامة النظام الحميدي و اتقان عمل الجاسوسية، لكن بعد سنة 1905 وجدت جمعية الاتحاد و الترقى في كل من مناستر و قوصوه و سالانيكيئة ملائمة لممارسة عملها نظرا للمراقبة الدولية فيها⁶.

و في سنة 1906 بدأت الخلايا الثورية تنتشر في الجيش و يمكن أن تكون " جمعية الوطن والحرية " هي أولها و التي أسسها مجموعة من الضباط من بينهم مصطفى كمال أتاتورك في دمشق و التي أصبحت لها

¹-عبد الكريم مشهواني، المرجع السابق، ص31.

²-نفس المرجع، ص28.

³ - يرجع السبب في اختيار سالانيك مركزا لنشاطهم لأنها أكثر المناطق اتصالا بأوروبا و ضعف قبضة السلطان عبد الحميد الثاني عليها نسبيا، إلا أن نشاط قوميات البلقان دفع الدولة إلى حشد قوات عسكرية فيها تحت قيادة كبار الضباط و هو (الجيش العثماني الثالث)، نظرا لكثرة الاضطرابات في سالانيك أنشأت خمس دول أوروبية إدارة دولية لمتابعة الوضع و لذلك وجد الجيش الثالث العثماني نفسه في قلب دائرة التدخل الأجنبي. أنظر: مصطفى محمد رمضان، العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ج1، مطبعة الحيلوي، شبرا مصر ، ص14.

⁴-حسان حلاق، موقف الدولة من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص- ص 299-300.

⁵-سليمان بن صالح الخراشي، المرجع السابق ، ص25.

⁶-حسن الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 291.

فروعا في يافا و القدس و بيروت و العريش و تغلغت في صفوف الجيش الخامس¹، كما تألفت خلايا بين ضباط الجيش الثالث في سالونيك أهمها جمعية الحرية العثمانية و بما أن سالونيك أغلب سكانها أوروبيون وحوالي نصفها من يهود الدونمة² عجز السلطان عبد الحميد الثاني عن إيقاف انتشار الأفكار الثورية فيها وفي باقي أنحاء مقدونيا التي تتلقى الدعم المالي من يهود الدولة و هكذا استطاعت الحركة الثورية (جبهة الحركة العثمانية) في عقد اتصالات مع منظمات مسلمي البانيا، و في باريس اندمجت جميع الجمعيات في سبتمبر 1907 و اتخذت اسم جمعية باريس (لجنة الاتحاد و الترقى) هدفها عزل السلطان عبد الحميد الثاني و لو عن طريق العنف الثوري و إعادة الدستور، أما في داخل الامبراطورية تقرر تنظيم المقاومة عن طريق الإضرابات وعدم دفع الضرائب ونشر الدعاية وفي حالة فشل هذه الوسائل اللجوء إلى العنف الثوري³.

لقد قاد التنظيم السري في سالانيك طلعت باشا و انضم إليه بعض ضباط الجيش مثل المقدم جمال باشا والرائد فتحي بك وقائد الجناح نيازي بك القادمين من الشام⁴ ثم التجأت جمعية الاتحاد والترقي⁵ إلى إحداث اضطرابات وتوزيع المنشورات من أجل تهيئة الناس للثورة⁶، تذكر الأميرة عائشة أوغلي أن في مأدبة غداء التي دعى لها السلطان مجلس أعضاء المبعوثان ماييلي: "... وفي النهاية جاء يوم المأدبة الذي كنا

1- ما بين 1902-1906 انتشر فكر الشباب التركي داخل و خارج الدولة العثمانية نشطت مجموعات منه في سويسرا والقاهرة و في المدارس المدنية و العسكرية في استانبول و تكونت خلايا ثورية تضم ضباط و في 1906 أسس اسماعيل جمبلات مع مدحت سقروي الشركة Bursali Tahir تتكون جمعياتها العليا من عشرة أعضاء من بينهم مدير المدرسة العسكرية في سالونيك العثمانية للحرية و طلعت مسؤول رئيس مصلحة المراسلات إلى المديرية او الإدارة المحلية للبريد و التيلغراف، أنظر: حسين مجيب المصري، المرجع السابق، ص 57.

2- الدونمة لدى العثمانيين طائفة من اليهود ارتحلوا من اسبانيا إلى تركيا فارين من المحاكم التفتيش و ما نزل بهم من أذى و ما لاقوه من شذائد، ارتحلوا إلى ازميز و استقروا في سالانيك و أعلنت جماعة منهم أنها دخلت في الاسلام و لكن اسلا ما مشوبا ببعض عقائدهم الأصلية و أثناء تواجدهم في تركيا سيطروا على الحركة التجارية و الاقتصادية ، لهم جريدة تنشر أفكارهم و هي جريدة الوطن، و قد شاركوا مشاركة فعالة في حركة الانقلاب الدستوري و فيهم من يعدون أركانا في جمعية الاتحاد و الترقى، أنظر: Jean Paul Garnier, op.cit, p 89

3- عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص-ص 263-265.

4- جمال عبد الهادي وآخرون، المرجع السابق، ص 36.

5- نشط أعضاء تركيا الفتاة في العواصم الأوروبية و في القاهرة ضد حكم السلطان و اعتمدوا على إدخال الجرائد و المحلات سرا إلى البلاد كما تأسست جمعيات و منظمات سرية شبانية خاصة بين ضباط الجيش، و أكبرها قوة وتأثيرا جمعية الاتحاد و الترقى أنظر: مذكرات عائشة، المرجع السابق، ص 35.

6- إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص 209.

ننتظره جميعا " و جاءنا الخبر بوصول أعضاء المبعوثان إلى السراي مع بداية عزف الموسيقى، وكان والدي وهو يرتدي بزته الرسمية الكبيرة... قام أعضاء المجلس بتظاهرة رائعة، و لتفوا حول والدي، حتى أن أغلب المبعوثين العرب حاولوا تقبيل قدميه..." إلا أن الصحف التي صدرت في اليوم التالي حطمت آمالنا كان والدي يقرأ الصحف كل يوم و يقول: " هذه الصحف هي الصحف الانقلابية، و نهايتها ليست علامة خير، و هي ليست في الحقيقة إلا معركة لحاف أي معركة متفق عليها بين طرفين يستفيدان منها و يخسر الوسيط¹، علق العرب آماله على الثورة لتحقيق أهدافه القومية و بالتالي انتقل مركز الحركة القومية العربية إلى استانبول فتأسست هناك جمعية الإخاء العربي - العثماني التي أصبحت تحت حكم الاتحاديين² الذين قرروا تفجير الثورة في يوم ذكرى مقتل السلطان عبد العزيز أي 5 جوان 1908 إلا أن الظروف لم تكن مواتية لتفجيرها³.

كانت التقارير تصل إلى السلطان خاصة من سفيره في باريس عن نشاط السياسيين الأتراك المنفيين ، كما تصله كذلك تقارير تتعلق بقيام الحاميات التركية في سائر أنحاء مقدونيا بالانضمام إلى الثوار معلنة العصيان ضده و ضد الدولة و عن انضمام الفوج الأول إلى المتمردين الذي يتكون من جنود الأناضوليين المرسلين إلى مدينة سالونيك لإخماد الثورة⁴.

فالتالي فإن الجواسيس كانوا على علم بالمؤامرة إلا أنهم يجهلون مدى اتساع نطاقها، حيث استطاع أحد الجواسيس أن يعثر على إحدى خلايا لجنة الاتحاد و الترقى التي كان يرأسها نيازي بك الذي بدأ هو ورجاله على حرب العصابات من القرب من أوخريدا و موناستير و لذلك أرسل السلطان شمسي باشا ليتولى قيادة جيش مقدونيا و يتصدى للمتمردين إلا أنه قتل في موناستير على يد أحد أعضاء الاتحاد والترقى، وهكذا بدأت أعمال العصيان و التمرد المدني والعسكري ما بين 20-23 جويلية 1908⁵.

وفي هذه الفترة أرسل أعضاء اللجنة المركزية لحركة الاتحاد والترقى في مناستر إنذارا للسلطان يطلبون منه بوجوب إعادة الدستور عام 1876 خلال مدة لا تتجاوز 24 ساعة وإن رفض فإن الجيش الثاني والثالث

¹ - مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص-ص 229-230.

² - تاج السر احمد مروان، المرجع السابق، ص 617.

³ - حسن الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 294.

⁴ - وديع ابوزيدون ، تاريخ الامبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط ، ط 1 ، الاهلية للنشر والتوزيع، الاردن، 2003، ص-ص 306-309.

⁵ - عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 268.

سوف يزحفان إلى العاصمة و يسيطران على السلطة¹، كما أرسل الدستوريون في 22، 21، 23 جويلية تلغرافات إلى الصدر الأعظم من سالونيك ، و مناستر ، أسكوب و سيرسي يطلبون منه إعادة الدستور². اعتمد الاتحاديون على الفيلقين الثاني و الثالث المعسكرين في ولايات مناستير و سالونيك و كوسوفو وبالفيلق الرابع المعسكر في أرضروم، و في 23 جويلية 1908 تمرد الجيش الثالث في سالونيك بقيادة أحمد نيازي³ فسيطروا على مراكز البريد و طالب السلطان بإعادة العمل بالدستور و أجبروا السلطان على إقالة الوزارة و تعيين جمال الدين شيخ الإسلام، ثم أطلق الانقلابيون سراح المساجين⁴، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني تدارك الأمر فعين سعيد باشا صدرا أعظم بأمر سلطانيا من أجل إعادة الدستور⁵ و قرر إجراء الانتخابات و رفع الرقابة على المطبوعات و الصحف⁶. و في 17 ديسمبر 1908 افتتح السلطان العثماني مجلس المبعوثان فأبرقت له جمعية الاتحاد و الترقى برقية تعرب له عن شكرها لاقدامه على افتتاح مجلس الأمة العثماني وكان رد السلطان العثماني هو توجيه التحية السلطانية إلى جميع أعضاء الجمعية⁷ وهكذا وضع السلطان حدا و بصورة سلمية للثورة التي خطط لها الضباط الأحرار⁸. يعتبر الاستاذ الدكتور جاهد طانيول " أن مشروطية 1908 غيرت مفهوم السلطة السياسية التقليدية في تركيا و هو مسألة اتفاق الجيش مع السلطة السياسية، لم يستعمل السلاطين في أي وقت من الأوقات القوة العسكرية في السياسة الداخلية كان هذا من اختراع الاتحاديين... و لذا فان المشروطية الثانية، في تاريخنا السياسي من ناحية السيطرة على السلطة، هي حملة رجعية استبدادية، حيث أن استبداد الزمرة حل محل الاستبداد الفردي و هذا أشد خطرا من الوضع الأول لأنه جعل المسؤولية بشكل مائع لا يمكن تحديده".

¹-وديع ابوزيدون، المرجع السابق، ص- 309.

²-محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العليا العثمانية، تحقيق احسان حقي، ط1 ، دار النفائس ، بيروت ، 1981، ص744.

³-محمد سهيل طقوش، المرجع السابق ، ص534.

⁴-جمال عبد الهادي و آخرون، المرجع السابق، ص 36.

⁵ - توقع الكثيرون بعد الدعاية للدستور أن عودته ستؤدي إلى حل كل المشاكل التي تعاني منها الدولة العثمانية خلال حكم السلطان عبد الحميد الثاني الذي وصف بالحكم المستبد، و لكن ما إن تحقق الهدف - إعلان الدستور - حتى ظهرت تناقضات بين برامج المجموعات القومية ثم تطورت إلى خلافات و نزاعات. أنظر: محمد العريس، المرجع السابق، ص 269.

⁶-إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص 209.

⁷-علي معطي، المرجع السابق، ص41.

⁸-وديع ابو زيدون، المرجع السابق، ص309.

لقد شارك في الانقلاب الدستوري عدد كبير من الموظفين المدنيين و العسكريين و تقبلها الرأي العام في جميع الولايات¹ و في هذا الصدد يذكر السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته: "الشيء الوحيد الذي استطاعوا تحقيقه، هو بذر الشقاق و العصيان في البلاد و بين صفوف الجيش دون أن يدروا أنهم يعملون لحساب انجلترا التي تذرعت بنشر الأفكار التحررية في إمبراطوريتنا بغية إضعاف قدرتنا و أشد ما يؤمني أن يقوم هؤلاء المصللون من الأتراك بالتعاون مع اليونانيين و البلغار في سبيل إزاحة المستبد عن الحكم"² و يضيف السلطان أنه "لو تمكنوا من إدارة تركيا مدة عشرة سنين فليفرحوا بانهم قاموا بإدارتها عصرا واحدا"³. إن الانقلاب الدستوري الذي قام به الاتحاديون كان ضد السلطة الدينية التي يمثلها السلطان عبد الحميد الثاني ، تجمعت عناصرها في الداخل و الخارج و انتقلت إلى الداخل بقيادة الجيش الذي تأثر بالأفكار القومية مع أن الجيش من المفروض أن يكون دوره حماية الوطن من العدو وتوفير الأمن والاستقرار⁴.

2- عزل السلطان وردود الفعل:

رغم الإعلان عن الدستور إلا أن يهود الدوغة مارسوا ضغطا سياسيا و اقتصاديا على الأتراك وحثوا الناس على المظاهرات، لأن هدفهم هو الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني ولكي تسيطر الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم ضغطوا على السلطان من أجل إقصاء الذين اشتهروا من النظام القديم من مجلس المبعوثان و في هذا السياق يذكر لوثر السفير البريطاني في استانبول: "إن ثورة الاتحاديين ثورة يهودية أكثر منها تركية"⁵. بينما يرى رامزور أن ثورة تركيا الفتاة مشروعا تركيا استهدف الإطاحة بنظام عبد الحميد الثاني لكي تحل محله حكومة قوية تتصدى للتدخل الأجنبي و تصلح الأوضاع السائدة⁶.

وفي 10 فيفري 1909 شاع خبر أن الصدر الأعظم عزل رضا باشا ناضر الحرية وعارف باشا ناضر البحرية تفاديا لمؤامرة قد تحدث ضد السلطان، هذا الإجراء اعتبره كل من شيخ الإسلام مع ناظري الداخلية والعدلية ورئيس مجلس الشورى غير قانوني فقدموا استقالتهم، غير أن الشعب اعتقد أن هذا

¹- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 536.

²- عبد الكريم مشهدي، المرجع السابق، ص 33.

³- يلماز، أوزتونا، المرجع السابق، ص 190.

⁴- حسان حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق ، ص 308.

⁵- حسان حلاق ، نفس المرجع ، ص - ص 309-310.

⁶- أرنست رامزور، المرجع السابق، ص 159 .

الاجراء حماية للسلطان ضد المؤامرة قد تدبرها جمعية الاتحاد والترقي¹ التي اتفق أعضاؤها على منع السلطان من التدخل في شؤون البلاد، بمساعدة خارجية أحدثت حركة تطهير واسعة في الإدارة مست خاصة العناصر الموالية للسلطان عبد الحميد، أدى ذلك إلى قيام حركة مضادة ضدهم بزعامة حزب الاتحاد الحر و حركة الإخوة المحمدية² أو (جمعية الاتحاد الحميدي)³، برئاسة درويش وحدي و هي جمعية دينية سياسية مناهضة لجمعية الاتحاد و الترقي وأول عمل قامت به هو تقديم عريضة إلى مجلس النواب العثماني وقع عليها عدد من العلماء والأهالي تطالب فيها بتطبيق القوانين الشرعية في المحاكم والإدارات⁴، واختارت المولد النبوي موعدا للإعلان عن برنامجها لمواجهة الاتحاديين العلمانيين ، رافق ذلك ما بين 12_13 أبريل 1909 مظاهرات في العاصمة شاركت فيها مختلف طبقات المجتمع من علماء، رجال دين، دراويش، طلبة، عسكريين.... الخ نادوا جميعا بإلغاء المشروطية، لم تنو الحركة المضادة العودة إلى نظام الحكم القديم بل كانت ضد سلوكيات وممارسات جمعية الاتحاد والترقي الاستبدادية⁵. إلا أن المؤامرة لم تنته بعد حيث استغل بعض قادة الانقلاب ورؤساء المصالح الحكومية الوضع وقرروا على نشر الفوضى تمهيدا لانقلاب عسكري آخر يطيح بالسلطان عبد الحميد الثاني وفي الوقت نفسه عملت الجرائد على الطعن في شخصيته فتحركت الفصائل العسكرية لتنظيم الاتحاد والترقي تجاه العاصمة لتنفيذ الجزء الثاني من المؤامرة⁶. لقد نشرت بعض الصحف التركية أن هناك مؤامرة تديرها جمعية الاتحاد والترقي لعزل السلطان عبد الحميد الثاني فثار جنود حامية القسطنطينية على ضباطهم الأحرار واقتحم فريق منهم نادي الاتحاديين في استانبول وخربوا بعض صحفهم وقتلوا بعض أنصارهم منهم الأمير محمد أرسلان مبعوث اللاذقية وناظم باشا وزير العدلية آنذاك، بينما حطم الآخرون مقاعد دار البرلمان واعتدوا على نواب من جمعية الاتحاد والترقي كما حاصروا الباب العالي وطلبوا من السلطان عزل أنصار الاتحاديين من مراكز المسؤولية وإسقاط

¹ - و هي اضطرابات 31 مارت حادثة 31 مارس التاريخ الرومي 13 نيسان (ابريل) من التقويم الميلادي ولذلك عرفت بهذا الاسم. أنظر: مذكرات عائشة ، المرجع السابق ، ص 231.

² - أسس السلطان بعد اعلانه للدستور جمعية سرية باسم الجمعية المحمدية، تتكون من الأشراف و العلماء تهدف إلى تطبيق الشريعة و المساواة، فانضم إليها الكثير من جميع الولايات التركية، نظمت مظاهرات كبيرة في عيد المولد النبوي الشريف أمام الباب العالي و مجلس المبعوثان طالبين إجراء حصول الشريعة " و لقد خلفت هذه الحادثة مظاهر الخوف و الاضطراب في استانبول. أنظر : حضرة عزتو يوسف بك آصاف، المرجع السابق، ص -ص 137-138.

³ - وديع ابوزيدون، المرجع السابق، ص 310.

⁴ - علي معطي، المرجع السابق، ص-ص 42-43.

⁵ - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 538.

⁶ - جمال عبد الهادي و آخرون، المرجع السابق، ص 37.

الحكومة الجديدة و إلغاء المشروطة و إعلان الشريعة الإسلامية و العفو عن الثائري ثم امتدت الثورة إلى الولايات و الألوية الشرقية والغربية خاصة إلى حلب وأرضروم و ديار بكر و أضنة و في بيروت قام بعض الثوار و المشايخ بالهجوم على النادي الاتحادي وأحدثوا فيه اضطرابا ، هذا الانتصار أجبر زعماء الاتحاديين إلى مغادرة العاصمة و الرجوع إلى معاقلهم الأولى في سلانيك¹، كما قصد مجموعة من الجنود ميدان جامع آيا صوفيا لعرض مطالبهم على مجلس الأمة و كان رد الحكومة هو إرسال فصيلة من الجنود لصددهم لكن الفريقان اقتتلا و هكذا أصبحت الأستانة مضطربة و عطلت جميع المرافق الضرورية².

لم تنجح للحركة المضادة في تحقيق هدفها فقد استغل كل من اليهود و الاتحاديين هذه الحركة رغم أنها كانت ضدهم في دفع المشكلة نحو التأزم أكثر عن طريق قتل المواطنين في الشوارع العاصمة فقط، أما الولايات المقدونية فقد بقيت على ولائها للنظام الجديد كما حرك الاتحاديون جيش سالونيك³، وامام تطور الأحداث حاول السلطان تهدئة الأمة وتكذيب الإشاعات، وأمر بعدم مقاومة الجيش الثالث الذي وصل من الرومللي⁴، في حين قدم حسين حلمي باشا استقالة حكومته إلى السلطان وأحمد رضا من مجلس المبعوثان، و لما تألفت حكومة جديدة برئاسة توفيق باشا أرسلت جمعية الاتحاد والترقي⁵ جيشا

¹ -علي معطي ، المرجع السابق ، ص44.

² -حضرة عزتلو يوسف بك آصاف، المرجع السابق، ص138.

³ -محمدسهيل طقوش، المرجع السابق، ص541.

⁴ -جمال عبد الهادي وآخرون، المرجع السابق، ص38.

⁵ - يذكر المؤرخ ابن الأمينحو المعاصر لهذه الحادثة : " في الحادي عشر من ابريل 1909 أصدر الضباط الأحرار أوامرههم إلى جميع الجنود بأن لايتصلوا برجال الدين،و أنه لاسلطان على أحد غير الله، و أن السلطان و الأهالي في قبضة جمعية الاتحاد والترقي، فلما علم بذلك بعض الاشخاص توجهوا للباب العالي و سألوا الصدر الأعظم حسين حلمي باشا عنذلك، و اقترحوا عليه سحب هذه الأوامر، وفي صباح 31 مارت 13 ابريل تجمعت كتائب القناصة في ميدان آيا صوفيا، و راحوا يتصايحون ويطلقون النار في الهواء و يرددون نريد الشريعة... لا نريد الصدر الأعظم حسين حلمي باشا، و رئيس مجلس المبعوثان احمد رضا بك، و عزل ناظري الحرية و البحرية و عند المساء أرسل إليهم السلطان باش كاتبا لما بين جواد بيك ليبلغهم أنه تم تغيير الصدر الاعظم و ناظر الحرية، و صدور العفو عنهم وكانت النتيجة أن تفرقت جموعهم.

و في 24 أبريل وصل من سلانيك "جيش الحركة" الذي تكون من وحدات مختلفة بقيادة الفريق الأول محمود شوكت باشا، ثم احتل استانبول و أعلنت الأحكام العرفية و أقيمت المحاكم العسكرية، و تم إعدام عدة أشخاص من الجنود والأهالي وكبار الشخصيات ممن لهم علاقة بالحادثة المذكورة غير أن جمعية الاتحاد و الترقي رأت أن تلقي مسؤولية الحادثة على السلطان عبد الحميد الثاني و تستغل ذلك في خلعه عن الحكم، في حين أن السلطان لم يكن له يد في الحادثة لا من قريب أو من بعيد".
أنظر: مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، صص 36_37.

بقيادة محمود شوكت العراقي¹ و برفقة نيازي بيك و أنور باشا من سالونيك إلى استانبول يوم 23 أبريل 1909² و بعد المعركة استسلمت حامية يلدز، ثم أطلقت القنابل على حامية الباب العالي و النادي العسكري واستولت عليهما و ألقى القبض على أنصار الحكم القديم و أعدم الجواسيس ثم حاصر الجنود الدستوريين قشلاقات اسكودار فاستولوا عليها³، في 24 أبريل 1909 اضطر السلطان مقاومة الاتحاديين فأطلقت المدافع من قصر يلدز الذي حصر ثم أمر قومندان الاحتلال إلى جواد بيك قائد جنود يلدز بالتسليم⁴، وهكذا أمر السلطان عبد الحميد الثاني برفع علم التسليم فوق السراي و التي رفعها جركس محمد علي بك فوق جوسق التعليمخانة⁵.

في 25 أبريل سيطر محمود شوكت باشا على الوضع و أعلن الإدارة العرفية و أعدم الكثير كما دخلت العصابات البلقانية إلى قصر يلدز و نهب ما هو ثمين .

دعا محمود شوكت مجلس النواب و الأعيان "المجلس الوطني العام" ترأس مجلس النواب سعيد باشا (الصدر الأعظم السابق)، و شرع طلعت بك في إعدام المتريدين على خلع السلطان، ورغم ذلك رفض المفتي الأكبر التوقيع عل فتوى الخلع، لأن طلعت بك كان قد صرح بعدم وجود علاقة بين السلطان والأحداث، إلا أن السلطان اتهم بتدبير أحداث 31 مارت أنه أحرق الكتب الدينية وحرص المسلمين على قتل بعضهم البعض... الخ⁶. في 27 أبريل اجتمع أعضاء المبعوثان و الأعيان في جمعية وطنية بسان ستيفانون وقرروا خلع السلطان عبد الحميد الثاني على أساس فتوى من شيخ الإسلام⁷. يذكر جواد رفعت أتلخان قائد الجيش التركي بأن اليهود هم الذين خلقوا التمرد من أجل الوصول إلى السلطان وخلعه، ويؤكد ذلك زاهد باشا الهبل في دمشق حيث يقول: "أن السلطان عبد الحميد عندما علم بعصيان جيش سالانيك وتقدمه نحو العاصمة لم يأمر جنده بالمقاومة، ولكن أمر القوى في القصر استأذن السلطان لضرب العصاة والمقاومة منعه ثم عاوده القول يريد إذنه بالدفاع فقال له ولقوى القصر: "أعرف جيدا أن كل ما يرمون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص واحد، فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط قتلى منكم ومنهم، وأنتم

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص44.

²-موفق بن المرجة، المرجع السابق، ص 299.

³-محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 702 وما بعدها.

⁴-حضرة عزتلو يوسف آصاف، المرجع السابق، ص 138.

⁵-مذكرات عائشة عثمان أوغلي، المرجع السابق، ص 234

⁶-يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص184

⁷-موفق بن المرجة، المرجع السابق، ص 299.

جميعاً أفراد من هذه الأمة و الأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد¹. كما طلب جنرالات الجيش الأول من السلطان منع المتمردين من الدخول إلى استانبول. لكن السلطان رفض ذلك وأمر قائد الجيش الأول ناظم باشا وبقيّة الجنرالات بعدم استعمال القوة².

كان بوسع السلطان عبد الحميد أثناء حركة الانقلاب ضده من سالونيك أن يأمر جنود الجيش الخاصة³ خاصة أنهم مخلصين لمقام الخلافة بإيقاف جيش الحركة في الطريق لكن السلطان فضل حقن دماء المسلمين و في هذا الصدد يذكر في مذكراته: "لم أحب أن أريق دماء جنودي كنت أرى أن الأمة لم تعد تثق بي، وكنت سأنسحب من تلقاء نفسي و أدع مكاني عندما تسكن الأمور و تهدأ"⁴.

لم تأت المشروطة الثانية بديمقراطية حقيقية حيث تحولت إلى حزب واحد فهي تحوي كل العناصر التي تمزق الإمبراطورية و وحدتها الوطنية ، لو أن المشروطة الثانية كانت نتيجة حركة شعبية⁵ لاعتبرت خطوة نحو الديمقراطية الحقيقية لأن جمعية الاتحاد و الترقى همش بقية الأحزاب، و عزلوا كل موظفي الدولة غير الاتحاديين و لم يكن من السهل تصفيف جهاز الدولة لأن الاتحاديين لا يمتلكون كوادراً لملاً الفراغ ولا شخصيات كثيرة و بالتالي كانوا مضطرين للبقاء وراء عبد الحميد الثاني⁶.

لقد رفض السلطان إثر خلعه على العرش العودة إلى الحكم من خلال الثورة المضادة إما لأنه لم يكن يثق في نجاحها أو انه كما قال لعزت الذي عرض عليه الأمر: "لقد أصبحت شيخاً هرمًا يا عزت ولكن طالما أنا على قيد الحياة، لا أقبل إطلاقاً بأن يقال عني أنني كنت السبب في حرب أهلية، أما أنت يا عزت فإنك ما زلت شاباً، والعالم مفتوح أمامك"⁷، في الوقت الذي كان فيه "طاش قشلة" يقصفون

¹ بلماز، أوزنونا، تاريخ الدولة ، المرجع السابق ، ص- ص 180-183.

² -حسن الحلاق، موقف الدولة من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 319.

³ -وكان العائق الأكبر الوحيد للاتحاديين لإسقاط عبد الحميد هو الجيش الأول المتمركز في إستانبول، هذا الجيش كان مخلصاً للسلطان و هو ضد الجيش الثالث. فجمع الاتحاديون القوات من سالونيك و نقلت إلى استانبول سميت هذه القوة ب " حركة أوردوسي " أي جيش الحركة و الجيش الثالث يحتوي على أكثر عدد من العصابات تسمى بالمتطوعين (البلغارية- الصربية- اليونانية- المكدونية الألبانية) تولى قيادتها شوكت باشا. أنظر: يلماز، أوزنونا، المرجع السابق ، ص 182

⁴ -مصطفى حلمي، المرجع السابق، ص 70 .

⁵ -حقيقة إن الاتحاديين كانوا آلة بيد الانجليز ويعتبر إسقاط عبد الحميد الثاني هو الخطوة الحقيقية لتمزيق الخلافة والإمبراطورية ولذلك تعتبر حركة (31 مارت) رجعية لم تصدر عن الشعب. أنظر: يلماز، أوزنونا، المرجع السابق ، ص 182

⁶ - نفس المرجع ، ص 175

⁷ -رفيق شاكر التشه، المرجع السابق ، ص 59 .

بالمدافع كان سفير روسيا قد حضر إلى المابين الهمايوني قبل الحصار وعرض على السلطان مساعدة القيصر له، ولما عرض جواد بك الأمر على السلطان عبد الحميد الثاني أجابه السلطان بقوله: "أترى عرض القيصر يا جواد بك؟ لا قدر الله لي أنأفعل شيئاً من مثل ذلك، إني راض بكل مصيبة تأتي على راسي، ولسوف يكون قبوري حيثما وجد قبر أجداد يأنني أفضل الموت على هذه الإهانة".

ثم قال لجودت: "بلغ السفير شكري على تحيات جلالته القيصر، و أني لست مريضاً كما سمع هو، و بلغه أيضاً أنني أشكره على المودة التي أبان عنها"¹.

بعد أن ضغط الانقلابيون على مفتي الإسلام محمد ضياء لإصدار فتوى بخلع السلطان، أرسلوا وفداً إلى قصر يلدز² فتقدم جودت بك من السلطان وأخبره بأن هيئة من "المجلس الوطني" وصلت وتضم أربعة أشخاص وهم أسعد طوبتاني الأرناؤوطي، وعارف حكمت باشا الآط، والآرمي آرام أفندي، واليهودي قراصوا أفندي³، قرأ عارف حكمت باشا صورة الفتوى فأجابه السلطان عبد الحميد الثاني قائلاً: "لقد عملت ثلاثة وثلاثين عاماً من أجل الأمة والدولة ومن أجل سلامة البلاد وخدمت قدر طاقتي، إني حاكم يحاكمني الله ورسوله وإني أسلم البلاد بمثل ما وجدتها عليه ولم أفرط أبداً في شبر من أرضها لأحد وأترك الله وحده عز وجل أمر تقدير خدامتي، وما حيلتي إن شاء أعدائي إسدال ستار أسود على كل خدامتي"⁴.

إن النفوذ اليهودي الصهيوني في حركة الانقلاب كان واضحاً لأن الأشخاص الأربعة الذين انتدبوا لإبلاغ السلطان قرار خلعه لم يكن هناك رجل واحد من أصل تركي صرف باستثناء رئيسهم الجنرال أسعد فقد كانوا أعضاء نافذين في الاتحاد والترقي وكان قراصوا اليهودي هو الذي سلم السلطان وثيقة التنازل والتي تحققت بها رؤية السلطان الذي رفض التنازل عن أي جزء من فلسطين⁵ وفي هذا الصدد يذكر

¹ -مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص 232_235

² -محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 542.

³ -إيمانويل قراصوا يهودي إسباني من الأوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة عمل على إثارة الشعب و التحريض ضد السلطان عبد الحميد الثاني، هو محام عينته جمعية الاتحاد والترقي في المجلس النيابي العثماني نائباً عن سالنيك مرة و عن استانبول مرتين، لعب دوراً فعالاً في احتلال إيطاليا للبيبا مقابل مبلغ من المال دفعته له إيطاليا، و كان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الأستاذ الأعظم لمخفل مقدونيا ريزولتا الماسوني، توفي عام 1934 بعد أن تحصل على حق المواطنة الإيطالية. أنظر: علي محمد الصلاحي، الدولة العثمانية عوامل النهوض و أسباب السقوط، المرجع السابق، ص 461.

⁴ -وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص 313.

⁵ -رفيق شاكر النتشه، المرجع السابق، ص 139.

الدكتور محمد حسين: "إن خلع السلطان عبد الحميد كان جزءاً من مؤامرة اليهود لاغتصاب فلسطين، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بانحلال الإمبراطورية العثمانية. و ليس بين المؤامرة التي انتهت بسقوط عبد الحميد و بين صدور وعد بلفور إلا تسع سنوات و قد شوه اليهود سيرة عبد الحميد و شنعوا به ... مع أن الرجل كان يقاوم النظم النيابية لأن الداعين إليها كانوا مجموعة من ملاحدة ..."¹.

و من أجل تنفيذ المؤامرة أعطى قراصوه أربعمئة ألف ليرة ذهبية قبضها من البنك الايطالي وسلمها لثري اسمه نجيب دراغا الذي أعطاها لأيوب صبري أحد أعضاء الاتحاد والترقي لصرفها على أحداث مجزرة 31 مارت و في هذا الصدد يذكر قراصوه: "إن الاتحاديين نفذوا بأربعمئة ألف ليرة إنجليزية ما لم ينفذه عبد الحميد بخمسة ملايين"².

وفي هذه الفترة خيم على السراي ظلام حقيقي وقطع التيار الكهربائي والمياه و لم يبق في السراي سوى النساء تحت الحصار وأصوات المدافع ومع هذا كان السلطان هادئاً وكانت رغبته التي أدلى بها لعارف حكمت أن يخصصوا له " سراي جراغان " يقضي فيه بقية أيامه ،اصطحب السلطان عبد الحميد الثاني بعد نفيه أربعاً وعشرين شخصا (حريمه، بناته، أبنائه، الخزينة دارات، المصاحبون، العمال، الخدمة)³.

سجن السلطان في سالانيك لأنها المركز اليهودي الدونمي الماسوني - الاتحادي - الدولي في أفريل 1909 في فيلا إلاتيني alatini ملك لأحد اليهود الأغنياء في جمعية الاتحاد والترقي، وعين شفيق رمزي بيه الماسوني حارسا عليه وتولى جاويد بيك في فيلا ألاتيني - باسم الحكومة التركية - كل الأمور المتعلقة بالسلطان ، لم يعامل السلطان معاملة حسنة خاصة بعد نقله إلى قصر بكلربكي حيث منع عنه الزوار⁴.

خلال الحرب العالمية الأولى تم نقله إلى قصر بيلراي أقام فيه حتى وفاته في 10 فيفري 1918 إثر نزيف داخلي عن عمر يناهز الثامن والسبعين ، دفن في احتفال رسمي إلى جانب جده السلطان محمود الثاني.

بدأ السلطان في كتابة مذكراته في قصر بيلري باستانبول خلال الحرب العالمية الأولى⁵.

بعد عزل السلطان اندلعت حركة معارضة ضد الاتحاديين خاصة في المناطق الإسلامية منها ألبانيا و في هذا الصدد أوردت الخبر نهضة العرب نقلا عن صحيفة غازيت دي فرانك فورت ما يلي: " بأن الهياج في

¹-جمال عبد الهادي و آخرون، المرجع السابق، ص ، ص 114، 124 .

²-موفق بن المرجة، المرجع السابق، ص 228 .

³-مذكرات عائشة عثمان اوغلي، المرجع السابق، ص 237. وما بعدها

⁴-حسن الحلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، المرجع السابق، ص 319

⁵-موفق بن المرجة، المرجع السابق، ص، ص 85 ، 100 .

ألبانيا على أشده بين مسلميها منذ بضعة أيام ويتساءلون ... ما الذي دعا إلى كل هذه الحركة ويطلبون معرفة الأسباب الشرعية التي خولت فتیان الترك خلع السلطان عبد الحميد، غير راضين عن عمل شوكت باشا والجيش المقدوني ويخشى أن يكون تصرف أصحاب الاتحاد والترقي تمهيدا لنكبة في الإسلام". ولذلك أرسل شوكت باشا إلى جمعيات سلانيك يأمرها أن ينصحوا المسلمين الخضوع لأوامر الحكومة الدستورية وأن لا يظهروا الاعتراض على جلوس محمد الخامس¹، وحتى الصحف الأوربية المعادية للمسلمين تحدثت عن شخصية عبد الحميد حين قالت جريدة أزرور أن خلع السلطان عبد الحميد الثاني سيؤثر على موازين القوى وعلى السياسة العالمية لأنه أقام علاقات مع الدول الأوروبية بطريقة تخدم مصالح بلاده ولذلك استطاع أن يحمي دولته من أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية التي خططت لتقسيم أملاك الدولة².

قد شهدت بعض المناطق في بلاد الشام حركة معارضة كاللاذقية، بسوريا وفلسطين ، حيث يذكر القنصل البريطاني في القدس بلاش blesh أن أنباء عزل السلطان عبد الحميد الثاني لم يقابله عامة الشعب بحماس رغم أن احتفالات أقيمت في بعض أنحاء فلسطين عندما عين محمد الخامس، و في لبنان يذكر البطريك الماروني الياس لحويكما يلي: " لقد عاش لبنان وعاشت طائفتنا المارونية بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، و لا نعرف ماذا تخبئ لنا الأيام من بعده"³.

رغم اختلاف أهداف الحركة العربية عن أهداف تركيا الفتاة إلا أنهما يشتركان في هدف واحد هو كراهية حكم السلطان عبد الحميد الثاني لأن العرب المنظمين في هذا الحزب معظمهم من ضباط الجيش وتعاونوا مع قادته بوصفهم مواطنين عثمانيين لا بوصفهم عربا قوميين.

إن عودة دستور الذي هلك له العرب القوميون لا يتفق مع آمالهم القومية بما أنه يهدف إلى صهر الأجناس المختلفة في بوتقة واحدة تكون فيها اللغة التركية هي اللغة الرسمية ، وفي ظل التفاهم العربي التركي أنشئت أول جمعية باسم جمعية الاخاء العربي التركي وكانت عضويتها لجميع العرب على اختلاف أديانهم⁴.

نشرت المنار ما سجلته جريدة دين و معيشت التي تصدر في روسيا (أورنبورغ) عن موقف البلاد كما نشرت المنار الإسلامية من عزل السلطان عبد الحميد الثاني: " انهزم العثمانيون لأنهم استوجبوا غضب الله

¹-علي محمد صلابي، المرجع السابق، ص 320 .

²-أنور الجندي، المرجع السابق، ص 219.

³-حسن الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، المرجع السابق، ص 321 .

⁴- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص، ص 176، 188.

تعالى فلم ينصرهم و ذلك أنهم خلعوا سلطانهم الذي خدمهم ثلاثة و ثلاثين سنة خدمة جلييلة و أنهم لم يعرفوا قدره بل عزلوه عن منصبه و أسقطوه عن عرشه و مزقوه عن تاجه فإن الله حرمهم من الأراضي والأودية كلها و تركهم أذلاء في العالم الإسلامي، كان في مقدمة هؤلاء الناس الذين بغوا على السلطان عبد الحميد أنور بيك و نيازي بيك اللذان هما قدم شؤم، أحدهما قدم من بلاد الأرناؤوط و ذهبت تلك البلاد و ثانيهما قدم من طرابلس الغرب فذهبت إلى الطليان"¹.

لقد كشف بعض زعماء الانقلاب عن اعترافهم بأنهم وقعوا خديعة الحركة الصهيونية والتآمر الاستعماري فأنور باشا الذي لعب دورا أساسيا في الانقلاب على الخلافة يقول في حديث له مع جمال باشا²: " أتعرف يا جمال ما ذنبنا ، وبعد تحسر عميق قال : نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية".

وهذا ما تؤكدته الرسالة التي أرسلها السلطان عبد الحميد الثاني إلى الشيخ محمود أبو الشامات في دمشق يشرح له فيها أسباب ثورة 1908 وأسباب خلعه عام 1909³.

صورت أجهزة الإعلام الغربية الأوروبية السلطان عبد الحميد الثاني بأنه: "السلطان الأحمر الديكتاتور، الظالم، الجاهل، مصاص الدماء، عنوان الجهل والتخلف". واتهمته ظلما مسؤولية تدمير الدولة العثمانية، والحقيقة كانت عكس ذلك حيث كتب عنه جون هاسلب في كتابه السلطان الأحمر - عبد الحميد - مايلي: "لقد استقبل مجيء السلطان عبد الحميد باحترام بالغ من الدول الكبيرة لجديته، و عدم انغماسه بالترف والملذات وتمضيته أكثر أوقاته في رفع شأن الدولة والقيام بالإصلاحات الأساسية، على الصعيد الاقتصادي والعسكري". لكن موقف الدول الأوروبية تغير، حيث أصبحت تترصد به وتفتعل له المشاكل من أجل التخلص منه نظرا لصرامته و موقفه من الحركة الصهيونية ومن الأطماع الاستعمارية⁴.

مهما يكن فإن كان عزل السلطان عبد الحميد الثاني هو النهاية الحقيقية للدولة العثمانية وتمهيدا لإسقاط الخلافة الإسلامية والخلاص من شعار الجامعة الإسلامية ومن شبح الجهاد الذي كان يقض

¹ -أنور الجندي، تاريخ الصحافة الإسلامية، المرجع السابق، ص222.

² - لقد قدم عدد من النواب بعد انتهاء الحرب مذكرة إلى رئاسة الوزراء طلبوا منها محاكمة جمال باشا على الجرائم التي ارتكبها في هذه بلاد الشام و في لبنان استصدرت النيابة العامة الاستثنائية في بيروت في 26 مارس 1919 " مذكرات إحضار بحق احمد جمال باشا، وعزمي بك، و علي منيف بك." أنظر: علي معطي ، المرجع السابق ، ص293.

³ -رفيق شاعر التنشيه، المرجع السابق، ص- ص222-128.

⁴ رفيق شاعر التنشيه، نفسه، ص49.

مضاجع الدول الأوروبية المسيحية و اليهود.¹ وأن تولي السلطان محمد رشاد 1918-1922 بمثابة الإعلان القانوني عن نشوء تركيا الحديثة العلمانية.²

لو بقيت الخلافة العثمانية رغم ضعف أجهزتها لما أمكن قيام وطن يهودي في فلسطين ولذلك عمل اليهود على تعكير وتسليط بريطانيا على تركيا خلال الحرب العالمية الأولى وعمل وايزمان على إجهاض الصلح الذي قررت بريطانيا عقده مع تركيا خلال الحرب، ولهم النصيب الأكبر أي اليهود في إلغاء الخلافة خاصة أن من بين الداعين إلى الجامعة الطورانية يهود الدونمة في سالانيك وذلك لقطع الصلة بين العرب والأترك.³

و بعد انهزام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى اعتمد مصطفى كمال أتاتورك⁴ على الإدارة لأنها تمثل الشرعية و بواسطتها استطاع أن يحول الخلافة العثمانية الإسلامية إلى تركيا العلمانية المتأورية.⁵ تولى السلطان عبد الحميد الثاني العرش في أصعب مرحلة عرفتتها الدولة العثمانية داخليا و خارجيا ومن الحجود إنكار الاصلاحات التي أنجزها السلطان طيلة ثلاثة و ثلاثين سنة ، كما أنه حافظ على سلامة الدولة العثمانية التي كانت تترص بها جاراتها القوية و الطامعة في تفكيكها ثم تقسيمها فيما بينها، وما الثورة التي شنها الاتحاديون ضده بداية بإعادة الحياة الدستورية (المشروطية) ثم العمل على عزله لأنه مستبد إلا ضريعة لاسقاطه، لأن الثورة خطط لها يهود الدونمة في المحافل الماسونية وبمساعدة الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا و بالتالي فإن المشروطية الثانية كانت أكثر استبدادا من استبداده لأنها لم تشرك طبقات المجتمع ككل في وضعها، فالديموقراطية التي تغني بها الاتحاديون لم تكن ديموقراطية حقيقية لأنها لا تعبر عن إرادة الشعب من جهة و إقحام الجيش في السياسة في حد ذاته يتناقض مع مبادئ الديموقراطية.

¹-موفق بني المرجة، المرجع السابق ، ص 274

²-حسان حلاق ، تاريخ الشعوب الإسلامية الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ص 41

³-محمد خليفة التونسي ، بروتوكولاتحكماء صهيون ، المرجع السابق، ص 86

⁴-ولد في 1881 بمدينة سالونيك اليونانية ، وفي 1893 التحق بالمدرسة الإعدادية بسالونيك ، تخرج من الكلية الحربية سنة 1902 ، التحق بالجيش الخامس في دمشق و في 1906 كون فيها جمعية سرية ، قاد بنجاح هجوم طبرقة في ليبيا سنة 1912 و في 1918 عين قائدا للجيش السابع في فلسطين و في 1920 حكمت عليه حكومة إسطنبول بالإعدام ، و في 1921 سحق اليونانيين في معركة سفاريا ، أنتخب أول رئيس للجمهورية التركية العلمانية ، ألغى الخلافة الإسلامية ، لقب بالذئب الأغبر و بالغازي ، توفي في 10 نوفمبر 1938. أنظر :

George François , les combats d'attaturk , revue Histoire , n 289 , paris , juillet-aout 2004 , p76

⁵-Ali Kazancigil , Ergun Ozbudun , Attaturk Fondateur de la Turquie Moderne , édit Masson , paris 1984 , p 49 .

إن تسليم اليهودي قراصو وثيقة التنازل عن العرش للسلطان عبد الحميد الثاني انتقاما على فشل الحركة الصهيونية المدعومة من طرف الدول الأوروبية و بمساعدة الإدارة المحلية العثمانية في استمالة السلطان و الضغط عليه من أجل تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين.

و لذلك فإن عزله بالنسبة للصهاينة يمثل تهويد فلسطين و إقامة الدولة اليهودية التي دعا لها ثيودور هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول في بال.

المبحث الثاني : الثورة العربية 1916 والاتفاقيات التي عقدت خلالها

قبل قيام الحرب العالمية الأولى لم تكن بريطانيا قد وضعت خطة خاصة بمستقبل الوطن العربي ففي 1913 أرسل إدوارد جراي وزير خارجية بريطانيا برقية إلى سفيره في استانبول يذكر فيها: " هناك مسألة على جانب من الخطورة تنطوي عليها سياستنا الوحيدة التي يمكن لنا أن نشترك فيها هي السياسة التي من شأنها أن تمنع انهيار تركيا الآسيوية و تقسيمها. و إذا اتبعنا سياسة معاكسة لهذه السياسة فإن أثرها في مسلمي الهند سيخلق لنا حالة تنذر بالكارثة هذا عدا التعقيدات التي ستخلقها هذه السياسة في علاقات الدول الأوروبية ". و لذلك شجع جراي العرب على حماية بلادهم و الأماكن المقدسة في حالة دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا¹، و خوفا على مصالحها هاجمت بريطانيا الدولة العثمانية بواسطة رعاياها من العرب و في 4 سبتمبر 1914 صرح السفير البريطاني في استانبول و قبل دخول الدولة العثمانية الحرب بأنه سيؤيد أي حركة عربية ضد تركيا إذا ما أعلنت هذه الأخيرة حربا على تركيا سواء أكان هذا التأييد للعرب مباشرا أو غير مباشر².

رغم أن الحكومة العثمانية تماطلت في تنفيذ الإصلاح في البلاد العربية، إلا أنه في شهر ماي 1915 عقد اجتماع سري في منزل شكري باشا الأيوبي حضره كل من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر و خالد الحكيم وسليم الشمعة والشيخ تاج الدين الحسيني و عبد الكريم الخليل و غيرهم اتفقوا على مساندة الأتراك، جاء هذا الموقف العربي الموحد لحماية للبلاد العربية من الأطماع الأوروبية الاستعمارية، خاصة بعدما وقعت بلدان المغرب العربي تحت الاستعمار الفرنسي³.

¹-عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ص 555 .

²-عمر عبد العزيز عمر، نفس المرجع ، ص556.

³-علي معطي، المرجع السابق، ص305.

الإرهاصات الأولى للثورة العربية الكبرى (مراسلات حسين مكماهون):

إن دخول الدولة العثمانية الحرب دفع الانجليز يستغلون توتر العلاقات بين الشريف حسين والدولة العثمانية، ففتحوا باب التفاوض معه¹ خاصة أنهم أدركوا أن عزيز علي المصري لا يخدم مصالحهم، وكانت الفرصة مواتية عندما اتصل بهم عبد الله بن الشريف حسين من سلالة آل البيت²، ومن هنا أيقن البريطانيون على وجه الخصوص أن الشريف حسين بن علي الهاشمي أمير مكة يمكن أن يكون رئيس صوري للمسلمين لمقاومة نفوذ السلطان العثماني ويطلق الدعوة إلى الجهاد الذي أعلن عنه السلطان العثماني³.

لقد بدأت الاتصالات بين الأمير عبد الله بكتشنر في فيفري 1914 وهو في طريقه من مكة إلى استانبول، حضر الاجتماع السكرتير الشريف في دار الاعتماد البريطاني رونالد ستورز، حيث أخبر عبد الله المعتمد على توتر العلاقات بين تركيا وحسين الشريف خاصة بعدما قرر الاتحاديون عزله من منصبه، كما حاول - عبد الله - معرفة موقف بريطانيا في حالة تمرد العرب على الأتراك، وكانت اجابة المعتمد فيها تحفظ ، ولذلك أوعز المعتمد إلى ستورز أن يرد لعبد الله الزيارة بعد يومين ليعرف ما بنفسه وهذا ما حدث فعلا حيث استطاع ستورز أن يكسب وده لذلك أعرب له الأمير عبد الله عن خطورة الوضع في الحجاز وأهداف الحركة العربية وسأله عن إمكانية مساعدة كتشنر لحسين الشريف في الحصول على مدافع ورشاشات ، رغم رفض ستورز لهذا العرض استغلت بريطانيا الموقف العربي المعادي لتركيا ورغبتهم الصادقة في الانفصال عنها إلى توريطهم إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى⁴. وفي هذا الصدد أرسل ستورز رسالة شخصية إلى كتشنر ذكر فيها: "هل تفوضني في التأكد عن الاتجاه الذي سيسير فيه العرب إذا دخلت تركيا الحرب: إذ أن من الواضح أن انخيازهم إلى جانبنا - فضلا عن الاعتبارات أخرى - سيقوي من موقفنا العسكري". فأرسل ستورز علي أفندي المصري سريا إلى الحجاز ، فوصل إلى مكة في منتصف شهر أكتوبر وعاد إلى مصر في نهاية الشهر ليحمل جوابا من عبد الله في الوقت الذي كان فيه الشريف مكة يخطط للسيطرة على الحجاز⁵ وبريطانيا كانت في موقف دفاعي صعب نظرا لدخول إيطاليا الحرب إلى جانب دول الوفاق، وتحالف المذهب السنوسي القوي مع الدفاع العثماني في سيناء

¹- كليب سعود الفوز، المرجع السابق ، ص113.

²-عبد العزيز سليمان نوار ، المرجع السابق، ص-ص 253 - 254.

³-Michel Mourre, op.cit, p 5617.

⁴-جورج انطونيوس ، المرجع السابق، ص- ص 205 - 207.

⁵- نفسه المرجع ، ص 210.

باتجاه قناة السويس ، هذه الظروف دفعت بريطانيا إلى التفاوض مع حسين الشريف مكة بهدف إمكانية قيام ثورة عربية ضد الأتراك¹، ومن جهة أخرى اتصل ستورز بحزب اللامركزية إلا أن زعماء قدموا لبريطانيا شروطهم الخاصة بشأن استقلال العرب، ولما رفضت بريطانيا هذه الشروط رفضوا الاشتراك إلى جانب الحلفاء في الحرب، كما أجرى كلايتون اتصال بمؤسسي جمعية " العهد " عزيز علي و بمحمد الشريف الفاروقي² اللذين طالبوا باستقلال العرب مقابل وقوفهم إلى جانب الحلفاء و لما فشلت بريطانيا في توجيه زعماء الحركة العربية حسب مصالحها كلفت معتمدها في القاهرة السير مكماهون أن يصدر بلاغا يحدد فيه موقف الانجليز من البلاد العربية و بالفعل أصدر هذا البيان في أوائل جوان 1915 جاء فيه : " أن الحكومة البريطانية قررت أنه عند انتهاء الحرب ستجعل من بين شروط الصلح ومواده الرئيسية أن تكون شبه الجزيرة العربية والأراضي المقدسة التي فيها مستقلة، وألا يضم شبر منها إلى أراضينا وأراضي أية دولة، ومعنى ذلك أن استقلال بلادكم وتمتعها بالحرية أصبح محققا لا ريب فيه"³.

تميزت المراسلات بين حسين الشريف مكة ومكماهون ببعض التحفيزات والغموض فيما يخص تكوين الدولة العربية واستقلال العرب خاصة ان أنجلترا تحصلت على معلومات تحصلت من الضابط محمد الشريف الفاروقي المنتمي إلى جمعية العهد عن مدى قوة ونشاط زعماء سوريا ولبنان ورغبتهم في نيل الاستقلال، فتضمنت رسالة مكماهون الثانية بتاريخ 24 أكتوبر 1915 تعهدات بريطانيا التاريخية نحو الحركة الوطنية العربية بشأن استقلال العرب، حيث يذكر مكماهون : " أن مرسين واسكندرونه وبعض الأقسام السورية الواقعة في غرب دمشق وحمص وحماء وحلب لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية محضة فيجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على أن لا تنقض شيئا من اتفاقنا مع الزعماء العرب، أما الأراضي التي تستطيع أنجلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضررا بحليفاتها فرنسا، فان لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب

¹- مصطفى كريم، المرجع السابق، ص 327 .

²- في المقابل كانت الجمعيات العربية السرية داخل الشام والعراق غير راضية على قيام تعاون عربي انجليزي ضد الدولة العثمانية، ولذلك عمل الانجليز على كسب ثقة هذه الجمعيات فاتصلوا بعزيز علي المصري في القاهرة والزعيم العراقي طالب النقيب وبالزعيم العربي رشيد رضا وطلبوا منهم تعاون عربي انجليزي لإشغال نيران ثورة عربية كبرى ، لكن هؤلاء الزعماء تخوفوا من مصير التعاون العربي على البلاد العربية أمام تزايد أطماع الإنجليز في المنطقة و لذلك اشترط عزيز علي المصري على الإنجليز إصدار تصريح واضح من خلاله يعترفون باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بعد الحرب ، وأن لا يبعث الإنجليز بقواتهم الى العراق أو سوريا وأن تقدم السلاح فقط، وأكد لها أنه كفيل بأن يحرر العراق من الأتراك. أنظر :عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص-ص 253-254.

³-علي معطي، المرجع السابق، ص- ص 313 وما بعدها .

الجلالة أن أعطيكم المواثيق التالية: " أن انجلترا مستعدة - على أساس تلك التعديلات - أن تعترف باستقلال العرب و تقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة. " و بالتالي نستنتج من نص الرسالة أن لبنان أخرج من دائرة التحالفات العربية - البريطانية ودخل في دائرة التحالفات البريطانية - الفرنسية (اتفاقية سايكس بيكو).

يبدو أن حسين الشريف عارض أية تجزئة للبلاد العربية رغم محاولة كل من مارك سايكس وجورج بيكو إقناع الشريف في المفاوضات التي دارت بينهم في جدة لمدة ثلاث أيام نلتبس ذلك في الرسالة الثانية بتاريخ 5 نوفمبر 1915 التي أرسلها حسين الشريف إلى مكماهون حيث جاء فيها: "إننا لا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين و أدنه إلى المملكة العربية. أما قضية حلب و بيروت و سواحلها فهي عربية صرفا و ليس هناك فرق بين المسلم العربي و المسيحي العربي، فكلاهما من نسل واحد". و على كل حال فإن المسألة اللبنانية لم تحسم بشكل واضح و نهائي في هذه المراسلات¹.

لقد تعرضت مراسلات حسين مكماهون للكثير من النقاش و النقد لأن الاتفاق كان غامضا بالنسبة للمسألة الجوهرية التي تهم العرب و هي تحديد المنطقة التي تضمها البلاد العربية المستقلة في الأقاليم المحررة من السيطرة العثمانية خاصة فلسطين، فالعرب يرون أن فلسطين كانت جزءا لا يتجزأ من المناطق التي تتكون منها المنطقة العربية المستقلة حسب اتفاق حسين مكماهون، بينما ادعت الحكومة البريطانية عكس ذلك و لكن المدقق في قراءة مراسلات الحسين - مكماهون يجد أن بريطانيا قد تعهدت باستقلال عرب فلسطين لأن تحفظات مكماهون لم تشمل فلسطين². و في هذا الصدد نذكر العبارة التي وردت في كتاب السير هنري مكماهون في 24 أكتوبر 1915: " إن أقساما من سوريا واقعة إلى الغرب من أفضية دمشق وحمص وحمه و حلب لا يصح القول أنها عربية بحتة، و ينبغي إخراجها عن الحدود التي تشاؤونها". عموما قبل حسين شريف مكة في كتابه المؤرخ 1 جانفي 1916 خضوع هذه " الاقسام " لأحكام خاصة و السؤال المطروح هل كلمة الاقسام تشمل فلسطين أم لا تشملها³؟.

لقد كان لبريطانيا عدة أهداف من استمالة العرب إلى جانبها خلال الحرب العالمية الأولى منها:

-محاربة تركيا و التصدي لنداء السلطان العثماني بالدعوة إلى الجهاد.

-حماية امتيازاتها في قناة السويس و العراق.

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص، ص، 324، 326.

²-عمر عبد العزيز، المرجع السابق، ص- ص 565-568.

³-زهية قدورة، المرجع السابق، ص192.

- الدفاع عن الطرق الرئيسية المؤدية إلى الهند.

- تثبيت مواقعها الاستعمارية في إفريقيا و آسيا.

يذكر المستر تشمبرلن في برقية إلى نائب الملك في الهند بتاريخ 21 أكتوبر 1915 عن قيمة المساعدة العربية للحلفاء ما يلي: "أن العرب لا يزالون مترددين في الانضمام إلينا فإذا لم نستملهم بمنحهم امتيازات تطمئن قلوبهم إلينا لا ينفصلون عن الترك"¹.

أرسل كل من ياسين رئيس الضباط العراقيين و علي رضا رئيس الضباط الدمشقيين ، و عبد الغني العريس نيابة عن المدنيين السوريين اقتراحا مكتوبا في جانفي 1915 لحسين الشريف يطلبون فيه امكانية القيام بحركة تمرد عسكرية ضد الأتراك ردا على سياسة جمال باشا² إلا أن موقف الأميران فيصل و عبد الله كان مختلفا:

- ففصل يرى أن العرب لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكافي للحرب، وأن لفرنسا وبريطانيا أطماع في بلاد الشام وجنوب العراق.

- أما عبد الله فقد كان متفائلا للثورة وأنها ستحقق الحلم العربي وأثناء الاجتماعات التي دارت بين حسين الشريف و فيصل و عبد الله تشبث كل منهما براه في الوقت الذي مال فيه الحسين إلى رأي الأمير فيصل ولكن إصرار الأمير عبد الله اختار حسين الشريف القرار الوسط³ هو إرسال مبعوثين إلى بلاد الشام وإلى كبار الحكام العرب ليعرفوا ما مدى حقيقة الشعور الوطني وما مدى الاستعداد للثورة⁴.

¹-امين السعيد ، المرجع السابق، ص 261

²-لقد حذر عزيز على المصري من نتائج القيام بعمل عدائي ضد الدولة العثمانية و في أوائل 1915 وقع اتصال بين زعماء جمعية العربية الفتاة و جمعية العهد على هذا الأساس، لكن سياسة جمال باشا الإرهابية اتجه زعماء الحركة العربية جعلتهم يتخلون عن تركيا و أفقدتهم كل العطف نحوها. و لذلك بدأ القوميون العرب يبحثون عن حلفاء فاتصلوا بالشيخ نوري الشعلان و ابنه نواف زعيم قبيلة الرولة التي كانت تسيطر على الصحراء السورية بين دمشق و نجد، و فواز الغايز شيخ قبيلة بني صخر، و نسب الأطرش أحد زعماء جبل الدروز، ثم ضموا إليهم علي رضا باشا الركابي أمير اللواء المتقاعد و غيرهم من ذوي النفوذ في البلاد العربية على اختلاف طبقاتهم و مذاهبهم. أنظر: علي معطي ، المرجع السابق ، ص-306-308.

³-خلال الحرب العالمية الأولى كان رشيد رضا عضوا قياديا في حزب اللامركزية، و قبل المساعدة البريطانية بأمل تشكيل حكومة عربية إلا أنه فيما بعد نصح الحسين شريف مكة بإثناء تحالفه مع البريطانيين و العودة إلى تحقيق الوحدة العربية كما حذر زعماء العرب الآخرين من الخطط و النيات البريطانية. أنظر: وميضي نضمي، المرجع السابق، ص 124.

⁴- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص212.

و لذلك أرسل حسين شريف مكة الأمير فيصل إلى دمشق ليجتمع مع زعماء الحركة العربية خططهم و مشاريعهم كمثله¹ و من جهة أخرى أرسل الأمير علي إلى المدينة ليجتمع الرجال من الحجاز، أما الأمير عبد الله كان مستشاره السياسي الذي يستطلع رأي البريطانيين و موقفهم تجاه قيام ثورة محتملة ضد تركيا².

وكانت لزيارة فيصل لدمشق هدفان الأول ظاهري و هو تقديم شكوى ضد الوالي و هيب بك والثاني سري وهو معرفة استعداد الحركة الإصلاحية في سوريا و لبنان و ما موقفها من المفاوضات التي جرت بين أخيه عبد الله و المندوبين البريطانيين، فاجتمع مع زعماء جمعية العربية الفتاة و جمعية العهد، اطلع زعماء الحركتين الأمير فيصل على تنظيماتهم السرية و أبلغوه على أنهم على استعداد للقيام بالثورة على الحكم التركي و تحرير الشام من حكمهم³ وطلبوا منه قيادة الثورة فانضم فيصل إلى جمعية العهد والفتاة خاصة أن أعضاء الجمعيتين وضعوا ميثاقا يتضمن شروط مقابل تحالفهم مع بريطانيا والوقوف إلى جانبها خلال الحرب ويعتبر هذا الميثاق الأساس الذي تتم به المفاوضات مع بريطانيا⁴ ويتضمن الميثاق على النقاط التالية :

¹- إن اتصال رجال الحركة العربية بسوريا بالحسين و فيصل جعلهم يغيرون اتجاههم من فكرة اللامركزية ضمن نطاق الدولة العثمانية و العمل على تحقيق الاستقلال بتأييد من بريطانيا، فتطورت اتصالات الحركة العربية بالحسين و عندما مر فيصل بدمشق في طريقه إلى استانبول انضم إلى جمعية العهد و الفتاة. أنظر : زهية قدورة، المرجع السابق، ص 145.

²- توماس ادوارد لورانس، لوراس العرب اعمدة الحكمة السبعة، ت محمد النجار، ط 2، 2001، ص 44

³-لقد وافقت اللجنة العليا لجمعية العربية الفتاة التي عقدت قبل مجيء فيصل ببضعة شهور على القرار التالي : " نتيجة لاشتراك تركيا في الحرب أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضا لمخاطر شديدة و يجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها و استقلالها ، كما تقرر أنه إذا تحقق أن للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد فإن الجمعية ملزمة بأن تعمل إلى جانب تركيا لكي تقاوم التدخل الأجنبي مهما تكن صورته."

و استقروا على أن يتولى شريف حسين زعامتهم و قيادة الثورة رغم أن مجتمع الجزيرة أقل المجتمعات العربية ثقافة و وعيا قوميا، و وضعوا مخططا على أساسه تكون المفاوضات بين حسين شريف مكة و بريطانيا عرف هذا المخطط باسم بروتوكول دمشق. أنظر: جهاد مجيد محي الدين، المرجع السابق ، ص- ص 388- 389.

⁴-ينصح ضياء غو قالب Ziyagokalp الأب الروحي للقومية التركية بأن التطرف سيضر الأتراك و العرب معا حيث يذكر في هذا الصدد: " و لا شك في أن العرب الذين ينقصهم التنظيم المدني و العسكري يفيدون من هذا الاتحاد، و إلا فإنهم يقعون فريسة في قبضة الدول الغربية فور انفصالهم عن إخوانهم الأتراك "، و حتى الأمير صباح الدين بن الدمداد محمود باشا- ابن اخت السلطان عبد الحميد الثاني- يرى أنه من الأفضل للعرب أن يبقوا متحدين مع الأتراك تحت لواء الدولة العثمانية ويشاطره في ذلك الأمير شكيب أرسلان الذي نبه العرب من خطورة العلاقة مع الغرب. أنظر: ناجي علوش، المرجع السابق، ص 61.

1- إعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية ضمن الحدود التالية :

تمتد من الناحية الشمالية من خط مرسين، أضنة حتى خط العرض 37° شمالاً و منها على امتداد خط برجييك - أورفة - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمرو - عمارية حتى حدود إيران. و من الناحية الشرقية على امتداد الحدود الإيرانية إلى الخليج العربي جنوباً، و من جنوب المحيط الهندي (باستثناء عدن التي تبقى على وضعها الحالي). و غرباً من البحر الأحمر و البحر الأبيض المتوسط حتى مرسين.

2- إلغاء الامتيازات الأجنبية.

3- تعقد بريطانيا معاهدة دفاعية مع الدولة العربية المستقلة.

4- التعامل يتم مع بريطانيا في الشؤون الاقتصادية.

يعتبر هذا الميثاق أول قرار سياسي اتخذته زعماء الحركة العربية لتكوين دولة عربية لها علاقات مع بريطانيا وفق الشروط المعروضة فيه" و أقسم الجميع بما فيهم عدد من زعماء البدو و الدروز على إشعال الثورة في سورية إذا قبلت بريطانيا بهذه الشروط¹.

عمل الحسين شريف على تمويه الاتحاديين و إبعاد شكوكهم نحوه حتى ينتهي من المفاوضات مع الانجليز² خاصة أن الاتحاديين لم يثقوا في ولاء الضباط والجنود العرب الذين يخدمون في الجيش التركي خاصة أنهم يشكلون في مطلع 1915 حوالي ثلث الجيش التركي في شمال سوريا ولذلك عملت الحكومة الجديدة على إرسالهم إلى الدردنيل و القفقاس و إلى قناة السويس ووضعهم على خطوط النار³.

عرفت عدة مدن سوريا ولبنان والعراق عدة انتفاضات قام بها فرق الأنصار ضد الأتراك سنة 1916 ورغم هذه الانتفاضات المتكررة والمتفرقة التي عرفتها عدة مدن من سوريا ولبنان والعراق إلا أن قيام ثورة شاملة وموحدة كانت مستحيلة لأن الأتراك تمسكوا بالحكم بقبضة حديدية. وكما أن السياسة البريطانية عملت على عدم إشعال نار الثورة من سوريا لكي لا تثير قلق الفرنسيين ولذلك كتب مكماهون إلى حسين الشريف: "إني أنصح لدولتكم بإلحاح أن تستدعوا نجلكم من سوريا وأن تباشروا العمل الذي تنوونه في الحجاز والجنوب فقط في الوقت الحاضر". وهذا ما جعل شريف حسين يشك في نوايا بريطانيا ولذلك بعث في 16 مارس 1916 برقية إلى أنور باشا يبين فيها شروط التي يمكن أن يقبل العرب للاشتراك في

¹-علي معطي ، المرجع السابق ، ص- ص308-310.

²-كليب سعود الفوزان، المرجع السابق ، ص 132.

³-طوماس ادوارد لورونس، المرجع السابق، ص41.

الحرب المقدسة و في حالة عدم قبول هذه الشروط فإن شريف حسين لا يشترك في حرب لا تخدم مصالح بلاده ، و كان رد أنور باشا عنيفا¹.

و في برقية من السيد د فرانس M.Defrance قنصل عام فرنسا في القاهرة إلى السيد بريوند M.Briand رئيس مجلس وزير الخارجية الفرنسية القاهرة بتاريخ 3 جوان 1916 أن سكرتير الإقامة البريطانية المعني بشؤون الشرق ذهب إلى البحر الاحمر لمقابلة الأمير عبد الله في ضواحي جدة و لقد أبلغني المفوض السامي سريرا أن حسين الشريف أعلن الحرب على الأتراك و أن المعارك التي نجعل نتائجها قد اندلعت رغم إن المفوض السامي لم يكن متأكدا أن حسين الشريف يتخذ هذا القرار بهذه السرعة خاصة أنني كنت خائفا من أن الشريف سيتراجع هذا القرار، حتى الانجليز لم تكن لديهم معلومات دقيقة لنشر هذا الخبر الذي سيؤثر على العالم الاسلامي ككل².

و في 5 جوان 1916 أعلننا الأمير فيصل و الأمير علي بسم والدهما الثورة على الدولة العثمانية و بتاريخ 9 جوان 1916 وجه الأمير علي إنذارا خطيا إلى جمال باشا جاء فيه: " إن المطالب العربية المعتدلة قد رفضت من جانب الدولة العثمانية، و بما أن الجند الذي تمهيا للجهاد سوف لا يرى عليه أن يضحي لغير مسألة العرب و الاسلام: إذا لم تنفذوا الشروط المعروضة من حسين شريف مكة حالا فإن العلاقة بين الأمة العربية و الأمة التركية ستنتقطع و أنه بعد مرور 24 ساعة من وصول هذا الكتاب ستكون الحرب قائمة بين الأمتين" و هذا هو الانذار الأول الذي وجهه الأشراف إلى جمال باشا³.

و في هذه الأثناء طلب جمال باشا من غالب باشا قائد القوات التركية في مكة إقامة وليمة للشريف حسين ثم إلقاء القبض عليه و إرساله إلى دمشق، إلا أن حسين الشريف غادر مكة فاقتحم الجنود الأتراك قصره الذي رجع إليه الحسين فاتحا و أسر القائد التركي و أطلق الرصاصة الأولى من قصره يوم 10 جوان عام 1916 معلنا الثورة العربية من الحجاز⁴. حاول الاتحاديون عزل الشريف حسين و تعيين علي حيدر في منصب الشرافة و ذلك عن طريق إصدار فرمان في 18 جوان 1916 من السلطان محمد رشاد عملا بسياسة ضرب القيادة الحجازية بعضها بعض و علي حيدر من أسرة زيد موالي للاتحاديين و الذي عمل علي حيدر على إغراء القبائل الحجازية بالمال للانقضاض على الشريف حسين الذي تحالف مع

¹-علي معطي، المرجع السابق ، ص-ص 313-319.

²-تقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية 1916-1917 في المشرق العربي، علة رقم 1411AFFPOL/1 أنظر الملحق رقم 02 ص 330

³-كليب سعود الفوزان، المرجع السابق ، ص 153

⁴-علي معطي، المرجع السابق ، ص 321.

المسيحيين فأضاع حرمة الحجاز، إلا أن الثورة ثبتت في المنطقة¹، و في برقية أرسلها الملازم الأول سانت كوانتن بتاريخ 18 Saint.Quntin جوان 1916 مراسل وزارة الحرب إلى وزارة المستعمرات يذكر فيها وصول أربعة بواخر حربية إلى ميناء جدة يمكن أن تحدث في اليوم الموالي هجمات عامة على القوات التركية الكثير من الضباط العرب الفارين من الجيش التركي منهم المسلمين السوريين أرسلوا من القاهرة إلى الحجاز كما أن الطائرات البريطانية تقصف عدن².

و لذلك اعلن علماء و زعماء مكة المكرمة و السوريون في الحجاز يوم 29 أكتوبر 1916 بانشاء دولة عربية رسميا و المناداة بالشريف حسين ملكا عليها بلقب " ملك البلاد العربية".

إن مبايعة حسين الشريف ليس على الحجاز فقط و إنما على سوريا العربية التي مثلها في حفل المبايعة الشيخ فؤاد الخطيب و عن طريق البرق أبلغ الأمير عبد الله ابن حسين وزارة خارجية الدول المحايدة و دول الحلفاء على تنصيب والده ملكا على العرب و بالتالي فإن الشريف علي حيدر فشل في استمالة القبائل الحجازية إلى جانب الأتراك³.

لقد ذكر حسين الشريف في منشور الثورة الأول في 26 جوان 1916 أن ثورته موجهة ضد الاتحاديين الذين تحكموا في أمور البلاد و الذين وصفهم بأنهم " زعانف ليس لأكثرهم في الشعب التركي الإسلامي أصل راسخ، و لا في الإسلام علم صحيح و لا عمل صالح مثل أنور باشا و جمال باشا و طلعت باشا". تكتمت الحكومة العثمانية عن الثورة إلى غاية 26 جويلية حيث سمحت لجريدة طانين الصادرة في القسطنطينية بوصف الثورة أنها عصيان فردي أثارته مؤامرة بريطانية⁴.

وفي رسالة من وزير خارجية فرنسا إلى وزير المستعمرات الفرنسية بتاريخ 13 جويلية 1916 لإبلاغه عن تقرير من الملحق العسكري في مصر حول السياسة العربية حيث يذكر التقرير: لقد طلب الشريف حسين مكة استقلال البلاد العربية و إعطائه الضمانات للشريف حسين مكة للانتقال من الحكم الذاتي إلى استقلال البلاد العربية خاصة في سوريا مقابل تحالف هذه المنطقة مع القوات البريطانية دون الضرر بالمصالح فرنسية في سوريا.

¹-كليب سعود الفواز، المرجع السابق، ص، 174، 177.

²-تقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية 1916-1917 في المشرق العربي، علة رقم 1411/AFFPOL. أنظر الملحق رقم 03 ص 331

³-كليب سعود الفواز، المرجع السابق، ص-ص 177-180.

⁴-كليب سعود الفواز، نفس المرجع، ص، 162، 174.

إلا أن القوات البريطانية عملت على جر شريف حسين مكة للدخول في حرب ضد الأتراك بقوة غير منتظرة و بعد مرور أيام سيطرت قواته على جدة و اعتقل حوالي 1500 جندي من الطائف و مكة ثم استولى على المدينة هذه السياسة لقت معارضة في الهند لأنها انتزعت المناطق المقدسة في الحجاز من يد السلطات التركية و خاصة أن هذه الأحداث مونتتها القوات البريطانية بالعتاد العسكري¹.

عملت الجمعيات العربية على حث الأهالي على المقاومة و الانضمام إلى الثورة ففر بعض الشباب العرب من القوات العثمانية و انضموا إلى القوات البريطانية و قوات الأمير فيصل² و جاءت في مراسلة من بول كان بون Paul Canbon سفير فرنسا في إنجلترا إلى السيد بريون M.Briand رئيس مجلس وزير خارجية فرنسا، لندن بتاريخ 21 جوان 1916 يذكر فيها حسب الصحافة إن الثورة امتدت إلى سوريا نظرا للسياسة القمعية التي يمارسها الأتراك على الزعماء و الأعيان المسلمين و من المستحسن أن لا يذكر أن فرنسا و بريطانيا وراء تحركات شريف حسين مكة حفاظا على مكانته و مقامه³.

كما شارك عرب فلسطين و العراق و سوريا في الثورة العربية سواء كانوا ضباطا أو جنودا في الجيش التركي بعد نداء شريف حسين، و في هذا الصدد يذكر الجنرال الألماني ليرمان فون ساندرز الذي كان مفتشا عاما للجيش التركي في تقريره إلى المقر العام لقيادته بشأن تغير نظرة الفلسطينيين إلى القوات التركية و الألمانية بعد الثورة العربية: "لقد أتيت إلى فلسطين و سوريا فوجدت كل شيء يعاكسنا، إن البلاد تسممت و أن أهلها قد ولوا لنا ظهورهم، فنحن نعيش بين أعداء و لهذا فإن كل أعمالنا تذهب هباءا منثورا، نحن بين عدوين: سكان البلاد و العدو الذي نقاتل"⁴.

ولقد أرسلت وفود إلى شيوخ القبائل في جنوب فلسطين تطلب منهم قطع المؤونة عن الأتراك و تقديم المساعدات للقوات البريطانية وتسهيل زحفها على فلسطين⁵ وفي نفس الوقت لعب الانجليز دورا فعالا في تحريض الأسرى للالتحاق بالثورة ضد الأتراك ومونوها ضباط لتدريب الثوار العرب، والعتاد الحربي والأموال (السلاح الرديء). أصبحت الجيوش العربية التي كانت تابعة لكل من الأمير فيصل والأمير عبد الله تحت

¹ - تقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية 1917/1916 علة رقم 14¹¹ /AFFPOL

² - عادل حامد الجادر، المرجع السابق، ص36.

³ - تقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية 1917-1916 علة رقم 14¹¹.

⁴ - عادل حسن غنيم، المرجع السابق، ص 19 .

⁵ - لم يكن عرب فلسطين قبل 1914 مرتبطين ببريطانيا بشيء ما رغم توتر العلاقات العربية التركية لأنهم اعتبروا الأتراك إخوانا لهم و نظروا إلى بريطانيا نظرة العدو ، لكن هذا الموقف تغير في 1917-1918 حيث اعتبر الفلسطينيون القوات البريطانية حليفة و قدموا لها الدعم المادي و البشري من أجل تحقيق الاستقلال. أنظر : عادل حسن غنيم، المرجع السابق، ص19.

قيادة الضباط الأنجليز و على رأسهم الجنرال ألنبي¹، و بواسطة جيش فيصل استطاع ألنبي التقدم إلى القدس في خريف 1917² هذه الانتصارات التي حققتها الثورة العربية و الانجليزية أجبرت القيادة الألمانية إلى تكوين مكتب عربي في دمشق لتصدي للدعاية العربية الانجليزية و طلبت من جمال باشا انتهاز أسلوب الليونة³ لأنهم لا يثقون في حنكة جمال باشا السياسية و لذلك أصدر جمال باشا في 24 نوفمبر 1917 نداء إلى العرب الذين حملوا السلاح مع ملك الحجاز بأنه سيتم عفو غير مشروط لكل من يسلم نفسه في خلال ثلاثين يوما⁴.

لقد انتقلت الحملة من الحجاز إلى الشمال باتجاه العقبة و اشتروا بأموالهم ولاء القبائل على الطريق ومن العقبة بدأت عملية الاحتلال بلاد الشام و أصبحت الجيوش العربية الجناح الأمامي لقوات الاحتلال البريطاني في توغلها نحو الشام، لولا الجيش العربي لما استطاعت القوات الانجليزية أن تحقق نصرا بهذه السرعة⁵.

يعتبر احتلال العقبة في 6 جويلية 1917 نقطة تحول في الثورة العربية إذ كانت الثورة في ذلك الحين تتركز في الحجاز، و لقد أدرك الجنرال ألنبي عندما تسلم القيادة أهمية الاستيلاء على العقبة والفائدة التي سيستفيد منها من وجود جناح عربي سيار في هجومه المقبل ولذلك وصف فيصل بالرجل الذي يمكن الاتكال عليه لأنه نجح في ضم القبائل و تهدئة الخواطر من جهة و تطوير جيشه من جهة أخرى و يكون قد ساهم مساهمة فعالة في الإستعدادات العسكرية والسياسية⁶.

¹ -الجنرال ألنبي 1861-1932 قائد بريطاني اشترك في حرب البوير في جنوب إفريقيا، قاد الحملة البريطانية في مصر خلال الحرب العالمية الأولى فغزى فلسطين و سيطر على القدس كما استولى على دمشق و حلب، حقق نصرا على الجيش التركي في موقعة مجدو في أكتوبر 1918 و نظرا للانتصارات التي حققها تم ترقيته إلى رتبة فيلد مارشال، عين مندوبا ساميا لبريطانيا في القاهرة. أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، المرجع السابق، ص 290.

² علي معطي، المرجع السابق، ص 323.

³ -لقد اضطرب الألمان من اندلاع الثورة العربية في الحجاز فقد صرح بعض قادتهم العسكريين في دمشق قائلا: "إننا لم نستمل الترك و لم نبذل لهم ما بذلناه و لم نتحمل ما تحملناه إلا أن الخلافة الاسلامية فيهم و لأنهم موضع إحترام مسلمي العالم بسببها، أما و قد اضاعوها و فقدوا هذه الميزة بخروج الشريف عليهم و هو أكبر زعيم مسلم و سليل أعظم بيوت في الاسلام، فالألمان سيعيدون النظر في موقفهم و يسعون للتخلص من الترك". أنظر : امين السعيد، المرجع السابق، ص 164.

⁴ -جورج انطوبيوس، المرجع السابق، ص 327.

⁵ -جيهان بنت ابراهيم شار على عبد الرحيم، المرجع السابق، ص-ص 7-8 .

⁶ -سلم الجنرال موداك رئيس ديوان كليمنصو الحربي الأمير فيصل في 4 فيفري سنة 1919 وسام الصليب و شارة سعف النخل مع كتاب هذا بعض نصه: "إنه أمير يشار إليه بالبنان... أيد بعزم وطيبة قضية أبيه جلالة ملك الحجاز 1916 لينخلع=

إن احتلال العقبة سبب مشاكل كبيرة للقيادة التركية الألمانية بسورية في مواجهة الزحف البريطاني نحو القدس لأن العقبة أصبحت قاعدة لتقويض السلطة التركية في سوريا سياسيا و قاعدة لتفكيك كياناتهم العسكري¹ و نظرا لأهميتها ألحقت قوات الحلفاء الامير فيصل بقيادة الجنرال النبي، و في هذا الصدد يذكر الدكتور هوجارث: " لو لم تؤد الثورة شيئا سوى تعطيلها للزحف المشترك الذي قام به الترك و الألمان نحو جنوب بلاد العرب عام 1916، لكان لها في أعناقنا من الجميل مالا يفي به كل ما قدمناه حتى اليوم"².

و في خريف 1917 واجهت القوات البريطانية صعوبات كبيرة في فلسطين نظرا لطبيعة المنطقة وسوء الأحوال الجوية و لو لا المساعدات المادية و البشرية و الاستقبال اللائق التي قدمها السكان المدنيين للقوات البريطانية لما استطاعت أن تتقدم³ و عند دخول ألبي غزة اتفق مع الأمير فيصل بن الحسين قائد القوات العربية على حق الاحتفاظ بالمنطقة التي يحتلها كل منهما و يدير شؤونها حتى نهاية الحرب، و من هنا " بدأت مرحلة الفريط الفعلي في البلاد العربية الإسلامية عامة و في الشام خاصة "، أمام الهجومات العنيفة التي شنّها ألبي على القوات العثمانية ثم تطويق القوات العثمانية من ثلاث جهات و في 9 ديسمبر 1917 تم تسليم القدس إلى القائد البريطاني⁴ في 9 ديسمبر 1917 و أصبحت السيادة الفعلية على القدس في يد البريطانيين و حلفائهم اليهود⁵.

=النير التركي ويساعد الحلفاء... نظم عدة هجمات حربية مهمة على سكة دمشق-المدينة المنورة واشترك في تمزيق شمل الجيش الرابع والجيش السابع والجيش الثاني والجيش الثامن من العثمانيين بقطعه مواصالاتها شمالي درعا وجنوبها وغربها ثم دخل مع جنود الحلفاء دمشق في أول سبتمبر وحلب في 26 منه وبعد أن فعل فعلا تدل على منتهى الجرأة والاقدام". أنظر: أمين السعيد، المرجع السابق، ص 264.

¹-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 323

²-مصطفى طلاس، المرجع السابق، ص- ص 387-389.

³-عادل حسن غنيم، المرجع السابق، ص20.

⁴-كتب اللورد بلفور وزير خارجية بريطانية لحظة احتلال بريطانية للقدس ما يلي: "إن القوى الأربعة العظمى ملتزمة بالصهيونية، و الصهيونية، إن كان على حق أو خطأ، جيدة أم سيئة، فهي ذات جذور ممتدة في تقاليد عريقة، في حاجات حاضرة و آمال مستقبلية أهم بكثير من رغبات 700,000 عربي يسكنون حاليا هذه الأرض العريقة."

و فيما يخص المساعدة اليهودية في الحرب العالمية الأولى و التي كانت من نتائجها وعد بلفور، يصف ديفيد لويد جورج الوضع في تلك الفترة أمام البرلمان قائلا: "كانت هذه الفترة من أحلك فترات الحرب، فقد تمرد الجيش الفرنسي، و كان الجيش الايطالي على حافة الانهيار، أما الولايات المتحدة فكانت لا تزال في مرحلة الاستعداد، لذلك توصلنا إلى نتيجة مفادها أنه من الحيوي لنا أن نكسب تعاطف الجالية اليهودية." أنظر: بامبلا آن سميث، المرجع السابق، ص50.

⁵-جيهان بنت ابراهيم شار على عبد الرحيم، المرجع السابق، ص-ص 8-9 .

لقد غضب جمال باشا من الثورة و صب غضبه بشراسة على من بقي من قادة العرب و أمر باعتقال الناس فألقي القبض في دمشق لوحدها على أربعين من أعيانها و عذبوا في السجون، كما نفذ حكم الإعدام في ساحة المرجة في أوائل 1917 على محمد الملحم شيخ عشيرة الحسنة، و فجر الحمود أحد شيوخ عشيرة الموالي، و شاهد بن رحيل العلي شيخ عشيرة التركي لأنهم اجتمعوا بالأمر فيصل عندما زار دمشق ولم يسلم من هذا الإرهاب بقية العشائر السورية فأعدم أحمد عارف مفتي غزة في فلسطين و ابنه وخادمه كما نفى رعايا الدول الحلفاء ومن بينهم 440 اسرائيلي، إلا أن جمال باشا¹ سمح لهؤلاء الإسرائيليين بعد توسط كل من زوجته الاسرائيلية البولندية والطبيب الاسرائيلي الألماني الذي أجرى عملية جراحية للسلطان محمد رشاد.² من الواضح أن جمال باشا قد استند في إصدار أحكام الإعدام على المادة الثانية من القانون الذي صدر في 14 ماي 1915، والذي يخول السلطات العسكرية وقادة الجيوش بتنفيذ أحكام الإعدام على الفور في القضايا الطارئة وعندما تقضى بذلك سلامة الوطن.³

¹-لقد أشار الكثير من المؤرخين والكتاب من خلال الوثائق التي عثروا عليها البلاشفة في سجلات وزارة الخارجية الروسية: " إلى وجود علاقة وطيدة بين جمال باشا والأرمن في تلك الفترة وحاول توسيطهم لحمل الحلفاء على الاعتراف به سلطانا على البلاد التي كان يتولى أمرها مقابل انتفاضة على الدولة العثمانية ولكنه خاب أمله لأن الحلفاء رفضوا مشروعه. " خوفا على مصالحهم في كل من سوريا و فلسطين و لبنان والعراق وفي هذا الصدد يقول محمد جابر آل صفا في كتابه تاريخ جبل عامل أن جمال باشا " كان يفتك بكل من يراه صلب العود، ثابت العقيدة كي يخلو له الجو و يصل إلى غايته و يحقق باطنه و فرخت في رأسه و هي تأسيس دولة مستقلة في سوريا وفلسطين تشمل ما جاورها من الولايات العربية و يكون ملكا عليها. أنظر: علي معطي ، المرجع السابق ، ص 196.

²- علي معطي ، نفس المرجع ، ص 292.

³- بالرغم من سياسة جمال باشا في لبنان وسوريا قام بعدة محاولات لمساعدة الأهالي في الحصول على بعض المواد الغذائية الضرورية " فشكل لجانا مؤقتة مهمتها تنظيم عملية البيع والشراء وتوزيع المواد الغذائية على جميع المواطنين. ولكن معظم القائمين على هذه اللجان أساءوا التصرف إذ عمدوا إلى توزيع عشر المواد الغذائية وإلى بيع ما تبقى إلى التجار بأسعار مرتفعة. " كما حاول جمال باشا تقديم بعض الإعانات إلى الهيئات الدينية وإلى المستشفيات الحكومية والخاصة وفي أوائل 1917 أمر بفتح أربع ملاجئ في بيروت لإيواء الأطفال وفتح مشغلين للنساء والفتيات و حولت بعض المدارس المغلقة إلى ملاجئ للأولاد لكن عددها كان قليلا. وحولت بناية كبيرة في برج ابي حيدر تخص المدرسة العثمانية قبل الحرب إلى مشغل لتعليم البنات والسيدات مختلف الأشغال اليدوية.

انتشرت الأوبئة بشكل كبير في معظم أنحاء الجبل وحتى في السجون والملاجئ فارتفع عدد الوفيات نظرا لندرة الأدوية والأطباء الذين ساروا مع الجنود إلى جبهات القتال. وخير مثال تناقص عدد دروز لبنان من 62 ألف شخص قبل الحرب إلى 48 ألفا عام 1920. أنظر: علي معطي ، نفس المرجع ، ص - ص 235 - 240.

و الحقيقة أن هذا القانون قد وضع لمعالجة الحالات المستعجلة التي قد تحدث في ميادين الحرب و التي تستلزم التنفيذ فوراً¹.

نظرا للانتصارات التي حققتها الجيوش العربية بعث جمال الثاني (الصغير) الأمير محمد سعيد الجزائري ممثلاً له للتفاوض مع فيصل و تم أول لقاء بينهما في منطقة وهيدة (تقع هذه المنطقة إلى الجنوب من منطقة واد يموسى و إلى الغرب من مدينة معان). تتضمن الرسالة على: إيقاف القتال بين الطرفين و أن الدولة العثمانية على استعداد بقبول المطالب العربية هذه الرسالة كانت في الوقت الذي كانت فيه العمليات العسكرية في غاية الخطورة، رغم أن الأمير فيصل لم يقتنع بالرسالة إلا أنه طالب باستقلال العرب ضمن اتحاد لا مركزي مع الدولة العثمانية شريط عقد الصلح معهم.

لقد أصدر السلطان أمراً بقبول مطالب الجانب العربي غير أن كل من أنور و طلعت باشا أهملوا الأمر ولم يبلغوا القوات العثمانية في سوريا بالقرار إلا بعد انسحاب القوات العثمانية من فلسطين منهزمة. ودخول القوات العربية إلى ضواحي دمشق باسم الملك حسين و هنا أصبح الصلح مستحيلاً.

و قبل الهجوم أرسل فيصل رسالة إلى جمال الصغير يدعو فيها التسليم: "أظن أن كل ما وقع هو نتيجة أعمالكم و نحن إنما أدينوا الواجب حسب الوجدان ... إن المقاومة في دمشق لا جدوى لها بل هي مضرة لكم و للأهلين على السواء". والظاهر أن جمال الثاني لم يستسلم وبالتالي حررت القوات العربية دمشق في 31 نوفمبر 1918 واستمرت العمليات العسكرية العربية حتى 7 جانفي 1919.²

إن إعلان حسين شريف مكة للهجوم المضاد على الجهاد الإسلامي الذي دعت الخلافة العثمانية في وجه الدول الأوروبية الخليفة³ يمثل أكبر ضربة تلقتها تركيا وهكذا تحطمت فكرة الجهاد الإسلامي العام الذي اعتمدت عليه تركيا، وفي هذا الصدد يذكر جمال باشا في خطاب ألقاه بدمشق والذي نشرته جريدة الشرق 23 جانفي 1917: "من المؤسف أن أمراً دنيئاً عطل الجهاد المقدس في صميم الأرض الإسلامية المقدسة، حين تحالفت القوى المسيحية التي تسعى إلى ابتزاز العالم الإسلامي، واستيلا القسطنطينية عاصمته، أما ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته القحمة لأن ينسب نفسه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

¹- علي معطي ، المرجع السابق، ص-ص 292-293.

²- كليب سعود الفوزان، المرجع السابق، ص-ص 194-198.

³- استطاع لورانس الجاسوس الإنجليزي أن يفكك رباط الوحدة بين العرب و الترك نظرا لعلاقته بحسين شريف مكة و معاشته العرب و في هذا الصدد يذكر: " نشاط الحسين مفيد لنا - أي الانجليز - وإذ أنه ينسجم مع أهدافنا المباشرة و هي تفكيك الرابطة الإسلامية، وهزيمة الامبراطورية العثمانية". أنظر: مصطفى حلمي، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، المرجع السابق، ص43.

فقد اضطرت الدولة العثمانية إلى أن توجه إليه قوى كان الحق أن توجه لتنهزم البريطانيين في القناة و تحتل القاهرة¹.

أما بالنسبة لموقفه من الشريف حسين مكة فيذكر في مذكراته: "و أني وأيم الله لو علمت ذلك وقتئذ، لكنت أمرت غير مترخ، بالقبض على فيصل في دمشق، و على أخيه في المدينة و لأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة إلى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده، والقضاء على تلك الثورة المشؤومة في مهدها، و لكن ماذا عساي كنت أفعل في تلك الظروف، ولم تكن لدي بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التي كان يقوم بها أولئك الأشخاص"².

يذكر لورانس في كتابه أعمدة الحكمة السبعة أن الثورة العربية لم تكن مرغوبا فيها حتي في الحجاز حيث كان أكثر الناس ضد تكوين دولة عربية منفصلة عن الدولة العثمانية، ومقابل مايدفع للبدو من مال كثير كانوا يحاربون إلى جانب الثورة، وهذا ماجعل المدن تفتقر والضواحي تغتني، ويؤيده في ذلك صبحي العمري أحد ضباط الثورة العربية في كتابه لورانس كما عرفته بأن بدو الحجاز استجابوا للثورة وذلك لأن الثورة عوضتهم إضعاف تلك الأموال التي كانوا يتقاضونها من الأتراك كل سنة لحماية قافلة الحج.

كما رفض بعض المسيحيون الثورة و في هذا الصدد يذكر توفيق السويدي: "أن سوريا ولبنان كانتا في وضع محرج يؤثر فيه رجال الدين الذين لزالوا يعتقدون كالمسلمين بأن الثورة ليست إلا جموعا ممقوتا ضد الخلافة، والبعض الآخر اعتقد أن الثورة العربية ليست في حقيقتها سوى حركة اسلامية متجهة ضد المسيحيين في لبنان..."، أما القاعدة الشعبية فقد تعاطفت مع الدولة العثمانية حيث يذكر حسين جميل في كتابه شهادة سياسية ما يؤكد هذا التعاطف إذ يقول: "إنه عندما نشبت الحرب العالمية الأولى كانت الأحاديث التي تدور بين الكبار في البيت تعبر عن القلل من غزو الانجليز للعراق ... فلما أوقف الجيش التركي الزحف الانجليزي وارتد الجيش الفاتح إلى - الكوت - ... شعرت بجو الفرحة يعم البيت... وكنت ألس في أحاديث الكبار في البيت أنهم إلى جانب السلطان عبد الحميد وضد الاتحاديين الذين أسقطوه آسفين لخلع حامي حمى الدولة الإسلامية في العالم... وفي الأيام الأولى للاحتلال البريطاني سمعت من في البيت يتهم الثوار بالخروج عن الإسلام بمحاربتهم الدولة العثمانية، وهي الدولة الإسلامية..."³.

¹- مصطفى طلاس، المرجع السابق، ص 380.

²- مصطفى طلاس، نفس المرجع، ص 364.

³- مفيدة محمد ابراهيم، المرجع السابق، ص -ص 645- 647.

وفي خطاب ألقاه فيصل في دمشق يوم 5 ماي سنة 1919 أبرز فيه حماس الشاميين للثورة على الأتراك بقوله: "و لا شك أن المسؤول في الحركة الثورية العربية، هو أولا والذي ثم الحجازيون الذين قاموا بها فعلا، أما السوريون فإنهم مسؤولون معنا، لأنهم شوقوا الحجازيين لهذه الحركة... لهذا قام والذي بالحركة بعد أن أتيت إلى سوريا و قابلت بعض الرجال الذين منهم الكثيرون في مجلسنا هذا سواء من البدو أو من الحضر"¹.

إن الأطماع الفرنسية و البريطانية في سوريا واضحة و كان رجال الجمعيات خاصة الفتاة والعهد يعرفون ذلك و ما كان على العرب أن يتناسوا خطر انقسام المعسكر الإقليمي في الشرق الأدنى خاصة مع الأتراك الذين يمثلون الخلافة الحاضنة للشعوب العربية ككل خاصة و للمسلمين عامة، لقد نزل الأتراك إلى المعركة باسم الاسلام و لتحرير المسلمين بينما نزل العرب إلى المعركة تحت شعار " الدين لله والوطن للجميع وهذا الذي قرر نتيجة المعركة هو هزيمة الأتراك العثمانيين"².

المعاهدات التي عقدت خلال الحرب العالمية الأولى:

1- اتفاقية سايكس بيكو:

إن فكرة تقسيم أملاك الامبراطورية العثمانية قد اختتم عندما توصلت بريطانيا و فرنسا على عقد اتفاقية سرية مع روسيا عرفت باتفاقية سايكس بيكو³ مارس - أبريل 1915 ثم تلتها في 26 أبريل من نفس السنة اتفاقية لندن بين ايطاليا و بريطانيا و فرنسا: فخلال سنوات الحرب العالمية الأولى نشطت الدبلوماسية الفرنسية و الانجليزية و حتى العسكرية من أجل إخراج الدولة العثمانية من المشرق العربي و لما تأكدت بريطانيا من سخط العرب على الخلافة العثمانية ، عملت على إحتواء الحركة العربية القومية وأستعملت حسين شريف مكة لتحقيق هذا الغرض⁴، فعقدت إتفاقية سايكس بيكو بغياب العرب ونصوصها⁵ كانت متناقضة مع الشروط التي وقعها السير هنري مكماهون والحسين شريف مكة و لذلك بقيت سرية لمدة 18 شهرا من عقدها.⁶

¹-علي معطي، المرجع السابق، ص311.

²-جلال يحيى، المرجع السابق، ص 219.

³-مصطفى كرم، المرجع السابق، ص435.

⁴-Ali Merad , l'islam contemporain , 5ème Edition , presse universitaire , paris

1995 , pp 67-68

⁵-أنظر الملحق رقم 04، ص332

⁶- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص354.

بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا و انسحابها من الحرب العالمية الأولى أرسلت نسخة من اتفاقية سايكس بيكو إلى جمال باشا و بدوره أرسلها إلى الأمير فيصل وهو في العقبة وكانت العمليات العسكرية في بدايتها و شرح له أن فرنسا وبريطانيا لا تنويان فصل العرب عن الأتراك المسلمون إلا لتوسيع نشاطهما الاستعماري في وسط آسيا و شمال افريقيا ووادي النيل، وطرح عليه تكوين كتل عربي عثماني عربي من أجل الوطن و الاسلام و التصدي للاستعمار الغربي، ومقابل الاعتراف باستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية إلا أن فيصل أرسل المراسلات دون أن يعلق عليها إلى والده في الحجاز، وهذا الأخير طلب من المندوب السامي في القاهرة توضيحات¹ إلا أن بريطانيا راوغت الحسين وخدعته للمرة الثانية².

لقد صرح جمال باشا في خطبة ألقاها في سوريا بالعروض التي فاتح بها حسين الشريف قبل بضعة أيام من سقوط القدس³، وشرح فيها الضرر الذي سببته الثورة العربية لوحدة الإسلام ولتلك المصالح التي أعلن زعماء الثورة أنهم يسعون لخدمتها وطلب منه إن كان مسلما حقيقيا وجامعا لمزايا العرب أن ينقلب على الإنجليز ويرجع إلى خليفة المسلمين.

وحفاظا على مصالح بريطانيا خاصة أن المعرك لازالت مستمرة أرسل السير بلفور برقية إلى الحسين وذكر له فيها أن النسخة التي أرسلها جمال باشا عبارة عن دسائس تركية، كما بعث ونجت برقية إلى الحسين يذكر فيها: "إن البلشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بتر غراد معاهدة معقودة بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين الانجليز وفرنسا وروسيا في أوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الأتراك، وذلك قبل النهضة العربية وأن جمال باشا إما من الجهل أو الخبث غير في مقصدها الأساسي

¹-وعندما علم حسين الشريف بالاتفاقية أعلن استنكاره لهذا الاتفاق لكن الحكومة البريطانية أرسلت له تقول: ".... وهي مصممة كذلك على مساندة الشعوب العربية في كفاحها لإنشاء عالم عربي تحل فيه الوحدة محل المنافسات والحزازات المصطنعة التي كانت تثيرها سياسة الموظفين الأتراك....". أنظر: عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص578.

²-جلال يحي، المرجع السابق، ص218. أنظر كذلك: كليب سعود الفوزان، المرجع السابق، ص-ص 186-188.

³-أصدر ألني بمناسبة دخول جنوده مدينة القدس بلاغا باللغات السبع العربية الفرنسية الانجليزية العبرية....الخ جاء فيه: "إن إنكسارات الأتراك أمام الجنود الذين تحت قيادتي قد أدى إلى احتلال جنودي لمدينتكم و لهذا أعلن أنها أصبحت الآن تحت الأحكام العسكرية....ما دامت الاعتبارات الحرية تقضي بوجوبه ولكن حذار أن يعتري بعضكم الخوف نظرا لما خيروهم تحت حكم العدو المتقهقر، و أبلغكم بأي راغب في أن كل إنسان يمارس عمله المشروع دون أن يخشى تعرض أحد له...." إلا أن أحد رؤساء الإدارة البريطانية في فلسطين وهو السير لويز بولز sir-louis bois اعترف في تقرير له بأنه: "لا جدوى من محاولة إقناع العناصر المسلمة و المسيحية بأننا قد حافظنا على تعهدنا بالمحافظة على الوضع القائم عند دخولنا القدس لأن الحقائق تثبت غير ذلك لكن اللجنة الصهيونية لم تكن تعبأ بتعليمات الإدارة و لم يسعوا من أجل المساواة وإنما كانوا يطالبون بأن تكون لهم معاملة ممتازة...." أنظر: عادل حامد الجادر، المرجع السابق، ص، ص 41، 37.

وأهمل شروطها القاضية لضرورة رضى الأهالي و حماية مصالحهم. وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من أن قيام الحركة العربية و نجاحها الباهر و انسحاب روسيا قد أوجد حالة أخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى"¹.

كما أرسل جمال باشا برسالتين الأولى إلى القائد جعفر العسكري بتاريخ 26 نوفمبر 1917 و الثانية إلى الأمير عبد الله الذي كان حينها في وادي العيص بتاريخ 5 ديسمبر يفضخ فيها اتفاقية سايكس بيكو 1917، أما على الوسط الشعبي عمل جمال باشا على نشر الاتفاقية لكسب الرأي العام الشعبي، في صحف بيروت و دمشق و أصدر عددا خاصا بها في صحيفة الشرق الناطقة بلسان الحكومة و لقد تسربت نسخة من هذه الصحيفة إلى مكة عبر المدينة التي لم تزل تحت السيادة العثمانية و في 24 ديسمبر 1917.

و أمام هذه التطورات بعث الأمير فيصل رسالة إلى والده جاء فيه: " وردني خطاب مهم جدا من جمال باشا... يقول أن الدولة العثمانية تريد البحث في المسائل، و يعرض أن أتقابل أنا و الشيخ بدر الدين في مكان معين و سيخبرني الشيخ بدر الدين بأراء الدولة العثمانية. رد الشريف حسين في رسالته إلى فيصل في 11 جانفي 1918 يذكر " أن الحلفاء أجل و أكبر من أن يخلو بحرف من مقرراتنا معهم، و هم أحرص الناس على ملاحظة مثل هذه الدقائق فلا تفكر في ذلك و أطمئن و أعلم أنه لا حكم بيننا و بين الترك إلا السيف...."، و في 1 فيفري 1918 عرض الاتحاديون الصلح مع الشريف حسين (الصغير) الذي تسلم قيادة الجيش الرابع رغم أن الأمير فيصل لم يعارض الصلح غير أن الشريف أصر على رفضه لمشروع الصلح مؤكدا للأمير فيصل وفاء الحلفاء بوعدهم كما أنه بعث بدعوة جمال الثاني إلى السير و نجت. في 5 جوان 1918 حاول جمال باشا (الثاني) طرح الصلح من جديد مع الأمير فيصل إلا أن هذا الأخير قدم الشروط التالية مقابل الصلح:

- 1- التحاق جميع الضباط العرب الموجودين في الأناضول و الروميللي بالجيش العربي، كما تنقل جميع القوات العسكرية المرابطة على خط سكة حديد بين المدينة - عمان إلى عمان.
- 2- يضع الجيش العربي تحت إمرة قائده في حالة اشتراكه بجانب الدولة العثمانية ضد العدو.
- 3- إعطاء سوريا استقلالاً ذاتياً.
- 4- تبقى المواد التموينية الموجودة في سورية تحت تصرف الجيش العربي.

¹ - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص - ص 358 وما بعدها

من خلال هذا يكون الأمير فيصل قد مال للاتفاق المناسب بعدما فقد الثقة في الحلفاء و الإسراع في الاجابة على مطالبه قبل فوات الأوان¹.

آثارها:

- تعتبر اتفاقية سايكس بيكو اختراق للالتزامات التي قطعتها بريطانيا مع الحسين شريف مكة و تنسجم قرارات الاتفاقية مع الاطماع والمصالح الاستعمارية².

-مكنت الثورة العربية البريطانيين و الفرنسيين من احتلال بلاد الشام و فرض حكمهم حسب اتفاقية سايكس بيكو التي لا زال العرب يعاني من شر عملية البلقنة إلى يومنا هذا³.

-إن اتفاقية سايكس بيكو أقامت حواجز أمام تحقيق الوحدة السورية العراقية و قطعت الجسور بين الجزيرة العربية في الجنوب و سورية و لبنان في الشمال و مصر و شمال افريقيا في الغرب كما أن المنطقة وقعت تحت انتدابين مختلفين⁴.

- وضعت فلسطين تحت إدارة دولية رغم معارضة الكثير من السياسيين لذلك خوفا من الأطماع الفرنسية و لذلك عمل بعض الصهاينة على دفع بريطانيا إلى ربط فلسطين بمصير المطامع الصهيونية السياسية⁵.

-وضعت الاتفاقية عراقيل مصطنعة في طريق الوحدة و قيام دولة عربية مستقرة، كما هيأت الاتفاقية قيام كيان مقلوب، بحيث يصبح فيه المتقدمون أي سكان سورية و العراق الانضج سياسيا وأكثر تطورا تحت نظام الحكم الأجنبي المباشر و يوضع المتأخرون في المقدمة و هم سكان المناطق الداخلية الأقل تقدما، وفي هذه المنطقة ستشكل دولا عربية مستقلة و هذا ما تفسره لنا المنطقة الحمراء والمنطقة "ب" فالمنطقة الحمراء تضم بغداد والبصرة تحرم حتى من مظاهر الحكم الذاتي والمنطقة "ب" ثلثها مراعي شبه صحراوية لا يتمتع سكانها بالنضج السياسي والفكري⁶.

- قد خسرت سوريا وحدتها الجيوسياسية والطبيعية والتاريخية وفقدت من جراء تطبيقها مقومات هويتها الوطنية الأصيلة وفقدت انسجام الاتجاهات السياسية التكوينية للامة وضاعت إحدى مناطقها الغالية

¹-كليب سعود الفوزان، المرجع نفسه، ص-ص 191-193.

²- عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين، المرجع السابق، ص32

³- جوزيف حجار، المرجع السابق، ص61.

⁴-محمد جعفر الحياي، المرجع السابق، ص 149.

⁵- عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين، المرجع السابق، ص 33.

⁶- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص-ص 353-354.

والمقدسة لصالح الاستيطان الصهيوني - إن أهمية اتفاقية سايكس بيكو في سياقها التاريخي الراهن تكمن في: إتاحة الدول الاستعمارية المتحالفة في إقامة نظام جديد وشامل في المشرق العربي على أساس مصالحها و أطماعها¹.

- تعتبر اتفاقية سايكس بيكو من أخطر الاتفاقيات نظرا لمضامينها الكاملة وأبعادها السياسية في الماضي والحاضر و المستقبل، فلم تفقد بعد طبيعة أهدافها مع زوال حكم الانتداب ومازالت المنطقة تعاني من آثارها و عواقبها في جميع مجالاتها السياسية و الاقتصادية والاجتماعية. كقضية الحدود والمياه، الأماكن المقدسة المسيحية و الإسلامية و غيرها من القضايا. وهذا ما أثر على العلاقات العربية - العربية².

- تكونت في النواحي الداخلية لشرقي نهر الأردن إمارة جديدة لصالح عميلها الأمير عبد الله وبالتالي عملت بريطانيا على خلق انسجام وتناسق بين الحركتين المتعارضتين المتناقضتين الصهيونية السياسية والقومية العربية. أما في المناطق الوسطى والشمالية من سوريا فإن الدولة المنتدبة التجأت إلى تكوين كيانات صغيرة تطمح في الاستقلال الذاتي على شكل دويلات ووضعت لها أسماء حسب طموحاتها القديمة في سوريا المدعوة قبل و خلال الحرب فرنسا المشرقية لتصبح بعد تطبيق اتفاقية سايكس بيكو دول المشرق الفرنسي *les etats du levant français* وهذه الدول هي دولة لبنان الكبير ودولة جبل الدروز و دولة العلويين و دولة دمشق و دولة حلب و مناطق أخرى في اللاذقية وسنحج الاسكندرونة والجزيرة تبقى موحدة تحت الحكم الفرنسي و بالتالي فإن فرنسا تمزق وتوحد في آن واحد.

-تهدف اتفاقية سايكس بيكو إلى القضاء على المشكلة السورية وتهميش أهميتها التاريخية فلا يبقى للوجود الوحدوي السوري ككل أهمية جيوسياسية واستراتيجية تذكر بعد كما كانت القضية السورية في السابق مركزية و غاية في الأهمية³.

إن الحركة القومية في كل من سوريا ولبنان التي صارعت السلطة التركية وصلت إلى مرحلة تسمح لها بالسيطرة أثناء الحرب العالمية الأولى، إلا أن هذه البلدان وقعت تحت الاستعمار البريطاني و الفرنسي وأصبحت تصارعهما لانتزاع حريتها التي كانت هدفها السابق⁴.

¹ - جوزيف حجار، المرجع السابق، ص، ص 58، 55.

² - نفس المرجع، ص - ص 5 - 13.

³ - نفس المرجع، ص 62.

⁴ - ابراهيم أبو لغد، "الاستعمار وازمة التطور في الوطن العربي"، الاصاله، ع25، وزارة الشؤون الدينية، ماي، جوان 1975، ص287.

2- وعد بلفور

أدرك هرتزل أن مشروعه لن تتبناه غير الدول الاستعمارية التي تتنافس من أجل السيطرة على مناطق نفوذ في آسيا وأفريقيا وعلى رأسها بريطانيا ولذلك يقول: "منذ اللحظة الأولى اتجهت أنظاري إلى إنجلترا"¹.

يذكر هرتزبرغ arther hertzberg إن الصهيوني فلاديمير يابوتينسكي vladimir-jabotinsky أدرك أن الطريق الأضمن إلى قيام الدولة اليهودية في فلسطين مركون بالحلفاء، فما كان على اليهود إلا أن يجاروا إلى جانب بريطانيا ويشاركوها في احتلال فلسطين، ومن هنا وجدت بريطانيا نفسها خلال الحرب أمام مشكلة حقيقية يصعب حلها، فمن جهة دخلت في اتفاقية مع فرنسا ومن جهة أخرى أعطت وعودا للعرب وأخرى للصهاينة².

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى كان مركز العمل الصهيوني في برلين و له محطة مهمة في لندن ومكاتب فرعية في عدد من الدول الأخرى ولذلك انحاز عدد من زعماء الصهاينة في بداية الحرب إلى جانب ألمانيا، إما بسبب عدائهم لروسيا أو لاستغلال العلاقة التي كانت تربط ألمانيا بالدولة العثمانية أما في بريطانيا فكان لحاييم وايزمن الروسي الأصل علاقات ودية مع لويس براندايس الصهيوني الأمريكي والمستشار الأول للرئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

أما موقف الحركة الصهيونية من الحرب وعلى رأسها حاييم وايزمن فقد اعتمدت على مراقبة موازين القوى بدقة ومن ثم تحديد الطرف الذي سيقفون إلى جانبه حسب المعطيات المتوفرة ولذلك سارع وايزمان إلى اقتراح نقل المركز الصهيوني مؤقتا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بسبب حيادها في الحرب خلال الأعوام الأولى من اندلاعها ومع أن اقتراح حاييم وايزمان لم يقبل، إلا أنه تم تأسيس لجنة برئاسة لويس براندايس في الولايات المتحدة³.

خلال الحرب العالمية الأولى تنافست كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا لكسب ود اليهود وصدقة بيوت المال التي يسيطرون عليها وفي المقابل استغلت الحركة الصهيونية الأطراف المتنافسة والمتحاربة لخدمة مشروعها الاستيطاني في فلسطين⁴، كما عملت بريطانيا و فرنسا إلى توظيف الموقف الصهيوني في تشجيع

¹-بديعة أمين، المرجع السابق، ص 157.

²- لويل ثوماس، المرجع السابق، ص 257

³- موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص-ص 254-257.

⁴- كتب اسكويت في مقيدة من مقيداته بتاريخ 13 مارس 1915 عن العرائض التي قدمت إليه عندما كان رئيسا للوزراء منذ بداية 1915 منها مذكرة قدمها هربرت صموئيل بحث فيها بريطانيا على استلحاق فلسطين، هذا الاقتراح قبله لويد جورج =

الولايات المتحدة الأمريكية على الدخول إلى الحرب إلى جانب الحلفاء و لذلك عمل حاييم وايزمان¹ وبراندائيس على استغلال كل الطاقات الصهيونية الصديقة و زجها في المعركة² إلى جانب الحلفاء³. و هكذا اتصلت المنظمة الصهيونية والمخابرات البريطانية سرّيا بالقاضي لويس براندائيس Lewis-Brands و ابلاغته: " بأن الحكومة البريطانية مستعدة لمساعدة اليهود في الحصول على فلسطين، مقابل الدعم اليهودي النشط لقضية الحلفاء في الولايات المتحدة بحيث يتغير الجو السياسي بشكل جذري لصالح الحلفاء"⁴. أخبر لويس برنديس فيليب قريفاس Philipps-Grifas رئيس الحركة الصهيونية في أمريكا تفاصيل الاجراءات التي اتخذتها بريطانيا. و في 26 سبتمبر 1917 أخبر لويس براندس حاييم وايزمان بأن الرئيس الأمريكي وافق على وعد بلفور⁵. صدر وعد بلفور⁶ بعد المداولات التي جمعت المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانية وتمت بعلم الولايات المتحدة الأمريكية ورضائها، استمرت المداولات من 1916 إلى 1917 ثم أجريت محادثات مماثلة مع الحكومتين الفرنسية والايطالية وتم الاتفاق على المشروع الصهيوني في كل من باريس ولندن

=ورفضه أسكويث حيث يقول : ".....و فيها يستحثنا إذا نحن توزعنا أملاك الأتراك في آسيا أن نأخذ فلسطين حيث يتجمع اليهود المتشتتون مع الزمن من جميع الكرة الأرضية و يحصلون في الوقت المناسب على الحكم الذاتي". أنظر:جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص-ص 371- 372.

¹- كان وايزمان يشعر بحرج الإدارة الأمريكية في تبني موقف حكومة بريطانيا بشأن فلسطين لأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن في حالة حرب مع تركيا ولم تشارك في صياغة إتفاقية سايكس بيكو وأن الرئيس الأمريكي ولسون هو صاحب مبادئ ولسون الأربعة عشر والتي انتشرت اصداؤها في العالم خاصة مبدأ حق الشعوب في تقرير. أنظر: موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص-ص 257-259.

²- أنشأ المتطرفون الصهاينة في فلسطين منظمة سرية من بين مؤسسيها أهرونسون الذي عينه جمال باشا نظرا لخبرته في الزراعة رئيسا لهيئة مكافحة الجراد في سوريا، ساعده هذا المنصب في التنقل في البلاد وجمع معلومات عن انتشار القوات التركية وتحصينها ونقلها إلى القيادة البريطانية وحملت الشبكة اسم " نيلي" ومن بين اهدافها التمهيد لانزال بحري على شواطئ فلسطين لكن الشبكة اكتشفت واعتقل وأعدم بعض افرادها وهرب البعض الآخر. أنظر: الياس شوافي، المرجع السابق، ص 361.

³- موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص 259.

⁴- عبد الوهاب الكيالي، موجز في تاريخ فلسطين، المرجع السابق، ص 34.

⁵-Ali Abu Hassan, op.cit, p 13.

⁶-يعتبر وعد بلفور من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ حيث منحت دولة استعمارية أرضا لا تملكها إلى الصهاينة على حساب الشعب الفلسطيني، في الوقت الذي كانت الجيوش العربية الذي يضم الكثير من الفلسطينيين يقدم تضحيات جسيمة من أجل انتصار بريطانيا. أنظر : عبد الوهاب الكيالي، موجز في تاريخ فلسطين ، المرجع السابق ، ص 34.

وروما، إلا أن الاعلان الرسمي على هذه الموافقة كانت في نهاية أكتوبر 1917¹ عندما أصبح نجاح حملة الجنرال ألني أكيدة²، أي في الوقت الذي بدأ فيه هجوم الجنرال ألني على فلسطين³، و الذي يعتبر بداية للغزو الصهيوني الذي انتهى بإنشاء دولة اسرائيل⁴ في فلسطين.

لقد أذيع وعد بلفور بعد سنتين من المذكرة التي أصدرها هنري مكماهون بتاريخ 24 أكتوبر 1915 و بعد ثمانية عشر شهرا من قيام الثورة العربية⁵، حيث ألقت الطائرات البريطانية مباشرة بعد صدور التصريح منشورات بنصه فوق المدن الألمانية و النمساوية و وزعت منشورات أخرى في بولندة وأماكن من شرق أوروبا أين تتركز التجمعات اليهودية و حتى في روسيا⁶.

لقد عبر مراسل جريدة تايمز البريطانية في واشنطن الاعتراف الأمريكي بالصهيونية و مشاريعها في فلسطين و ذكر في تقرير قدمه لحكومته في 18 مارس 1918 عن قلق العرب على الاشاعات التي تدور حول تكوين وطن قومي لليهود في فلسطين حسب التصريحات الفرنسية و الانجليزية المتناقضة بخصوص هذا الموضوع و هذا ما يمكن أن تستغله القوات الألمانية و التركية لاستمالة العرب ضد الحلفاء⁷.

عندما استفسر الشريف حسين حول حقيقة التصريح بلفور بعثت إليه الحكومة البريطانية في جانفي 1918 على يد (هوغارث) أحد رؤساء المكتب العربي في القاهرة في ذلك الوقت تصريحاً جاء فيه: " بالنسبة لفلسطين نحن مصممون ألا يخضع شعب لشعب آخر ولكن بالنظر إلى:

- أنه لا توجد في فلسطين مقامات و أوقاف وأضرحة وأماكن مقدسة للمسلمين وحدهم أو لليهود وحدهم أو للمسيحيين وحدهم، وبالنظر لاهتمام جماهير خارج فلسطين والبلاد العربية بهذه الأماكن فيجب أن يقام نظام خاص يقره العالم بخصوص هذه الأماكن.

¹- أنظر الملحق رقم 05، ص 335

²- عادل الجادر، المرجع السابق، ص 21.

³- و في عام 1918 وبينما كان الشريف حسين يتهيأ للجلوس على عرش الامبراطورية كان الجنرال ألني قائد القوات المشتركة للحلفاء يدخل القدس ويعلن على رؤوس الشهداء انتهاء الحروب الصليبية " لم تنته هذه الحروب عندما أعاد صلاح الدين القدس إلى هويتها الإسلامية ، بل انتهت اليوم عندما أعادها ألني إلى هويتها الصليبية، و حتى الجنرال غوروا الفرنسي و هو يدخل دمشق وقف على قبر صلاح الدين قائلاً : ها قد عدنا يا صلاح الدين ...!". أنظر: أمصطفى محمد الطحان، مشروعات اصلاح أم هيمنة استعمارية جديدة؟. أنظر: مجلة رؤى، العددان 21-22، مركز الدراسات الحضارية، باريس 2004، ص 47

⁴- عادل الجادر، المرجع السابق، ص 28

⁵- جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 375.

⁶- باميلان سميت، المرجع السابق، ص 53.

⁷-Ali Abu Hassan, op.cit, p 13.

- أنه بالنسبة لمسجد عمر أي المسجد الأقصى يعتبر أمره من شأن المسلمين وحده و لن يوضع مباشرة أو غير مباشرة في سلطة غير مسلمة.

- إن الرأي العام اليهودي في العالم يجذب عودة اليهود إلى فلسطين، و أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف نحو تحقيق هذا المطمح، خاصة في حالة تعارضه مع حرية السكان الموجودين فعلا من الناحيتين الاقتصادية و السياسية لن يقوم عائق في طريق تحقيق هذا الهدف الأسمى".

لكن الحسين شريف مكة أمام تطمينات بريطانيا أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يؤثر على استقلال العرب فيها أمر أبنائه بتهدة المخاوف التي أحدثها تصريح بلفور و التعاون مع بريطانيا¹، لقد علم عرب فلسطين بنص وعد بلفور رسميا في 20 فيفري 1920 في بيان أذاعه الحاكم العسكري العام السير بولز فأحدث هذا التصريح استياء كبيرا في نفوس الأهالي، عرفت من خلاله البلاد موجة من المظاهرات والاحتجاجات، كما شنت عليه جريدة سوريا الجنوبية حملة واسعة² و في هذا الصدد وصف الجنرال كليتن رئيس المكتب السياسي الملحق بالجنرال النبي أثر الوعد: "لقد أحدث الإعلان الأخير حولة المسألة اليهودية الذي أصدرته حكومته صاحب الجلالة أثرا عميقا في المسلمين و المسيحيين الذين يتطلعون على فلسطين وسوريا بألم وخوف من اليهود."³

أما الصهاينة فقد روجوا عن العوامل التي دفعت بريطانيا إلى إصدار وعد بلفور ومن باب الدعاية لأنفسهم التدليل على ما يتمتعون به من قوى في الأوساط الدولية⁴ لكن العوامل الحقيقية التي دفعت بريطانيا إلى إصدار تصريح يرجع إلى:

1- عامل سياسي: ويكمن في رغبة بريطانيا استمالة العناصر الصهيونية في ألمانيا والنمسا التي كانت تفاوض دول الوسط بالفعل للحصول على تصريح من تركيا مماثل لتصريح بلفور، فتنصرف تلك العناصر إلى الاهتمام الإيجابي بانتصار الحلفاء وكذلك كسب ود يهود روسيا الذين لعبوا دورا في الثورة الشيوعية

¹ - عادل حسن غنيم، المرجع السابق، ص- ص 22-23.

² - عادل حسن غنيم، نفس المرجع ، ص24.

³ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 201.

⁴ - ويرد عباس العقاد على الذين يعتقدون أن اليهود التي قام بها وايزمن هي التي أدت إلى صدور تصريح بلفور فيقول: "كل ما يقال عن تعليل الحصول على وعد بلفور بقصة وايزمان واختراعه الكيماوي النافع في صناعة المتفجرات فهو من خرافات اذ ليس بالمعقول أن تحمل بريطانيا أعباء الوطن اليهودي لتكافئ مخترعا يعمل في مصانعها وجامعاتها وهذا الوعد هو جزء من سياسة عامة تتناول الشرق الأدنى برمته، ومنه فلسطين وسائر البلاد العربية". أنظر: علي حسين الخربوطلي ، المرجع السابق، ص271.

من أجل بقاء روسيا إلى جانب الحلفاء في الحرب، إلا أن خروج روسيا من الحرب إرتاح له الصهاينة لأن الحكومة القيصريّة عارضت تحقيق آماني الصهيونية القومية الواسعة وانسحابها من الحرب سوف يزيد من حدة الصراع بين بريطانيا و فرنسا في فلسطين و لذلك احتاجت بريطانيا إلى تأييد الصهيونية لمواجهة فرنسا التي أصبح مركزها قويا بعد انسحاب روسيا.

2- عامل استراتيجي: ترمي بريطانيا من خلاله إلى تحقيق الغاية التي كان كتشنر أول من دعا إليها و هي جعل فلسطين أو جزء منها حصنا يحمي مركز بريطانيا في مصر ويؤمن الاتصال البري مع الشرق¹.

3- أما العامل الثالث: فهي العلاقة الوطيدة و المصيرية بين الاستعمار و الصهيونية و نستدل على ذلك بحديث دار بين وايزمان و اللورد بلفور في 4 ديسمبر 1918 حيث قال وايزمان: " قد أقنعت اللورد بأن ما يسمى بالاستعمار ليس إلا الصهيونية بعينها"².

إن تعاطف الرئيس الأمريكي ويلسون مع الحركة الصهيونية أثر على الحكومات الفرنسية و الايطالية التي لم تبد أي اعتراض على المشروع³ لأن الولايات المتحدة الامريكية وافقت رسميا على وعد بلفور عبر قرار مشترك لمجلس الشيوخ و النواب في 30 جوان 1922⁴.

¹- كانت السياسة الاستعمارية اتجاه الشرق العربي قد تبلورت في تقرير خاص يعرف باسم تقرير (كامبل بانرمان - campbell-bannerman) رئيس وزراء بريطانيا عام 1907 جاء فيه: ".... إن الخطر ضد الاستعمار يكمن في البحر المتوسط ، فعلى الشواطئ الشرقية و الجنوبية لهذا البحر يعيش شعب واحد ، تتوفر له وحدة التاريخ والدين و اللغة وكل مقومات التجمع والترايط، هذا فضلا عن ثرواته الطبيعية و نزعتة للتحرر ، فلو أخذت هذه المنطقة بالوسائل الحديثة ، وامكانيات الصناعة الأوروبية، وانتشر التعليم بها ، فستحل الضربة القاضية بالاستعمار الغربي - فيجب إذن على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزأة هذه المنطقة ، وابقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر، وهذا يستلزم فصل الجزء الافريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي و غريب، يحتل الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقيا ، بحيث يشكل في هذه المنطقة و على مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار و عدوة لسكان المنطقة.....".

و لما علمت الصهيونية بنص التقرير عملت على أن تكون هي الدولة التي تفصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، يعتبر هذا التقرير بمثابة ورقة عمل للدبلوماسية البريطانية في الشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى. أنظر : عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص-ص 607- 608.

كما يذكر حاييم ويزمان بأن تدمير الدولة العثمانية سيفتح أبواب الشرق لاستقرار اليهود في فلسطين. أنظر: مصطفى حلمي نكبة فلسطين، المرجع السابق، ص-ص 84-85.

²- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص، ص 622، 625.

³-Ali Abu Hassan, op.cit, p 13.

⁴- الياس شوفاني، المرجع السابق، ص 368.

آثاره:

يعتبر تصريح بلفور تصريحاً سياسياً لأنه صادر وموجه من حكومة إلى فرد ليس له اختصاص ليتلقى مثل هذا الوعد في القانون الدولي، لأن روتشيلد ممثلاً لمنظمات خاصة ليس لها اختصاص أو صلاحية في إنشاء الارتباطات الدولية، و لذلك فإن هذا الوعد لا يندرج في عداد العلاقات أو الالتزامات التي ينظمها القانون الدولي، كما أن قانون الحرب لا يسمح لبريطانيا بالتصرف بالأراضي المحتلة. والأخطر ما نص عليه وعد بلفور هو تجاهل شعب عربي يمثل الأكرية 91% من السكان حيث وصفهم التصريح الجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين واعتبر اليهود الأقلية أنهم الاصل¹.

- إن تصريح بلفور يتنافى مع المبادئ التي نادى بها بريطانيا وحلفائها خلال الحرب العالمية الأولى من حق الشعوب في تقرير مصيرها وعندما حاولت الولايات المتحدة الأمريكية تطبيق هذا المبدأ وجدت نفسها مجبرة على إرسال لجنة أمريكية عرفت بلجنة (كنغ - كرين) للقيام بعملية الاستفتاء والتي كانت نتائجها تنص على معارضة السكان جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، إلا أن هذه النتيجة بقيت في طي الكتمان².

- إلتهأت بريطانيا من خلال وعد بلفور إلى تكوين كيان لليهود في فلسطين وأصبحت القدس مركز إدارة الانتداب و هذا ما سمح للمنظمات الصهيونية العالمية الاستقرار في القدس³.

- يعتبر هذا الوعد أحد التعديلات التي طرأت على اتفاقية سايكس بيكو خاصة بعد انسحاب روسيا من الحلف و كذا تراجع فرنسا في مناطق الكردستان و لاسيما الموصل و فلسطين للنظام الدولي الصادر في 4 ديسمبر 1918 المحاييد كذلك قرارات سان ريمو 15-16 أبريل 1920 ثم تثبيته رسمياً و دولياً على بلاد المشرق في 24 جويلية 1922⁴.

- يعد تصريح بلفور مرحلة مهمة بالنسبة للحركة الصهيونية و النشاط الاستعماري الغربي في المنطقة العربية حيث تجنب الوعد ذكر كلمة عرب سواء كان مسلماً أو مسيحياً و جعلهم أقليات، أما الأقليات اليهودية التي تعيش في فلسطين وصفها التصريح بأنها الشعب اليهودي في فلسطين وهذا قلب للوقائع التاريخية،

¹- عادل الجادر، المرجع السابق، ص 31

²- موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص، ص 286 ، 295.

³ Maurice Konopniki, Eliezer Ben Rafail, Jérusalem, que sais-je, 1^{ère} édit, presse universitaire, France, 1987, p 19.

⁴- جوزيف حجار، المرجع السابق، ص 30.

رغم أن الوعد أصدر في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مرتبطة مع الحسين باتفاق ينص على تكوين دولة عربية مستقلة تشمل فلسطين¹.

-ولّد وعد بلفور فزعا كبيرا في بلاد الشام ذات الاتصال المباشر بالحلفاء لما يحويه من انكار لحرية العرب السياسية في فلسطين² و يمثل بداية مرحلة جديدة قويت فيها شوكة الحركة، حيث اتخذ الصهيونيون منه سنداً قانونياً لهم في جميع الخطوات و الإجراءات التي قاموا بها وكانت كلها تهدف في ظاهرها إلى إنشاء الوطن القومي و في باطنها إلى إنشاء الدولة اليهودية فاعتمدت المنظمة الصهيونية عليه ابتداء من صدوره في 2 نوفمبر 1917 كما اعتمدت عليه اسرائيل منذ عام 1948 باعتبار انه يمنح سلطة قانونية دولية لدعاوي جنسية (الشعب اليهودي)³.

لقد شعر رواد الاصلاح بخيبة أمل عندما رأوا ضباط انجلترا وفرنسا كاتروا، غوروا، وألبي، وكوكس، لورانس، يحتفلون و يفتخرون بانتصاراتهم على الدولة العثمانية مع الاساءة الى مشاعر المسلمين خاصة ما فعله الجنرال ألبي في القدس وغوروا عند ضريح صلاح الدين الأيوبي، رغم أنهم مجرد ضباط يقودون العشائر العربية بأمر حسين بن علي⁴، وحتى لورانس يذكر لرجال الصحافة: "إني أؤيد الصهيونية وأن اليهود لابد أنهم سوف يحولون فلسطين الى دولة منظمة جدا، كأنها دولة أوروبية باستخدام مهارتهم ورأس مالهم"⁵.

يرى المؤرخ محمد عزة دروزة في كتابه التوافق بين أغراض الانجليز الاستعمارية و بين الصهيونية مايلي: "بصرف النظر عما إذا كان الانجليز رأوا في سعة آمال اليهود خيالا غير قابل للتحقيق أم لا، فإن ايجاد كيان يهودي سياسي حتى في قسم من فلسطين وهو ما اتبعوه منذ البدء على الأقل، كان متسقا مع السياسة التي رسموها بالنسبة للعرب، حيث كانوا يقدرون أن هذا الكيان سيظل خادما لنفوذهم ودائرا في فلكهم، وفي حاجة دائمة إلى حمايتهم ورعايتهم، وسيكون في الوقت نفسه مشغلة للعرب ينهك قواهم ويورثهم الهم الدائم واسفيننا في بلادهم، يعرقل كل محاولة للوحدة أو الاتحاد فيما بينها وسيكون كذلك

¹- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 626

²-جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص375.

³-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 32

⁴-لقد عبر حسين شريف مكة عن حسرته قائلا: "لقد تجاهلت النقد الذي تلقينته من مسلمي تركيا بشأن علاقتي مع بريطانيا وقد وجدت في الاستجابة لدعوة بريطانيا لي لإعلان الثورة تجديدا لمجد العرب و ارضاء لمشاعر المسلمين و كانت نتيجة ذلك نهاية العرب و نهاية تركيا على السواء. أنظر: محمد الخير عبد القادر: نكبة الامة العربية بسقوط الخلافة العثمانية دراسة للقضية العربية في خمسين عاما، ص 213.

⁵- موفق بني المرجة، المرجع السابق، ص، ص286 ، 295.

وسيلة دعاية و تخويف للعرب و ذريعة لحفظ التوازن بينهم و بين اليهود، و إثارة الشعور في العرب أيضا للحاجة الدائمة اليهم ، مما يدل فعلا عن النوايا البريطانية المبنية لضمان تحقيق السياسة المرسومة لتضييل شأن العرب لأنهم أقوى من اليهود في فلسطين¹.

المبحث الثالث: الانتداب البريطاني والفرنسي على بلاد الشام

عندما تبلورت فكرة الانفصال لدى زعماء الحركة العربية عن الدولة العثمانية، عقدت اللجنة العليا لجمعية العربية الفتاة اجتماعا في بيروت في مكتب جريدة (المفيد) واتفق أعضاؤها على أن يكون علم الدولة العربية المستقلة من ثلاث ألوان: " الأبيض ويرمز للدولة الأموية و الأسود و يرمز للدولة العباسية والأخضر و يرمز للدولة الفاطمية " و لقد استحسن أعضاء حزب اللامركزية فكرة ألوان العلم العربي، بعد إعلان الثورة العربية الكبرى اتخذ حسين الشريف العلم ذا الألوان الأربعة علما للدولة العربية الجديدة².

قبل نهاية الحرب تكونت هيئة قومية تضم كل من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر و السيد محمد رشيد رضا و رفيق العظم و غيرها للتصدي للنشاط الفرنسي في المحيط السوري و اللبناني و قد عملت هذه الهيئة على إقناع الأمير فيصل بإرسال وفد إلى أوروبا و أمريكا ليقوم بدور دعائي للثورة العربية و تكون الوفد برئاسة اسكندر عمون لكن شريف حسين عارض إرسال الوفد لأن الأمير فيصل يريد أن يستقل بسوريا كما أن للخلافات التي كانت بين الضباط السوريين والعراقيين حول مسألة قيادة الجيش دفع السوريين واللبنانيين (في مارس - أبريل) 1918 إلى طرح قضية بلادهم بمعزل عن حركة الشريف حسين في الحجاز و أسس بعض السوريين في القاهرة حزبا سياسيا سوريا وأختير ميشال لطف الله من أعيان سوريا المسيحيين رئيسا للحزب و السيد رشيد رضا وكيلا للحزب وكانت من بين مبادئه العامة :

1- استقلال سوريا بوحدتها الطبيعية و القومية.

2- تكون حدود على الشكل التالي: من جبال طوروس شمالا، و نهر الخابور والفرات شرقا، الصحراء ومداين صالح جنوبا، والبحر الأحمر فخليج العقبة و رفح فبالبحر المتوسط غربا.

3- يعتمد الحكم على مبدأ اللامركزية حفاظا على حقوق الأقليات³.

لكن الجنرال ألني أعلن بعد سقوط القدس عن قيام إدارة عسكرية باسم " الإدارة الجنوبية لبلاد العدو المحتلة" و بالتالي أصبحت فلسطين تحت هذه الإدارة، أما سوريا الداخلية من العقبة إلى حلب وضعت

¹-علي حسني الخربوطلي، المرجع السابق، ص 272 .

²-علي معطي، المرجع السابق، ص304.

³- نفس المرجع ، ص- ص 329 - 330 .

فيها إدارة عربية على رأسها الأمير فيصل تحت اسم " الإدارة الشرقية لبلاد العدو المحتلة " أما سواحل سوريا و لبنان فأصبحت إدارتها تحت السيطرة الفرنسية باسم " الإدارة الغربية لبلاد العدو المحتلة"، و هذا ما يبين لنا أهداف و نوايا الحلفاء في تقسيم المنطقة تحت غطاء تنظيمات مؤقتة اقتضتها تدابير عسكرية محضة حتى يقرر مؤتمر الصلح مصيرها، هذه الاجراءات حولت بلاد الشام إلى منطقة مضطربة¹.

رغم تقرير لجنة كنغ كراين -التي أصر الرئيس الأمريكي على إرسالها إلى البلاد الشام لمعرفة رغبات السكان- و رغم قرارات المؤتمر السوري في 8 جوان 1919 الذي أقر الاستقلال السياسي و رفض التجزئة، إلا أن مؤتمر سان ريمو أقر الانتداب الفرنسي على سوريا و لبنان و الانتداب البريطاني على فلسطين والعراق مع تنفيذ وعد بلفور بشأن فلسطين².

1-الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان:

إن الحركة العربية القومية في كل من سوريا ولبنان التي صارعت السلطة التركية وصلت أثناء الحرب العالمية الأولى إلى مرحلة تسمح لها بالسيطرة نظرا للمساعدات العسكرية التي قدمتها للحلفاء ، وبدل أن تستقل هذه البلدان عن الدولة العثمانية كان لها أن تخضع للانتداب الفرنسي³ و أن تصارعه للحصول على الاستقلال الذي كان هدفها السابق⁴.

¹- عادل حسن غنيم، المرجع السابق، ص15 .

²- زهية قدورة، المرجع السابق، ص257

³-أكد لورانس بان القضية العربية تستند الى اربع وثائق مهمة والتي وصفها كما يلي :

أولاً:تعهد الحكومة البريطانية للشريف الملك حسين في أكتوبر 1915 بان تعترف باستقلال العرب باستثناء إقليمي بغداد والبصرة العراقيين و دون المساس بالمصالح الفرنسية .

ثانياً: اتفاقية سايكس بيكو 1916 التي قسمت الأقاليم العربية التي كانت تحت السيطرة التركية إلى خمس مناطق.

ثالثاً:أصدرت بريطانيا في القاهرة جوان 1917 بيانا ينص على بقاء الولايات السورية و المناطق العربية التي حررت من قبل سكانها خلال الحرب يجب أن تبقى مستقلة .

رابعاً: لقد وافق الإعلان البريطاني - الفرنسي الذي صدر في 9 نوفمبر 1918 على تشجيع الحكومات المحلية في كل من سوريا و العراق دون فرض اي شيء عليها لتأكيد العمل السيادي لمثل هذه الحكومات .

هذه الوثائق قد صدرت خلال الحرب من أجل كسب العرب إلى جانب الحلفاء ولا يوجد أي تناقض في هذه الوثائق الأربع. أنظر:لويل ثوماس، المرجع السابق، ص- ص255-256.

⁴- ابراهيم أبو لغد، المرجع السابق، ص287.

و مع نهاية 1917 أمرت الحكومة العثمانية جمال باشا بمغادرة سوريا و عينت الفريق جمال باشا المرشيني الملقب بجمال باشا الصغير خلفا له، و في سبتمبر 1918 أعلن للدمشقيين انسحاب الدولة العثمانية من سوريا، فأنزل الأمير سعيد الجزائري العلم العثماني في دار الولاية في 27 سبتمبر 1918 و تم اختياره رئيسا للحكومة المؤقتة حفاظا على أمن المدينة، و في 24 أكتوبر 1918 دخل الأمير فيصل و جيشه دمشق وأعلن عن قيام حكومة عربية بإسم والده جلالة الملك حسين، فزنت المدينة بالعلم العربي ذي الألوان الأربعة¹.

و في القاهرة تحركت شكوك العرب فأصدر سبعة من رجالات الحركة العربية المقيمين هناك مذكرة إلى الحكومة البريطانية يطالبون منها توضيح السياسة البريطانية بالنسبة للبلاد العربية، إلا أن بريطانيا أكدت لهم على تحقيق آمال العرب في الحرية و الاستقلال، و هنا لعبت مراوغة الحلفاء دورها² و لذلك ألح الأمير فيصل على بريطانيا و فرنسا أن تصدر بيانا توضح فيه مصير المنطقة، فأصدرت الدولتان تصريحاً مشتركاً في 17 نوفمبر 1918 أكدت فيه أن غرضهما هو تحرير الشعوب التي كانت تحت الظلم التركي، و إقامة حكومات قومية لها، وكانت خيبة أمل هذه الشعوب كبيرة عندما عرفت ان الدول المتحالفة تريد احتلال المنطقة و فصل فلسطين عنها³.

أما في بيروت فقد وصلت في 6 أكتوبر 1918 بواخر و مدرعات فرنسية إلى مرفئها كما وصلت قوات بريطانية⁴ في الوقت الذي عين فيه الأمير فيصل القائد شكري باشا الأيوبي حاكماً عاماً على لبنان ورفع فيها العلم العربي، ما دفع فرنسا إلى تطبيق بنود معاهدة سايكس بيكو أي جعل جبل لبنان تحت حكم حاكم عسكري فرنسي منحت له صلاحيات المتصرف كما تم تعيين جورج بيكو أول مفوض سام و له كذلك كل الصلاحيات من بينها إنزال العلم العربي من على داري الحكومة في بيروت و رفع العلم الفرنسي عليها، و تحريض بعض اللبنانيين على الأمير فيصل وحكومته، و في هذا الصدد يذكر الشيخ بشارة الخوري: "هذا وبال الفرنسيين ظل مشغولاً قلقاً لم يكونوا أميين على نتائج مساعيهم المحلية، فرجوا أن يذهب البطريك إلياس الحويك إلى باريس على رأس وفد من الأحرار و الكهنة للمطالبة باستقلال لبنان برعاية الدولة الفرنسية أيضاً، فنزل البطريك على رغبتهم و أبحر من حونه في أواخر صيف 1919 وقدم مذكرته المعروفة إلى جورج كليمونصو رئيس وزراء فرنسا ونال جواباً ملؤه الاطمئنان على مستقبل

¹-سلمى الحفار، المرجع السابق، ص 76.

²- زهية قدورة، المرجع السابق، ص 255.

³- عادل حسن غنيم، المرجع السابق، ص، 16.

⁴-سلمى الحفار، المرجع السابق، ص 77.

لبنان"، و يضيف الشيخ بشارة الخوري أن حتى العائلات الكبيرة انقسمت إلى قسمين قسم منها انضم إلى مجلس الأمير فيصل في دمشق و القسم الآخر تقرب من الحكام الفرنسيين في متصرفية لبنان¹.

و في لبنان عين حبيب باشا السعد رئيسا للحكومة الجديدة باسم الملك حسين و رفع العلم في الدوائر الحكومية و أصبحت الخطبة باسم الملك حسين و لكن فرنسا بعد نزولها في البر أنزلت الأعلام العربية كما نقض مندبو فرنسا بصورة رسمية ما أنشأه شكري باشا في إقامة حكومة عربية هاشمية و هذا ما يتناقض مع تصريح الحكومة البريطانية الذي أعلنت فيه بأنها تعترف بسيادة و استقلال العرب الذين يقطنون الأراضي التي تتحرر من السيطرة العثمانية بعمل العرب أنفسهم².

و لهذا سافر الأمير فيصل في 23 نوفمبر 1918 من بيروت لحضور مؤتمر الصلح بباريس و استقبل بصفته أمير حجازي جاء ليزور فرنسا فغادرها إلى بريطانيا³ و هذه أول صدمة صدمت فيصل استقباله بصفته الشخصية مجردا من كل صفة رسمية⁴، إن إختيار الأمير فيصل لتمثيل العرب في مؤتمر الصلح لم يكن موفقا لأنه لم يكن الرجل السياسي الحنك بإمكانه الدفاع عن مطالب العرب أمام الشخصيات الأوروبية التي كانت لها خبرة في السياسة و في الدبلوماسية و العلاقات الدولية، كما أنه لا يعرف شيئا عن اللغتين الفرنسية و الانجليزية، و أحيط الأمير فيصل بمجرد وصوله إلى بريطانيا بشخصيات مثل لورانس عملوا على كسب وده من أجل مصالح بريطانيا و الصهيونية و لذلك استطاعت هذه الأخيرة إقناع الأمير فيصل توقيع اتفاقية بينه و بين حاييم وايزمان.

و في 29 جانفي 1919 قدم الأمير فيصل إلى أعضاء مؤتمر الصلح بعد أن سمحت له فرنسا المشاركة فيه مذكرة⁵ حدد فيها بإيجاز حق العرب في الاستقلال جاء فيها: "جئت ممثلا لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الأتراك تلبية منه لرغبة بريطانيا و فرنسا لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من خط الأسكندرونة — ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوبا معترفا باستقلالها وسيادتها بضمنان من عصبة الأمم و يستثنى من هذا المطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة، وعدن وهي محمية بريطانيا وأني لأستند في مطلبي هذا على المبادئ التي صرح بها الرئيس ولسن وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها لما لها هي نفسها من مصالح مادية"،

¹-مصطفى حلمي، نكبة فلسطين، المرجع السابق، ص-ص 304-305.

²- ناجي علوش، المرجع السابق، ص 67.

³-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 640.

⁴-جلال يحيى، المرجع السابق، ص 220.

⁵-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 640

طالب الأمير فيصل أن تضم الدولة العربية كافة أجزاء سوريا و العراق و فلسطين و هذا ما رفضته فرنسا التي تعتبر أن لها حق حماية المسيحيين في سوريا، و رفضه الصهاينة لأنهم خططوا لجعل فلسطين تحت الحماية البريطانية¹.

و بالتالي فإن الأمير فيصل الذي مثل الحجاز في مؤتمر الصلح واجه ثلاث مؤتمرات كبرى وقفت كعائق أمام تحقيق الآمال العربية منها:

- المصلحة البريطانية في العراق و المصلحة الفرنسية في سوريا و المصلحة الصهيونية القومية في فلسطين²

أما الوفد الصهيوني فقد قدم مذكرة في 23 فيفري 1919 تضم عدة مطالب أهمها " إنشاء وطن قومي يهودي³ يتطور مع الزمن إلى تكوين كومونولث يتمتع بالاستقلال الذاتي، و يشمل هذا الوطن فلسطين و شرقي الأردن و جنوب لبنان و شطرا من سوريا و أطلق عليها وايزمان فلسطين التاريخية على أن تكون بريطانيا هي الدولة المنتدبة و أن تصدر عصبة الاممقرار بهذا الانتداب".

عندما تيقن فيصل أن مطالب الوفد الصهيوني سيقضي على عروبة فلسطين أدلى بتصريح إلى صحيفة le matin الفرنسية بأنه يرفض إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، لكن تعرض الأمير فيصل للضغط الصهيوني الشديد جعله يتراجع حيث كتب في 3 مارس 1919 رسالة إلى فيلكس فرانكفورتز عبر عن تأييده القوي للصهيونية⁴. والأخطر من ذلك فإن بريطانيا والصهيونية اتفقتا على جعل فلسطين " محمية " وأن تكون إسرائيل قاعدة استعمارية في فلسطين وبواسطة هذه القاعدة يتم تجزئة بلاد الشام ككل والاستفادة من إمكانياتها⁵.

احتلت فرنسا الساحل السوري إلا أن أطماعها امتدت لاحتلال الداخل ولتحقيق ذلك أنشأت بنك سوريا و لبنان للسيطرة على اقتصاديات البلاد فاستبدلت العملة المتداولة بالعملة النقدية الورقية المرتبطة بالفرنك الفرنسي وهكذا تأثرت حكومة فيصل اقتصاديا، وبعد انهزام الجيش العربي بقيادة وزير الدفاع

¹ - لويل ثوماس، المرجع السابق، ص 257

² - جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص 387.

³ - " لما استفهم الوزير روبرت لانسنغ 1864-1928 سياسي أمريكي عضو في الوفد الأمريكي إلى مؤتمر الصلح من وايزمان أمام المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح عما يعني تماما بالوطن القومي اجابه بجوابه المشهور : أن نتاح لنا الفرصة لبنني بالتدرج قومية في فلسطين هي لليهود بمقام الأمة الفرنسية للفرنسين و الأمة الانجليزية للإنجليز". أنظر: مصطفى خالدي، عمر فروخ، المرجع السابق، ص 187.

⁴ - عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص-ص 647-648.

⁵ - احمد شلبي، المرجع السابق، ص 655.

يوسف العظمة في معركة ميسلون أمام جيش فرنسا فرضت الانتداب على أرض الواقع وجزأت سوريا ولبنان إلى دولتين منفصلتين حيث وضعت للواء الاسكندرونة نظاما خاصا بهتم قسمت سوريا إلى أربع محافظات (دمشق- حلب- العلويين- جبل الدروز) و أنشأت دولة لبنان الكبير رغم معارضة الكثيرين من السوريين واللبنانيين في الداخل و الخارج لهذه الاجراءات¹ و في تقرير أرسله السيد هنري غيار M.Henri Gaillard وزير فرنسا في القاهرة إلى السيد رئيس مجلس وزير خارجية فرنسا بتاريخ 23 أبريل 1922 يذكر فيه أن وضع الملك حسين سيئ نظرا للمعارضة التي يواجهها من طرف زعماء المنطقة، إن قرار تكوين مجلس يمثل لبنان الكبير خلق احتجاجا في سوريا التي تطالب بتغيير الوضع و بالاستقلال و إلغاء الانتداب. و أن الوضع في فلسطين غير مستقر، لأن المجموعات السورية المتنافسة و المتعارضة إتحدت من أجل عقد مؤتمر من خلاله يعلنون عن رفضهم صيغة الانتداب الفرنسي في سوريا، و حتى المؤيدين للملك فيصل أصبحوا من المعارضين و لعبوا دورا في الاضطرابات التي عرفت دمشق، هذا الغليان يهدف إلى الانفصال عن حسين و أبنائه (فيصل) و بالتالي فنحن نواجه حركة وطنية سورية محظرة من قبل تهدف إلى تكوين وطن سوري مستقل يضم فلسطين و حسب المعلومات الواردة فإن الدعاية التركية قد تكون وراء هذه الاضطرابات وفكرة الاستقلال نادى بها الوطنيون المسلمون و حتى المسيحيون².

لقد أنتج نظام الانتداب الفرنسي في سوريا و لبنان عدة مظاهر للفرقة منها:

- تفكيك البنية الاجتماعية لبلاد الشام و ذلك عن طريق اقتطاع أراضي من ولاية دمشق والولايات الأخرى و ضمها لجبل لبنان.
- الحاق بعض الأراضي من مدينة اللاذقية السورية و تحويلها إلى مركز تجاري للطائفة العلوية.
- أصبح جبل العرب المركز الاداري لطائفة الدروز.
- عمل الجنرال غورو على دعم مواقف المسيحيين اللبنانيين الذين طالبوا بتوسيع حدود لبنان، فتكونت دولة لبنان الكبير هذا الكيان الجديد قضى على مخطط الأمير فيصل الذي يهدف إلى إقامة كونفيدرالي بين سوريا و لبنان " يضم كل الاتجاهات تحت رئاسته.
- أصبح المسلمون يمثلون أقلية و هم الذين كانوا في العهد العثماني يمثلون الأغلبية الحاكمة³.

¹ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص- ص 259-261.

² - الإحتلال الفرنسي لسوريا، تقرير حول الاضطرابات في سوريا، ص-ص 2-5، علة رقم 27 H 29.

³ - يوسف بن يزة، المرجع السابق، ص 161

وهذا ما تؤكدته التعليمات التي بعثها ارستيدبريان arstide briand في 17 مارس 1921 تبين فيه أهداف فرنسا في التجزئة: "إن استقلال لبنان الكبير¹ الذي أعلنه في السنة الماضية.... هو البرهان الأول على سياستنا. فهذا البلد المسيحي خليق بأن نقوده كلياً إلى ثقافتنا، وأن يعتمد علينا فيما بعد دون أي نيات مخفية، أن يمثل في الوقت نفسه نفوذنا التقليدي في الشرق ولا ينبغي، على أي حال أن نغرق هذا العنصر المسيحي في المحيط العربي المسلم الذي يفوقه كثيراً في العدد وعند تنظيم الانتداب لا بد للبنان من أن يقف على قدم المساواة مع سوريا رغم صغر مساحة أراضيه".

لقد بررت السلطات الفرنسية تجزئة سوريا بالدفاع عن مصالح الأقليات والطوائف الدينية المختلفة ولذلك أنشأت دولة لبنان الكبير بأكثرية مسيحية، ودولة العلويين بأكثرية علوية ودولة جبل الدروز بأكثرية درزية.

تعرضت سوريا لعمليات تجزئة أخرى بهدف تقطيع أوصالها: ففي 22 جوان 1922 أنشأ الاتحاد السوري يضم دولتي حلب و دمشق و أراضي العلويين استهدفت فرنسا من وراء ذلك إضعاف الحركة القومية العربية و السيطرة على البلاد مع خلق قوميات من الطوائف الدينية (مارونية - درزية - علوية - سنية) وهكذا يتم القضاء على الوحدة الوطنية².

هذه الكيانات المصطنعة غذتها فرنسا بالأحقاد والفتن والتفرقة وما تعيين الأمير فيصل ابن الحسين ملكاً على العراق والأمير عبد الله أميراً على شرقي الأردن إلا لقلب موازين القوى في المنطقة وإبقاء سوريا ولبنان في بحر من الفوضى والاضطرابات³ وليصبح المواطنون فيه يدعون عراقيين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين للقضاء على ما يسمى بعرب الشام والعراق.

إن هذه السياسة الاستعمارية عملت على تحطيم البنية والعلاقات الاقتصادية بين الأقطار العربية حيث يصبح لكل كيان ثرواته الطبيعية التي يسهل استغلالها فيما بعد وجعلها تابعة اقتصادياً للدول

¹-لقد حدد الجنرال غورو حدود دولة لبنان الكبير التي تمتد من النهر الكبير في الشمال إلى رأس النافورة في الجنوب و من ساحل البحر الأبيض إلى قمم جبل لبنان الشرقية وسمي لبنان الكبير تمييزاً له عن حدود متصرفية جبل لبنان التي كانت تابعة للأستانة مباشرة منذ 1861 وبالتالي قطع الفرنسيون الطريق على تحقيق الوحدة مع سوريا ، وهكذا انقسم زعماء لبنان بين متمسك بالوحدة ما بين سوريا ولبنان وبين من شجعتهم فرنسا للمطالبة بالاستقلال مع المحافظة على الأقضية الأربعة لقد دس المفوضين الساميين الذين عينتهم فرنسا بين المواطنين فغذوا الاختلاف الطائفي، انظر: زهية قدورة، المرجع السابق، ص308

²-علي المحافضة، "السياسة الفرنسية المعادية للوحدة العربية في سوريا ولبنان 1920-1946"، المرجع السابق، ص-344-349.

³- نفس المرجع ، ص، ص349، 354.

الكبرى، وحتى المؤسسات السياسية التي أقيمت في المنطقة لا تعبر على رغبات وطموحات الشعوب حيث أصبح لكل قطر تراث سياسي خاص وكذا تشويه الوحدة الثقافية بادخال ثقافة غريبة.

أدت التجزئة إلى وجود فراغ سياسي في أهم منطقة استراتيجية في العالم، و عززت اللهجات المحلية على حساب اللغة العربية الفصحى فحل الانتماء الاقليمي محل الانتماء القومي، و في هذا الصدد يقول ساطع الحصري: "إن كل دولة من الدول العربية أصبحت مركزا بل بؤرة لوطنية خاصة بها و هذه الوطنية الخاصة يراها كل فرد من أفرادها و يألفها و يرتبط بها نفسيا و يشعر من جرائها أنه يختلف عن غيره من مواطني الأقطار العربية الأخرى"¹.

و من أجل ضمان فرنسا التحالف مع تركيا وقعت الحكومة الفرنسية في 23 جوان 1939 اتفاقا ينص على ضم لواء الاسكندرونة لتركيا و يتضح لنا ذلك في مذكرات وزير خارجية فرنسا جورج بونيه: "لقد كنا في خصام تام مع ألمانيا بسبب مسألة السودان و تشكوسلوفكيا . و لم يكن الوقت مناسباً للدخول في نزاع خطير و دام مع تركيا التي كان لموقعها الاستراتيجي في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط أهمية كبيرة ، و استطعنا أن نقدر ذلك أثناء حرب 1914-1918، و كان الواجب أن نتجنب، بأي ثمن تكرار الخطأ الذي كاد أن يكون قاتلا لقضية الحلفاء ، كانت صداقة تركيا ضرورية أيضا من اجل الحصول على دعم روسيا، لأن العلاقات بين الدولتين كانت آنذا ممتازة"، و هكذا تكون فرنسا سلحت لواء الاسكندرونة خلافا للمادة الرابعة من صك الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وقدمته لتركيا متحدية مشاعر العرب في سوريا و في كل المشرق العربي².

2-الانتداب البريطاني على فلسطين والاردن:

- فلسطين:

بعد احتلال بريطانيا للقدس وضعتها تحت ادارة عسكرية لها مدير عام يقيم في القدس وسميت "بالادارة الجنوبية لبلاد العدو المحتلة"³. و بموجب قرارات مؤتمر سان ريمو 1920 أصبحت بريطانيا الدولة المنتدبة على فلسطين⁴ حيث جاء في مقدمة صك الانتداب الذي يحتوي على 28 مادة مايلي: "الاعتراف بصلة

¹ - محمد جعفر الحياي، الحركة القومية العربية 1920-1946، علوش ناجي محررا، المرجع السابق، ص151.

² -علي المحافظة، السياسة الفرنسية المعادية للوحدة العربية في سوريا ولبنان 1920-1946، المرجع السابق، ص351.

³ - محمد حافظ يعقوب، المرجع السابق، ص 59.

⁴ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 196.

الشعب اليهودي التاريخية بفلسطين و بأسس إعادة بنائهم لوطنهم القومي فيها"¹، لم يكن عدد اليهود في تلك الفترة يزيد عن 56 ألف شخص إلا أن سلطات الانتداب البريطاني فتحت أبواب الهجرة على مصرعيها لليهود العالم للهجرة إلى فلسطين².

عندما عين هربرت صموئيل البريطاني الصهيوني مندوبا ساميا على فلسطين سيطر اليهود على مرافق الدولة الحساسة و تحصلوا على امتيازات في عدة ميادين خاصة الصناعة و التجارة و الزراعة في الوقت الذي شدت على عرب فلسطين³، كما انتزعت من فلسطين المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن و أصبحت إمارة⁴، يهدف هربرت صموئيل من وراء هذا التقسيم حماية الدولة اليهودية من هجمات البدو و ثوراتهم، و في هذا الصدد يقول الدكتور فليب حتى عن هذه الإمارة: "إنها خلقت لتكون دولة حاجزة ما بين منطقة الانتداب البريطاني و ربوع القبائل البدوية الثائرة، و قد أسهمت بوضعها ذلك في حماية الدولة الصهيونية التي كانت بريطانيا تنشئها منذ تولت الانتداب على فلسطين"⁵. حذر خليل السكاكيني الأمة العربية من خطر الصهيونية حيث كتب في مقال نشرها قبيل مجيء لجنة كينغ كراين يبين فيه ضرورة اتحاد الأمة العربية لمواجهة الحركة الصهيونية في فلسطين و التجزئة التي تتعرض لها سوريا و لبنان التي ستحول المنطقة إلى أمم مختلفة لا تزيدها الأيام إلا اختلافا و قوة هذه البلدان تكمن في الوحدة⁶.

إن الخطر الصهيوني الذي أصبح واضحا جعل علاقات الطائفة المسلمة و المسيحية في فلسطين ممتازة رغم توترها في جميع الأقاليم التابعة للدولة العثمانية إثر حرب البلقان⁷ و حتى لجنة كينغ كراين حذرت فرنسا و بريطانيا من "اهتضام الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في فلسطين" و ألحت على إدخال تعديل كبير على البرنامج الصهيوني خاصة أن الشعور العربي معادي للصهيونية⁸.

¹ - عادل حامد الجادر، المرجع السابق، ص 91.

² - بن الأعلام محمد الصغير، "مراحل الهجرة اليهودية إلى فلسطين"، مجلة القبس، العدد 2، الجزائر، 1967. ص 72.

³ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 197.

⁴ - وهذا يتناقض مع نص المادة الخامسة من صك الانتداب التي تلتزم الدولة المنتدبة بحماية فلسطين ضد فقدان أي جزء من أراضيها أو تأجيرها. أنظر: عادل الجادر، المرجع السابق، ص 31

⁵ - عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص - ص 654 - 655.

⁶ - علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين عصر النهضة، المرجع السابق، ص 308.

⁷ - عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المرجع السابق، ص 67.

⁸ - زهية قدورة، المرجع السابق، ص 258.

دخل الانتداب البريطاني حيز التنفيذ في فلسطين في 3 ديسمبر 1923 بعد الاتفاق الانجلو - أميركي وبعدها وقعت تركيا معاهدة لوزان التي تنازلت بموجبها عن الولايات العربية التابعة للسلطنة العثمانية¹. لقد سهلت حكومة الانتداب لليهود اغتصاب الأراضي و امتلاكها و ألغت جميع قوانين و نظم ملكية الأراضي التي وضعها العثمانيون و التي تمنع اليهود من إمتلاك أراضي في فلسطين كما أرهقت حكومة الانتداب الفلاح الفلسطيني بالضرائب الباهظة لكي يتنازل على أرضه و يشتريها اليهودي و أصبحت اللغة العبرية لغة رسمية و بالتالي صارت فلسطين الإقليم الصغير يضم ثلاث لغات العربية و الانجليزية و العبرية، وصف صك الانتداب السكان الأصليين لفلسطين بالطوائف غير اليهودية مع أن اليهود لا يمثلون سوى 7 % من سكان فلسطين، و بالتالي فإن صك الانتداب هو انتهاك لمبادئ ولسن و اعتداء على مبادئ القانون الدولي و في هذا الصدد كتب المؤرخ الانجليزي توني يهاجم السياسة البريطانية في فلسطين " أصبح العرب في فلسطين هم الضحايا الأبرياء لقد بدأت المشكلة خلال الحرب العالمية الأولى حينما كان الغرب يخوض معركة حياة أو موت و يسعى للنصر بأي ثمن، فبذل الوعود للعرب ثم بذلها بعدهم لليهود ، وربما كان هذا الغدر مقبولا خلال الحرب، و لكن من غير المقبول و لا المعقول أن يتخلى الغرب بعد الانتصار عن مواجهة الموقف المعقد الذي خلفه في فلسطين"². أما هربرت صموئيل يذكر في كتابه ذكرى على عدم موافقته على أي مشروع قد يتعارض مع إيجاد الدولة اليهودية في فلسطين و أنه من الأفضل للدولة اليهودية أن تكون لها جارة أوروبية ويقصد هنا الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان³. لم يستسلم عرب فلسطين للسياسة البريطانية⁴ والصهيونية في فلسطين ولم يواجهوا القضية سياسيا⁵. بل اندلعت عدة ثورات شعبية في الفترة الممتدة من 1920 إلى 1949 تعبر عن رفضه القوانين الانتداب في

¹-الباس شوفاني، المرجع السابق، ص 368.

²- علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص 277 وما بعدها

³- عادل حامد الجادر، المرجع السابق، ص 49.

⁴-وصفت الكاتبة الانجليزية فرنسيس املي نيوتون الحكم البريطاني لفلسطين فقالت: " عملت هذه الحكومة البريطانية الموسومة بالمدينة من أجل تدعيم الوطن القومي اليهودي في بلاد عربية، فكان ذلك في الواقع تحكما واعتسافا وعبثا بحقوق العرب ومست الحقوق الدستورية للحكم في البلاد، و قامت هذه الحكومة على غير أساس دولي وراحت تتصرف كما شئت تبعا للسياسة الصهيونية." أنظر:علي حسين الخربوطلي، المرجع السابق، ص 280

⁵-ظهر الانقسام في الزعامة العربية الفلسطينية منذ الأيام الأولى للاحتلال البريطاني لفلسطين حيث أن معظمهم رجال الجمعيات والأحزاب الاستقلالية كانوا من أفراد البورجوازية التجارية والقطاعية الجديدة لها مصالح وثيقة بالغرب ولذلك أرادت دولة عربية على النمط الغربي الرأسمالي من خلال مخططها الذي يكرس التجزئة، ونلاحظ ذلك من أن كل زعامة التفت لشؤون أقطارها مبتعدة عن شقيقتها من البورجوازيات في الأقطار العربية المجاورة. أنظر: محمد حافظ يعقوب، المرجع السابق، ص-ص 61-62.

تسيير الشؤون الإدارية في فلسطين لتغطية السيطرة الصهيونية على فلسطين¹، لقد برر خليل السكاكيني هذا الموقف الرافض من جانب العرب في مقالة نشرتها جريدة السياسية القاهرية في عددها الصادر في 30 ديسمبر 1923 جاء فيها: "لو قبلت الأمة الإنتداب لكان معنى ذلك أنها جعلت الإنتداب غير المشروع مشروعاً، لو قبلت الأمة وعد بلفور لكان معنى ذلك أنها قبلت برضاها أن تتنازل عن حقوقها السياسية في بلادها. لو قبلت الأمة الدستور الذي وضعه بنتويش bentwich رئيس العدلية، و هو من كبار زعماء الصهاينة، ول م يؤخذ رأيها فيه لكان معنى ذلك أن الأمة أعطت خصمها حق وضع دستورها الذي لا يجوز أن يشاركها في وضعه أحد، لو قبلت الأمة المجلس التشريعي، و المجلس الاستشاري و أكثر أعضائهما من الانجليز و اليهود ، و للمندوب السامي فيهما - و هو من زعماء الصهاينة - سلطات واسعة، فإذا شاء قبل قراراتهما و إذا شاء رفض، لكان معنى ذلك أن الأمة قبلت برضاها أن يكون أمرها في يد غيرها بل في يد خصومها الطامعين في بلادها، لو قبلت الأمة أن تكون لها وكالة عربية كما أن لليهود وكالة يهودية، لكان معنى ذلك أنها قبلت برضاها أن تكون على مستوى واحد مع اليهود الغرباء، فضلاً عن أن اسم الوكالة العربية يشعر العرب غرباء دخلاء في بلادهم"².

و في 29 نوفمبر 1947 قسمت فلسطين و منح قرار التقسيم للمستوطنين اليهود 54 % من أرض فلسطين و لما رأوا أنه قليل شنوا حرباً ضد السكان المدنيين العرب احتلوا من خلالها 81 % من مجموع مساحة فلسطين، و شردوا مليون عربياً و اغتصبوا حوالي 524 قرية و مدينة عربية و دمروا حوالي 385 مدينة و قرية و على أنقاضها أقاموا مستوطناتهم، و بتأييد من الدول الغربية الاستعمارية استطاع الكيان الصهيوني أن يحول القضية الفلسطينية لتضليل الرأي العام العالمي إلى مشكلة لاجئين، و أصبح للكيان الصهيوني ترسانة من الأسلحة لاخضاع الشعوب العربية و التوسع على حساب أراضيها، فاحتل سيناء المصرية و الجولان السورية و الأراضي الفلسطينية حتى نهر الأردن، وهذا الذي شكل وضعاً جديداً في المنطقة و خلق ما يعرف بمشكلة الشرق الأوسط و ضرب بقرارات مجلس الأمن الدولي ونداءات الرأي العام العالمي عرض الحائط، و م ينسحب من الأراضي التي احتلها بعد جوان 1967 رغم القرار الأممي 242.

إن العدد القليل من العرب الفلسطينيين الذين لم يستطع العدو تهجيرهم من أراضيهم 1947 هم الآن لاجئون على أرضهم و يعاملهم القانون الاسرائيلي كمواطنين من الدرجة الثالثة على أساس أن اليهود الشرقيين هم مواطنو الدرجة الثانية، فبقيت الأقلية العربية في إسرائيل لا تتمتع بحقوق المواطنة لأنه لا يسمح للعرب الذين تمكنوا من إثبات أنهم حملوا الجنسية الفلسطينية قبل 14 ماي 1948 أن يحصلوا

¹ -Ali -Abu- Hassan, op.cit, pp 15-16.

² -علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين عصر النهضة، المرجع السابق، ص 313.

على الجنسية الاسرائيلية إلا إذا كانوا يتقنون اللغة العبرية و أثبتوا أنهم لا يحملون جنسية دولة أخرى و هذه الشروط لا تتوفر إلا في عدد محدود من السكان العرب، و بالتالي أصبحوا أقلية في إسرائيل لا تتمتع بحقوق المواطنة¹.

لقد أشغل وجود الكيان الاسرائيلي العرب عن التنمية و التطوير إلى مقاومة العدوان الصهيوني أثر ذلك في تطور المنطقة ككل و لن تعرف المنطقة الأمن و الاستقرار مادام الخطر الصهيوني قائما في المنطقة ممزقا لوحدها و تكاملها².

2-الأردن:

وضعت الأردن و فلسطين في مؤتمر سان ريمو عام 1920 تحت الانتداب البريطاني في صك واحد في الوقت الذي كان فيه الامير عبد الله يؤلب السكان على الانتداب الفرنسي خاصة أنه استطاع أن يدخل عمان في 2 مارس 1921 دخول الفاتحين و وجد فيها مساندة واسعة من الذين هاجروا من سوريا بعد معركة ميسلون و بايعوه بالإمارة، وخوفا منتطور الأوضاع في المنطقة التجأت الدول الاستعمارية إلى عقد اجتماع في 27 مارس 1921 في قصر الطور في القدس جمع بين الأمير عبد الله و ونستون تشرشل وهربرت صموئيل و روبير دوكة robert- douka وكيل المندوب السامي الفرنسي في سوريا، و في هذا الاجتماع اعترفت بريطانيا بعبد الله الهاشمي بن حسين شريف مكة اميرا هاشميا على إمارة الاردن³ التي لعبت فيها بريطانيا دورا فعالا في إنشائها⁴.

خلال الحرب العالمية الثانية وقفت الأردن إلى جانب الحلفاء و أمام ما قدمه الأردن وافقت بريطانيا إنهاء إنتدابها والموافقة على الاستقلال، إلا أن هذا الاستقلال قيد بمعاهدة تحالف وصدقة وقع عليها

¹-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص، ص 780،781،786،723.

²- زهية قدورة، المرجع السابق، ص226.

³-إن تكوين كيان منفصل في شرقي الأردن ضرورة استراتيجية فرضتها المصلحة البريطانية في المنطقة و تتمثل فيجعل الأردن قاعدة عسكرية مستقرة يستطيع الجيش البريطاني الانطلاق منها و لتشكل حلقة من حلقات الطوق الذي تؤلفه البلاد الواقعة تحت سيطرتها كما يمكن استخدام الأردن كحاجز أمام التوسع الفرنسي من سوريا إلى الجزيرة العربية و العراق كما إن إمارة الأردن ستسهل لبريطانيا تنفيذ وعد بلفور. ولقد تزامن وصول الأمير عبد الله الى عمان مع انعقاد مؤتمر الشرق الأوسط في لندن و في هذا المؤتمر اعدت مذكرة اقترحت فيها انشاء نظام حكم في شرقي الاردن يختلف عن نظام الحكم في فلسطين و في هذا الصدد يذكر رئيس الوزراء البريطاني أنتوني ايدن في مذكراته: "الأردن بلد كانت لنا مسؤولية خاصة فيه، إذ أننا نحن الذين خلقناه." أنظر: سهيل سليمان الشلبي، العلاقات الأردنية -البريطانية 1951-1967 بيروت 2006، ص-ص 39- 41. أنظر

كذلك: الملحق رقم 6، ص336

⁴- زهية قدورة، المرجع السابق، ص161.

الطرفين في 22 ماي 1946 فأصبح الحكم في الأردن ملكي وراثي نيابي ورغم تعيين الملك و صدور الدستور إلا أن السيطرة الفعلية على مرافق البلاد كانت بيد بريطانيا التي كانت تقدم مساعدات مالية و عسكرية للأمير عبد الله، هذا ما جعل خصومه يتهمونه بالتبعية لبريطانيا في الوقت الذي كان فيه الخطر الصهيوني على تخوم الأردن خاصة بعد أن نصت معاهدة 1948 التي صادقت عليها الأردن و بريطانيا على:

- أن تبقى قيادة الجيش الأردني تحت إمارة الضابط البريطاني غلوب Glubb رئيس أركان الحرب في الجيش الأردني.

- تكون لبريطانيا قاعدتان جويتان في الأردن. مع العلم أن في هذه الفترة التي أقرت فيه الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين و الذي وافق عليه الملك عبد الله ضمينا خاصة أنه أجرى محادثات سرية مع اليهودية جولداماير في نوفمبر 1947 ثم في 12 أبريل 1948 أظهر فيها تأييده للتقسيم و تمنى أن تبقى العلاقات ودية بين العرب و اليهود.

تم تعيين الملك عبد الله أثناء الحرب العربية الاسرائيلية الأولى 1948 القائد الأعلى للجيش العربية إلا أن اليهود انتصروا، و كانت النتيجة رغم معارضة الدول العربية هي انتزاع الضفة الغربية من أبنائها وأصبحت تابعة للمملكة الأردنية و اعترفت بريطانيا بالوضع الجديد و لذلك قتل الملك عبد الله في 20 جويلية 1951 و من الملفت أن الملك عبد الله كان قد خطط في 1941 لمشروع سوريا الكبرى أي ضم الأردن و سوريا و لبنان و فلسطين بدولة واحدة إلا أن الاستعمار وقف حاجزا قويا في تحقيق الاستقلال و الحرية التي كان يصبوا إليها الملك فيصل و بعد وفاة عبد الله نصب الأمير طلال الذي يختلف عن الملك السابق لأنه يعتبر أن الشعب مصدر السلطة كما أن نظرتة للقضايا أحدثت شبه انقلاب في النظم و التقاليد الأردنية و هذا ما يهدد المصالح الغربية و إسرائيل و لذلك خلع عن العرش و تم تعيين الأمير الشاب الحسين بن طلال ملك على الأردن و في عهده أنهيت معاهدة التحالف التي كانت قائمة بين بريطانيا و الأردن سنة 1957، و في عام 1958 أعلن إتحاد العراق و الأردن " الاتحاد العربي " لكنه انهار بقيام الثورة العراقية 14 جويلية 1958 و انسحابها من حلف بغداد¹.

¹- زهية قدورة، المرجع السابق، ص 164 وما بعدها

استنتاج جزئي:

نشطت الحركة القومية العربية نشاطا كبيرا منذ عام 1908 وتعرض العرب في سبيلها إلى استبداد الاتحاديين خاصة بعد عقد المؤتمر العربي في باريس 1913 والذي يعتبر مظهرًا من مظاهر هذه الحركة وعندما يئست الحركة العربية في الحصول على حقوقها ضمن الدولة العثمانية تحالف حسين شريف مكة مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية.

إن إعلان الثورة العربية من الأراضي المقدسة كانت ضربة قوية من الناحية النفسية للسلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين في الوقت الذي اعتمد على النفوذ الديني لتوحيد العالم الإسلامي بما فيه العالم العربي من الأطماع الاستعمارية، فالهجمة المباشرة على السلطان لم تكن في الحقيقة إلا هجمة غير مباشرة على القيم الإسلامية خاصة مسألة الخلافة و الجامعة الإسلامية.

رغم التضحيات التي قدمها العرب للحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى و التي أسفرت على انتصارهم على دول المحور إلا أن اتفاقية سايكس بيكو و وعد بلفور خيبت آمال العرب في تأسيس الدولة العربية المستقلة حيث أقر مؤتمر سان ريمو على وضع بلاد الشام و العراق تحت الانتداب الفرنسي و البريطاني.

لقد بينت القضية الفلسطينية للرأي العام العربي بصورة واضحة أنها لا تشكل خطرا على فلسطين فقط، و إنما أطماع إسرائيل لا حدود لها و بالتالي فهي خطر على الوطن العربي ككل، إن الهجرة اليهودية إلى فلسطين أهم منطقة في الوطن العربي سيؤدي ذلك إلى ضياع عرب المنطقة لأراضيهم وعقاراتهم وسيسيطر اليهود فيما بعد على جميع مرافق الحياة و سيحولون فلسطين إلى دولة إسرائيلية قائمة بذاتها مستقلة تدير نفسها، وستحارب بكل الوسائل للقضاء على الحركة العربية القومية وأي حركة تقف في طريق أطماعهم التوسعية.

الإستنتاج العام

بعد معالجتنا لهذا الموضوع من مختلف جوانبه خلصنا الى جملة من النتائج التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

* كشفت حملة محمد علي على بلاد الشام للدول الأوروبية الاستعمارية و على رأسها بريطانيا و فرنسا مدى استراتيجية و أهمية المنطقة لأنها تهدد مصاحهما في الهند الشرقية، و لذلك وقفت هذه الدول باساطيلها الحربية إلى جانب الدولة العثمانية و قضت على طموحات محمد علي في مؤتمر لندن.

* عرف القرن التاسع عشر بقرن التنظيمات العثمانية التي تضمنت إصدار مجموعة منالفرمانات والتشريعات الإصلاحية طالت مختلف الميادين السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و التربوية، لكنها سرعان ما اصطدمت ببروز تيارات ثقافية و سياسية متناقضة أهمها تيار القومية و الليبرالية و غيرها.

* فتحت الامتيازات التي تمتع بها الرعايا الأجانب من خلال خط كلخانة 1839 و خط التنظيمات الخيرية باب للتدخل الأجنبي في شؤون بلاد الشام، خاصة بعدما أجبرت الدولة العثمانية في مؤتمر باريس 1856 بمنح امتيازات اقتصادية للرأسماليين الأجانب مثل امتياز مد خطوط من السكك الحديدية، شراء الأراضي، تأسيس البنوك، استغلال الثروات الزراعية و المعدنية.

* خلفت فترة 1841-1845 1860 في لبنان آثار بعيدة المدى لا تزال نتائجها تنخر كيانه وتهدد وحدته الوطنية.

* لدراسة العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام اثناء فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني دراسة موضوعية يجب الأخذ بعين الاعتبار حقيقتان هامتان و هما:

- معاصرة السلطان للزحف الاستعماري الأوروبي في أشد مراحلها على افريقيا و آسيا و ظهور الحركة الصهيونية العالمية، كما هذه الفترة كانت حافلة بالشخصيات التي كان لها دور كبير في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب.

- ظهور الفكر القومي العربي و التركي، ولذلك تعتبر فترة حكمه فترة صعبة و حاسمة في تاريخ العالم الإسلامي عامة و العربي خاصة ورغم ذلك لعب السلطان دورا بارزا وملموسا في تاريخ العالمين الإسلامي و الغربي.

* قام السلطان عبد الحميد الثاني بعدة إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية في بلاد الشام، و لعل أهمها توفير الأمن و الاستقرار و الاهتمام بمد شبكة من المواصلات البرية والحديدية،

وبالأوقاف وبقافلة الحج، تطوير التعليم إلى غيرها من الاصلاحات، إلا أن سياسة الولاة وإدارتهم السيئة للولاية هو الذي عرقل عجلة التطور و التقدم.

* إن موقف السلطان الصارم اتجاه المشروع الصهيوني و الأطماع الأوروبية دفعها إلى تغذية الصراع الطائفي عن طريق مدارسها التبشيرية التي زرعت الفكر القومي من أجل تعكير العلاقة العثمانية-العربية، فتعاونت هذه القوى و الحركات القومية التركية و العربية على اسقاط السلطان عبد الحميد الثاني.

* رغم عزل السلطان إلا أن الفترة التي حكمت فيه جمعية الإتحاد و الترقى كانت أكثر استبدادا وظلما و مركزية عن حكمه خاصة في الأقاليم العربية حيث اعتمدت على الطورانية و سياسة التتريك في الإدارة و السياسة و حتى في جميع ميادين الحياة، هذا ما جعل عرب الشام ينقمون على الدولة العثمانية ويؤسسون جمعيات و أحزاب سرية و علنية عبروا من خلالها على حقوقهم السياسية والاجتماعية.

* إن الخط الذي سلكته الإدارة العثمانية منذ الغزو المصري لبلاد الشام إلى عهد جمعية الاتحاد والتتريك هو خط واحد متصل في جوهره هدفه واحد و هو مركزية الحكم و صهر العناصر في بوتقة واحدة، حيث تميزت- الادارة العثمانية- في عهد السلطان عبد الحميد و من أتى قبله بطابعها العثماني الإسلامي طبقها على الناحية الإدارية، بينما حولها الاتحاديون إلى قومية تركية طورانية طبقوها على الناحيتين الإدارية و السياسية .

* استغلت بريطانيا توتر العلاقات العربية- التركية خلال الحرب العالمية الأولى لتوجيه الحركة القومية العربية حسب مصالح الحلفاء، و من الغريب أن تتحالف هذه الحركة مع الدول الأوروبية الكبرى من أجل تحقيق أهدافها القومية و هي الدول التي خصصت فلسطين كقاعدة للمشروع الصهيوني في مواجهة الحركة القومية العربية.

* تعتبر اتفاقية سايكس بيكو امتدادا للاستثمارات الفرنسية و البريطانية في بلاد الشام و التي بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي بعد خروج محمد علي من بلاد الشام، تعتبر اتفاقية سايكس بيكو و وعد بلفور مشروعا تاريخيا استعماريا لم يحقق للعرب تكوين دولتهم العربية الموحدة، بل حققت كل من بريطانيا و فرنسا منافعهما الإقليمية و مصالحهما الاستعمارية فجزئت بلاد الشام إلى دويلات ضعيفة بينها حواجز اقتصادية و ثقافية و شرخ عميق بين سكانها و حالة سوريا و لبنان

حالة نموذجية لهذه التجزئة، و كانت هذه الحقيقة واضحة: ففي العشرينات من القرن العشرين و بدلا من الاستقلال و إتحاد بلاد الشام وضعت المنطقة تحت الانتداب و لذلك يمكن اعتبار عام 1920 عام النكبة، ومن الصعب أن نفهم القضايا الراهنة لهذه المنطقة دون العودة إلى فترة الحرب العالمية الأولى و مؤتمر الصلح الذي يعتبر بالنسبة لعرب الشام بداية صراع عنيف مع الغرب و لايزال مستمرا إلى يومنا هذا لأنه مزق البلاد العربية بين الأطماع البريطانية و الفرنسية و المطامع الصهيونية في فلسطين و خلق فيها حدود مصطنعة أصبحت في الوقت الحاضر قنابل موقوتة يمكن أن تنفجر في أية لحظة و لذلك عرفت المنطقة و مازالت تعرف حروب اضطرابات دموية و عنيفة.

* في الوقت الحاضر و بعد مرور قرن على اتفاقية سايكس بيكو نعتبر أن قضية الوحدة العربية ماتزال في مقدمة الاهداف التي يجب أن يناضل العرب من أجل تحقيقها، خصوصا عندما تطرح إسرائيل التحدي المباشر للأمة العربية "دولة اسرائيل الكبرى" في قلب الوطن العربي و بترسانة سلاحه لا قبل لمن حولها بها، و لا زالت مشاريع الغرب لتفتيت البلاد العربية قائمة من أجل تكوين دولة اسرائيل الكبرى على حساب: مصر- سوريا- لبنان- العراق- الأردن - ليبيا - السودان. و في هذا الصدد يذكر مصطفى حلمي في كتابه نكبة فلسطين أنه ورد في المقال نشرته مجلة كيفونيم تحت عنوان الخطط الاستراتيجية في الثمانينات " تقسيم لبنان إلى خمس محافظات و تفكك سوريا و العراق إلى مناطق محددة على أساس المعايير العرقية أو الدينية ينبغي أن يكون على المدى الطويل هدفا ذا أولوية لإسرائيل على أن تكون الخطوة الأولى هي تحطيم القوى العسكرية لهاتين الدولتين، فالهياكل العرقية في سوريا تعرضها للتفكك الذي قد يؤدي إلى انشاء دولة شيعية على طول الساحل، و دولة سنية في منطقة حلب، وأخرى في دمشق، و كيان درزي قد يرغب في تشكيل دولته الخاصة به- ربما فوق هضبة الجولان - وعلى أي حال مع حوران و شمال الأردن، و مثل هذه الدولة ستصبح على المدى الطويل ضمانا للأمن و السلام في المنطقة و هو هدف في متناول يدنا بالفعل".

* إن مشكلة الاقليات لم ينته بعزل السلطان عبد الحميد الثاني و حتى بإلغاء الخلافة العثمانية و حتى بعد إقامة الكيان الصهيوني لأن الأسس الإدارية و العسكرية و السياسية والدينية التي عرفها المجتمع العربي خلال الحكم العثماني، مازالت تمتد بسماتها الأساسية وتأثيراتها إلى يومنا هذا، وما تشهده الأقطار العربية اليوم من انقسامية قطرية و سياسية و حزبية و دينية وعائلية، ليست في الواقع سوى انعكاس للانقسامية المقاطعية التي تكرست خلال الحكم العثماني

الملحق رقم 01:

Y.PRK.AZS 27/39

1311

بشراية صادقة نرفعها إلى مقام مولانا الخليفة

نحن الذين غمرتنا الدولة العلية العثمانية أبا عن جد بالإنعام والإحسان الجزيل، وبدافع من الشعور والإحساس الوجداني، وبما جبلنا عليه من الفطرة والحمية الدينية والوطنية، نعتبر أنفسنا مسئولين ومطلوبين بالإخبار عن كل تصرف أو تحرك يخالف رضا مولانا السلطان في أي جهة من جهات الممالك العثمانية المحروسة. فنحن في الأصل من أهالي البلقاء وحيفا وبيروت، عندما كنا موظفين مستخدمين في لوائي عكا والבלقاء سمعنا وعلمنا من مصادر موثقة ومؤكدة ارتكاب بعض المسئولين في قضاء حيفا التابعة للواء عكا بعض الأعمال التي تتنافى والرضا العالي لمولانا ظل الله في الأرض. وقد وجدنا في أنفسنا الجرأة لعرضها فيما يلي:

من المعلوم لدى الجميع بأن إدخال اليهود الأجانب من رومانيين وروس وإسكانهم في الممالك المحروسة بشكل عام وفي بلاد فلسطين بشكل خاص وتمليكهم للأراضي ممنوع منعاً باتاً بموجب الإرادة السنية لحضرة مولانا السلطان. ولكن وبدافع من المنافع والمصالح الشخصية من البعض والأفكار الفاسدة والمناوئة للبعض الآخر حدث في العام الماضي ألف وثلاثمائة وستة (1890) بتوسط من موسى خانكر وماير زبلون اليهوديين الروسين المقيمين في بلدتي يافا وحيفا وهما من رجال البارون هيرش، اتفق متصرف عكا صادق باشا عندما كان قائماً ومتصرفاً هناك مع قائم مقام حيفا السابق مصطفى القنواطي، والحالي أحمد شكري ومفتي عكا علي أفندي ورئيس بلدية حيفا مصطفى أفندي وعضو مجلس الإدارة نجيب أفندي على إدخال وقبول مائة وأربعين عائلة يهودية طردوا من الممالك الروسية في قضاء حيفا، وعلى بيع الأراضي التي يملكها والي أضنة السابق وشقيق المتصرف المشار شاكركا باشا وسليم نصر الله خوري من أهالي جبل لبنان حيث كانوا قد اشتروها بألف وثمانمائة قطعة ورقية من فئة المائة في الخضيرة ودردارة والنفيعات لليهود المذكورين بثمانية عشر ألف ليرة، مع إعطاء المأمورين المذكورين ألفي ليرة مقابل تعاونهم لتحقيق ذلك. وبعد ذلك وفي إحدى الليالي أنزل اليهود المذكورون من السفينة إلى الساحل تحت إشراف مأمور البوليس في حيفا عزيز ومأمور الضابطة اليوزباشي علي آغا، وتم توزيعهم في نواحي القضاء. ثم قام رئيس بلدية حيفا مصطفى أفندي دون أن تكون له أية صلاحية وفي أمر يحتاج إلى إرادة سنية سلطانية بتنظيم رخص موزعة بتاريخ قديم وإحداث مائة وأربعين منزلاً على الأراضي المذكورة وتحويلها على قرية وإسكان اليهود فيها وتنظيم سجل ضريبي قبل أن يكون هناك أي شيء وإعطاء هؤلاء اليهود صفة رعايا الدولة العثمانية من القدم ويقومون في تلك القرية.

ولم يبق الأمر عند هذا الحد بل كان الادعاء بأن هؤلاء كانوا من أتباع الدولة العلية وولدوا في قضائي صفد وطبريا وقيمون في القرية المعروفة بمزرعة الخضيرة ، وأنهم لم يكونوا مسجلين في سجلات النفوس، فأجريت بحقهم معاملة المكتومين، وتحصيل غرامة قدرها مجيدي أبيض واحد (أي ست مجيديات) من كل من له القدرة على الدفع، وإعفاء من لا يملك القدرة على الدفع، واكتملت المعاملة بأسرها في يوم واحد فأصبحت لهم صفة قدماء الأهالي فيها. وقبض وكيل المشار إليه شاكر باشا مفتي عكا علي أفندي وسليم نصر الله خوري من جبل لبنان ثمانية عشر ألف ليرة قيمة بيع تلك الأراضي، دون أي اعتبار لمصالح الأمة والوطن، ولمجرد تأمين أسباب الراحة وتحقيق الأطماع الفاسدة لهؤلاء اليهود الذين طردوا وأبعدوا من الممالك الأجنبية. إن ما حدث لا يمكن كتمه أو إنكاره كما أن ذلك ثابت من خلال المعاملات الجارية في سجلات الدوائر الرسمية في عكا وحيفا . وأغلب ظننا بأنه سبق وأن قدم بعض النوات الثقة معلومات حول الموضوع، ويمكن الاستعلام بالوضع من متصرفيات نابلس والقدس المجاورتين لعكا وحيفا للتأكد من صحة ما أبلغنا به، ويمكن بهذه الطريقة التحقق من صحة ما نقول من قبول وإنزال اليهود كلما مرت سفينة في ميناء حيفا.

وفيما عدا هذا فإن قرية زمارين التي يملكها ويحكمها اليوم البارون روتشيلد ويبلغ عدد بيوتها حوالي سبعمائة تعج باليهود، توفي مالكةا في وقت سابق بلا وارث، وعندما صدر الإعلام الشرعي بوجوب تسجيل القرية المذكورة في دفتر الشواغر بيعت بطريقة من الطرق لليهود ، وبغية توسيعها وزيادة أهميتها تم تملك ثلاث قرى بالتتابع وهي: اشفيا وأم التوت وأم الجمال ، وإحاطها بزمارين. وتسهلا لإجراء ما يلزم لتحقيق هذا النوع من الطلبات اللاحقة اشترى اليهود من صادق باشا المشار إليه أراض خربة لا تتعدى قيمتها ألفين أو ثلاثة آلاف قرش بألفي ليرة ليشتروا بعد ذلك الأراضي المهمة على الساحل بين حيفا ويافا وتعرف بخشم الزرقة وتحد الأراضي السنية وتزيد مساحتها عن ثلاثين ألف دونم ، إذا فرضنا أن قيمة الدونم الواحد ليرة واحدة تكون قيمتها ثلاثين ألف ليرة، اعتبروها خمسة آلاف دونم وباعوها بخمسة عشر ألف قرش أي الدونم الواحد بثلاثة قروش، بيعت لليهود زمارين التي سبق ذكرها، وهو أمر يستغربه كل إنسان.

إلى جانب ذلك فإن القسم الأعظم من المكان المعروف بجبل الكرمل ذات الأهمية لدى الدولة أي أكثر من خمسة عشر ألف دونم بيعت بالحيل والطرق الملتوية من قبل رئيس البلدية مصطفى الخليل وعضو الإدارة نجيب الياسين إلى رهبان دير الكرمل باسم فرنسا، ونظرا للغيرة والمنافسة الحاصلة من رعايا دولة ألمانيا تجاه الرهبان، تمكن هؤلاء أيضا من الحصول على عشرة آلاف دونم من الأرض بسعر متدن جدا ، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر منافس آخر، ثم تم تملك سيدة تعرف بالسبت الإنجليزية وبتوسط من القنصل الإنجليزي في حيفا المستر سميث خمسة آلاف دونم من الأرض لقاء سكوتها على بيع تلك الأراضي للآخرين، وقاموا جميعا بإنشاء مبان وكنائس عظيمة عليها، على إثر ذلك وبمبادرة من متصرف عكا زيور

باشا انتخب قائمقام الناصرة السابق وكيلًا للحكومة السنية، فأقام في عهد رئيس محكمة البداية في حيفا محي الدين سلهب الطرابلسي دعوى ضد الأجانب المذكورين بطلب استعادة تلك الأراضي، ووصل كسب القضية مرحلة شبه نهائية، ولكن وردت برقية سامية في الأمر بتعطيل كافة المعاملات المتعلقة بهذه الدعوى ونقل المرحوم زيور باشا إلى القلعة السلطانية¹ وبذلك أصبحت شواطئ البحر وجبل الكرمل وتلك الأراضي والمناطق المهمة التي تفتدى كل حفنة من ترابها بالروح بيد الغاصبين الأجانب بدعوى التقادم. ويقوم الآن الإيراني عباس² المنفي حاليًا في عكا الذي يحقق كل شيء يريده بفضل ثروته ونفوذه بالتفاهم مع رئيس بلدية حيفا مصطفى وعضو المحكمة الحالي نجيب بسلب أراضي العاجزين والفقراء من الأهالي بأثمان بخسة ليقوموا بعد ذلك بتهيتها وبيعها بأثمان فاحشة لليهود والأجانب الآخرين لتحقيق مصالحهم الشخصية.

بقي أن نقول بأن هؤلاء اليهود بفضل المال الذي بذلوه صاروا مرعيي الخواطر، فصاروا يسومون الأهالي المسلمين في القرى المجاورة لليهود أبشع أنواع الظلم، كما تسلطوا على أعراض النساء. وفي عهد المدير السابق لناحية قيصاري علي بك الشركسي وصلت إخبارية بأن اليهود في زمارين يقومون بتزوير العملات، فتوجه المتصرف إلى قراهم للتحقيق في هذه المسألة وغيرها من المسائل وبدافع الاستبداد والتحكم ضرب المدير المذكور وأهانه ولجأ إلى بعض الوسائل النفسية لعزله من منصبه. وقد استغل يهود زمارين تراخي بعض المسؤولين المحليين معهم فحبسوا الرجال وقاموا بتعذيبهم، كما يقومون الآن بتخزين مختلف أنواع الأسلحة والذخائر، كما بنوا مدرسة ضخمة لتدريس مختلف العلوم، وقد لجأنا إلى الإخبار عن كل هذا أملين أن تتخذ الوسائل الكفيلة لوضع حد لمثل هذه الأعمال والأمر لحضرة من له الأمر.

3 أغسطس سنة 1309 (15 آب 1893)

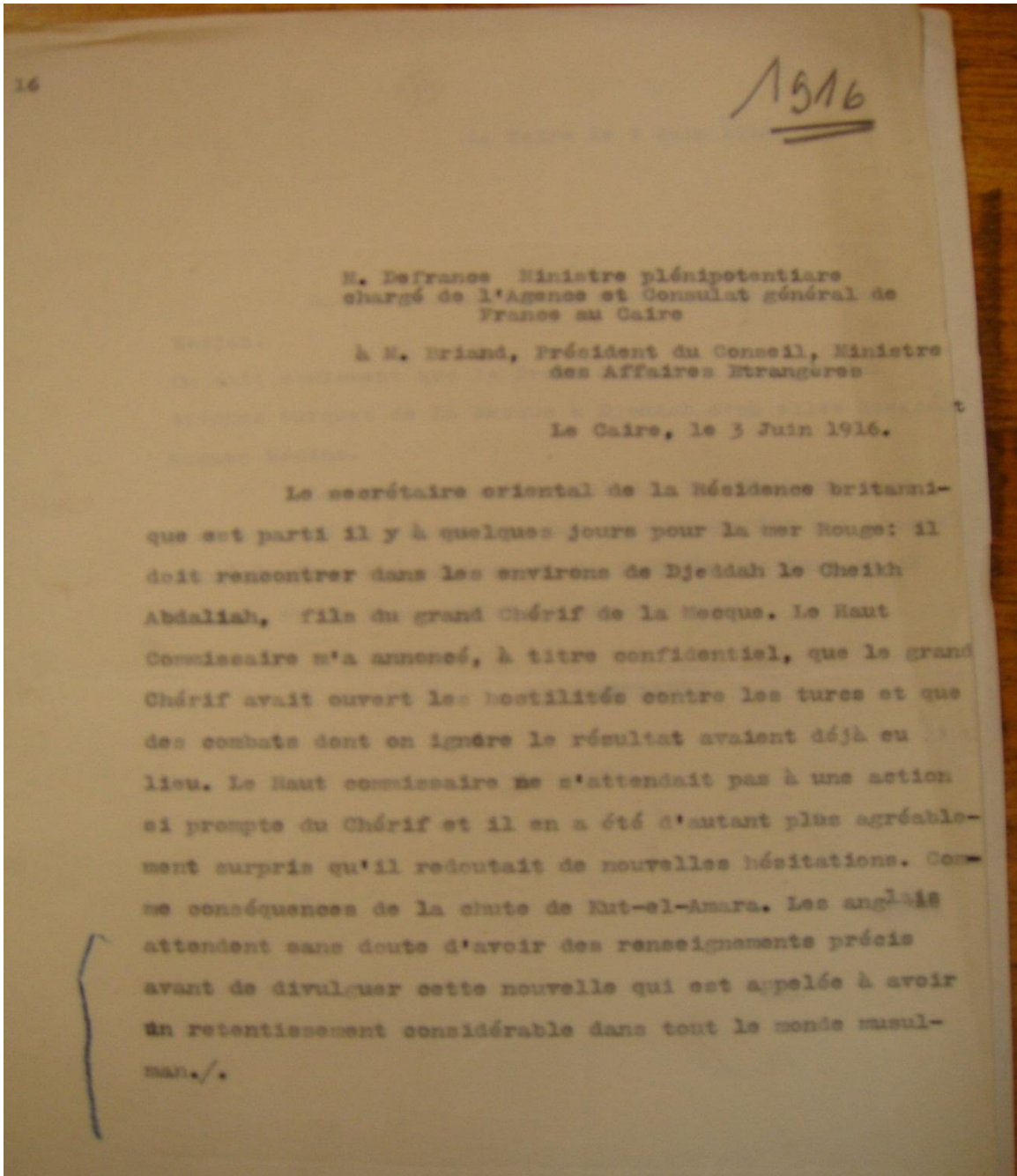
مخبر	مخبر	مخبر
من أهالي بيروت	من أهالي حيفا	من أهالي عكا
المدير السابق لناحية الشعراوية	المدير السابق للريجي	معاون المدعي العام
بداخل البلقاء ومدير نجد الحالي	بلواء البلقاء	السابق بعا
صبحي	سعيد بحق محمد	محمد توفيق السيد

(هذه الترجمة مطابقة للأصل العثماني المحفوظ لدي أنا المترجم كمال أحمد خوجة)

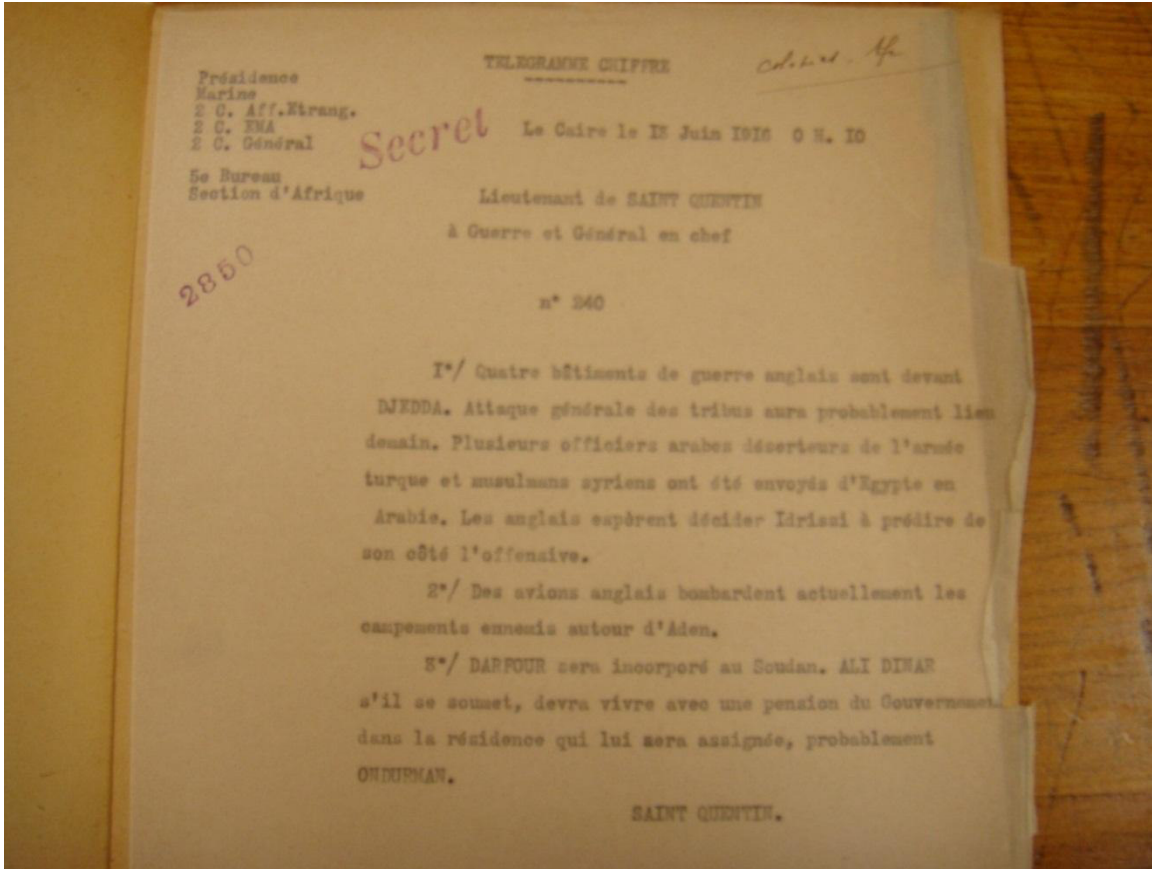
[انظر صورة الوثيقة]

¹ جنائ قلعة.

² البهائي.



المصدر: تقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية 1916-1917 سلسلة 1AFFPOL علبه رقم



المصدر: تقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية 1916-1917 سلسلة 1AFFPOL علبة رقم

الملحق رقم 04: نص إتفاقية سايكس بيكو

المادة التي عقدت بين فرنسا وإنجلترا في عام ١٩١٦

قد تم التفاوض بين كل من الحكومتين الفرنسية والمملكة المتحدة بالسير بيكر والبريطانية المملكة بالسير سايكس .

١ - أن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترف بحكومة عربية مستقلة ترعاها في الأماكن المشار إليها بحرف (أ) وحرف (ب) على الخريطة الملاحقة بهذا . وأن تكون هذه الحكومة أو الحكومات تحت سيادة زعيم عربي وأن يكون لفرنسا في المكان المشار إليه بحرف (أ) وبريطانيا العظمى في المكان المشار إليه بحرف (ب) أولية الحق في المنازعة والقرودس المحلية . وأن كل من فرنسا في حرف (أ) وبريطانيا في حرف (ب) تقدم وحدها المستشارين والخوطين الأجانب الذين تطلبهم الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة .

٢ - يسمح لكل من فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا في المنطقة الحمراء أن تنهي . من الإدارة أو الحكومات مباشرة أو غير مباشرة . ما تريد أو ما ترى تدبيره موافقاً مع الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة .

٣ - أن يشار في المنطقة الحمراء إدارة دولية مشتركة بقرار شكلها بعد استفتاء سوريا . لا تم استفتاء الخلفاء الآخرين واستفتاء مندوبي شريف مكة .

٤ - أن يحتل بريطانيا العظمى ثغر حيفا وثرع عكا وبغداد هذا المقدار

الكافي من مياه دجلة والفرات في منطقة (آ) لارواء منطقة (ب) .
وتتعهد حكومة جلالة الملك ان لا تخاير في أي زمن كان دولة من الدول
للتنازل لها في جزيرة قبرص بلا موافقة حكومة فرنسا .

٥ - تكون الاسكندرونه ميناء حراً فيما يتعلق بتجارة الامبراطورية البريطانية ،
وان لا يكون فيها تمييز في تعيين ضرائب الميناء او التسهيلات فيما يتعلق بالبضائع
او السفن البريطانية . وان يكون للبضائع البريطانية حرية المرور
في الاسكندرونه وفي سكك الحديد التي في المنطقة الزرقاء سواء كانت
هذه البضائع صادرة عن المنطقة الحمراء او المنطقة حرف (ب) او المنطقة
حرف (ا) او واردة اليها ، وان لا يكون تمييز سواء كان ذلك مباشرة او
غير مباشرة ضد البضائع البريطانية او السفن البريطانية في اي ميناء من الموانئ
المذكورة سابقاً لهذه المناطق ، وان تكون حيفا ميناءاً حراً فيما يتعلق بتجارة
فرنسة وتملكاتها ومحمياتها . وان لا يكون فيها تمييز بتعيين ضرائب الميناء .
او التسهيلات في ما يتعلق بالسفن الفرنسية والبضائع الفرنسية وان يكون
للبضائع الفرنسية حرية المرور في حيفا وفي السكك البريطانية التي في المنطقة
الحمراء . سواء كانت هذه البضائع صادرة عن المنطقة الزرقاء او المنطقة حرف
(ا) او المنطقة حرف (ب) او واردة اليها . وان لا يكون تمييز سواء كان
ذلك مباشرة او غير مباشرة ضد البضائع الفرنسية على اية سكة حديد كانت ،
او ضد البضائع الفرنسية على اية سكة حديد كانت او ضد البضائع والسفن
الفرنسية في اي ميناء من موانئ المناطق المذكورة آنفاً .

٦ - ان لا تمتد سكة حديد بغداد جنوباً ، في منطقة (ا) الى وراء الموصل .
ولا تمتد شمالاً في منطقة (ب) الى وراء سامري الى ان يتم انشاء سكة حديد
تصل ما بين بغداد وحلب في وادي الفرات وذلك بموافقة الحكومتين .

٧ - ان يكون لبريطانيا العظمى وحدها الحق بأن تشي ، وتدير وتملك
سكة حديد برصا الى المنطقة (ب) . ويكون هذا الحق الدائم في جميع الموانئ

عليها في اي وقت كان .

والمفهوم بين الحكومتين . ان هذه السكة هي لتسهيل المواصلات بين بغداد وحيثما والمفهوم ايضاً ، اذا حالت الصعوبات الهندسية والنفقات دون انشاء هذا الخط في المنطقة السمرات وحدها فان الخطوط الآتية وهي : بالباس . نيس ، معرب ، صلخد ، تدا ، صدى ، ومسمية . تصل الى المنطقة (ب) .

٨ - تبقى الرسوم الجمركية معمولاً بها عشرين سنة في جميع أنحاء الماطقتين الزرقاء والحمراء ، كذلك في المنطقة (ا) والمنطقة (ب) ولا تزداد الرسوم الا بعد اتفاق الحكومتين . ولا تصرف رسوم داخلية تكون غائقة بين الماتق المذكورة آنفاً . اما الرسوم على البضائع الواردة فتؤخذ في المينة التي تصل اليها البضائع . وتسلم الى حكومة المنطقة الواردة اليها .

٩ - لا يجوز للحكومة الفرنسية في اي زمن من الازمان ان تحارب دولة دولة ثانية في امر التنازل عن هذه الحقوق لغير الحكومة العربية او الحكومات العربية المتحدة الا اذا وافقت الحكومة البريطانية على ذلك . وعلى الحكومة البريطانية مثل هذه العهود للحكومة الفرنسية فيما يتعلق بالمنطقة الحمراء .

١٠ - تتعهد كل حكومة من حكومة فرنسا وحكومة بريطانيا العظمى ان لا تمتلك ارضاً في جزيرة العرب . وان لا توافق على امتلاك دولة ثالثة لأرض هناك سواء كان ذلك على السواحل الشرقية منها او جزر البحر الاحمر على ان هذا لا يمنع من تعديل حدود عدن بسبب اعتداء الاتراك .

١١ - ان المخاضرات مع العرب لوضع حدود للحكومة العربية او الحكومات العربية المتحدة يستمر كما كان بالتبابة عن الحكومتين الفرنسية والبريطانية .

١٢ - قد وقع الاتفاق على ان الوسائل اللازمة للسيطرة على توريد الملاح ان الاراضي العربية تستشار فيها الحكومتان .

المصدر : وجيه علم الدين ، المرجع السابق ، ص ص 67-69.

ملحق رقم 05:

نصّ وعد بلفور

اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا يعد اللورد روتشلد بإنشاء وطن قومي
لشعب اليهود
والىكم النص بحرفيته الذي نشر بتاريخ ٢ تشرين ثاني سنة ١٩١٧ .
عزيزي

« يسرني جداً ان ابلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك انها تنظر بعين
الرضا والارتياح الى المشروع الذي يراد به ان ينشأ في فلسطين وطن قومي
لشعب اليهود وتفرغ خير مساعيها لادراك هذا الغرض وليكن معلوماً انه لا
يسمح باجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير
اليهودية الموجودة في فلسطين الآن ، او بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في
البلدان الاخرى وبمركزهم السياسي . »

التوقيع : اللورد بلفور

المصدر: توجيه علم الدين، نفس المرجع، ص 69.

ملحق رقم 06:

إتفاق الأمير عبد الله وسريانيا على تشكيل إمارة في شرقي الأردن

- ١- رأى الإنكليز ان معاهدة (ام قيس) لم تساعد على توطيد النظام .
- ٢- نال انتشارت الفوضى في البلاد واضطربت الحالة الداخلية وخاصة كان وجود سمو الأمير عبدالله في معان على - الحدود الجنوبية واتصاله برحلتها وشيوخها مما اقلق بالهم فرأوا ان يبتكروا وسيلة تريحهم من مشكلة توشك ان تواجههم .
- ٣- فوافقت وزارة خارجيتهم على انشاء عرش في العراق لسمو الأمير فيصل .
- ٤- وامارة في شرقي الاردن لسمو الأمير عبدالله . وجاء وزير المستعمرات مستر تشرشل الى فلسطين هذه الغاية ، وكان سمو الأمير عبدالله وصل الى شرقي الاردن واستقبل فيها بخداة ثم غادرها الى القدس فاستقبل رسمياً .
- ٥- ووصل بعدئذ مستر تشرشل فاجتمع به وتم الاتفاق على الشروط التالية :
- ٦- ١ - تؤسس حكومة عربية وطنية في شرقي الاردن برئاسة سمو الأمير عبدالله .
- ٧- ٢ - تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالاً ادالياً تاماً .
- ٨- ٣ - تساعد بريطانيا م.دباً لتوطيد الامن .
- ٩- ٤ - تسترشد برأي مندوب بريطاني يقيم - في عمان .
- ١٠- ٥ - يحافظ على حدود سوريا وفلسطين من كل اعتداء .
- ١١- ٦ - تنسئ بريطانيا مركزين للطيران في عمان واخريرة .
- ١٢- ٧ - تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الأمير عبدالله وسطة الفرنسية .

في سوريا ٢٨ آذار سنة ١٩٢١ .

المصدر: علم الدين وجيه، العهود المتعلقة بالوطن العربي 1907-1922، دار الكتاب الجديد،

بيروت، 1965، ص 215

قائمة المصادر و المراجع

الوثائق الأرشيفية الموجودة بأرشفيف ما وراء البحار:

Archives nationales d'Outre-Mer, Aix-en-Provence (A.N.O.M)

1- سلسلة 1AFFPOL تقارير فرنسية سياسية عن الثورة العربية 1916-1917 علبة رقم 14¹¹.

2- الاحتلال الفرنسي في سوريا علبة رقم 29^{H27}.

المذكرات الشخصية:

1- الحفار سلمى الكزبري، لطفي الحفار، 1885 - 1968، مذكراته حياته و عصره، ط1، رياض الرايس للكتب و النشر، 1997.

2- دروزة محمد عزة ، مذكرات ، 1305 - 1404 هـ / 1887 - 1984 ، المجلد الأول.

3- سبانو أحمد غسان ، مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق.

4- عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة ، صالح سعداوي صالح ، ط1 ، دار النشر، الأردن، 1991.

5- عبد الله بن الحسين ، مذكراتي، ط1، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، 1989.

6- مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، ترجمة محمد حرب، ط3، دار العلم، دمشق، 1991.

قائمة المراجع باللغة العربية:

1- أحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

2- أحمد نوري النعيمي، الدولة العثمانية و اليهود، الدار العربية للموسوعات، 2006.

3- إدوارد لورانس توماس ، (لورانس العرب)، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة محمد نجار، ط2، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، 2001.

4- اسماعيل أحمد ياغي ، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ط2، مكتبة العبيدكان، الرياض، 1998.

- 5- ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة 1798 - 1939، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، 1968.
- 6- إلياس شوفاني ، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1996.
- 7- اميلاآل سميث ب، فلسطين و الفلسطينيين 1876 - 1983، ترجمة الهام بشارة الخوري، ط1، دار الحصاد، دمشق، 1991.
- 8- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
- 9- أنعام رعد ، الصهيونية الشرق الأوسطية من هرتزل إلى بيريز إلى النفق و الخطة المعاكسة، ط2، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، لبنان، 1998.
- 10- أنور الجندي ، العالم الاسلامي و الاستعمار السياسي و الاجتماعي و الثقافي، ط2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1983.
- 11- أنور الجندي ، تاريخ الصحافة، ج1، دار الأنصار للطباعة، 1986.
- 12- أنور الجندي ، تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الاسلام الحديث (السلطان عبد الحميد و الخلافة الاسلامية)، ط1، دار بن زيدون، بيروت، 1408 هـ .
- 13- باسل الكبيسي ، حركة القوميين العرب، دار العودة، بيروت، د.ت.
- 14- بديعة أمين ، المشكلة اليهودية و الحركة الصهيونية، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1974.
- 15- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج2، المطبعة التجارية، عزوزي وجاويش، الاسكندرية، 1903.
- 16- توفيق برو ، العرب و الترك في العهد الدستوري العثماني، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، دار الهنا للطباعة، 1960.
- 17- توماس لويس ، لورانس في بلاد العرب، ترجمة صالح عثمان، ط1، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، 2009.
- 18- تيسير جبارة ، تاريخ فلسطين، ط1، دار الشروق للنشر و التوزيع، فلسطين، 1998.

- 19- جلال يحيى ، العالم العربي، دار المعارف، مصر، 1966.
- 20- جمال عبد الهادي ، مسعود محمود، جمعة وفاء محمد رفعت، لبنى علي أحمد، أخطاء يجب ان تصحح في تاريخ الدولة العثمانية، ج2، دار الوفاء للنشر و التوزيع، مصر، 1995.
- 21- جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة نصر الدين أسد و إحسان عباس، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.
- 22- حسان حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897 – 1909، ط1، دار - النهضة العربية، بيروت، 1999.
- 23- حسان حلاق ، التاريخ الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي في بيروت و الولايات العثمانية في القرن التاسع عشر، ج1، الدار الجامعية، بيروت، 1987.
- 24- حسين مؤنس ، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، ط2، مطبعة حجازي، القاهرة، 1938.
- 25- حلمي مصطفى ، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 2004.
- 26- حلمي مصطفى، نكبة فلسطين، ط1، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2005.
- 27- رفيق شاعر التشبه ، السلطان عبد الحميد الثاني و فلسطين، ط1، شركة مطابع نجد التجارية، الرياض، 1984.
- 28- زهية قدورة ، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1975.
- 29- ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ط5، دار الملايين، بيروت، 1964.
- 30- سعود الفوزان كليب ، المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين و العثمانيين 1908-1918، المكتبة الوطنية (المطابع العسكرية).
- 31- سليمان بن محمد الغنام ، قراءة جديدة لسلسلة محمد علي باشا التوسعية 1811 – 1840، في الجزيرة العربية و السودان و اليونان، ط1، دار البلاء، جدة، 1980.

- 32- سهيلا سليمان الشلبي، العلاقات الأردنية-البريطانية 1951-1967، ط1، مركز الدراسات، الوحدة العربية، بيروت، 2006.
- 33- سيار الجميل ، تكوين العرب الحديث، دار الشروق، الأردن، 1997.
- 34- صالح محمود منسي ، الرشق العربي المعاصر، مكتبة الاسكندرية، 1990.
- 35- صقر جوزيف ، قصة و تاريخ الحضارات العربية (لبنان)، بيروت، د.ت.
- 36- عادل جامد الجادر ، أثر قوانين الانتداب البريطاني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1976.
- 37- عادل حسين غنيم، الحركة الوطنية الفلسطينية من 1917-1936، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.
- 38- عادل مناع ، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (1800-1918)، ط2، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1995.
- 39- عبد الرؤوف سنو ، النزاعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية 1877 - 1881، (بلاد الشام - الحجاز - كردستان - ألبانيا)، ط1، بيان للنشر و التوزيع، بيروت، 1998.
- 40- عبد العزيز سلمان نوار ، تاريخ الشعوب الاسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- 41- عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سوريا 1864 - 1914، دار المعارف، مصر، 1969.
- 42- عبد القادر محمد الخير ، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية (دراسة للقضية العربية في خمسين عاما (1875-1925)، ط1، دار التوفيق النمذجية (الأزهر)، 1985.
- 43- عبد الكريم غرايبية ، سوريا في القرن التاسع عشر، 1840 - 1876، معهد الدراسات العربية العالية، 1961.
- 44- عبد المنعم الهاشمي ، الخلافة العثمانية، ط1، دار بن حازم، لبنان، 2004.

- 45- عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث، ط2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1973.
- 46- علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ط2 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1978.
- 47- علي حسن الخربوطلي ، التاريخ الموحد للأمة العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف، 1961.
- 48- علي محمد الآغا ، الاتجاهات السياسية في لبنان (1920 – 1982)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1991.
- 49- علي معطي ، تاريخ لبنان السياسي و الاجتماعي (دراسة في العلاقات العربية التركية 1908 – 1918)، ط1، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، 1992.
- 50- عيد عاطف ، صة و تاريخ الحضارات العربية (فلسطين)، بيروت، بدون تاريخ.
- 51- عيسى عبد الرزاق عبد الرزاق، التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834 – 1914، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005.
- 52- فاتح زهدي ، لورانس العرب (تقارير لورانس السرية)، ط2، دار النفاش، بيروت، 1980.
- 53- فاضل بيات ، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، دراسة تاريخية احصائية في ضوء الوثائق العثمانية، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الاسلامية، اسطنبول، 2013.
- 54- فليب حتى ، ترجمة أنيس فريجة، دار الثقافة للطباعة و النشر، بيروت، نيويورك، 1959.
- 55- فهمي وليم ، الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، معهد البحوث و الدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 1971.
- 56- قول آغاسي، تعريب ولي الدين يكن، خواطر نيازي، أو صفحات من تاريخ الإنقلاب العثماني الكبير، مطبعة علي سكر أحمد، مصر، 1909.

- 57- الكزنذر شولش ، تحولات جذرية في فلسطين 1856 – 1882، دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ترجمة كامل جميل العسلي، ط2، عمان، الأردن، 1993.
- 58- ماري دكران ، دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني 1293 – 1325 هـ / 1876 – 1908 م، وزارة الثقافة، الهيئة السورية للكتاب، دمشق، 2010.
- 59- ماري ملزباتريك ، سلاطين بني عثمان، ط1، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، لبنان، 1986.
- 60- مجموعة من الباحثين، دراسات في القومية العربية و الوحدة، ط1، مركز الدراسات و الوحدة العربية، بيروت، 1984.
- 61- محمد بن صالح الخراشي ، كيف سقطت الدولة العثمانية ؟، ط1، دار القاسم للنشر، الرياض، 1420 هـ .
- 62- محمد حافظ يعقوب، نظرة جديدة إلى تاريخ القضية الفلسطينية، 1918 – 1948، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1973.
- 63- محمد خليفة التونسي ، الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء يهود تقديم الأستاذ عباس محمود العقاد، دار التنوير، الجزائر.
- 64- محمد سهيل طقوش ، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ، ط1 ، دار النفائس ، بيروت ، 1955.
- 65- محمد عبد الرحمن بروج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث و المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1974.
- 66- محمد عبد الله عودة ، ياسين الخطيب ابراهيم، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989.
- 67- محمد علي صلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض و أسباب السقوط، ط2، دار التوزيع والنشر الاسلامية، مصر، 2004.

- 68- محمد فريد بيك المحامي، تاريخ الدولة العلية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981.
- 69- محمد كرد ، خطط الشام ج1، دمشق، 1925.
- 70- محمد مصطفى الهلالي ، السلطان عبد الحميد الثاني بين الانصاف و الجحود، ط1، دار الفكر، دمشق، 2004.
- 71- محمود ثابت الشاذلي ، المسألة الشرقية، دراسة وثائقية على الخلافة العثمانية (1899-1923)، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989.
- 72- محمود كامل المحامي ، الدولة العربي الكبرى، ط2، دار المعارف، مصر، د.ت.
- 73- مصطفى أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، 1993.
- 74- مصطفى خالدي ، فروخ عمر، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط5، المكتبة العصرية، بيروت، 1973.
- 75- مصطفى طلاس ، الثورة العربية الكبرى، ط3، دار الشوري، بيروت، د.ت.
- 76- مصطفى كامل ، كتاب المذلة الشرقية، ط1، مطبعة الآداب، مصر، 1998.
- 77- مصطفى محمد رمضان، العالم الإسلامي في التاريخ الحديث و المعاصر، ج1، مطبعة الجيلاوي بشبرا، مصر، 1985.
- 78- مفيدة محمد ابراهيم ، عصر النهضة العربية بين الحقيقة و الوهم، ط1، دار مجدلاوي للنشر، الأردن، 1999.
- 79- موقف بني المرجه ، صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني و الخلافة الاسلامية، دار الكويت للصحافة، الكويت، 1984.
- 80- ناجي علوش ، الحركة العربية القومية في مئة عام، دار الشروق للنشر و التوزيع، الأردن، 1977.
- 81- وجيه علم الدين ، العهود المتعلقة بالوطن العربي 1907-1922، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1965.

- 82- وجيه كوثراني ، السلطة و المجتمع و العمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.
- 83- وديع أبو زيدون تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إل السقوط، ط1، الاهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2003.
- 84- ياسين سويد، اللواء الركن، حروب القدس في التاريخ الإسلامي و العربي، ط1، دار الملتقى للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، 1997.
- 85- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة، عدنان محمد سليمان ، المجلد الثاني، شركة الهلال للطباعة ، اسطنبول، 1990،
- 86- يوسف بيك آصاف حضرة عزتو ، تقديم محمد زينهم محمد عزب، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

- 1- Ali Marad, L'empire ottoman et L'europe d'après les pensées et souvenirs du sultan Abdul-Hamid 2 (1876 – 1909), édition publisud, Paris, 2007.
- 2- Ali Merad, Lislam contemporain, que sais-je ?, 5^{eme} édition, presse universitaire, France, 1995.
- 3- Aliabu-AL-Assan, La palestine-Arabe sous occupation sioniste, 1^{ere} édition, EL-moustakbal, presse Beyrouth, 1991.
- 4- Alikazomcigil et Ergur Ozbudun, Attaturk Fondateur de la turquie moderne, édition Masson, France, 1984.
- 5- Dimitri Kitsikis, L'empire ottoman, presse universitaire, Paris, 1994.
- 6- Domonique Soudrel, Histoire des Arabes 5^{eme} édition, Fayard, France, 1994.

- 7- Dominique Chevallier et André Miquel, Les Arabes du message à l'histoire, Fayard, Paris, 1995.
- 8- Edmond Taylor, la chute des empires 1914 – 1918, traduit Albert vulliez, édition Fayard, France, 1964.
- 9- Edmond Taylor, la chute des empires 1914 – 1918, traduit Albertvulliez, édition Fayard, France, 1994.
- 10- George François , les combats d'attaturk , revue Histoire , n 289 , paris , juillet-aout 2004.
- 11- Gerard De Gearge, Damas des ottomanà nos jour, édition l'Harmattan, Paris, 1994.
- 12- Jean – Pierre Amem et Patric Bourrat, Le Liban que Sais Je ? presse universitaire, France, 1991.
- 13- Jean Paul Garnier, la fin de l'empire ottoman, édition plon, Paris, 1973.
- 14- Maurice Konopniki, Eliezer Ben Rafail, que sais-je, presse universitaire, France, 1987.
- 15- Michel Mourre, Dictinnaire encyclopédique d'histoire, édition universitaires, Paris, 1978.

الرسائل الجامعية

- 1- جيهان بنت ابراهيم شار علي عبد الرحيم، الآثار السياسية والحضارية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام (1324 – 1359 هـ / 1924 – 1939 م)، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي الحديث والمعاصر، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2011.
- 2- عبد العزيز لعميد ، الشيخ الطاهر الجزائري ودوره الإصلاحى فى المشرق العربى (بلاد الشام نموذجا) 1268 – 1338 هـ / 1852 – 1920، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير فى التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2001.

- 3- غانية بعيو ، التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجا 1839 - 1876، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008 - 2009.
- 4- هيلة بنت سعد بن محمد السليمي ، دور اليهود في اسقاط الدولة العثمانية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة أم القرى، 2001.
- 5- يوسف بن يزة ، الدولة والطائفية في عصر العولمة، دراسة في بنية الدولة العربية الحديثة - لبنان أنموذجا -، أطروحة مقدمة لنيل درجو الدكتوراه علوم، قسم العلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012 - 2013.

الملتقيات والمؤتمرات:

- المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام 1516-1930، ج2، جامعة دمشق، 1979.
- 1- د/ أحمد مروان تاج السر ، دور السوريون في ظهور الحركة القومية العربي و تطورها 1900-1914.
- 2- د/ جيهاد مجيد محي الدين، المقاومة العربية في بلاد الشام و جمال باشا 1915-1916.
- 3- د/ علي المحافظة، التيارات السياسية في فلسطين عصر النهضة (1850-1925).
- 4- د/ مصطفى كريم، المنافسة الامبرالية الفرنسية الانجليزية و الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان.
- بحوث المؤتمر الدولي حول القدس في العهد العثماني دمشق 22-25 جوان 2009، استانبول، 2012.
- 1- أ.د/ عمر الدقاق ، النهضة العمرانية في بلاد الشام أواخر العهد العثماني (القدس وحلب نموذجا).
- 2- أ.د/ فاضل بيات ، ظاهرة انتشار التعليم في القدس في ضوء التنافس العثماني الأجنبي.
- 3- د/ أسماء الشيخ خليل رمضان ، إسكان عربان "بئر السبع" في جوار القدس في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.
- 4- د/ سعيد يوسف النتشه ، صور القدس: أهميته و خصائصه و الأساطير المرتبطة به.

- بحوث المؤتمر الدولي حول المشروطية الثانية في الذكرى المئوية، استانبول، 7-10 ماي 2008، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الاسلامية، أريسكا، استانبول، 2012.
- 1-د/ عبد الواحد مشعل ، الأفكار الدستورية و أثرها في العلاقة بين الدولة و المجتمع في العهد العثماني: رؤية اجتماعية تحليلية.
- 2-أ.د / فاضل بيات، القانون الأساسي و جمعية الاتحاد و الترقى في منظور الشيخ محمد رشيد رضا.
- بحوث الندوة الدولية المنعقدة في دمشق 26-30 سبتمبر 2005، بلاد الشام في العهد العثماني.
- 1- عبد العزيز رافق ، الاقتصاد الدمشقي و الرأسمالية الأوروبية في القرن التاسع عشر.
- 2- نجوى عثمان زمهندست، مشاريع البنية التحتية في حلب أواخر العهد العثماني.
- 3- عبد العزيز عوض ، نظام الأرض في ولاية سوريا 1839-1914.
- 4- زكريا قورشون ، الدعم اللوجستي و تأمين طريق الحج: الترميم و الحفاظ على الآبار والقلاع الموجودة على طريق الحج بين الشام و المدينة المنورة في القرن التاسع عشر.
- منشورات مركز الدراسات و البحوث العثمانية الموريسيكية و التوثيق، تونس، 1988.
- 1-رباح أبي حيدر ، سببية الهجرة الاسلامية من جبل لبنان اتجاه و لاية الشام في القرن التاسع عشر.
- 2-مسعود ضاهر ، الحركة السكانية في المشرق الغربي أواخر العهد العثماني نموذج العجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر.

الدوريات:

- 1- إبراهيم فاعور الشرعة ، "موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي و الخط الحديدي الحجازي في القرن العشرين"، مجلة الدارة، ع4، تصدر عن إدارة الملك عبد العزيز، شوال 1436هـ.
- 2-أمين أبو بكر ، "ملكية السلطان عبد الحميد الثاني في فلسطين (1876-1937)"، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد 17، (المكان) كلية العلوم الإنسانية، 2003.

- 3- توفيق برو ، "نظرات في نشوء فكرة القومية العربية"، مجلة ستيرتا، ع4، معهد العلوم الإجتماعية، قسنطينة، 1980.
- 4- حسان الحلاق ، "العلاقات التاريخية بين مصر و لبنان"، مجلة العلوم الانسانية، ع1، جامعة بيروت، أغسطس 1999.
- 5- شفيق محسن: "المسألة الشرقية الإمتيازات الأجنبية و تأثيرها في المبراطورية العثمانية"، الإجتهد، ع 44، دار الاجتهاد، بيروت، 1999.
- 6- طالب هيثم محي الجبوري ، زينب حسن الجبوري: "أثر حركة الاصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر"، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مجلد 23، ع3، 2015.
- 7- عبد العزيز عوض ، "الإدارة العثمانية في ولاية سوريا"، الإجتهد، ع 44، دار الاجتهاد، بيروت، 1999.
- 8- عبد الكريم رافق ، "الهوية و الإنتماء في بلاد الشام في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، العددان 81-82، جوان 2003.
- 9- عبد الكريم مشهداني ، "تركيا الفتاة و ارتباطاتها المشبوهة اليهودية العالمية"، مجلة المنعطف، العددان 3-4، وجدة، المغرب، 1992.
- 10- عزام التميمي ، "مشروع الشرق الأوسط الكبير أو وجه جديد للإستعمار"، مجلة رؤى، العدد 21-22، مركز الدراسات الحضارية باريس، 2004.
- 11- محمد أحمد، "الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876-1918)"، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، ع الأول و الثاني، 2011.
- 12- محمد الأرنؤوط ، "علماء دمشق و الحكومة الفيصلية (الدولة العربية 1918-1920)"، مجلة دراسات تاريخية، العددان 81-82، جوان 2003.
- 13- محمد الأرنؤوط ، "علماء دمشق و الحكومة الفيصلية / الدولة العربية 1918-1920"، مجلة دراسات تاريخية، العددان 81-82، جوان 2003.

- 14- محمد الأرناؤوط، "علماء دمشق و الحكومة الفيصلية (الدولة العربية 1918-1920)"،
مجلة دراسات تاريخية، العددان 81-82، جامعة دمشق، جوان، 2003.
- 15- محمد الصغير بن الأعلام ، "مراحل الهجرة اليهودية إلى فلسطين"، مجلة القبس، العدد 2،
الجزائر، 1967.
- 16- محمد مراد، المجال العربي في السلطنة العثمانية، الاجتهاد، ع 44، دار الإجتهد، بيروت،
1999.
- 17- محمد مصطفى الطحان ، "مشروعات إصلاح أم هيمنة استعمارية جديدة؟"، مجلة رؤى،
العدد 21-22، مركز الدراسات الحضارية لباريس، 2004.
- 18- محمود الأرناؤوط ، "الشيخ الطاهر الجزائري رائد النهضة الفكرية الحديثة في بلاد الشام"،
مجلة الأصالة، ع 67، مارس 1979.
- 19- نقولا زيادة، "الفتح العثماني لبلاد الشام و آثاره المباشرة"، مجلة الاجتهاد، ع 44، دار
الاجتهاد، بيروت، 1999.
- 20- نقولا إي فانوف، "الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574"، ترجمة يوسف عطا
الله، مجلة الإجتهد، العدد 44، دار الإجتهد، بيروت، 1999.
- 21- وجيه كوثراني ، "التنظيمات العثمانية و الدستور: بواكير الفكر الدستوري نصا و تطبيقا
ومفهوما"، مجلة تبين، ع3، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، الدوحة، قطر،
مارس 2013.
- 22- ورنيز أند، "الوطنيون العرب و نشاطهم السياسي و الصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب
العالمية الأولى"، الأصالة، ع 52، ديسمبر 1977.

المقالات باللغة الفرنسية:

- 1- George François, les combats d'Attaturk, revue histoire,
n° 289, Paris, 2004.

القواميس والمعاجم

- 1- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي و الحضارة الاسلامية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1990.
- 2- حسين مجيب المصري ، معجم الدولة العثمانية، ط1، دار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004.
- 3- عبد الوهاب الكيالي ، الموسوعة السياسية، ج8، ط3، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1995.
- 4- محمد العريس، موسوعة التاريخ الاسلامي (العصر العثماني)، دار اليوسف، بيروت.
- 5- مفيد الزيدي ، موسوعة التاريخ الاسلامي العصر العثماني 1516 – 1916، دار أسامة للنشر و التوزيع، الأردن، عمان، 2009.
- 6- الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثالث، ط2، الجمعية المصرية لنشر المعرفة و الثقافة العربية العالمية، دار الجيل، مصر، 2001.

المواقع الإلكترونية:

- 1- اسماعيل نوري الربيعي، موقف المثقفين العراقيين من الانقلاب العثماني 1908-1914، مجلة العلوم الانسانية، العدد 28، 2006 www.uluminsania.net
- 2- عبد الرؤوف سنو، السلطان عبد الحميد الثاني والعرب، 2005، www.abdelraoufsinno.com
- 2- علي شكيب، حركة الوعي القومي في بلاد الشام في أواخر الحكم العثماني، www.attarikh-alarabi/ma/hun/
- 3- محمود سليمان، السمات العامة للقرن التاسع عشر في طرابلس، www.toukatripoli.com

- 4- نعمان عاطف عمرو، مظاهر الوعي بالقومية العربية في فلسطين حتى 1920، أكتوبر
www.qou-edu/arabic/untitledr10_drNuamanAmro،2008
- 5- الناصر معتصم ، دور المسيحيين في الحركة الوطنية الفلسطينية 1918-1940، العدد 38،
www.ulum.NL، 2008
- 6- فدوى نصيرات، السلطان عبد الحميد الثاني و دوره في تسهيل السيطرة اليهودية على فلسطين
1876-1909،
www.caus.org/b/pdf/emagazineArticles,mustaqbal_422_Fadwa_
nsirat

الفهارس

- فهرس الأعلام

- فهرس الأماكن و البلدان

- فهرس المحتويات

أولا: فهرس الأعلام

العلم	الصفحة
أ	
إبراهيم الجوهري	153
إبراهيم الحوراني	143
إبراهيم اليازجي	144-143-141-78
إبراهيم باشا	12-13-15-16-17-18-20-21-22-25-36-42-51-85-95-89-170
إبراهيم تيمو	265
إبراهيم مردم	225
إبن الرشيد	250
أبو الهدى الصيادي	83-134
أبو غوش	26
أحمد أرسلان	42
أحمد آغا بيك	201
أحمد أفندي	
أحمد الصلح	79-153-154-155-156
الحسين الشافعي	95
أحمد أمين	137
أحمد باشا	153
أحمد بك قاروط	13
أحمد بيك شيخ العربان	18
احمد ايوب باشا	85-148
أوليفانت	175
أحمد حمدي باشا	83-85-89-123-147-148-169

148	أحمد راتب باشا
272-158-150	أحمد رضا
190	أحمد شكري
239-195	أحمد طبارة
292	أحمد عارف
154-153-119-118	أحمد عباس الأزهرى
201-128-127-83	أحمد عزت باشا
225	أحمد قدرى
243-239-234-230	أحمد مختار بيهم
145	أحمد مهدي الأيوبي
313	ارستيد بريان
230-229	أدهم بك
280	إدوارد جراي
173	أدولف كرامية
275	الأرميني آرام باشا
136	أرنولد توينبي
152	إسحاق سكوتي
176	اسحق بن زفي
127	أسعد أفندي
253	اسعد الشقيري
275-116	أسعد باشا
259	اسعد حيدر
277	اسعد طوبتاني
125	أسكار ستراوس
86	إسكندر التويني
231	إسكندر عازار
307-236-235-232-221	إسكندر عمون

227	إسماعيل الصفار
16	اسماعيل بك
29	اسماعيل سرهنك
204	أغوزا
115	آل الأحدب
42	آل الجندي
222	آل الخازن
115	آل الرفعي
115	آل الزغي
83-47	آل العظم
115	آل العلمي
115-114	آل الغزي
115	آل القباني
258-31	آلاي بيك تحسين
218	الفرد سرسق
308-306-303-302-291-209-164	آلنبي
209-277-295-243	إلياس الحويك
143	إلياس حبالين
202	إلياس مطر
177	أليعازرين يهوذا
192	أمير أرسلان
143	أمين أبو خاطر
220-139-85	أمين أرسلان
229	أمين لطفي
143	أمين مغغب
221	انطوان جميل
68	انفلهارت

138	أنور الجندي
-252-251-250-249-246-240-224-219-202 293-288-286-278-273-266-261-260-254	أنور باشا
114	أوغستا فكتوريا
19	أوغنسنت فالين
87	أومانس كويومجين
259-258-251-87	اوهانس قوجيان
24	الأيرل رشافتييري أوف
204	إيشلد أقرأ
185	إيمانويل قوصو
276	أيوب صبري
ب	
42	الباروني
60-58-23-19-18	بالمرستون
300	بدر الدين
208	بستراوس
255	بحافظ العيد
125	بسنغر
310-309	بشارة الخوري
143	بشارة زلزل
18-13	بشير الشهابي
140-59-57-53-41	بطرس البستاني
194	بطرس داغر
259	بكر سامي
137	بلانش
304-296	بلغور
317	بنتويش

36	بوریه
287	بریوند
289	بول کان بون
303	بولز
23	بونسنی
62	بیرستون قادرین
234	بیشون
ت	
280-245	تاج الدین الحسني
187	تحسین باشا
42	الترکمانی
318-167	تشرشل
177	توفیق الخدیوی
272-83	توفیق بیك
294-225	توفیق یوسف السویدی
62	تیر شکان
62	تیرمز کان قدین
204	تیمورا
ث	
52	ثومال
-189-187-186-185-184-183-180-176-171 208-190	ثیودور هرتزل
ج	
155	جابر آل الصفا
186	جال لیون
269	جاهد طانیول
276-207	جاوید بیك

215-141-138-137-136-72	جمال الدين الأفغاني
203-293	جمال الصغير
-232-229-228-226-219-214-203-202-150 -252-251-250-249-248-246-243-241-240 -262-261-260-258-257-256-255-254-253 -293-292-290-288-287-284-278-267-263 297-296	جمال باشا
219	جميل الحسيني
118-85	جميل باشا
225	جميل مردم
62	جميلة الأميرة
206	جنكيزا
273	جركس محمد علي بيك
275-273-215	جواد رفعت اتلخان
157-156-145-144	جودت باشا
314	جورج بونيه
309-283	جورج بيكو
246-218	جورج سمّة
310	جورج كليمونصو
141-128	جورجي زيدان
310	جولد مايز
278	جون هاسلب
145	الجوهري (عائلة)
19	جيزو
ح	
154	الحاج إبراهيم الأزهرى
79	الحاج حسين أفندي

231-230	حازم بك
310-304-301-300-279-185	حاييم ويزمان
208	حاييم ناحوم
310-222-200	حبيب باشا السعد
221	حبيب يزبك
319	حسين بن طلال
220	حسن حمادة
145	حسن فاتر الحابي
294-156-153	حسين بيهم
203	حسين جاهد
272	حسين حلمي باشا
-247-246-245-244-243-242-137-111-93 -281-265-263-260-252-251-250-249-248 -294-293-289-288-287-286-285-284-282 320302-318-307-306-303—298-296-295	حسين شريف مكة
148	حسين فوزي
104-86-83-31	حسين ناظم باشا
153	حسن تقي الدين الحصني
232-220	حقي العظم
210-201-83	حقي باشا
277	حكمت باشا
118	حمزة مفتي دمشق
221	حيدر معلوف
17	حافظ باشا
خ	
280	خالد الحكيم
114	الخالدي

58	خليل الخوري
317-315	خليل الساكيني
209	خليل باشا
114-47	خليل حمادة باشا
192-159-85	خليل غانم
254	خلوصي بك
244-221	خير الله خير الله
265	خيري افندي
د	
56	دانيال بلاس
221	داود بركات
271	درويش
62	دورية
243	دومرغ
263-176	ديفيد بن قريون
187	ديفيد والفنسون
180-146-145	ديكسون
ذ	
ر	
173	رافيد ليو فنتين
231	رزق الله أرقش
128-104-86	رستم باشا
67-64	رشدي باشا
63-44	رشيد باشا
197	رشيد بيك مطران
307-261-232-226-216-209-205-203-196	رشيد رضا
270	رامزور

128	رضا عنجوري
259-258	رضا باشا
307-232-218-150	رفيق العظم
219	رفيق سلوم
218	روبير دوكة
-281	رونالد ستورس
178-177-132-83	رؤوف بيك
ز	
189	زاد وك
273	زاهد باشا المبل
231	زكريا طبارة
257	زكي بك العظمة
252	زكي بيك الحلبي
س	
207	ساطع الحصري
89	سامي باشا
258-231	سامي بيك
288	سانت كوانتين
212	ستراوس
104	سترسن
212-104-96	سرسق (عائلة)
89	سعد الدين خليل
309-243	سعيد الجزائري
210-209	سعيد الحسيني
255	سعيد الكرمي
273-269-89	سعيد باشا

248-228	سعيد حليم باشا
145	سليم سرکس
250	سليم الأول
201-200-128-74-74	سليم البستاني
229-228-220	سليم الجزائري
194	سليم أيوب
201-83	سليم باشا ملحمة
222	سليم بك المعوشي
280	سليم شمة
231	سليم طبارة
255	سليم عبد الهادي
239-230-229-227-194	سليم علي سلام
143	سليم موصلي
190	سليم نصر الله الخوري
128	سليم عنجوري
83	سليمان البستاني
11-10	سليمان القانوني
124	سليمان باشا العظم
147	سينكيو يكر
ش	
19	شارل سميث
172	شافتز بري
190	شاكر باشا
286-172	شامبرلين
146	شامير
292	شاهد بن رحي العلي
143	شاهين مكاربوس

63	شريف باشا
17	الشريف بن محمد عون
118	الشريف محمود أفندي
242-212—201-83	شفيق المؤيد باشا
152	شكري الجندي
272-220-212-209-202 -158	شكري العسلي
55	شكري القوتلي
209-280-257-83	شكري باشا الأيوبي
246-218	شكري غانم
263-261-260-259-256-253-233-200-195	شكيب أرسلان
37	شكيب أفندي
154	شكيب باشا
268	شمسي بك
189	شمعون مويال
42	الشملي
154	الشيخ الأزهري
ص	
218-190-159	صادق باشا العظم
255	صالح حيدر
216-150	صباح الدين (الأمير)
294	صبح العمري
219	صفى الدين الحلبي
306-166	صلاح الدين الأيوبي
179	صموئيل مونتاجو
ض	
156	ضياء باشا
191-85	ضياء بيك الخالدي

203	ضياء كوك ألب
143	ضاهر الزغبي
ط	
201	طالب النقيب
226-215-158-123-118	الطاهر الجزائري
88	طاهر باشا
323	طلال (الأمير)
-254-249-246-240-238-209-203-202-150 293-288-277-267-261	طلعت باشا
147	الطيباوي
ظ	
144	ظاهر الزعيم
22	ظاهر العمد
ع	
220	عادل أرسلان
153	عادل الصلح
267-63	عانشيت الأميرة
158-152	عارف الشهابي
275	عارف باشا حكمت الآط
178	عباس حلمي
-71-70-69-68-67-66-65-64-63-62-60-59 -90-88-86-85-83-81-77-76-75-74-73-72 -106-105-103-102-100-99-98-96-93-92 -115-114-113-112-111-110-109-108-107 -129-128-127-126-125-123-122-121-117 -144-143-124-141-139-138-136-134-133	عبد الحميد الثاني (السلطان)

-156-155-152-151-150-149-148-147-145 -176-174-171-170-169-167-166-160-159 -187-184-183-182-181-180-179-178-177 -202-201-198-195-194-192-191-190-189 -269-267-266-265-226-218-215-208-207 -278-277-276-275-274-274-273-271-270 324-323-322-284-280-279	
241-240-239-235-234-227-220-219-158	عبد الحميد الزهراوي
257	عبد الحميد القلطقي
76	عبد الرحمان الكواكي
253	عبد الرحمن الأنصاري
223-161	عبد الرحمن البزار
160-150-149-143-142-141-87	عبد الرحمن الكواكي
237	عبد الرحمن بك اليوسف
307-208-254-243	عبد الرحمن شهنادر
155	عبد الرؤوف سنو
-268-133-64-63-58-34-29	عبد العزيز (السلطان)
237	عبد العزيز الجاويش
284-243-236-225	عبد الغني العريسي
157-156-155-154-153-83-79	عبد القادر الجزائري (الأمير)
255	عبد القادر الخرنساء
246	عبد القادر الخطيب
253	عبد الكريم الحسيني
280-253-240-255-220-219	عبد الكريم خليل
172	عبد اللطيف شكري باشا
169	عبد اللطيف صبحي باشا

عبد الله الأمير	283-284-286-287-289-290-292-300-302-317-322-323
عبد الله بن الحسين	246-249-252-255
عبد الله جودة	152
عبد المجيد (السلطان)	18-23-58-60
عبد المحسن الأسطواني	245
العجلان	114-115
عزت باشا	82-186-220
عزيز بيك	195
عزيز علي	220-228-243-283-284
عزة الجندي	220
علي أفندي	190-281
علي أفندي النشاشيبي	220
علي الحر	154
علي بن الحسين	248-252-253-255-
علي حيدر	287-288
علي رضا	258-284
علي عسيران	153-154
علي لارمنازي	255
علي محمد الملحم	294
علي منيف بك	261
علي يوسف	195
عمر باشا المجري	42
عمر باشا النمساوي	25
عمر فوزي باشا	156
عوني عبد الهادي	225

غ	
287-249	غالب باشا
138	غراي اللورد
36	غسان سلامة
319	غلوب
312-306-60	غورو الجنرال
182	غوش اللورد
64	غيوم الأول
166	غيوم الثاني
ف	
257	فارس الخوري
59	فارس الشديلق
192-143-128-127	فارس النمر
182	فامبري
227	فائق شاكر
267	فتحي بك
22	فخر الدين المعني
189	فرح أنطوان
64	فرنسوا جوزيف
86-53	فرونكو باشا
151	فريتز شتبات
303	فلاديمير يابو دينسكي
257-252-251-249-58-42-38-37	فؤاد باشا
-287-285-284-257-251-49-29-248-226-111 -298-297-295-294-293-292-291-290-289 313-312-311-310-309-308-307	فيصل الأمير بن الحسن
64-38	فيكتوريا

301	فيليب كريفاس
311	فيليكس فرانكوفرتز
ق	
25	قاسم الشهابي
280-276-275	قرصوه
245	قوجه
ك	
223-190	كاظم بيك
306	كاتروا
259	كامل أسعد
229-221	كامل باشا
138	كرومر
152	كريم خليل
175	الكسندر الثاني
226	كمال باشا
121	كمال خليل
200	كنعان الظاهر
86	كوبيليان
244-241	كوجة
306	كوكسن
227	كولوندر
304-281	كيتشنر
303-282	كليبتون
279-266	كمال اتاتورك
ل	
168-144	لايارد ساليزوري
270-211	لوثر

50	لور تات
310-306-294	لورانس
301	لويس برانديس
-21	لويس بلان
289	ليرمان فون ساندرز
م	
302-295-286-283-282-249	ماكماهون
191	ماير زيلون
194	مترى قبطاي
145	المجذوب (عائلة)
152	محب الدين الخطيب
271-59	محمد ارسلان (أمير)
97	محمد الطاهر الحسيني
255	محمد المحمصاني
135	محمد المهدي السنوسي
155-154-153	محمد أمين
231	محمد جميل بيهم
225	محمد رستم
-292-279-277-250-248-244-197-64	محمد رشاد
189-150-139	محمد رشيد رضا
209	محمد روجي خالدي
245	محمد أبو الخير عابدين
255	محمد مسلم عابدين
282	محمد شريف الفاروقي
275	محمد ضياء
95	محمد عارف أفندي
215-141-138-111	محمد عبده

83	محمد شوكت
83	محمد فوزي العظم
293	محمد سعيد الجزائري
-22-21-20-19-18-17-16-15-14-13-12-11 -194-161-156-60-58-53-50-28-25-24-23 223-322	محمد علي باشا
253-243-210-59	محمد كرد علي
270	محمد محمد حسين
255	محمد نجا العجم
278-83	محمود أبو الشامات
276-18-15-14-13-11	محمود الثاني (السلطان)
255	محمود المحصاني
277-273-224-202	محمود شوكت باشا
-83	محي الدين باشا
96	مختار مكسين
231	مختار ناصر
283	مارك سايكس
-84-76-75-74-71-70-68-67-65-64-55-31 -123-119-118-111-110-102-100-89-88-85 -156-152-148-147-146-145-144-142-127 169-158-157	مدحت باشا
238-219	مدحت شكري
65-64	مراد السلطان
143	مراد البارودي
208	مرجانتو
185	مзраحي أفندي
232	مجي الدين الخطيب

187	مصدر داود ولفسون
190-103	مصطفى أفندي
152	مصطفى الشهابي
139	مصطفى القلاييني
190	مصطفى القنواقي
191	مصطفى خليل
68	مصطفى رزيت باشا
215	مصطفى طوران
138	مصطفى كامل
194	مصطفى نجح
105	مظفر باشا
-86	مظفر باشا
143	ملحم فليحان
194	منح رمضان
153	منح صالح
190	موسى خانكر
256	موسى كاظم
183	موشي ليفي
175-28-27	مونتيفيوري
307	ميشيل لطف الله
ن	
64	نابليون الثالث
255	نايف تلو
59-41	ناصر اليازجي
75	نافع أفندي الجابري
68-65	نامق كمال بك
274-271	ناظم باشا

205	نجم الدين منلا بيك
190	نجيب أفندي
191	نجيب الياسين
37	نجيب باشا
201-83	نجيب بيك ملحمة
276	نجيب دراغا
218	نجيب طراد
190-141-76	نجيب عزوري
211-189	نجيب نصار
197	نحلة مطران
229	نخلي تويني
246-237	ندرة مطران
202	نسيم مزلياج
201	نصيف المؤيد
86	نعوم باشا
236	نعوم مكرزل
255	نور الدين القاضي
288	نوري السعيد
278-273-268-267-266	نيازي بيك
75	نيقولاي نوفل
182-181	نيو لنسكي
هـ	
139	هانوتو الفرنسي
318-316-315	هربرت صموئيل
312	هنري غايار
96	هنري لامنس اليسوعي
300	هرتنبورغ

204	هولاكو
و	
114	وليم الثاني
143	وليم فاندريك
285-249-248-245-201	وهيب باشا
169	وودز
316-310-304	ويلسون
ي	
213	يحيى الأطرش
228	يحيى كاظم أبو الشرق
192-143-128-127-59	يعقوب صروف
203-201	يوسف أفشور
85-55	يوسف الدبس
222-221	يوسف السودا
257	يوسف الهاني
13	يوسف باشا
83	يوسف رامي
231-212	يوسف سرسق
189-75	يوسف ضياء الخالدي
222-221-215-200-87	يوسف فرنكوا باشا
157-142-79- 76 -41	يوسف كرم
312	يوسف العظمة
24	يوري افندي
20	يوغض بيك
191	يونس نادي

ثانيا: فهرس الأماكن و البلدان

المكان	الصفحة
أ	
أدرنة	283-14
الأرجنتين	176
الأردن	324-319- 318-263
أرضروم	272-269
أزمير	150-148-146
استانبول	-81-63 58 -55 -54 -53 -51 -41 -38 -34 -27 -13 -137 -121 -120-114-111-102 -98 -95-92-90-84 -173-169-165- 159-152 -150 -147- 146-144-142 -209- 200-196 -194 -183 -182-179 -177-175 -242- 240-230 -229 -228 -227-221- 219-218 - 270 -268 -267 -265-262-249-248 -247-245 281-280-276-274-273-271
الأستانة	-251-239-220-216 -209 -196-182 -179-137 -85 272
إسرائيل	328-323-321- 308-288 -179
الاسكندرونة	.314-312-310-299-282-168-153
الأسكندرية	.221-20
أسكوب	269
آسيا	.322-310-300-296-284-172-170-93-77-73
آسيا الصغرى	255-169-18-13
أضنة	286 -272
إفريقيا	322-300-284-240-172-170-73
ألبانيا	277-276-267
ألمانيا	-249-246-245-221-171-170-169-166-93-64-24

303-300-280-266	
307-301-221-214-127-124	أمريكا
31	أمريكا الشمالية
297-262-259-257-255-253-240-127-32	الأناضول
-137-124-85-72-70-68-65-64-62-45-31-30-19 -306-300-289-283-282-270-259-221-160	إنجلترا
21-17	أنطاكيا
150	الأنيان
268	أوخريدا
-109-107-100-93-79-77-73-72-69-64-50-23 -171-170-169-161-159-154-135-134-127-110 -265-245-235-234-221-213-212-211-179-172 307	أوروبا
302-49	أوروبا الشرقية
111	أوروبا الغربية
176-172	أوغندا
286-137	إيران
295-281-266-221-212-169-124	إيطاليا
314-307-286-170-168-167-159-109	البحر الابيض المتوسط
307-287-286-94	البحر الأحمر
172-105-88	البحر الميت
223	البرازيل
244-231-230-166	البصرة
82-48-42	البقاع
190-89-44	البلقاء
315-252-229-204-154-135-115-92-81-35	البلقان
99	الجبل الأسود
137	الجزائر

94	الجزيرة العربية
-247-245-244-239-167-151-149-82-110-95-76 -288-287-286-285-281-252-251-250-249-248 311-310-307-296-294-290-289	الحجاز
286	الخليج العربي
175-165-104-101-15-12	الخليل
286-255	الداردانييل
112	الرقعة
297-272-99-73	الروملي
324-240	السودان
314	السوديت
70-14	السويد
89	السويداء
-31-26-25-24-22-21-20-19-17-15-14-13-11-10 -47-46-45-44-42-41-40-39-38-37-35-34-33-32 -78-77-76-74-66-62-60-59-58-57-56-52-50-48 -109-108-100-99-98-95-94-89-88-83-82-80-79 -127-126-125-124-119-118-117-113-112-111 -151-146-142-141-140-137-135-134-133-129 -163-161-160-159-158-157-156-155-154-153 -208-197-195-194-192-188-169-168-166-165 -242-241-233-232-230-226-223-217-216-214 -291-290-285-277-267-265-262-255-247-246 324-323-322-320-313-311-306-298	الشام
317-172-93	الشرق الأوسط
289	الطائف
278	الطليان
-233-231-230-226-223-219-166-151-99-76-44 -308-298-294-289-286-284-283-265-250-247	العراق

320-319-313-311	
267	العريش
239	العسير
308-307-291-290	العقبة
-288-287-282-234-226-220-150-142-98-59-58 309-302-296-294	القاهرة
-80-77-75-54-34-33-32-27-26-23-16-12-11-10 -114-113-110-108-101-97-92-91-90-86-82-81 -165-164-162-161-154-127-126-125-120-115 -187-185-184-182-179-177-176-175-171-170 -277-267-259-251-249-209-191-190-189-188 318-314-308-306-305-296-291-290	القدس
168- 141	القرم
293-271 -93 -72	القسطنطينية
286	القفقاس
105	القنيطرة
305	الكرديستان
125-114-91-89-56-44-33-32	الكرك
-299-277-271-154-150-126-109-86-41-33-32 312	اللاذقية
286	المحيط الهندي
251-248-247-113-95-94-90-86-60	المدينة المنورة
110	المزريب
265	المشرق العربي
134	المغرب العربي
305-228-82	الموصل
212-101-81-29	الناصره
303-249-221-165-64-39-30-19	النمسا

289-284-172-171-168-167-14	الهند
305-304-301-300-233-219-208-175-170-50-44	الولايات المتحدة الامريكية
252-244-239-151-82	اليمن
41-12	اليونان
ب	
-199-197-165-163-159-152-151-150-149-45 -238-237-234-233-231-223-220-218-216-205 322 -319-310-309-301-268-267-265-263-239	باريس
280-189-185-181-176-173	بازل
300-162-157-156-154-73-24	برلين
169-157-39-30-19	بروسيا
-91-88-60-39-38-36-24-23-22-20-18-17-16-14 -150-147-145-144-142-134-111-98-95-94-93 -177-173-172-171-169-168-166-163-158-153 -247-246-245-237-233-228-225-192-182-178 -285-284-283-282-281-280-279-263-261-249 -305-304-303-301-300-299-298-296-295-286 323-322-319-318-315-314-311-310-309-306	بريطانيا
256-231-105-82	بعلبك
319-298-231-230-228-166-118-99-82	بغداد
68-64	بلجيكا
177	بلغاريا
82	بن غازي
64	بوداييست
302	بولندا
101-92-91-90	بئر السبع
-51-50-41-40-38-36-34-33-32-29-21-19-17-13 -98-92-91-82-80-78-77-75-59-58-57-56-53	بيروت

-119-118-115-112-111-110-109-108-104-101 -147-146-145-144-143-142-140-127-122-120 -200-194-161-159-158-156-154-153-149-148 -221-218-217-216-214-213-209-206-204-202 -241-234-232-231-230-229-226-225-224-222 -272-267-260-259-258-257-256-254-247-244 310-309-307-297-283	
ت	
96	تبوك
240	تراقيا
-207-206-199-187-186-176-169-152-148-72 -279-270-260-244-243-242-237-233-229-211 316-314-303-293-285-283-281-280	تركيا
314	تشيكوسلوفاكيا
99	تكريت
73	تونس
ح	
41	حاصبيه
-56-55-54-34-32-21-20-19-17-16-14-13-11-10 -121-118-112-111-109-108-104-98-92-82-58 -308-299-283-282-272-230-206-197-154-126 313-312	حلب
-109-107-106-105-104-90-57-48-42-33-32-13 283-282-256-154-129-111	حمّاه
283-282-154-124-110-109-104-90-57-42-13	حمص
-110-109-90-89-88-42-38-34-32-20-17-16-15 324-203-200-169-154-120-114-113	حوران
-190-189-188-176-170-169-128-126-101-81 210-191	حيفا

ج	
255	جبال القوقاز
312-154	جبل الدروز
312	جبل العلويين
157	جبل لبنان
287-14	جدة
265	جنيف
256-100-81	جنين
د	
122-111	درعا
153	دمر
-44-42-41-39-38-37-33-32-29-28-21-16-11-10 -94-92-89-88-82-79-77-59-58-55-50-48-47-45 -111-110-109-108-107-106-105-104-100-98-95 -144-143-142-121-119-118-116-115-114-113 -159-158-155-154-153-151-150-149-146-145 -210-209-206-204-199-197-196-169-166-164 -241-237-231-230-228-226-225-220-216-214 -262-260-256-255-254-253-251-249-247-245 -293-292-290-287-285-283-282-278-273-266 324-313-312-310-309-299-297-295-294	دمشق
310-272	ديار بكر
112-82-81	دير الزور
83-56-41-38	دير القمر
ر	
41	راشيا
103	رفح
-137-93-79-49-39-29-24-22-20-19-17-14-13	روسيا

-277-275-261-259-245-221-175-171-168-167 314-305-302-300-296-295	
301	روما
245-177-173	رومانيا
ز	
41	زحلة
س	
-274-273-272-269-268-267-266-265-221-83 279-277-276	سالونيك
273	سان ستيفانون
-39-36-34-33-32-31-21-20-19-18-15-14-11-10 -58-57-53-52-50-49-48-47-46-45-43-42-41-40 -91-90-89-88-85-84-83-81-80-79-78-77-75-59 -115-110-109-108-107-105-104-102-100-99-93 -151-148-147-145-143-142-140-133-121-120 -165-164-163-161-158-157-156-155-154-153 -201-199-197-196-195-174-169-168-167-166 -229-227-226-223-219-217-215-214-213-206 -252-250-248-247-246-243-241-234-233-232 -282-277-263-262-261-260-258-257-254-253 -296-295-294-293-291-289-288-286-285-283 -315-314-312-311-308-307-303-299-298-297 324-323-319-318-316	سوريا
269	سيرسي
317-281-252-247-91	سيناء
ش	
313-311-179-104-96-95-91-90-44-16	شرقي الأردن
298-296	شمال إفريقيا

324	شمال الأردن
ص	
245	صربيا
175-101-81	صفد
13	صور
-144-126-108-92-77-57-56-32-29-27-14-13 213-149-147-146-145	صيدا
ط	
175-105-101-96-81	طبرية
-92-82-75-58-41-38-33-32-19-14-13-11-10 -195-155-149-144-143-126-125-110-108-107 278-231-213-196	طرابلس
57	طرابلس الشام
212	طرابلس الغرب
101-81	طولكرم
ع	
230-190-126-81-80-41-33-32-29-19-14-13-12	عكا
105	علجون
297-90	عمان
غ	
240	غاليبولي
292-291-188-120-103-101-92-91-88-27-11-10	غزة
ف	
-86-85-68-64-51-45-39-36-29-24-22-20-17-13 -168-167-165-163-162-161-160-147-108-93-88 -233-230-229-222-220-214-207-192-191-169 -261-259-257-246-245-244-243-241-237-234 -304-300-299-296-295-289-288-287-284-282	فرنسا

-323-322-315-314-313-311-310-309-306-305 324	
-81-80-66-49-29-27-24-23-22-18-15-12-11-10 -161-140-125-116-114-104-102-98-97-92-83 -188-187-186-185-184-183-165-164-163-162 -212-211-210-209-208-202-192-191-190-189 -277-276-263-262-250-246-243-241-240-213 -301-300-298-293-292-291-289-283-280-279 -315-312-311-308-307-306-305-304-303-302 320-319-31-317-316	فلسطين
265	فلورنسيا
212	فيينا
ق	
244-176-169-168-147-73-41	قبرص
286-255-254-252-248-247-172-171-167-91	قناة السويس
ك	
1156-19	كريت
269	كوسفو
ل	
-40-39-38-37-36-31-30-29-28-22-18-12-11-10 -99-87-86-82-78-60-57-56-54-53-52-51-42-41 -160-151-143-142-128-127-126-124-122-102 -201-200-195-192-190-168-167-165-163-161 -224-222-221-220-219-217-215-214-213-202 -255-254-253-246-244-243-242-235-233-227 -286-285-283-282-277-262-261-259-258-257 -314-313-312-311-310-309-308-299-298-294 324-323-319-316-315	لبنان
322-301-295-289-231-60-24-23-20-19	لندن

324-229	ليبيا
م	
172	مدغشقر
286-283-282	مرسين
-85-77-73-66-59-58-45-41-21-20-19-14-13-12 -147-145-141-138-134-133-129-128-127-92-91 -208-192-177-172-169-168-167-157-156-154 -245-243-240-232-231-227-220-219-215-214 304-298-288-248-247	مصر
293-114-111-96-95-91-60-44-33-32	معان
268-267	مقدونيا
-281-250-248-242-225-151-149-137-113-93-76 294-289-288-287	مكة
269-268-266	مناسستير
ن	
-126-113-104-101-81-80-44-41-33-27-15-14 230-227-188-165-154	نابلس
252-151	نجد
316-315-299-105-103	نهر الأردن
223	نيويورك
هـ	
188	هامبورغ
324-317	هضبة الجولان
و	
296	وادي النيل
302	واشنطن
29	ورتنبرغ الألمانية
ي	

-165-128-126-120-110-101-98-49-29-26-12 -191-190-189-188-186-179-176-175-173-171 267	يافا
---	-------------

ثالثا: فهرس المحتويات

مقدمة.....8-1

*الفصل الأول: أوضاع بلاد الشام قبل حكم السلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأول: الأوضاع السياسية و العسكرية.....11-44

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية.....45-51

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية و الثقافية.....51-60

استنتاج جزئي.....60

*الفصل الثاني: بلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأول: نشأته وتوليهِ العرش.....62-74

المبحث الثاني: الوضع الإداري و السياسي و العسكري.....74-99

المبحث الثالث: الوضع الاقتصادي.....100-113

المبحث الرابع: الوضع الاجتماعي و الثقافي.....113-130

استنتاج جزئي.....130

الفصل الثالث: العوامل المؤثرة في استمرارية العلاقات بين الخلافة العثمانية وبلاد الشام أثناء

حكم السلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأول: الجامعة الإسلامية.....133-140

المبحث الثاني: الوعي السياسي القومي العربي والتركي.....140-160

المبحث الثالث: التدخل الأجنبي.....160-170

المبحث الرابع: الهجرة اليهودية الى فلسطين (المشروع الصهيوني في فلسطين).....170-192

استنتاج جزئي.....192

*الفصل الرابع: مستقبل العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام بعد عزل السلطان عبد

الحميد الثاني

المبحث الأول: سياسة الاتحاديين في بلاد الشام.....197-215

المبحث الثاني: تطور الحركة القومية العربية.....	215-242.
المبحث الثالث: العرب و الحرب العالمية الأولى.....	242-263.
استنتاج جزئي.....	263.
*الفصل الخامس: أثر توتر العلاقات بين الخلافة العثمانية و بلاد الشام على المنطقتين:	
المبحث الأول: عزل السلطان عبد الحميد الثاني و سقوط الخلافة العثمانية.....	265-280.
المبحث الثاني: الثورة العربية الكبرى 1916 و الاتفاقيات التي عقدت خلالها.....	280-307.
المبحث الثالث: الانتداب البريطاني و الفرنسي على بلاد الشام.....	307-319.
استنتاج جزئي.....	319-320.
الاستنتاج العام.....	321-324.

الملاحق

قائمة المصادر و المراجع

الفهارس:

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن و البلدان

فهرس المحتويات.

الملاحق